

الجديد

مؤسسها وناشرها
Publisher
هيثم الزبيدي
Haitham El-Zobaidi

رئيس التحرير
Editor
نوري الجراح
Nouri Al-Jarrah

مستشار التحرير
Editorial Advisor
أزراج عمر
Azerradj Omar

شارك في تحرير هذا العدد
ابراهيم الجبين، أحمد بركاوي
خلدون الشمعة، عبد الرحمن بسيسو
بدر الدين عرودكي

التصميم والتنفيذ
القسم الفني - مؤسسة "العرب" لندن

رسامو العدد:

أسامة بعلبكي، محمد عبد الرسول
صدر الدين أمين، غسان السباعي
عبد الباسط الخاتم، سمعان خوام
فيصل لعبيبي، محمود حامد، نهاد الترك
ولاء دكاك، موفق قات، جمال الجراح
عاصم الباشا، ضياء العزاوي، عبد العزيز بن الرايس
رفيق الكامل، حسن بلان، نزار عثمان
جنان مكبي، قيس سلمان

الصور المأخوذة للمنحوتات العراقية في المتحف البريطاني
من تصوير نوري الجراح

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الإدارة والتحرير:
تصدر عن

Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن)
Kensington Centre
Hammersmith Road 66
London W14 8UD, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي

للأفراد: 60 دولاراً للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005

هذا العدد

عدد ثالث من "الجديد" حافل بالنصوص والكتابات لأقلام رافقت المجلة في عديدها السابقين وأخرى جديدة انضمت إلى الثلة المغامرة الملتفة من حول المجلة، لتوسع بمساهماتها جغرافية الكتابة أدبا ونقدا وفكرا وفناً بصرياً، في إطار مشروع فكري وجمالي يقوم على التعدد والتنوع والاختلاف، ويتطلع إلى استئناف مشروع ثقافي عربي يوسع من أفق العلاقة بين الكاتب والكتابة، وبين الكتابة والقراء، ويبرهن في الوقت نفسه، بخلاف كل التقولات، على ثراء اللحظة الثقافية العربية، وعلى مخاض فكري قلق، وإبداع عربي جديد ينتظران منبراً حراً لانطلاقتهم.

يبرهن هذا العدد بمقالاته القيمة وملفاته النقدية والفكرية الساخنة وحواراته المركزة، وكذلك بنصوصه الشعرية والقصصية ومجمل المنشور فيه على تلك الاستجابة الواسعة التي لقيها البيان التأسيسي للمجلة من قبل فئات واسعة من الكتاب والشعراء والنقاد العرب، الذين نعتز أنهم شرعوا في التواصل مع المجلة بحماسة استثنائية، وبادروا إلى الكتابة على صفحاتها والاحتفاء بها، إن في المشرق العربي أو في المغرب، فضلا عن حملة الأقلام المقيمين في المهجر والمنافي وقد اتسعت رقعة وجودهم في ظل التحولات الدامية التي يشهدها المشرق العربي.

مع هذا العدد تخطو "الجديد" خطوة واسعة في ترجمة بيانها التأسيسي مبرهنة على أهمية فكرة المراجعة النقدية التي اعتمدها في ملفاتها وحواراتها وسجلاتها، وعلى فضيلة طرح الأسئلة، لا للاطمئنان إلى الاجوبة، ولكن لاستيلاء المزيد من الأسئلة المثيرة للعقل والخيال، دون الوقوع في شرك اليقين ■

المحرر



82

إعدام التاريخ



المحتويات

العدد 3 - أبريل/نيسان 2015



الغلاف

جزء من جدارية عراقية من محفوظات المتحف البريطاني - تصوير: نوري الجراح

كُتاب في العدد

سلمى الخضراء الجيوسي

شاعرة وناقدة من فلسطين لها العديد من الآثار النقدية والترجمات وصاحبة مشروع كبير يقوم على نقل الأدب العربي إلى الإنكليزية عبر مؤلفات وانطولوجيات جامعة. مقيمة حاليا في الأردن.



إبراهيم الجيبين

كاتب وشاعر من سوريا مقيم دوسلدورف-ألمانيا. له دواوين شعرية وروايات وكتب في التاريخ لنشأة الدولة العربية الحديثة. عمل في الإعلام التلفزيوني ويعمل حاليا في الصحافة المهاجرة.



أحمد برقاي

أكاديمي ومفكر من فلسطين مقيم حاليا في الإمارات، له العديد من المؤلفات في الفلسفة والاجتماع. رأس قسم الفلسفة في جامعة دمشق.



عبد الرحمن بسيسو

ناقد من فلسطين له مؤلفات في نقد الشعر العربي الحديث ودراسات في الرواية، والتراث الشعبي، أبرزها حول ظاهرة القناع في الشعر العربي المعاصر. مقيم في سلوفينيا، ويشغل منصب سفير دولة فلسطين.



مريم حيدر

شاعرة ومترجمة من إيران لها العديد من الترجمات الشعرية العربية إلى الفارسية كشعر محمود درويش، وسركون بولص، وصالح فائق، وغيرهم. ولها ترجمات شعرية فارسية حديثة إلى العربية. تقيم وتعمل في طهران.



تحسين الخطيب

شاعر ومترجم من الأردن له العديد من الترجمات الأدبية والنقدية والشعرية عن الإنكليزية منها "العالم لا ينتهي" للشاعر الأميركي تشارلز سيميك، و"الجدور الثقافية للإسلاموية الأميركية" وغيرها الكثير للناقد الأميركي تيموثي مار.



كلمة

لا عاصم إلا الثقافة
أهل الكهف والغريم الأجنبي وصورة المستقبل
نوري الجراح

6

مقالات

لماذا العودة إلى السؤال عن المثقف
أحمد برقاي

8

عصفور حي
أم نسر محتشو بالقتل
خلدون الستمعة

12

قوم إذا عتقوا ماتوا
سلمى الخضراء الجيوسي

16

مأزق التغيير
خطار أبو دياب

20

القتل بالكلمات
إبراهيم سعدي

28

جذور المواقف الفارسية المعادية للعرب
تيسير خلف

72

لماذا لم نستلهم تراث بابل
باسم فرات

76

حوارات

جاد الكريم الجباعي
بعد ثقافة العبيد تأتي ثقافة الحرية

64

إيرينا بوكوفا
لا يمكننا البقاء صامتين
إنها جريمة حرب

126

بياتريس أندريه سالفيني
الأميركيون يعرفون
لكنهم لا يتحركون

132



ملف / إعدام التاريخ

مطربة الأنظمة وسندان التطرف جابر بكر	84
تدمير التراث العراقي السلطة عدوة التاريخ الوليد خالد يحيى	92
القديم هو الجديد رتنيد الخيون	96
مجزرة الحجرة ختام غبتس	100
الجغرافيا المستباحة عبدالله مكسور	106

تتهادت حول إعدام التاريخ

مصطفى محمد غريب، نصيرة تختوخ طارق حرب، علي حداد، مارغريتا فان إس فلاح المشعل، رياض عبد الكريم، عامر راشد محمد فلحي، عاصم الباشا، علي شمخي شامل عبد القادر، عبد الله المزهر	112
--	-----

سجال

النخبة والنخبوية أبو بكر العيادي	38
المنهج المثالي عمار ديوب	42
هياكل فارغة عبدالرحمن بسيسو	48
حوار المختلف والمتعدد عواد علي	56
المسألة الثقافية العربية وفردوس معاوية المفقود إبراهيم الجبين	58
مقدمات أولية نحو بناء مستروع ثقافي عربي أزراج عمر	62

أصوات

القصيدة التنافية تحسين الخطيب	30
----------------------------------	----



كتب

عزمي بتسارة وكتابه
"سوريا درب الألام نحو الحرية"
هيثم حسين 150

أسوأ انحراف في التاريخ
كمال بستاني 152

الوسيلة والجنون
رياض رمزي 154

المختصر
كمال بستاني 156

أناتيد أميركية سودا
تحسين الخطيب 159

الأخيرة

عقول سطحية لا تستطيع التركيز
هيثم الزبيدي 160

شعر

قصيدة غير عصما
سيف الرحبي 22

أربعاء الحواس
مريم حيدري 32

قصائد زرقاء
روز جبران 149

يوميات

فسيفسا امرأة
بحر الدين عرودكي 24

يوم ونيف في بيروت
عاصم الباشا 78

تونس قبل الثورة بقليل
ناثل بلعوي 138

فنون

فن الخلود الهنتس
ميموزا العراقي 142



كلمة

لا عاصم إلا الثقافة

أهل الكهف والغريم الأجنبي وصورة المستقبل

أسئلة كثيرة فجّرتها الوقائع الدامية في العالم العربي على مدار السنوات الأربع المنصرمة، وقد شهدت مدنٌ، طالما كانت مراكز ثقافية وحضارية صانعة للتاريخ، وقائع تراجيدية، في معارك وصفّت بأنها تجسيد عنفي للصراع على "صورة المستقبل". بعض تلك الأسئلة كان فكراً لكن الرياح التي عصفت بالمراكب العربية خلخلت أكثر ما خلخلت مراكز الثقافة، ومزقت أشرعتها. هل الثقافة العربية بحر متصل، أم هي جزر مُنفصلة تسبح في بحر متصل؟ أيا يكن الجواب، فإننا نرى أن لا مناص، أبداً، أمام أهل الفكر والإبداع العرب، في أقاليمهم المختلفة، من أن يبنوا جسوراً تصل ما بين "جزرهم السعيدة" لعلهم يتمكنون من أن يؤسسوا، مجتمعين، فلكا مشتركا يواجهون من على تخومه ما احتشد من مراكب الأعداء، فيردونها عن شواطئ بحرهم المُتلطّي بأموج من نار.

محطات خطيرة أضاعت الثقافة العربية معها اتجاه بوصلتها، ولم تتمكن من أن تعبر عن الوجدان والتطلعات العربيين، كان أخطرها ما رده الإيرانيون، مؤخراً، من فحش عنصري يُغذي هجمتهم القومية غير المسبوقة على دنيا العرب. لم يصدر بيان ثقافي واحد بالعربية يرد على الإيرانيين إهانتهم البليغة للعرب حين أعلنوا بغداداً عاصمة للإمبراطورية الإيرانية الجديدة. الإيرانيون قالوها، بملء صوتهم، على لسان علي يونسى مستشار رئيسهم حسن روحاني ووزير استخبارات الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي: "بغداد عاصمة للإمبراطورية الإيرانية".

ما خلا بعض مقالات مستنكرة، هنا وهناك في صحف عربية، لم نسمع ولم نر حركة تصدر عن الجسد العربي المصاب عميقاً في كرامته بالسهم العنصري المسموم.

إن حالاً يبلغ معها هوان قوم ما بلغه الهوان العربي، إنما تقتضي "صحوّة" و"نهضة من سكرة"، فليس حاضر العرب، وحده هو المههد، وإنما وجودهم، أحراراً، تحت شمس العصر، وكيونتهم ومستقبلهم كأمة.

ها هم العرب يقفون عاجزين، لا عن نجدة بعضهم بعضاً فقط، وقد فتك بهم الفساد والطمع، وهانت عليهم أرواح أجمل شبابهم وأنبل من نهض منهم مطالباً بالحرية والكرامة، بل إنهم باتوا مشلولين مكبلين بأغلال مرئية وغير مرئية إزاء مشهد إرثهم الحضاري نفسه وقد راح يتحطم ويتلاشى، أمام أنظارهم المشدوهة، سرقة وتخريباً وتدميراً؛ في بغداد والحضر والموصل ونمرود. وفي حلب وحمص وإدلب ومعرفة النعمان، وصولاً إلى صنعاء وغيرها من الحواضر التي صنعت التاريخ وقدمت للإنسانية أبهى معارفها؛ فإذا بها اليوم لا تنجو من طاغية، ولا من غاز، ولا من خارج على حاضرها من جحور الظلام وفي يده الفأس. قُصفت من الجو بالطائرات، ونسفت من الأرض بالديناميت. فكان للحكام الطغاة من أدوار ما لأمرء الحرب من أدوار في إبادة الوثيقة التاريخية بعد إبادة أصحابها.

إنها جريمة حرب وجرائم ضد الإنسانية، كما تقول إيرينا بوكوفا، في حوارها مع "الجديد" في إطار ملف "إعدام التاريخ" المنشور في هذا العدد.

ولكن ماذا يقول المثقفون العرب بصدد ما آلت إليه حال الأمة، وهم ينظرون عالمهم يحترق، ومدنهم تنهوى مع حضاراتها تحت أقدام التتار الجدد لترقف على حطامها رباياتهم، وهم: "العدو القومي"، و"الطاغية المستبد"، و"مريض الوهم" المتكلم باسم السماء، وقد كتب اسم الله بنصل السكين على أجساد أطفال العراق والشام. بأي لغة يمكن لحملة الأقلام وصف ما يرون، وكيف لهم أن يشخصوا الداء حتى يمكنهم أن يبتكروا الدواء الشافي، وقد انتشر طاعون التعصب والجهل والعتة والتطرف، وبات العقل الرحيم نعمة نادرة. على من يقض المثقف رؤياه؟ من هم أعداؤه؟ ومن هم أصدقاؤه؟ ومن هم الشركاء؟ في عالم لم يعد يمكن للمرء أن يعيش فيه منعزلاً، ومع ذلك فهو عالم بات أكثر وحشة وتوحشاً.

إن المرعب اليوم، أكثر من أي يوم مضى، أن القوى العظمى المهيمنة على الجغرافيات والأسواق ومصادر الطاقة والمصادر الطبيعية ومعها البشر بوصفهم قطعان الأسواق، هذه القوى التي امتلكت أسباب القوة عبر أسباب سيطرتها على منظومة المعرفة الإنسانية، باتت أقل اعترافاً بما تملبه الأخلاق على البشر.

أليس جديراً، إذن، بالمثقفين العرب الراغبين في الاتكاء على "عدالة الغرب" أن يكفوا عن السباحة في بحار الأوهام. فليس ثمة عدالة يمكن أن تمنح لطالبي العدالة، ما لم ينتزعها هؤلاء بكفاحهم الفكري، والمعرفي، والأخلاقي، تماماً كما أمكن للثقافة الغربية أن تبلور شخصيتها كثقافة حرة، عبر قرون من كفاح مفكريها الأحرار الشجعان الذين انتصروا للعقل والإنسان في العصور الوسطى، وصولاً إلى عصر المفكرين

والمبدعين التنويريين من أمثال جان جاك روسو، وكانط، وفولتير، ومونتسكيو. فليذكر المثقفون العرب المثال الذي شكله دانتي في مطلع القرن الرابع عشر، في مواجهته الجريئة لباباوات روما الطغاة، انتصاراً للحق والمدنية، وقد دفع الثمن نفياً من مدينته فلورنسا، وعاش حياة المنفيين في مدن بعيدة عن مسقط الرأس. مثل هذا النموذج الأخلاقي للمثقف والمفكر هو ما ينبغي أن ننشغل به، وينشغل به المثقف العربي، وليس بالطبعات الأحدث من المفكرين والفلاسفة الأوروبيين الذين عاشوا وأنجزوا أعمالهم في ذروة الرخاء والحرية. ولو كان ثمة مثال عربي نتفكر فيه، اليوم، لنستخلص النموذج ودلالته، فلربما يكون أقرب الأمثلة من لحظة اشتباك المثقف مع الطاغية هو قاريء التنويريين الفرنسيين الشيخ عبد الرحمن الكواكبي، شهيد الحرية وصاحب "طباع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، الذي قضى اغتيالاً في منفاه القاهري على أيدي أعوان السلطان العثماني.

ما من سؤال فكري لا يصدر عن قلق، فكيف بأسئلة مثقفين مطحونين ينتمون إلى عالم عربي يسوده الاضطراب والفوضى والدم، ويعصف به الاستبداد والرجعية، ويحيط به خصمان لدودان هما "أهل الكهف" و"الغريم الأجنبي"؛ يتهددان مدنه وحضارته بالحريق والدمار، ويسلطان على عواصمه العظيمة؛ بغداد ودمشق وبيروت والقاهرة وصنعاء وغيرها بأبالسة الأرض وقتلة التاريخ بينما أبناء الشرق واحد يتكلم باسم الأرض والإنسان، والآخر باسم السماء. واحد يحزُّ الرؤوس بالسكاكين ليفوز بـ"الخور العين" في عالم آخر، والآخر يدافع عن وجوده الأرضي ليحمي نسله من الفناء.

ولو استعدنا صور الميثولوجيا وأيقونات التاريخ، فلن تتراءى لنا المعركة الحضارية للعربي، في النهاية، سوى معركة ذات انشقت عن ذاتها، ثم انقلبت صورة أليمة لشقيقتين مدميتين، اختصما طويلاً، وما برحا يقتتلان، على "صورة المستقبل".

إنه المثال القابلي الهابلي، مرة أخرى، يحتل الشخصية وحاضرها، فبأي لغة نتكلم عن الغد، نحن عرب اليوم، وعن أي ثقافة نتكلم؟

الوقائع اليومية تقول إن العرب، اليوم، يواجهون للمرة الأولى في تاريخهم، بعد خروجهم من شبه جزيرتهم، وترسيخهم للمشاريع الحضارية، جميع الاستحقاقات التاريخية والاجتماعية والسياسية، في آن واحد. وهم، أخيراً، أمام انهيار دراماتيكي لوهم مشروع الإسلام السياسي، بعد اكتشاف الغطاء المخملي، تماماً، عن وجه الاستبداد وأفئنته، وتفكك جميع الحوامل التي كان يقوم عليها، من مقاومة، وتحريض، وعلمانية، وغيرها. ويواجهون، أيضاً، القوة الإقليمية الغاشمة التي قررت فرض نفوذها وتوسعها غازية، غير مكترثة بما يتمزق من علاقات جوار وتآخٍ ودين وتاريخ مشتركين، متمثلة في حلم الإمبراطورية الإيرانية لملالي طهران وقم.

ويواجه العرب مع هذا وذاك شبكة المصالح الإقليمية والدولية التي برهنت لهم على أن العالم لا يتحرك وفق العواطف والمشاعر، بل وفق أبشع أنواع المبادلات المادية، رغم ما يمكن أن تسحقه ألتها، بعلاقاتها وميكانيزماتها الوحشية، من ملايين البشر الذين هم عندها محض أرقام. ويواجه العرب، أخيراً، حقيقة جهل الشعوب العربية بهذا كله، وغيره من شروخ العولمة وآثامها، وسهولة انقياد الناس خلف كل راعٍ يرفع شعارات براقية، في ظل نقص فادح في المعرفة، وتخلف مستشرف في البيئة وسراب يُحيط بالدولة الوطنية التي ظن العرب أنهم أسسوها، فلم تكن دولة حتى يكون مواطنٌ، ولم يكن مواطن حتى يكون مجتمعٌ. كل شيء هنا جمعي وجماعي، نعم، ولكن بمعنى عددي ورقمي لا غير الناس أرقام تحصى، وأكثر ما تحصى الناس، اليوم، في المدن والمزارع، تحصى في القتل والمقتولين.

على أن هذا الضغط الكبير الذي يواجهه العرب، ويحدث للمرة الأولى في مسارهم الزمني، سوف يؤدي دوره الكامل في إعادة إنتاج هوية عربية، وهو ما لم تتمكن السياسة من صنعه، بعد تشظيها وزوال عصر الإيديولوجيا التي كانت تسوّغها، ولم تتمكن القوة من حسمه، لأن القوة من دون المعرفة هباء منثور.

وبالتالي فإن القادر الوحيد على حمل المشروع العربي، هو الكائن الحي المستمر، بمعزل عن التراجيديا العربية الراهنة، إنه الثقافة الجامعة التي صمدت وعاشت رغم جميع العصور التي سميت بـ"عصور انحطاط"، وتمكنت من إثراء الهوية العربية طويلاً، بالمنتج الفكري والإبداعي، حين لم يكن هناك لا جيوش ولا ميزانيات ولا سيادة ولا كيانات تنتج دولة عربية.

الثقافة، وحدها هي ما أنتج الخيوط السريّة التي نسجت بألوانها المتعددة سجادة الحضارة العربية التي حاكتها أصابع المفكرين والمبدعين من جميع الأعراق والديانات والطوائف والمذاهب، وهي المعبرة بعمق عن مزية الهوية العربية. أساساً، التي بدأها الشعر الجاهلي، ثم القرآن الكريم، وما تلاهما من فكر جغرافي ومنطق وفلسفة ونثر بديع، وعلوم في الفلك والطب والفيزياء والرياضيات. وما برحت الثقافة جسراً مكيناً يربط العربي بالعربي ويصله بالآخرين، رغم الحدود التي أقيمت بين الجغرافيات.

على أن هذه الثقافة التي أثّرت نسغها الحيّ بارتياحها جغرافيات شتى، شرقاً وغرباً، وتنمّسها هواء تلك الجغرافيات واكتسابها بعض ألوانها، تخضع بدورها، اليوم، إلى تحوّل كبير، ينقلها إلى الحداثة، وهي، في نظرنا، قادرة على استيعاب مفردات العصر ومغامراته، ما يجعلها قابلة لأن تخوض معركتها في فضاءات فكرية وإبداعية مرتبطة باليات صناعة واستهلاك حقيقيين للثقافة، بدلاً من كونها امتداداً كئيباً لشاعر القبيلة البدوية، أو واعظ السلطان، ومهرجه.

الضرورة الحتمية، وهي اليوم ضرورة دامية، هي ما يدفع العرب رغم كل ما تطالعنا به صور الحريق الكبير في خارطتهم، ليخوضوا مغامرة النهوض من الرماد والشروع في صناعة مستقبلهم بأنفسهم، ليكونوا من جديد ضئاع حضارة على خارطة العالم، وتحت شمس العصر. ■

نوري الجراح

لندن في 27-3-2015

لماذا العودة إلى السؤال عن المثقف

أحمد برقاوي

كل تأفف من المثقف تأكيد لأهمية مكانته في الحياة، وتزداد مكانته في التحولات التاريخية الكبرى. التأفف من المثقف يعني أنه في غياب ملحوظ عما يجب أن يقوم به في هذه المرحلة من التاريخ، تأفف افتتاحية "الجديد" من المثقف استنهاض المثقف، المثقف المطابق لربيع عربي أمامه قوى نابذة من كل الأنواع. ولكن من ذا الذي يقرر ما يجب أن يفعله المثقف وما لا يجب؟



الإسلام وأصول الحكم* كي يحكم. غير أن النكوص التاريخي الذي بدأ يشق طريقه إلى الحياة بعد زوال الناصرية التي انهزمت بموت القائد* والذي أدى إلى ركود تاريخي مصري طويل انتعشت فيه الأصولية بكل أنواعها: الجهادية العنيفة والإخوانية والسلفية أعادنا مرة أخرى إلى سؤال الإسلام والدولة. والمفارقة الأدهش تلك التي تمخضت عن ثورة الشباب المصري ثورة الحرية والكرامة التي أنهت حكم الركود التاريخي المباركي ألا وهي اكتساح الأصولية بكل أنواعها للمجتمع المصري بوصفها القوة السياسية الأبرز بعد الثورة مباشرة.

فإذا كنا اليوم بحاجة إلى إصلاح ديني يقوم به المثقف في مواجهة الإسلاموية العنيفة بكل أنواعها سواء كان رمزها آية الله مرشد الثورة الإيرانيه أو خليفة الدولة الإسلامية فما هو الخطاب الذي يمكن أن يقدمه مصلح ديني ويكون متجاوزاً للخطاب الذي قدّمه عبده وعلي عبدالرازق وخالد محمد خالد؟ ما النقد الممكن لخطاب الإصلاح الديني الذي

المرعب والذي وضعنا في مأزق تاريخي هو النكوص التاريخي الكومبيدي الذي أدّى إلى ركود فاجع وإلى الإطاحة بأمال مثقفين كثر كانوا يظنون أنهم واقعيون جداً.

لم يتطرق لمحمد عبده الشك أبداً بأن الإسلام سيقوم بعملية تلاؤم مع العلم والمدنية، وقد وضع أصول الإسلام الثمانية منهجا لهذا التلاؤم وذلك في كتابه الإسلام بين العلم والمدنية*.

النظر العقلي لتحصيل الإيمان، تقديم العقل على ظاهر الشرع، البعد عن التكفير، الاعتبار بسنن الخلق، قلب السلطة الدينية، حماية الدعوة لمنع الفتنة، مودة المخالفين في العقيدة، الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

كان محمد عبده بوصفه مصلحاً دينياً يفكر في مرحلة دولة مصرية ليبرالية، ويسعى إلى جعل الإسلام السائد قادراً على التلاؤم مع الليبرالية المصرية الرخوة.

ولم تكن الناصرية بحاجة إلى إصلاح ديني، فلقد انتمت إلى مرحلة القومية والاشتراكية وتحرر الشعوب، ولم يعد جمال عبدالناصر، بما يمثله محتاجاً لكتاب علي عبدالرازق

يجب أن نميز بين نوعين من السؤال حول المثقف في هذه المرحلة العربية الراهنة: السؤال الصادر عن الجمهور الذي يرى في المثقف مصدراً لوعيه ويشعر بغيبابه عنه، والسؤال الصادر عن المثقف نفسه الذي يعتقد أن شأن الخطاب الذي يصدر عن مثقف هذه المرحلة أقل بكثير من شأن التاريخ الذي يُصنع الآن. وفي كلتا الحالين نحن أمام عدم رضا عنه وعن فاعليته. ولهذا يعود السؤال عن المثقف.

دعوني الآن من الدخول في تعريفات المثقف، فأنا الآن بصدد المثقف الذي يصدر عنه خطاب ما، سواء كان خطاباً فلسفياً - فكرياً أو خطاباً أدبياً أو خطاباً فنياً. ومثقف كهذا كان حاضراً دائماً في تاريخ العرب الحديث والمعاصر.

بل إن الفكر العربي الراهن مازال مديناً للمثقف النهضوي والمعاصر بأطاريح كثيرة، وهذا لا يعود إلا إلى عناد تاريخ لا يتزحزح، وإلى أن ما يجب أن يكون لم يتحقق بعد، ليس لنا أن نهجو مثقفاً بسبب عناد التاريخ فليس المثقف بمحرك وحيد له. بل إن المشكل



بياسين الحافظ وعشرات المثقفين الذين رسموا صورة المستقبل مستخدمين شبكة المفاهيم الحديثة: الأمة، التقدم، الحرية، الإشتراكية، الديمقراطية، تحرر المرأة، ونحن ما زلنا أسرى الحلم القومي العربي بصورته الأوروبية، حتى الاتجاه الذي نشأ ونما وتطوّر من وحي أكتوبر الروسي راح يرسم في الوعي صورة موسكو في دمشق والقاهرة ونواكشوط. صحيح أننا احتفلنا بانزياح إلياس مرقص وعبدالله العروي ومهدي عامل عن الصورة النمطية غير أن هذا الانزياح لم يتعدّ الأثر الغربي المتمرد قليلاً على سلطة الأب، فلو تناولنا مفهوماً واحداً من مفاهيم فكر الحداثة العربية كمفهوم الحرية مثلاً لأدركنا قصور العقل الخلاق في التناول النظري لهذا المفهوم. بوصفها خطاباً أيديولوجياً، لم ننتبه لخطورة وعي الحرية في خطابنا الحداثوي . الأيديولوجيا القومية ربطت الحرية بفكرة 'حرية الأمة' من آخر، من الاستعمار، فكرة الاستعمار ولدت هذا المفهوم وهذه الطريقة في التفكير 'حرية العرب واستقلالهم عن

ومثمرة. وقس على ذلك الصورة الأخرى للمثقف العربي الذي لم يغادر ساحة التاريخ باحثاً عن البديل المتقدم على غرار التاريخ الأوروبي في صورته الأخيرة من الحداثة. منذ فرح أنطون مروراً بالحصري وانتهاءً



**فما هو الخطاب الذي
يمكن أن يقدمه مصلح ديني
ويكون متجاوزاً للخطاب
الذي قدّمه عبده وعلي
عبدالرازق وخالد محمد خالد؟**



من شأنه أن يفتح الطريق لإصلاح فاعل في الوعي والممارسة؟ لا شك أن الركود التاريخي الذي ترافق مع دكتاتوريات همجية وبسبب هذه الدكتاتوريات الهمجية قد أيقظ لدى جمهور كبير روح الخلاص الديني عن طريق اليد، فهذا المنكر لا يقوّم باللسان والقلب وليس باستطاعة اللسان والقلب أن يقوّمها، والمثقف العربي يجد نفسه أمام مهمة ليس الخروج من الركود التاريخي فحسب، وإنما الخروج من النتائج الكارثية لهذا الركود. غير أن سنوات طويلة من الركود سنوات طويلة من اختمار الخلاص الديني، مع وجود الكارثة الإيرانية وتأثيرها المتخلف على المنطقة ستصعب من مهمة المساهمة في تشكيل الوعي المطابق لأسباب الخلاص الأرضي المنشود. إن القول بصعوبة المهمة لا تعني أن على مثقف الحرية والكرامة والمواطنة والعرب أن ينزوي في يأس المهزوم بل على الضد من ذلك إنه اليوم كما سنرى مثقف الشعب وقد صار إرادة جاهزة للفعل التاريخي وأمامه فاعلية مضاعفة



الأخر:

وحرية الأمة هذه تحتاج الطبيعة الثورية التي تحقق حرية الأمة؛ الطبيعة المتحررة بوعيتها من الاستتباع للآخر. وبالتالي لم ينظر للكائن الفرد على أنه حر بذاته بوصفه فرداً، بل بارتباطه مع 'الأمة الحرة' التي تحقق حريتها من سيطرة الآخر.

كل الأيديولوجيات الشمولية هي ضد الحرية الفردية، ولم تنتقل من حرية الأمة إلى حرية الفرد إطلاقاً. وبالعكس صار قمع الفرد مترابطاً بالدفاع عن حرية الأمة، وبالتالي فقد الفرد حضوره الذاتي.

من هنا ضاقت حرية الفرد فصارت حرية للأمة فقط، ووقع الظن بأنه كلما ضاقت حرية الأمة ضاقت حرية الفرد ولم يعد للفرد وجود، لم تعد حريته موضوع دفاع، حيث تقود حرية الأمة إلى حرية الجماعة وليس إلى حرية الشخص. لذلك كل أيديولوجيا تتحدث عن الكل تخلق الوعي القطيعي وليس الذات..

والخطاب الماركسي لم يختلف كثيراً لأنه ركز على الطبقة وعلى حرية الطبقة من استغلال طبقة أخرى واعتبرها هي الحرية واعتبر أن كل انزياح عن هذا الهدف الطبقي هو خضوع للمعنى البورجوازي الصغير، وعندما انتقد الشيوعيون سارتر اتهموه بأنه بورجوازي صغير. ولدى الشيوعية لا تتحقق حرية الطبقة إلا بانتصارها على طبقة أخرى وتحقيق العدالة الاجتماعية.

لهذا فإن حصر الحرية بجانبها الاجتماعي الطبقي أنشأ نظاماً سياسياً متعالياً ضد الحرية كما أنشأها النظام القومي. لكن القومية والماركسية هي أيديولوجيات دنيوية قابلة للتمرد عليها ورفضها وتحطيمها أما إذا ذهبنا للتيار الديني سنجد أن العبودية مطلقة لله المتعبد بالنص وتفسير النص وشرحه وتأويله خضوعاً تاماً لهذا النظام المتعال.

في التيار الشيوعي حاز النص على صفة القداسة، فالبيان الشيوعي مثلاً أصبح مقدساً رغم أن أنجلس نفسه قال عنه أنه شاخ في أكثر أجزائه ولكن أبقيته كوثيقة تاريخية، لكن بقي البيان لدى الشيوعيين نصاً مقدساً. ولكن من جهة أخرى يمكن تزويق هذا النص 'المقدس' الأرضي، وقد مزقه غورباتشوف وانتهينا ولكن المقدس الديني والنص الإلهي المتعالى المطلق في

السماء لا يمكن تمزيقه، والحوار مع النظام الأرضي المتعالى نسبياً ممكن بينما الحوار مع الخاضعين للنص الديني غير ممكن لأن النص لديهم هو المرجع وليس الكائن... لذا يغيب الكائن وينتهي ويموت... مثلاً الحوار حول جواز الحرق في الإسلام يكون من باب 'يوجد نص أم لا يوجد نص'، فإن وجد نص فهو مسموح وإن لم يوجد فهو محرم، أي لا يوجد أي ارتباط بالحياة، فالقول الفصل هو للنص، فلا اجتهاد مع النص. لذا فكرة الحرية في الدين هي عدم.

الخطاب الليبرالي العربي لا يختلف عن مثيله الغربي مثلاً لطفي السيد. ولكن بعض الناس أرادوا أن يلعبوا بالاحتفاظ بعقابيل الأيديولوجيا كلها مثلاً مفكر مهم مثل محمد عابد الجابري في كتابه 'نقد الخطاب العربي' قال إن علينا التحرر من كلتا سلطتي السلف، السلف العربي والسلف الأوروبي، لتحقيق الاستقلال التاريخي التام للأمة العربية، ويقصد لا مرجعية إسلامية ولا مرجعية أوروبية، بل إنشاء مرجعية عربية ذاتية، فتحقق الأمة استقلالها التاريخي، وهذا مأخوذ عن غرامشي الذي قال بتحرر الطبقة التاريخي، أي الاستقلال التاريخي للطبقة. ولكن الجابري راح يجمع بين ابن خلدون والشاطبي وابن رشد وميشيل فوكو، وهذا



كل الأيديولوجيات الشمولية هي ضد الحرية الفردية، ولم تنتقل من حرية الأمة إلى حرية الفرد إطلاقاً. وبالعكس صار قمع الفرد مترابطاً بالدفاع عن حرية الأمة



لأن الجابري بنيوي يحقب تاريخ الوعي العربي كما ميشيل فوكو، لذا لم يستطع الجابري أن يتحرر لا من السلف العربي ولا من السلف الأوروبي.

مثلاً حسن صعب تحدث عن التحرر من سلطة العقل إلى سلطة الفعل فننتقل إلى التجربة مع أن طريق الوعي هو الانتقال من التجربة إلى العقل.

التعيين السياسي للحرية هي الديمقراطية قولاً واحداً في أعلى صورها الممكنة وليس الواقعية فقط. وراسل يعرف الديمقراطية بأنها 'التوزيع العادل للقوة'، وهذا يعني أن العبودية هي احتكار القوة، فإن عرفنا الديمقراطية بأنها عدم احتكار القوة فهذا تعريف بسيط، ولكن يجب أن يشعر الكائن أنه يمتلك القوة الضرورية لتحقيق وجوده، فالمال قوة سلطة، وإن لم تمتلك الطبقة العاملة قوة لمواجهة الرأسمال ستكون حريتها غائبة.

إذا كان داروين قد قال إن لدى كل كائن غريزة البقاء ولكننا الآن نمتلك ثقافة البقاء كما نريد أن نكون،

لا يوجد أعمق من شعار 'الشعب يريد' لأنه مرتبط بالإرادة، فأنت تريد يعني أنت حر... ومن هنا العبودية هي سلب الإرادة، بينما الحرية هي تعيين الإرادة.

الديمقراطية هي التوزيع العادل للإرادات حيث لا تتحكم إحدى الإرادات ببقية الإرادات... دولة الحرية هي دولة ديمقراطية بالضرورة ودولة الحرية هي دولة تسامح.. أوروبا انتقلت إلى الدولة بوصفها تعيين لحقل الحرية الفردي والاجتماعي. لذا ما من دولة يمكن أن تحقق الحرية للكائن لأنها أداة سيطرة وقمع، إنها تحتكر أدوات القمع ولكن كي يتحقق التوزيع العادل للقوة والإرادة.

دون وعي الحرية على هذا النحو لا يتحقق السلوك المناسب للكفاح من أجل الحرية وإلا سننتقل من الاستبداد إلى حالة أخرى من الاستبداد والخطر المتأتي من الشموليات خطر كبير لأن هذا النظام الذي يريد أن يبقى متعالياً ومحتكراً للقوة وحده.

لنطرح على أنفسنا السؤال الآتي: هل آن الأوان لنقيم قطيعة مع المفكرين العرب النهضويين والمعاصرين؟

أعتقد أننا اليوم بحاجة إلى مثقف في أعلى درجات الراديكالية الواقعية، وليس في أقصى درجات الراديكالية الطوباوية.

لقد سادت الثقافة الفكرية الطوباوية بأعلى درجات راديكاليته، وكانت مخلصاً لذاتها أيما إخلاص، بل وسارت خلفها قوى مجتمعية متعددة، وحملت لواء التقدم التاريخي قبل أن يهزمها التاريخ عن طريق الطغم العسكرية المتخلفة ذات الوعي الضيق بالهوية والحياة والانتماء، والتي جعلت من السلطة مقدسها، وحولت الأوتوبيا الجميلة إلى مسخرة قبيحة.

لقد أعلنت الثورات العربية العفوية بداية عالم جديد الآن، لا في تلك البلدان التي انفجرت فيها بل في الوطن العربي كله. والتي بدورها خلقت على نحو بطيء ظاهرة الراديكالية الواقعية والتي تتطلب مثقفها المطابق.

إذ منذ عصر النهضة وحتى الآن لم يشهد الوطن العربي ظاهرة شبيهة بالظاهرة التي نعيش، أقصد ظاهرة عدو المثقف خلف تاريخ تصنعه القوى المجتمعية.

وعندي أن ترك حركة التاريخ عزلاء من أسلحة المثقف وخلواً من وعي الحركة ذاتها أمر لا يضر بالثورات فحسب بل وبالمستقبل أيضاً.

نحن أمام أربع قضايا طرحتها حناجر الثوريين العرب والحركة الثورية عموماً: الإرادة، الحرية، الكرامة، الأمة.

صحيح إنها أخذت طابع العفوية، لكن الصحيح أيضاً أنها حملت المثقف مسؤولية إنتاج الوعي المطابق لهذه الأهداف الراديكالية والواقعية معاً.

لماذا هي واقعية وراديكالية معاً؟ واقعية لأنها عبّرت عن الأهداف المعيشة والعميقة للذوات التي ضاقت ذرعاً بالسلط التي حالت بينها وبين تحقيق المعيش المأمول.

وجملة الشعب يريد، لا تعني سوى استعادة إرادة مسلوقة، وصارت عاجزة لا بسبب بنيوي فيها بل بسبب إرادة سلبية لإرادتها. إنها إذ عت سلب إرادتها وعت كفاحها لاستعادتها، إن المثقف العاجز عن فهم هذا الديالكتيك الواقعي براديكاليته بحجة بعض الأهب الدينية المؤقتة، إذا افترضنا حسن النوايا، يخون ماهيته التي تبرر حضوره، فالإرادة هنا لا تنفصل عن الحرية.

الإرادة إما أن تكون حرة أو لا تكون، وها هي تتعين بثورة، إن الثورة هي الإرادة الحرة ذاتها وقد صارت واقعاً، والمثقف حين يجعل

من الإرادة الحرة خطاباً: نصاً، أثراً، حجراً ذا ملامح، قصيدة تحافظ على توقد الروح، فكراً يعزز من قوة الإرادة ويكشف الظلام من أمام طريقها، يتحول إلى جزء لا يتجزأ من إرادة الشعب، الشعب الذي يريد، ويعيد النظر في حق تقرير المصير، لا بوصفه حق التحرر من الغاصب الخارجي فقط وإنما التحرر من المغتصب الداخلي أيضاً، لا بوصفه حرية الأمة فقط وإنما حرية الفرد أيضاً.

الشعب الذي ربط بين الحرية والكرامة أدرك بتجربته نفسها فقر الخطاب الأخلاقي الأيديولوجي الذي يعزل مفهوم الكرامة عن الحرية، كما أعاد للحرية معناها الضائع في شعارية فقيرة.

لم يحصل أبداً أن جعل المثقف العربي من مفهوم الكرامة الفردية، الشخصية موضوعاً أثيراً له، وبخاصة ذلك الارتباط بين الإرادة الحرية والحكم والكرامة.

فالحرية مفهوم شامل وثري وكل انتقاص من معانيه إفقار له، فكيف إذا ما اغتيلت كل معانيه ولم يبق منه إلا اللفظ.

ها نحن مرة أخرى أمام السلب الذي ولد روح الشعب الراديكالية. دولة السلطة تسلب حرية الفرد، فيتولد النقيض الشعبي: سلطة دولة تؤكد حرية الفرد، سلب حرية الفرد سلب لكرامة الوجود، استعادة كرامة الوجود



منذ عصر النهضة وحتى الآن

لم يشهد الوطن العربي

ظاهرة شبيهة بالظاهرة

التي نعيش، أقصد ظاهرة

عدو المثقف خلف تاريخ

تصنعه القوى المجتمعية



مستحيلة دون حرية الفرد، حرية الفرد وكرامة الفرد والسلطة المعبرة عنهما سلطة الشعب التي تحدثنا عنها سابقاً.

هذا الدروس التي قدمتها عفوية الشعب للمثقف من شأنه أن تزوده بكل شروط التجديد الخلاق للثقافة كلها، لتصبح الثقافة هي صورة الراديكالية الواقعية، وليس صورة الراديكالية الطوباوية، فالراديكالية الواقعية هنا نشأت من قلب الحدث التاريخي ولم تُستورد من حدث خارجي ومن رغبة في الذهن وأمنية رومانسية أخلاقية.

ولهذا فإن المثقف، التلميذ النجيب عند التاريخ الواقعي، وهو يعيد صياغة الثقافة بوصفها التعبير عن الحركة الواقعية الثورية، يحرر مفهوم العرب من ذلك تلك الأحكام المسبقة، ويعيد لهم وجودهم المفقود تأسيساً على مفاهيم الإرادة والحرية والكرامة المعبرة عن أمة أيضاً.

فالترايط الواقعي للحركة الجارية الآن أكدت استحالة استمرار واقع التذمر، فلم يعد الخطاب القومي خطاب استعادة مجد، بل خطاب صناعة وجود أمامه قوى نابذة متعددة. فالقوى النابذة اتحدت جميعها مرة أخرى أمام تاريخ جديد تصنعه الإرادة الثورية الشعبية بكل تناقضاتها السلبية والإيجابية.

أمام هذه الإرادة التي أنتجت مفهوم الربيع العربي تقف الدول المناهضة.

ولعمري إن مصطلح الربيع العربي ليس مصطلحاً بلاغياً، بل واقعياً. تعيدنا صفة العربي إلى حقيقة واقعية، وليس إلى شعائر زائف، فالعربي هنا ولد من قلب الانفجار من حيث هو المفهوم الكلي للحدث، ولهذا اتخذ العداء صفة كلية وطائفية للربيع بوصفه ربيعاً عربياً.

وعندي أن العربية أو العروبة أو أي مصطلح يعبر عن الهوية القومية للتاريخ الذي يصنع الآن سيكون واقعياً في تأثيره، لأنه هو الآخر تعبير عن راديكالية الشعب الواقعية.

إن المثقف العربي يقف اليوم تلميذاً صغيراً أما حركة التاريخ الواقعية الراهنة ليتحول إلى عقل التاريخ، وأتى له أن يتحول إلى عقل التاريخ إذا لم يندرج في روح التاريخ فاعلاً.

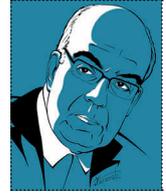
كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات

عصفور حي أم نسر محتسو بالقش

إشكاليات المثاقفة الثلاث: النظرية، السياق، المصطلح

خلدون الستمعة

المثاقفة Acculturation مصطلح ينتمي إلى الأنثروبولوجيا. ولهذا فهو يشير - من حيث النشأة - إلى دراسات الغرب المتفوق للآخر المتخلف. لكن المثاقفة تُطرح في هذا المقال من خلال التحول الذي طرأ على المصطلح بحكم الأمر الواقع، فصار يشير إلى العلاقات الثقافية ذات الطابع التبادلي المستمر بين الحضارات. هذا المقال يناقش إشكاليات المثاقفة من خلال فعالية الترجمة، وما تواجهه هذه الفعالية التحويلية من عقبات يثيرها نقل المصطلح الغربي إلى العربية.



الأصل والترجمة، بين المصدر والنسخة، وبالتالي فهو يضع حداً لفكرة تصنيف الترجمة في موقع ثانوي". وهذا الإلغاء للثنائية، الذي قد يبدو للوهلة الأولى موقفاً نقدياً لا يخلو من الغلو، يعني على حد تعبير المصدر نفسه، التخلص من فكرة اعتبار الإخلاص الزوجي للأصل، استعارة مجازية تصلح للتعبير عن الترجمة وضرورة تحليلها بوفاء العبد للسيد. وفي المعرفة الجدلي (Gay science) يذهب نيتشه إلى حد أبعد، فهو يرى في الترجمة "شكلاً من أشكال الغزو".

وإذا نظرنا إلى هذا الرأي من منظور المثاقفة، أو علاقات التأثير المتبادل بين الثقافات فلا بد أن يستدعي ذلك مصطلح "الاستحواذ" Appropriation على الفور. ما هو الاستحواذ؟ يقول هنري جيمس في رسالة أرسلها إلى صديق له، شارحا المزايا التي يتمتع بها المرء إذا ما ولد أميركياً "باستطاعتنا (كأميركيين) التعامل بحرية مع أشكال حضارة لا نملكها، فنختار ونستوعب ونتمثل، وباختصار

عزرا باوند وأهداني كتابه اللافت الذي تضمن قصائد مترجمة عن العربية والفارسية (2) وقد استلقتني في هذه المختارات المشفوعة بمقدمة بديعة عن اللغة العربية أشار فيها إلى أنها قادرة ببساطة على التعبير عن رواية Finnegans Wake لجيمس جويس، قوله إنها ترجمة تحويلية الطابع بامتياز. والحال أن المختارات تعيد مجدداً تعريف الأصالة (بعيدا عن فكرة الأصل) في إطار مثاقفة ثنائي الاتجاه.

ولإيضاح المقصود بذلك أقتطف وصف سوزان بينيت في كتابها "الأدب المقارن: مقدمة انتقادية" (3) لنظرة جاك ديريدا إلى المثاقفة ممثلة بالترجمة. تقول: "يعبث ديريدا بفكرة الأصل والترجمة، ويشن حملة على فكرة أولوية الأصل. فالأصل كما يراه ليس أصلاً على الإطلاق، بل إعادة نظر بفكرة.. بمعنى أنه هو نفسه باختصار، ترجمة".

وأما النتائج المنطقية لتفكير ديريدا حول الترجمة فتكمن في "إلغاء الثنائية بين

ثمة مفاضلة طريفة بين نموذجين للمثاقفة: نموذج العصفور الدوري الحي والقادر على الطيران، يقابله نموذج النسر المحشو بالقش.

هذا الضرب من المثاقفة يشير إليه الشاعر إدوارد فيتزجيرالد في إحدى رسائله (27/ 4/ 1859)، معلقا على ترجمته لرباعيات الخيام بقوله:

"أتصور أن قلة قليلة من المترجمين عانت في الترجمة ما عانيت لكي لا تكون ترجمة الرباعيات حرفية. ولكن مهما بلغت التكاليف ينبغي أن يظل الشيء حياً.. العصفور الدوري الحي أفضل من النسر المحشو بالقش" (1).

وقد أطلق فيتزجيرالد على هذا النوع من الترجمة ذات الطابع التحويلي مصطلح (Transmogrification) أي التحويل بفعل المثاقفة الخلاقة الشبيهة بالسحر، وأثرت هذه الترجمة التحويلية على حركة الحداثة في العالم الأنجلوسكسوني ممثلاً بالشاعرين عزرا باوند وت. س. إليوت.

وفي عام 1985 التقيت عمر باوند ابن الشاعر



الأدبي ومجاله الحيوي، أكدت من خلال بعض ترجمات الكتب التي أنجزت خلال النصف الأخير من القرن الماضي وكانت تدور حول "البنوية" على سبيل المثال لا التحديد، ومن خلال الكتب العربية التي تعرض لمذاهبها العديدة، هيمنة ثلاثة عوامل أساسية حددت هذه الخيارات: العامل الأول هو سيطرة الدُّرجة (الموضحة) على اختيار نظرية بعينها. وإذا كان هذا الخيار صائبا من حيث القيمة الثقافية والمعرفية على الأقل، فإن كونه لا يستجيب بالضرورة لحاجات معرفية (إجرائية)، تتصل بواقع الثقافة العربية في زمان ومكان محددين، ولا تردفه تعليقات أو شروح نقدية خاصة بالباحث أو المترجم العربي، أو اعتراضية مستمدة من مذاهب نقدية أوروبية أو أميركية مغايرة، فهو الخيار الذي تفرضه بنية أيديولوجية جامعة مانعة تُقبل وتتنهى بقضها وقضيتها. وأما العامل الثاني فيتمثل في هيمنة النزعة المركزية الأوروبية Eurocentrism التي تصدر

"النظرية، السياق، المصطلح" ألا نسمح قبل كل شيء بتحول تجربة نقل المصطلح الغربي إلى العربية، إلى ممارسة أصولية Fundamental تحتفي بالحرفية العمياء، بل أن نسعى إلى تحويل تلك التجربة إلى ممارسة تأسيسية Foundational تنزع هالة القداسة المطلقة فتنتقد وتعرض وتصحح وتبتكر وتربط حيثما يكون الربط ممكنا مفهوما بين المصطلح العربي والمصطلح الغربي بدلا من الإذعان الميكانيكي لتقليد وفاء الزوجة للزوج والعبد للسيد.

إشكاليات الثقافة

1 ثمة إشكاليات في النظر والعمل، يتعذر الكلام على سيورة نقل المصطلح الغربي إلى اللغة العربية دون الوقوف عندها، وأعني بالإشكالية هنا وجود التباس يدرك المتحاورون أنه ما زال التباسا معلقا. وتتصل الإشكالية الأولى بعلاقة المصطلح الأدبي بالنظرية. فالنظرية، مهاد المصطلح

نعتبرها ملكا لنا حيثما نجدها"⁽⁴⁾. والحال أن "الاستحواذ" ليس بالمصطلح الذي يقتصر على الأدب الأميركي، بل إن وجوده يعود إلى مهاده الأوروبي في كتاب "مصادر هايدغر السرية"⁽⁵⁾ الذي يدور حول المؤثرات الآسيوية الشرقية على الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر، وهي مؤثرات يبرهن هذا الكتاب على أنها مستمدة من أفكار الفيلسوف الياباني Nishida في الوجود والعدم، ولكن هايدغر لم يقر بذلك علانية. وهذا يحيلنا إلى النزعة المركزية الأوروبية Eurocentrism وإلى إطارها الأميركي الأوسع مدى والأشد تأثيرا في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

آية ذلك أن الثقافة التي نختزلها في فعل الترجمة، هي ضرب من المقابسة ثنائية الاتجاه. وسأحاول هنا أن أعلق Suspend مؤقتا مناقشة نقد إدوارد سعيد المهم والمعتمد على فكرة فوكو حول تلازم السلطة والمعرفة. ففي رأبي أن من المهم في تناولنا إشكاليات الثقافة الثلاث:



عن فرط إعجاب يتعدى مسألة التأثير بالآخر الغربي إلى محاولة تقليده تقليدا حرفيا، ففتحول إلى أصولية عمياء تتبنى المصطلح الغربي دون الاهتمام بمدى صلاحيته للاستعمال في سياق ثقافي عربي محدد بزمان ومكان.

وهذا الافتتان المفرط بالآخر ينطوي على التباس شديد. فأن تكون الآخر، يعني في المآل الأخير، ألا تكون ذاتك. فكيف يكون المرء ذاته وغير ذاته في آن؟

كما أن هذا الضرب من الافتتان هو بمثابة كايح للحس النقدي، كايح غالبا ما يؤدي إلى نشوء أصولية حدائية مغايرة للنزعة النقدية التي تقوم عليها الحدائفة، وهي أصولية مغايرة تمثل الوجه الآخر لأصولية كوصية تدور في فلك جوهرانية ماضوية على صعيد التعامل مع التراث العربي.

وأما العامل الثالث فيتصل بالعلاقة بـ"الباراداييم" Paradigm، أي الصيغة المعرفية المعتمدة والتي يحدد المركز المهيمن بموجبها الحقيقة العلمية التي يعرفها توماس كون في كتابه "بنية الثورات العلمية" بقوله إنها (الحقيقة) التي تفرضها الجماعة العلمية السائدة، والتي تتغير فجأة عندما تنجح جماعة علمية أخرى منافسة بتفنيدها واستبدالها بحقيقة معتمدة أخرى. وكما هو معروف فإن مفهوم "الباراداييم" صار معتمدا في مجال الإنسانيات، وهو اعتماد يسري على المركز المنتج وعلى الهامش المستهلك. هذا على الرغم من أنه ليس ملزما في هذا الحقل المعرفي شأن الحقل العلمي. وعندما يترجم الباحث العربي المصطلح الأدبي أو النقدي فإن عليه أن ينظر نظرة نقدية إلى حدوث التغيير المفاجئ والمتعلق باعتماد (حقيقة) بديلة نجحت جماعة معرفية منافسة في جعلها "الباراداييم" الأمر الناهي. فالتمييز بين "الباراداييم" المسيطر في مجال الإنسانيات، وبين نظيره المسيطر في المجال العلمي، ضروري.

الإشكالية الثانية التي تواجه مترجم النظرية الأدبية ومصطلحاتها تتصل بـ"السياق" Context المحدد لمعنى النظرية والمصطلح. وبعبارة أخرى فإن نقل النظرية أو المصطلح من لغة إلى أخرى قمين بإبراز ثلاثة أنماط من السياقات: سياق لغوي، وآخر

معرفي وثالث ثقافي.

السياق اللغوي يمكن التمثيل عليه بمصطلح Critique (النقد)، وهو مصطلح استعاره النقد الإنكليزي من الألمانية والفرنسية ولكنه منحه محمولا معرفياً إضافياً فأصبح يعني النقد الشامل والمشفوع بطاقة أبستمية (فلسفية)، مستمدة من هيغل وماركس وفرويد وديوي ونييتشه وهيدغر وأدورنو وفوكو.

وقد أصبح هذا المصطلح يستعمل بالإنكليزية للدلالة على نوع آخر غير النقد الأدبي الشائع Criticism وأعني به النقد الذي يعود بأصوله إلى مفهوم الأزمة Crisis. وفي ترجمته لكتاب إدوارد سعيد "الثقافة والامبريالية" اقترح كمال أبو ديب كلمة "تنقيد" كترجمة ممكنة لمصطلح Critique، وذلك تمييزاً له عن مصطلح نقد Criticism.

وبصرف النظر عن الرأي الشائع بهذه الترجمة، سلبا أو إيجابا، يمكن القول إنها تظهر بجلاء مشكلة المحمول المعرفي الثاوي وراء المصطلح الأدبي الغربي عندما ينقل إلى اللغة العربية.

وبهذا الاعتبار تصبح المشكلة أكثر من مشكلة لغوية. إنها مشكلة السياق المعرفي الذي يشير إلى وجود معانٍ تراكمية للمصطلح من المتعذر أن تستدعيها ذاكرة القارئ المعرفية إذا لم يكن المصطلح مألوفاً لديه أساساً.



نشر طه حسين كتابه "ألوان" الذي تضمن دراسة مثيرة عنونها "الأدب العربي بين أمسه وغده" لم يلتفت النقد العربي إلى أهميتها الاستثنائية. وقد أشار فيها إلى مصطلح (الثابت والمتحول)



ويضاف إلى هذين السياقين اللغوي والمعرفي، السياق الثقافي الدال على عملية موضوعة هذا المصطلح المشفوع بمعانٍ ابستمولوجية غريبة المنشأ، وتوطينه في ثقافة مغايرة هي الثقافة العربية.

ولهذا السبب بالذات، أرى أن ترجمة المصطلح النقدي إلى معادله المفهومي بدلا من البحث عن معادل لغوي له، ربما كانت الحل الأفضل في كثير من الأحيان. وقبل سنوات سمعت من الدكتور جابر عصفور ترجمة مفهومية مقترحة لمصطلح "باراداييم" هي "الصيغة المعرفية المعتمدة".

وأعتقد أن هذه الترجمة تحل جانبا من جوانب الإشكالية آنفة الذكر، فهي تقدم للقارئ المعنى الذي يختزل المحمول المعرفي لهذا المصطلح دونما إخلال بالدقة المطلوبة.

آية ذلك كله أن إشكالية المصطلح الأدبي كما أسلفت، هي جماع إشكاليات المثاقفة الثلاث. من هذا المنطلق تجدر الإشارة إلى أن المناهج النقدية المشفوعة بجهاز مصطلحاتها المعرفي ليست محددة - على الصعيد الإجرائي على الأقل - بحدود اختصاصية قاطعة باترة تفصل واحدا عن الآخر، بل إن حدودها متداخلة تداخلا شديدا بحيث يقال إنها مناهج ذات أنظمة معرفية كل منها مفتوح معرفياً على الآخر. كما أن النظرية النقدية، لُحمة النقد الشامل (Critique) وسداته، توصف عادة بأنها جماع نظريات متداخلة Interdisciplinary.

ويمكن التمثيل على هذا التداخل والانفتاح بمصطلح "الثابت والمتحول" Statics and dynamics، وهو المصطلح الذي أشاعه أدونيس ولكن أصوله تعود إلى أوغست كونت(6) مؤسس علم الاجتماع والفلسفة الوضعية، وقد استعاره كونت من العلوم الفيزيائية وأدخل بعض التعديلات على محموله المعرفي.

يرى كونت أن الثابت الاجتماعي Social statics يمثل السعي للوصول إلى قوانين التعايش، بينما يمثل المتغير (أو المتحول) الاجتماعي Social dynamics السعي للوصول إلى قوانين التغيير التاريخي.

غير أن وضعية أوغست كونت لم تلبث - كما هو معروف - أن تحولت إلى ضرب من

الجدريه

تدعو الكتاب والمفكرين العرب
إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

القصة العربية القصيرة

فن كتابة القصة في الأدب العربي الحديث

حال الكتاب العربي

كيف تنشر الكتب

في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

النقد والهوي النقدي

لماذا تراجع النقد وماذا حل بالهوي النقدي
في الثقافة العربية

الاستبداد الشرقي

دور الحاكم المستبد
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب

هل وصل التجريب الشعري العربي
إلى حائط مسدود

الرواية النسائية العربية

هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل
أم أن اللغة بلا جنس

الكتابة والجسد

الجسد والجنس في الإبداع العربي المعاصر

الصحافة الثقافية العربية

أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء



فكر حر وإبداع جديد

فكان الأدب في بعض العصور مسرعا إلى التطور ممعنا فيه. وكان في بعضها الآخر مؤثرا للثبات حريصا عليه. فقد تفوق عنصر التطور بعد ظهور الإسلام بنحو نصف قرن، حين نشأ الجيل الجديد من العرب، واتصل بالأمم الأجنبية...". "ألوان" ص 17 دار المعارف بمصر.

وفي عام 1974 نشر أدونيس كتابه "الثابت والمتحول: بحث في الاتباع والإبداع عند العرب" ثم أتبعه بالجزئين الثاني والثالث. وكما هو واضح فإن أدونيس اعتمد، كما فعل طه حسين من قبله، ولكن دون أن يشير إلى المصدر، على مصطلح أوغست كونت "الثابت والمتحول" محورا لمشروعه في نقد الثقافة العربية.

وفي حين استعمل طه حسين المصطلح استعمالا إجرائيا يفتح فيه النقد الأدبي على علم الاجتماع الثقافي بلامحه المبكرة، اختار أدونيس مفهوم النقد الشامل الذي كان جماعا للنقد الأدبي والنقد الثقافي والفلسفة. ولا شك أن هذين الاستعمالين لمصطلح كونت يؤكدان أن مفهوم النقد الشامل الذي سبره ورازه شرابي والجابري وأركون وأبو زيد ليس جديدا في الثقافة العربية. لقد غاب الاسم الاصطلاحي ولكن المسمى كان ماثلا باستمرار ■

ناقد من سوريا مقيم في لندن

The letters of Edward Fitzgerald, Princeton, (1)
.Princeton University Press, 1980, p. 33

Omar Pound, Arabic & Persian Poems, (2)
Introduction by Basil Bunting, London :
.Fulcrum Press, 1970

Susan Bassnett, Comparative Literature : A (3)
critical Introduction, Oxford : Blackwell, 1993, p
p. 147, 151

Henry Gifford, Comparative Literature, (4)
.London, Routledge & Kegan Paul, 1969, p. 86

Reinhard May, Heidegger's Hidden sources (5)
: East Asian Influences, London and New
York, routledge, 1989

(1857-August Comte) 1798 (6)

طه حسين، ألوان، القاهرة دار المعارف بمصر
1952 الصفحات 5 - 32.

العلموية Scientism أصولية المنزع والتي ترى في الحدث الاجتماعي والثقافي علما دقيقا شبيها بالعلوم الطبيعية، علما يعتبر طرق الاستدلال المستخدمة في تلك العلوم مصدرا وحيدا للتوصل إلى معرفة الإنسان والمجتمع معرفة حقيقية.

وفي عام 1952 نشر طه حسين كتابه "ألوان" الذي تضمن دراسة مثيرة عنوانها "الأدب العربي بين أمسه وغده" لم يلتفت النقد العربي إلى أهميتها الاستثنائية. وقد أشار فيها إلى مصطلح (الثابت والمتحول) على وجه التحديد، وأوضح أنه استعاره من أوغست كونت.

يقول طه حسين: "أدبنا العربي كغيره من الآداب الحية، بل كغيره من كل الظواهر الاجتماعية، مكون من هذين العنصرين اللذين كان أوغست كونت يسمي أحدهما ثباتا واستقرارا، ويسمي ثانيهما تحولا وانتقالا".

ويضيف: "والذي يمتاز به أدبنا العربي من الآداب الحية الأخرى هو أن التوازن لم ينقطع بين هذين العنصرين، ولم ينشأ عن انقطاعه جمود الأدب وموته بتغلب عنصر الثبات والاستقرار، أو فناء الأدب وتفرفقه بتغلب عنصر التحول والتطور. وليس من شك في أن أحد هذين العنصرين قد تفوق على صاحبه بين حين وحين في القوة،



نشر أدونيس كتابه "الثابت

والمتحول: بحث في الاتباع

والإبداع عند العرب" ثم

أتبعه بالجزئين الثاني

والثالث. وكما هو واضح فإن

أدونيس اعتمد، كما فعل طه

حسين من قبله، ولكن دون

أن يشير إلى المصدر



قوم إذا عشقوا ماتوا

قصص الحب العربية القديمة

سلمى الخضراء الجيوسي

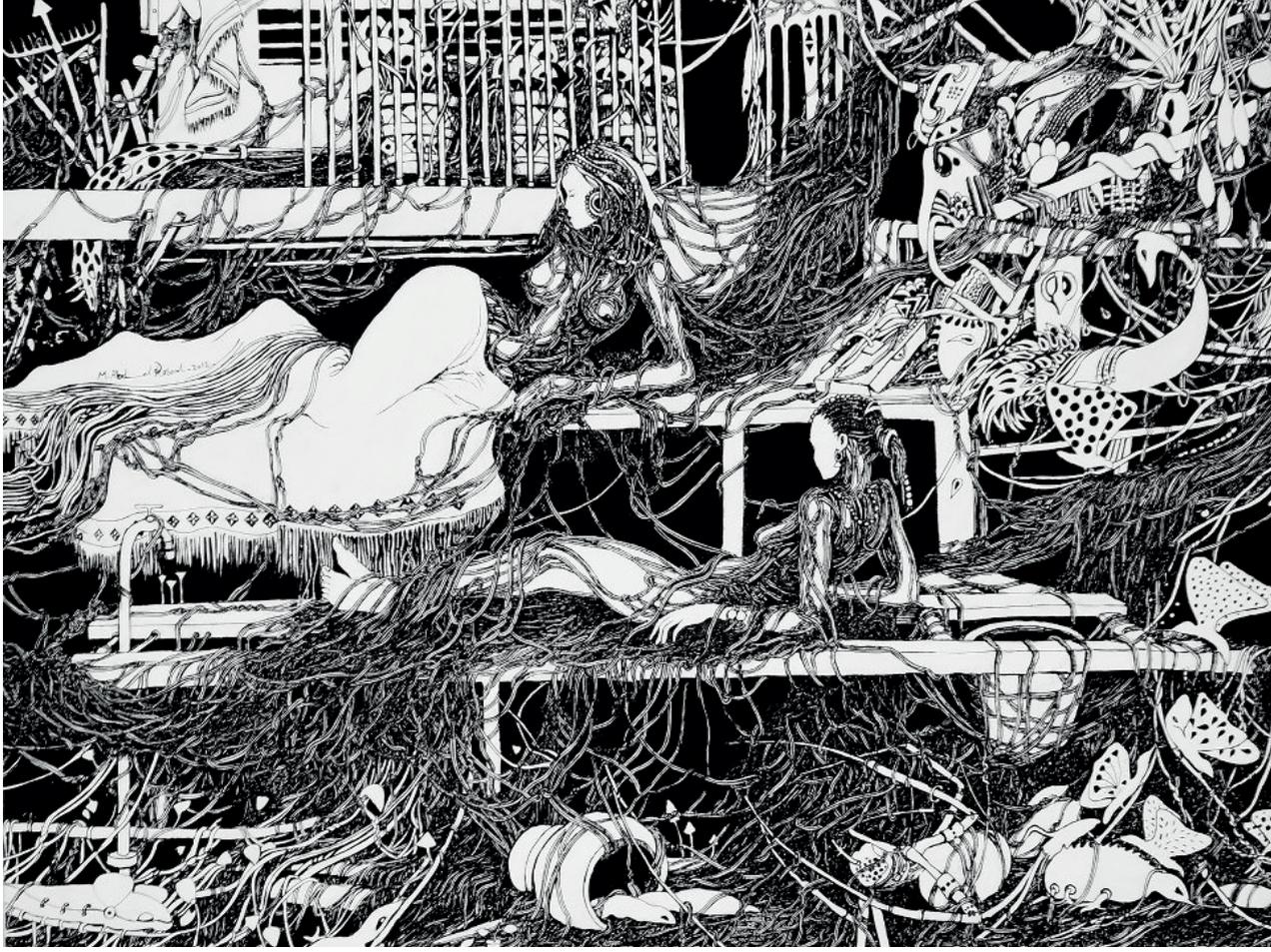
كان العصر الأموي (660-750) عصر تشكيل حدث فيه تغييرات رئيسية في الأدب العربي، شعره ونثره. ففي هذا العصر احتلت قصص الحب في اللغة العربية، خاصة في الحجاز، مكانها البارز من الصف الأمامي، مشيرةً إلى ظهور تيار عاطفي في الأدب جاء جواباً على القلق العميق الذي استولى على عرب الجاهلية بظهور دين جديد المسيطر على كل شيء، وعلى التغيرات المفاجئة والتناقضات التي أحدثت بالحياة العربية والصعوبة في التكيف مع المدنية الجديدة النامية. أضف إلى ذلك تجريد الحجاز من وضعها السابق كمركز للحياة السياسية، والقلق الذي أصاب أشرفها المحبطين الذين بقوا هناك. لقد حدث صراع سياسي رفع آمال البعض وأحبط الآخرين.



اجتماعية وسياسية: فالحجاز، حيث وُلدت أعظم ثورة روحية، ومن حيث جاءت أقوى اندفاعاً إلى العالم قبل ما لا يزيد على بضعة عقود، أصبحت، في العهد الأموي، تعاني موآتا سياسياً بعد انتقال سدة الحكم إلى دمشق، انتقالاً أريد منه تجريد الحجاز من الزخم السياسي ما أمكن. بيد أنها كانت فترة قلق عظيم للعرب جميعاً، وهم من تغيرت حياتهم كلها على مدى جيل واحد فقط. ذلك أنهم لم يستطيعوا على الفور هضم ما استولى عليهم بهذه السرعة من تغير جذري في كمية الثروة وفي نمط الحياة والآمال، فوجدوا أنفسهم وقد أحاطت بهم القلاقل السياسية، والحروب المدنية، والانقسامات الطائفية. فكان التنفيس عن النفوس المتشنجة مدفوعاً بالحاجة إلى الهروب والتعبير الحسي عما يجيش في النفس. ولم يقتصر التعبير عن حالهم على التمرد الشخصي وحده، بل غرَّع عنه أيضاً بالشعر العاطفي الحسي في الحجاز، والشعر الهجائي الذي ترددت أصداؤه في الأسواق الأدبية الشهيرة في العراق، سوق المربد في البصرة والكناسة في الكوفة.

الجديد. بسبب ذلك كان القلق العام الذي شمل المراكز المختلفة للعالم العربي المتمد. كانت الحجاز أولى المراكز الجديدة للأدب في العصر الأموي، وهي مولد الإسلام ومهدد الأول الذي فقد للتو قوته المركزية للأمويين في دمشق. وكان العراق المركز الثاني، وهو بؤرة الكفاح والضجر الأبدية؛ كذلك تبوأ دمشق، حيث موطن القوة، المركز الثالث. وكان لكل من هذه المراكز صفات أدبية مختلفة. فبينما كانت دمشق تشجع المديح بشكل خاص، فإن شعراء البصرة والكوفة، وكان أشهرهم الفرزدق (640/24-729/111) وجرير (653/33-727/113)، مالوا إلى الهجاء الطريف. أما بقية بلاد العرب، خاصة الحجاز، بلاد الأحلام المحبطة، فقد ركزت أكثر على أدب الحب، وكانت مركزاً للموسيقى والغناء وقصص الحب. فإن كان للهجاء العنيف في العراق أثر من رومانسية مبتذلة اكتسبت مبكراً جداً، فإن نوعاً من الرومانسية أنقى وأكثر مباشرة قد أضاء الأدب العاطفي الثر، خاصة لدى العشاق العذريين في العصر الأموي. عزا الكثيرون من مؤرخي الأدب ظاهرة قصص الحب بصورة رئيسية إلى أسباب

كما كان هناك تغير اجتماعي كبير جاء به نمط الحياة الجديد المتمثل بالمدنية الناشئة وقدم الكثرة من غير العرب إلى المدن التي أخذت تنمو، سواء منها القديمة والجديدة،^[1] بمن في هؤلاء الإمامة والقبان. لقد كانت هناك مقاومة نفسية لنمط الحياة الجديدة التي كانت تهدد الموروث والأعراف والعادات الراسخة التي أبدت مرونة أمام التغيير؛ وكانت هناك فرصة تغري بالهجرة إلى البقاع الأكثر خصوبة، بعيداً عن بيئة الصحراء الحبيبة، لكن القاحلة، التي استوطنها تاريخهم وأعرافهم قروناً لا تحصى. وبالرغم من التحسن الكبير الذي غير ظروف المسلمين الجدد وفتح لهم آفاقاً واسعة، فإن التغييرات التي فرضت عليهم قد أربكتهم وأحافتهم وأشعرتهم بالحنين للحياة المفقودة، خاصة حياة البداوة. وكانت ثمة حاجة لدى الأدب للتغيير باعتباره فناً. فبعد كل هذا التحول الهائل، وما كان للغة القرآن وأسلوبه من أثر، برزت ضرورة ملحّة للتغيير في مادة الموضوع، وفي لغة الأدب وأسلوبه. كان الأدب يحتاج إلى منافذ مختلفة تعكس العصر الضجر



بجاريته، فكانت قصته أكثر فحشا من أي من قصص الفحش التي وصلتنا من العصر الأموي. وقد أحاط والد الأميرة ابنته بسياج من حرس لا يسمحون لرجل أن يدخل المكان. غير أن المرقش كان يُحمل لها كل ليلة على ظهر جاريته. لكن أحد الحراس انتبه إلى أن آثار قدمي الجارية كانت تغوص عميقا في الرمل حين تدخل المضارب، ولم تكن كذلك حين تخرج، وبهذا اكتشفت الحقيقة.

وهناك من يعتقد أن هذه هي فاطمة بنت المنذر، ولكن هل كانت حقا أميرة يمانية؟ كذلك هناك رواية أكثر فحشا أن المرقش كان يميل إلى الجارية، هند بنت عجلان، أكثر من سيدتها فاطمة. وكان له صديق يُشبهه تماما هو عمرو بن مالك، أدخله على فاطمة ليختلي هو بهند. لكن عمله انفضح، فعرض على إصبعه حتى قطعه. وقد شب في شعره بهند "أمن بنت عجلان الخيال المطرّح، وكذلك طلب من فاطمة أن تصفح عنه "أفاطم إن الحب يعفو عن القلى".

بالرغم من القيود المفروضة على العشق من قبل قوم كانوا حريصين على نساءهم حتى

بسبب علاقة الشاعر المرقش الأكبر بها في القرن السادس. كانت قصة حبه لابنة عمه، أسماء، التي انتهت إلى المصير ذاته في قصص الحب الشهيرة الأخرى في العصر الأموي، حكاية علاقة يائسة، إذ تتزوج المحبوبة من رجل آخر، ويصاب العاشق بالهزال بحثا عنها حتى يموت. ولم يبق لنا من شعر هذا الشاعر سوى ست قطع، لكن القصة نفسها سرد جميل معقد. لم تكن القصة عن حب المرقش لأسماء فحسب، بل عن الجشع والخيانة حين يرسله أبوها، وقد وعده بأن يزوجه إياها، ليجث عن مهر لها، ثم يزوجه من رجل غني؛ وعن القسوة والخداع حين تتركه الخادمة وزوجها اللذان رافقاه في بحثه عن أسماء ليموت وحيدا في أحد الكهوف؛ وعن إخلاص الأخ حين يكتشف الوضع فيهرع لمساعدته، لكنه يصل متأخرا. إنها قصة معقدة تصلح لفلم حديث. ومن جانب آخر، هناك قصة من العصر الجاهلي أيضا، هي قصة الشاعر المرقش الأصغر التي تنتمي لعالم الفاحشة. كان هذا الشاعر على علاقة مكتومة بأميرة يمانية بنت أحد ملوك اليمن، وكان أيضا متعلقا

وهذان الجنسان إنما هما نوع من التنفيس، فالعاطفي الحسي والهجائي كلاهما لقيتا طلبا شعبيا كبيرا.

والكلام عن الحب، في الشعر والنثر على السواء، شكل صفات متناقضة للحب العذري والحب المتهتك، مؤسسا لنمط رائع من التراث العاطفي الذي لا يُنسى والذي انتقل للخلف وبقي حيا أبدا.

هنا لا بد لنا من القول إن هذين النوعين من قصص الحب لم يكونا أمويين تماما؛ فالمسرح كان أعد من قبل في العصر الجاهلي بقصص مثل قصة "مداد ومي" (راجع أدناه)، المذكورة في كتاب التيجان. فقد كانت هذه شكلا مبكرا من قصص الحب العذري المأساوي الذي كان له أن ينتشر بقوة في العصر الأموي. إنها قصة حب لم يكتمل بين مداد، وهو شاب من أشرف مكة، وابنة عمه مي. وقد انتهت القصة بانتحار العاشقين عطشا. ذلك أنهما، إذ حطمهما اليأس والوجد، امتنعا عن الماء وماتا عطشا كل منهما وحده (وهو ما يُضفي الطبيعة المخالفة للإسلام في القصة [21]).

هناك قصة أخرى، هي أقرب للعصر الأموي



كما اصطاح على تسميته إشارة إلى قبيلة عذرة في الحجاز التي كانت تفخر بعدد العشاق فيها ممن أهلهم العشق «قوم إذا عشقوا ماتوا»¹، وكان هذا الحب حرباً يُهزم فيها العشاق دوماً، وما مقاومتهم وثباتهم إلا رمز لروح مهزومة تجلدت بشهامة. أما التغيير في العصر الأموي في الثروة ونمط الحياة واحتمالاتها، فلم يوقف الاتجاه القوي نحو الحب العفيف. ففي النظرة الأولى بحسب المرء أن لا فرق بين قصة وأخرى. فالرجال على العشق ثابتون، وفي الوجد غارقون، ولا عزاء لهم إذ هم متميمون؛ أما النساء فقد كنَّ على الأغلب مستسلمات، يعيشن بصمت، وبمعاناتهن الصامتة، وإذعانهن الذي لا منعة له، يهيئن المسرح لملايين النساء في المستقبل العربي الطويل. أما الاختيار في الحب فمحرم على الطرفين.

لم يكن للجلد في العشق، وما كان له قط، أن يشوبه الأمل في الوصال والسعادة. فعلى الأغلب أن ينتهي بغير نتيجة، وأحياناً بالجنون فالموت، كما كان حال مجنون ليلى. بيد أن على قصة العشق التي تطمح إلى الخلود أن تدور بحكم الظروف حول الحرمان والخسارة ومحاولات تجاوزهما أو تحديهما بالإصرار القوي على الثبات. فأفضل الأدب وأكثره التصاقاً بالذاكرة لا يتخلق عادة من السعادة بكتب العاطفة ومنع الوصال الدائم.

وكما قلنا أعلاه، لقد تراخى الالتصاق العاطفي بنقاء الحب وثباته مع نشوء الحياة الحضريّة في الكثرة من المدن التي انتشرت في الإمبراطورية العباسية الواسعة. وباستثناء أمثلة نادرة، سوف نفتقد في العصر العباسي الطويل تلك الحرقة الخارجة من الروح بسبب المعشوق، والإخلاص الدائم، والرقّة والعفة. ذلك أن الاتجاه الشهواني قد أصبح العرف السائد في العصر العباسي. فيتدفق كل أنواع العبيد من الجنسين ومن كل الأعراق، تغيرت طبيعة العشق عموماً، وأصبحت مكرسة للسعي وراء المتعة، وأحياناً وراء الشذوذ الجنسي. وقد أثبت العشق قدرته على التحولات الكثيرة، وعلى تجريب طفرات حقيقية للمزاج والشدة. أما الفن القصصي فكان له طيف واسع من الأفكار، بعيداً عن قصص الحب الذي لا مقابل له أيام الأمويين. أما بالنسبة إلى الأمويين، فقد كانت هذه القصص المأساوية

مثير وملائم لمذاق سائد، فيدور دورته ثم يخبو حين تدهمه قوى التغيير، وغالباً ما تكون بسبب تعب جمالي. أما الاتجاه، مقابل ذلك، فلا يختفي تماماً، بل يتبدد، معطياً الطريق تدريجياً لاتجاه جديد، غالباً ما يكون صحيحاً، فيتعايش معه لزمان ما. وهذه الحركة الداخلية في الأعمال الإبداعية تبين لماذا نجد دائماً في بعض العصور الأدبية القديم والجديد، والتقليدي والمبتكر معاً. كذلك تعتبر القصص تمرداً ضمناً على الأعراف الموجودة، واتهاماً للمحرمات الثقافية القاسية التي تشدد فيها الإسلام. لكن هذا التمرد لم يُستغل قط. فلم يكن هناك تحدّياً لصاحب سلطة أبوية قاسية القلب أنزل من سيادته الذكورية؛ كذلك بقيت عفة المرأة العربية إلى الأبد جوهر الأخلاق الرفيعة، وبرهان شرف الأسرة، وميثاق أخلاق لا يُنتهك مطلقاً. أما الشوق إلى الاختيار في الحب، وإلى بلوغ قمة النشوة، فقد بقي قابلاً في الروح العربية زمناً طويلاً، متجاوزاً الزمن الحضري الغني للإمبراطورية، بنزعتة الجنسية الملونة المحرمة، ومحاورته الصريحة للشهوانية، ليعود إلى الظهور ثانية في فترات وأماكن مختلفة في الوطن العربي، ثم ليؤكد قوته بين الشعراء والروائيين العرب في النصف الأول من القرن العشرين. كان الحب العذري الأموي،



وسواء أكانت تلك القصص جميعاً حقيقية تعود إلى أشخاص حقيقيين في التاريخ أم لا (بعضها، كقصة جميل بثينة، حقيقية قطعاً)، فإن وجودها كقصص مطولة في عصر الشهوانية تبقى الاهتمام الرئيسي لهذا البحث



أن قصصاً كثيرة، أغلبها مأساوية، حدثت خلال التاريخ العربي بسبب هذه القيود، فإن العشاق في العصور القديمة ما فتئوا يختارون مصيرهم بأنفسهم، ويتغزلون بمعشوقاتهم حتى تشي عواطفهم بما يعترتهم من شوق قد يبلغ حدّ الجنون، كما كان حال قيس بن الملوّح، المعروف بمجنون ليلى. ذلك أن قيساً، بعد أن زوّجت ليلى برجل آخر من قبيلة أخرى، هام على وجهه في الفياقي، باكياً عشقه بشعر جميل يحرك العاطفة. كان حبه، بكل ما أوقع فيه من عذاب، وصلاً يشتهيهِ أبداً الدهر. ها هو ذا مجنون ليلى يتمسك بأستار الكعبة متضرعاً إلى ربه أن يزيد من حبه ليلي فلا يتزحزح عن قلبه. أما قصة قيس بن ذريح (ت 688/68) وحبه للبنى، زوجته الحبيبة التي لم تلد له ولداً، والتي أجبر على طلاقها بمكائد من لدن والديه وإصرارهما الشديد، فإنها تروي الوجد ذاته وتصور الحيرة عينها، والبحث الجامح عن المحبوبة، والعذاب الذي لا يني والذي شهدناه عند العاشقين الآخرين. والمذهل في هذه القصص ليس فقط ذلك الانتعاش الدائم في كل مرة يلقي العاشق معشوقته، بل حقيقة أنها تكشف لنا إخلاصاً لا يحول لدى الرجل العاشق، مكذبة ما يعتبر من صفات الذكورة: التقلب وعدم الثبات في الحب. وقد خلد عدد من هذه القصص المثالية عبر الزمن لأن أبطالها كانوا شعراء مشهورين.² ولعل أشهرهم كان جميل بن معمر المعروف بجميل بثينة، الذي بقي على حبه لبثينة حتى وفاته في مصر عام 701/82. وقصة جميل هي القصة ذاتها عن الانفصال بالقوة وعن الإخلاص الدائم. كان جميل رجلاً معروفاً في الحجاز، فما من شك في أن قصته كانت صحيحة. وقد قال أجمل شعر الغزل وأرقه.³

ألا أيها التَّوأم، ويحكّم، هَيّوا!
أسألكم: هل يقتل الرجل الحب؟
قصص الحب المأساوية⁴ التي تعكس الأوضاع المتطرفة كانت أيضاً تلائم المزاج العام. إلا أن تراكم هذا الكم من قصص الحب المتشابهة تشابهاً كبيراً تشير إلى بروز نمط أدبي سائد كان يسيطر على اللحظة الأدبية في الحجاز لوقت ما، ثم اختفى. لكن النمط السائد ليس اتجاهها. فهو يتشكل في الأدب عندما يتبنى عدد من الكُتّاب في فترة زمنية ما عملاً متفرداً للتعبير عن شيء



[1] هناك مدن موروثّة من الزمن السابق، مثل دمشق ومكة والمدينة والطائف، وأخرى أسسها المسلمون الأوائل كالبصرة (636/14) والكوفة (639/17)، اللتين أصبحتا مركزين كبيرين للتثاقف الأدبي واللغوي في هذه الفترة وما بعدها. ثم بنى العباسيون الأوائل بغداد وبعدها سامراء.

[2] الانتحار مخالف لتعاليم الإسلام.

[3] لقد دارت ظنون كثيرة حول وجود قيس بن الملوح وغيره من الشعراء الذين نسجت حول حياتهم المثيرة قصص العشق. بيد أن الشعر الذي نسب لقيس بن الملوح وقيس بن ذريح، وهما من أشهر الشعراء العذريين في زمانهما، ذو جرس حقيقي. وما فيه من وجد وصدق وعذوبة ووهج وأنيب لا يمكن أن يكون مزورا من قبل رواة الشعر. بيد أن هذه المسألة ليست في مجال هذه المقدمة. فسواء أكان أبطال القصص أناسا حقيقيين كانوا موجودين لحما ودما، أم أنهم مختلقون، فليس لذلك صلة بحقيقة وجود القصة. وما يهمنا هنا هو مادة الفن القصصي وليس حقيقة هوية أبطالها.

[4] كان جميل بن معمر (أو جميل بثينة)، أحد أشهر الشعراء العشاق. وقد حرم من الزواج بثينة، ولكنه قضى بقية حياته وقد امتلك العشق قلبه. واتفق أن التقى العاشقان وهما في منتصف العمر، فرأت شعره وقد خضبه بالحناء، فقالت له: كبرت، يا جميل، وذهب صباك! فذكرها بصباهما، وكيف كان يضع الطيب على شعره الأسود، ويمشي يجر كبره وراءه، ثم ينتهي إلى القول:

All this was changed by fickle time. But you
like the Marzuban's pearl,* still in the sap of youth,
We were neighbors once, shared the same playing ground
How is it I grew old
and you did not

[5] كان الاهتمام الكبير بالعشق والمعاناة جاريا أيضا في القصص القديمة. ها هي مارغريت أ. دودي تشرح كيف أن "المصير" و"المعاناة" و"العشق" كانت تمثل في الآداب الروائية الإغريقية والرومانية القديمة وغيرها، حيث كان الأبطال والبطلات يعانون من المحن. راجع القصة الحقيقية للرواية، منشورات جامعة تّجرز، نيو جيرزي، ط2، 1997، ص 33.

[5] راجع جعفر السراج، مصارع العشاق، بيروت، 1858، مج 2، ص 186.

[7] لم يكبت الإسلام الحب بل العلاقات الخفية. وهناك حديث مشهور ينسب للرسول يقول: من أحبّ فعفّ فكمتم ومات، مات شهيدا. ويعتبر هذا حديثا صحيحا متناقلا. وحقيقة أن مثل هذا الحديث حفظ وتناقلته الألسن يظهر تعاطف الإسلام مع العشق والعشاق ما دام عشقا عفيفا.

[8] للاطلاع على مزيد من العصر الأموي، راجع الفصل "الشعر الأموي"، في تاريخ الأدب العربي - كامبردج، م. س.، مج 1، ص 387-432، وراجع ص 27-419 حول أدب الحب. راجع أيضا النقاش المقنع للمصنف الوهبي، "العشاق العرب أو أبناء قوس قزح"

[Arab Lovers or the Sons of the Rainbow]

في كتابي القادم، قصة العربية في القرون الوسطى

(The Medieval Arab Story).

تمثيلا عظيما للفجيجة الخاصة التي بدأت مبكرا في الثقافة العربية.

من الممتع جدا أن نلاحظ الأوضاع المتناقضة في العصر الأموي. فبينما كان المسرح الشعبي الأقوى يحدث في دمشق حيث انتقلت سدة الحكم، وعلى التخوم الواسعة للأملاك العربية سريعة التمدد، فقد كان في الحجاز تركيز كبير على التجارب الخاصة جدا، حيث أشارت الرقابة الذاتية (self-absorption) في هذه القصص إلى تراجع عن المشاركة الشعبية، وإلى سماع للصوت الحميم الآتي من العشاق المحرومين، بدل الطاقة النشطة التي كانت تملأ آفاق المنطقة قبل ذلك ببضعة عقود. ويتجلى في هذه القصص جوهر العاشق، وهو موقف يعتبر اليوم علامة للرواية الحديثة.

بيد أن علينا أن نتذكر في العصر الأموي، إلى جانب العشق العفيف والفاشل، ذلك النمط المغاير الآخر: بينما كان أولئك العشاق البؤساء، وأغلبهم من البدو، يبكون مصيرهم، كانت هناك، خاصة في مدن الحجاز المزدهرة يومئذ، مجموعة من العشاق الآخرين ذات ثروة محدثة ومندفعة نحو فن الموسيقى والغناء وتعرف جيدا كيف تستمتع بالحياة. وكانت، بقيادة ذلك الشاعر ذي الروح المرحة، عمر بن أبي ربيعة (643/23-711/93)، لا تطيق في العشق صبورا ولا ثباتا ولا وجدا. وكانت الكثرة منهم شعراء، وقد تُسجت حول بعضهم أكثر القصص سحرا. ولقد كانت كلا التجربتين وليدة الدافع ذاته: الحاجة إلى الهروب.

وسواء أكانت تلك القصص جميعا حقيقية تعود إلى أشخاص حقيقيين في التاريخ أم لا (بعضها، كقصة جميل بثينة، حقيقة قطعا)، فإن وجودها كقصص مطولة في عصر الشهوانية تبقى الاهتمام الرئيسي لهذا البحث. ولقد كانت تعكس ثقافة شكّلت تجربتهم الوجودية، ليست بكابته ولا سامحة (71). بيد أن الشعبية الكبرى، على ما يبدو، كانت لتجربة العشاق الفاشلة والعفيفة الذين حملوا عشقهم المبرح مدى الحياة. وكما قلنا أعلاه، كان هناك فحش حتى في القرن الأول، ولكنه كان في الأغلب مستورا (81). وهذا الجانب من العشق كان له أن يتطور مع الزمن وأن ينحرف جزء منه إلى الشذوذ الجنسي لدى العشاق في طول الإمبراطورية الإسلامية وعرضها، من قرطبة إلى بغداد ■

ناقدة وشاعرة من فلسطين مقيمة في أميركا

مازق التغيير

مصير الدولة الوطنية في العالم العربي

خطار أبودياب

مع مرور أربع سنوات على انطلاق الحراك الثوري من تونس إلى اليمن وسوريا، يبدو المشهد السياسي العربي مستعصياً على التغيير مع تأكيد المازق في أكثر من مكان بالرغم من الرهانات الكبيرة على ربيع لم يزهز إلا بخجل. يستمر إذن ثقل القرن العشرين الذي كان قرن الخيبة والفشل العربي وكان الديمقراطية التي مرت بكل أصقاع الأرض بعد نهاية الحرب الباردة بقيت ممنوعة من الصرف في ديار العرب. ليس من المحتم أن تكون الديمقراطية الترياق للمشكلات البنيوية ولمعضلة إيجاد صيغة الحدائة الملائمة، لكن لا بد من التساؤل عن أسباب عدم لحاق العالم العربي بالركب والتخلص من تركيبات استبدادية وغير تمثيلية.



تحت حجة الدفاع عن القضية الفلسطينية. بيد أن آلية التفسير الأقرب إلى الواقع عن سبب استمرار الأنظمة ضمن مجتمعات منهكة ومنظومة جيوسياسية مضطربة، تستند إلى علم الاجتماع العمراني وإلى الواقعية السياسية الماكيافيلية. في الكثير من الحالات تعتمد المجموعة الحاكمة على روابط العصبية بحسب مفهوم بن خلدون، في تعزيز وحدتها، وتقوم بربط القطاعات القوية في المجتمع فيها بسلسلة من المصالح، على أن يخضع كل ذلك لإشراف أجهزة أمنية تمسك بالكثير من مفاصل القرار. في الدولة البوليسية العربية. إذا جاز لنا التعبير بعدما غرر بنا طويلاً بتقسيم الأنظمة بين تقدمية ورجعية. يعتبر القائد الملهم رأس الهرم مستنداً إلى عصبية المجموعة الحاكمة (الأسرة، الحزب، الطائفة، القبيلة أو المنطقة...)، ولا يستند الولاء لاعتبارات الانتماء والعصبية فحسب، بل يشتري أيضاً من خلال النفعية الشائعة وتحكم قطعة مالية. أشبه بالمافيات. بمرافق الاقتصاد وبتبديد المال العام أبرز عناصر قوة المستبد للتنكيل ببني قومه. وتكتمل الدائرة في التفتيش عن شرعية قومية أو

منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي للشعب الفلسطيني. ومنذ ذلك الحين انسدت آفاق التغيير وأخذت الأنظمة تفتخر بديمومة تربّعها على مقدرات الحكم حيث أن الحصيلة البائسة والأزمات الاقتصادية والأحداث الجسام (من حروب لبنان إلى حروب الخليج والاتفاقات مع إسرائيل ومسلسل العنف الجزائري وسقوط بغداد، لم تفلح في زعزعة أي نظام أو إدخال تغييرات جدية على طبيعته. منذ بداية التسعينات تأكد المازقان السياسي والأيديولوجي في عالم عربي محشور بين أنظمتها البوليسية الطابع غالباً وبين حركات إسلامية لم تعد تجسد آمال التغيير الإيجابي ولو أنها حافظت على مواقفها كقوى معارضة أساسية. وقد سهّل الاستبداد وسعي الأنظمة لاكتساب شرعية تنقصها عبر الأسلمة الاجتماعية نشوء هذا الواقع وانحسار دور القوى الليبرالية والديمقراطية. وفي ظل هذا المعطى تكسّر خلق الفراغ حول الحاكم والتهويل من أخطار الفوضى، بالإضافة إلى قصور التيار القومي العربي عن حمل لواء الديمقراطية وعن طرح معادلات جديدة بعدما بقي لفترة طويلة سيد الحياة الفكرية

الماخذ على تصدير الديمقراطية عبر مشاريع خارجية أو عبر أشكال جديدة من الاستتباع الثقافي والاقتصادي، يتوجب على النخب العربية في المشرق والمغرب والخليج التفكير ملياً في أسباب المازق السياسي والأيديولوجي الذي يمنع الشعوب والأفراد من التمتع بحقوقهم وعيش مواطنتهم والاشتراك في صنع مستقبلهم.

من خلال مراقبة تطور الواقع العربي في العقود الأربعة الأخيرة للقرن العشرين والعقد الأول من هذا القرن، يتضح أن زعزعة الاستقرار المنتظمة التي اتسمت بها المنطقة تناقضت قطعاً مع استقرار الأنظمة التي لم تعرف غالبيتها إلا القليل من التحولات رغم تغيير بعض الأوجه القيادية فيها. وهذا الاستنتاج يخرق نظرية الأدوار السياسية حيث كانت تحصل تحولات كل عقدين من الزمن، منذ تأسيس دولة إسرائيل عام 1948. الدور الأول لهذه التغييرات حصل مع الانقلابات العسكرية من سوريا إلى مصر والعراق في عقد الخمسينات، أما الدور الثاني فبعد هزيمة 1967 إذ شهدت سوريا وليبيا والسودان ثلاثة انقلابات وبدأ صعود

دينية مصطنعة لتبرير ضروب الاستعباد. بعدما بلغ السيل الزبي مع تهوي النظام الإقليمي العربي بدأ السقوط عام 1967 وتعمق منذ سقوط بغداد عام 2003 وبرز ثلاث قوى إقليمية هي إسرائيل وتركيا وإيران تحت ظلال العصر الأميركي وفشل معظم تجارب دول الاستقلال، أصبح التغيير حاجة ملحة عبر إعطاء تعريف جديد للعروبة كي تكون بوتقة حضارية ديمقراطية تستوعب الخصوصيات الإثنية والثقافية والدينية. إن الدولة البوليسية العربية هي ثمرة نكبة 1948 في المشرق وصعوبات نزع الاستعمار في المغرب، ولا بد لدولة القانون (أو لدولة الحق كما يصير البعض على تسميتها)، من أن تكون الدولة البديلة التي تعكس تمثيلاً حقيقياً لمجتمعاتها وليس في الضرورة من خلال نموذج ديمقراطي جاهز غير متلائم مع الخصائص الثقافية لبعض المجتمعات العربية.

يعمق الأزمة القائمة البعد التاريخي للانحطاط بعد فشل أول محاولة نهضوية عربية في أواخر القرن التاسع عشر والتي أتت كردة فعل على الاستبداد العثماني، وكذلك بعد انتكاسات التيار القومي العربي الذي بلور مشروعاً نهضوياً كردّ على النكبة في فلسطين، لكن هزيمة حزيران 1967 وانعدام الحريات الأساسية قوضا المحاولة الثانية. واليوم، بعد تجارب 2011 - 2015، يبرز مأزق عدم وجود ديناميكيات قادرة على التغيير، وهذا يتوجب أن يحفز على بلورة مشروع ديمقراطي عربي على ضوء المتغيرات الجديدة الآخذة في التشكل في مرحلة ما بعد أواخر العام 2010 (الحراك الثوري العربي وتداعياته، وبناء على تفاقم الوضع في سوريا وليبيا واليمن وانتكاسات المراحل الانتقالية، تكتسح العواصف الربيع العربي ويكثر الكلام عن إعادة رسم الخرائط وعن تجاذبات أو ترتيبات دولية جديدة.

لكن مقابل عدم تبلور صورة المشهد الإقليمي ومصير وحدة الكيانات في مستقبل منظور، نلحظ استمرار تحطيم الدول المركزية استناداً إلى مخاطر امتداد النزاع السني - الشيعي في المشرق والمعطوف على صراع في سوريا وحولها متصل بمصالح إيران وإسرائيل وتركيا وغيرها من أطراف لعبة الأمم. أما في مصر والمغرب العربي فتبرز

الصراعات الأيديولوجية والقبلية والجهوية لكي تترك آثارها السلبية على وحدة المجتمعات. كل ذلك يطرح تساؤلاً رئيسياً حول السيناريو الأكثر ترجيحاً بالنسبة إلى مستقبل نموذج الدولة القومية عبر نهايته أو تأقلمه وتحوله لدولة مختلطة تعددية لا مركزية تسمح بتلبية مطالب المجموعات الإثنية والمكونات الأقلية، مما يتيح لاحقاً تحديد السمات الرئيسية للنظام العربي بشكل فيدرالي خاصة في المشرق.

تاريخياً، تعتبر الدولة ظاهرة القرن العشرين بامتياز وفيه تصاعد عدد الدول من 120 دولة إلى 195 دولة بعد نهاية الحرب الباردة. ولم يشذ العالم العربي عن القاعدة العامة إذ أن دوله نشأت في القرن المنصرم كنتاج لتفكيك الدولة العثمانية ونزع الاستعمار الأوروبي لاحقاً. وفي السياق التاريخي يمكننا القول إن الصحوة العربية المنطلقة من تونس هي ثالث محاولة نهضوية للتخلص من الانحطاط والاستبداد وبناء أنموذج سلفي أو تغييره أو حدثي جديد تبعاً لطروحات هذا التيار الفكري أو ذلك.

ومن اللافت للنظر إلى أن الانتفاضات العربية اندلعت في نطاق الكيانات، ولم تكن لها في البداية اطروحات فوق قومية أو دينية. وبدا عامل العدوى طبيعياً ومنتظراً بالرغم من تحرك قوى الثورة المضادة من قوى إقليمية ودولية أو من قوى أيديولوجية استعجلت قطف الثمار لبناء مثالاتها في الدولة الإسلامية أو في الخشبية على دولة



تاريخياً، تعتبر الدولة ظاهرة القرن العشرين بامتياز وفيه تصاعد عدد الدول من 120 دولة إلى 195 دولة بعد نهاية الحرب الباردة. ولم يشذ العالم العربي عن القاعدة



القانون، أو دولة الحق المدنية والعلمانية الطابع، مما زاد في احتدام الصراع بين التيار الديني والتيار المدني.

وقد لاحظ الكاتب زاكروس عثمان أن الربيع العربي كان ثورة فريدة سبقت العالم إلى إعلان انتهاء عصر الدولة، فهو ليس مجرد تمرد على أنظمة حكم استبدادية فاسدة، بل ثورة على الدولة الفاشلة، وقفزة نحو المستقبل لإيجاد تنظيم أوسع من الدولة التي أصبحت في حد ذاتها مشكلة عالمية. في هذه المقاربة حسم مبكر لنتائج مخاض لن تظهر نتائجه حالاً، لكن المراقبة للمشهد العالمي تبين بالفعل أنه بعد مرحلة صعود وتضخم للدول بعد نهاية الحرب الباردة وبالتزامن مع العولمة الشمولية، نعيش مرحلة انحدار الدولة عالمياً. مع بدايات القرن الحادي والعشرين، نستنتج تراجعاً مع زيادة المناطق الرمامية (اللادولة)، وتؤكد تفكك الدول من الصومال إلى كوسوفو وتيمور الشرقية والعراق والسودان... ناهيك عن حالات تفكك ممكنة في قلب أوروبا بالذات من كاتالونيا الأسبانية إلى بلجيكا وأسكتلندا وإيطاليا. وهكذا في مواجهة العولمة والتجمعات الكبرى، يعمل تيار ليبرالي من أجل خصخصة وظائف الدولة السيادية (الأمن والجيش) أو من أجل تذويبها تقديماً كما في حال منطقة اليورو.. وهناك أيضاً تيارات قومية أو دينية تعمل لمزيد من الانكماش وضرب أنموذج الدولة القومية الغربي المنشأ وغير الملائم حسب وجهة نظرها للتطور التاريخي الحالي.

هكذا بدل تباشير تحول عربي إيجابي كانت تلوح في أفق 2011، يبرز اليوم واقع سياسي معقد ربما يجعل مفهوم الدولة القومية متضارباً مع العالم العربي الجديد الناشئ. لذا لا بد من مشروع ديمقراطي عربي ينهل من التراث العريق ويتأقلم مع متطلبات الشمولية في عالم تسوده التجمعات الكبرى، وخصوصاً أن الحلول للأزمات ضمن إطار الكيانات لم تكن ناجحة. إن الشرعية الدينية ليست كافية لوحدها ولا يجوز أن تطغى أيديولوجيتها على عناصر الدولة القومية الناجحة: الشورى الديمقراطية، الاستقلال الاقتصادي، النمو المدعوم ذاتياً، والأمن السياسي داخل الحدود الوطنية ■ كاتب من لبنان مقيم في باريس

قصيدة غير عصماء

عن حديقة الحيوان المنقرضة

سيف الرحبي

لَا شَيْءَ أَحْمِلُهُ هَذَا الصَّبَاحَ
عَلَى كَتِفِي، إِلَّا الْأَلَمَ
يَتَسَلَّلُ إِلَى أَعْمَاقِ الرُّوحِ
الرُّزْزَالِ بِجِوَارِ بَيْتِي
مَا زَالَ يَخِيطُ الْأَسَاسَاتِ وَالْحَيْطَانَ
الَّتِي تُوشِكُ عَلَى الانْهِيَارِ
عَلَيَّ تَهْرَيْبُ أَطْفَالِي إِلَى بُلْدَانِ
لَا يَطَالُهَا الرُّزْزَالُ وَالْفَيْضَانَاتُ
بُلْدَانُ مُسْتَحِيلَةٌ
أَبَحْتُ عَنْهَا فِي خَرَائِطٍ مُحْتَرَفَةٍ
حَامِلًا عَلَى كَتِفِي هَذِهِ الْمَرَّةَ طِيُورًا كَانِ
يَحْمِلُهَا
فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ، قَرَايِنَةٌ شَرِسُونَ
الطُّيُورِ الَّتِي تَدُلُّ الْقَرَايِنَةَ إِلَى الْجُرُزِ
الْمُسْتَبَاحَةِ حَالٍ وَضَوْلِهِمْ إِلَى الشَّاطِئِ
حَيْثُ عَدْرَاوَاتٍ يَتَنَزَّهْنَ وَفَرُودٌ.
بَيْنَ بَيْتِي وَالشَّاطِئِ دِينَاصُورَاتٍ تَصْطَفُ
طَوَائِبِرَ أَمَامَ الْبَاعَةِ الْهَنُودِ
لَقَدْ نَسِيَهَا الْانْقِرَاضُ فِي الظُّهَيْرَةِ الْقَاتِمَةِ
فَهَا هِيَ تَحْمِلُ بِالرَّحِيلِ أَوْ الْمَوْتِ.
أَحْمِلُ إِرْتِكُكُمْ عَلَى كَتِفِي
يَا أَبْنَاءَ الْعُرُوبَةِ الْفَارِينَ مِنْ قِتَالِ الدَّبِيَّةِ
فِي الْمَدَارَاتِ الْفُطَيْيَّةِ
بَعْدَ أَنْ فَنَيْتُ جَمِيعَ الْفُقَمَاتِ
وَالْبَطَارِيقِ
الَّتِي يَعَشُقُهَا أَطْفَالُ الْغَدِ
أَحْمِلُ إِرْتِكُكُمْ مِنْ غَارٍ إِلَى سِجْنِ
وَمِنْ كَهْفٍ إِلَى آخَرِ.
يَا أَهْلَ الْكَهْفِ يَا أَهْلِي وَإِخْوَتِي
أَمَا حَانَ لَكُمْ النُّهُوضُ
غَدَاةَ قَرْنٍ قَادِمِ
لِتَلْفُؤُوا نَظْرَةَ الْوَدَاعِ الْأَخِيرَةِ
فَالْقِيَامَةَ عَلَى الْأَبْوَابِ
طَلَانِعُهَا تَحْتَلُّ الْمُدُنَ وَالشُّكُنَاتِ.
أَحَاوِلُ الْقَوْلَ أَيضًا:
إِنَّ الْجِبَالَ غَادَرَتْ مَوَاقِعَهَا
وَعَادَتْ إِلَى رَجَمِ الْأُمِّ الْأُولَى
ثُقُوبٌ سَوْدَاءُ تَبْتَلِعُ الشُّعُوبَ وَالْمَجْرَّاتِ
أَطْفَالٌ عَرَاءٌ يَسْبَحُونَ فِي سَدِيمِهَا الْهَائِجِ
وَالنُّخْلِ، فَيَالِقُ النُّخْلَ تَتَقَصَّفُ تَحْتِ
رَعْدِ الْجَفَافِ.
هَلْ سَتَمْنَحُنَا الْأَبْدِيَّةَ ثَانِيَةً أُخْرَى
كَيْ نَتَمَدَّدَ عَلَى فِرَاشِهَا الْوَثِيرِ:
يَقُولُ الْفَدِيسُ
وَهُوَ يَلْفُظُ أَنْفَاسَهُ
تَحْتَ أَقْدَامِ الدِّينَاصُورَاتِ
هَلْ سَيَعُودُ الْبَاعَةُ الْهَنُودُ
لِاسْتِقْبَالِ الْبِضَائِعِ الَّتِي عَرَفَتْ فِي
الْمُحِيطِ
الْمُحِيطِ الَّذِي مَا فَتِيَ مِنْذُ دَهْرٍ
يَبْعَثُ بِرِسَائِلِ غَضَبٍ
وَاحْتِجَاجٍ.
عَلَيْكُمْ لَمَلَمَةٌ أَشْلَاءِ الضُّحَايَا
عَلَيْكُمْ الْقُدُومُ كُلُّ صَبَاحٍ إِلَى الشُّكْنَةِ
لِتَوْقِيعِ عَرَائِضِ الْحُضُورِ وَالْغِيَابِ
عَلَيْكُمْ النَّبَاحُ فِي الْمَرَايِلِ
مَعَ الْكِلَابِ الْجَائِعَةِ
وَالجِمَالِ النَّافِقَةِ
الَّتِي سَتَحْمَلُونَهَا أَثْقَالَكُمْ كَالْعَادَةِ
قَاطِعِينَ بِهَا أَقْفَالَ الصُّخْرَاءِ
الجِمَالِ الَّتِي لَا تَنْسَى الذُّلَّ وَالْمَهَانَةَ
حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهَا بِرَمَانٍ
شَائِبٌ شَرَّهَا تَبْعَثُ الرَّجْفَةَ



(ذَاكَ زَمَنٌ مَضَى، نَحْنُ الْآنَ
بِلَا خَرَائِطٍ وَلَا أَهْدَافٍ)
عَدَا خَرَائِطِ الدِّمِّ الْمَسْفُوكِ وَغَرَائِزِ
الْاِفْتِرَاسِ،
نَتَّوَحَّدُ مَعَ رُوحِ الصُّبَاعِ اللَّاهِئَةِ فِي
الْأَرْضِ
وَالْأَفْقِ، نُبِيدُ الدِّيَانَةَ وَالْأَعْرَاقَ، لَا نَحْتَاجُ
إِلَى مُورَخِينَ وَلَا دُعَاةٍ، نَمَحُو آثَارَنَا كَمَا
تَلْعَقُ
الصُّبَاعُ الدَّمَ الْمُتَخَثَّرَ وَالْأَفْدَامَ..

IV

فِي لَيْلِ الْأَزَلِ الْقَاتِمِ
يُبْحِرُ الْفَرَاصِنَةُ وَالصُّبَاعُ
مَحْمُولِينَ عَلَى رَايَةِ النَّصْرِ
وَالشَّرْعِ
وَجَيْدًا يُسَافِرُ تَسَوَّفُهُ رِيَاخُ
الْمَوْتِ فِي الْمُحِيطَاتِ.

V

أَيْهَا الطَّائِرُ
وَسَطَ زَوَابِعِ الصَّخْرَاءِ وَالْغُبَارِ
تَقِفْ مَكْسُورًا عَلَى عَمُودِ الْكَهْرَبَاءِ
تُدِيرُ جِسْمَكَ الصَّغِيرَ
فِي الْجِهَاتِ الْمُدْهَمَةِ
كَأَنَّمَا تَلْهَجُ بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاتِ.

شاعر من عمان

بِعِنَاقِ السَّحْرَةِ وَالْأَشْبَاحِ
إِلَى آخِرِ الْمَدَى تَلَهَّتْ الصُّبَاعُ
وَرَاءَ الْجَرَحَى وَالْمُشَرَّدِينَ
رَائِحَةَ الدِّمِّ تُغْرِبُهَا بِالسَّبْقِ وَالْهِجَاجِ
بِشِدَّةٍ وَهَدُوءٍ أحيانًا
تَحُومُ حَوْلَ فَرَائِسِهَا مَعَ نُسُورِ الرَّحْمَةِ
فِي الْأَرَاظِي الْمَنْسِيَةِ وَالْوُدَيَانِ
لَقَدْ أَتَخَمَتْهَا الْوَلِيمَةُ
حَتَّى صَجِرَتْ مِنَ الْاِفْتِرَاسِ
وَلِأَنَّ الْمُقَدَّرَ مَكْتُوبٌ فِي الْغَرِيزَةِ

وَالجَبِينِ

مَاذَا تَفْعَلُ الصُّبَاعُ بَعْدَ الْآنِ؟!

III

سُفْنُهُمْ تُبْحِرُ عَبْرَ الْبَحْرِ
فِي الْخَرَائِطِ الْمُخْتَرِقَةِ
يَعْبُرُ الْفَرَاصِنَةُ نَحْوَ الْمَجْهُولِ
تَفُودُهُمُ الْأَحْلَامُ
تِلْكَ الَّتِي أَضَاءَتْ لِأَسْلَافِهِمْ
عُتْمَ الظُّلُمَاتِ

الْقَدِيسُونَ يُبَارِكُونَهُمْ..

(لَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَيْكُمْ)

يَقُولُ الْفَرَاصِنَةُ لِلْأَسَافِقَةِ وَالْقَدِيسِينَ..

لَكِنَّا قَدْ نَا السُّفْنَ مِنْ آيِبِيرِيَا، وَكُنَّا

مَعَكُمْ نُبِيدُ

الْأَعْرَاقِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُهَا التَّارِيخُ

فِي الْأَعْدَاءِ
كَمَا كَانَ (الصَّيْعَرُ) فِي عَتَمَةِ الصَّخْرَاءِ
الدُّنَابُ وَقَدْ نَسِيَتْ عِظَامَهَا فِي الرَّمْلِ
بَقِي عَوَاوُهَا يُلْجِمُ الْأَرْجَاءَ
بِنَحِيْبٍ لَا يَنْقِطِعُ.
صُبَاعُ تَرَعَى أَطْفَالَهَا فِي الْأَفْقِ
هِيَ مَا تَبَقِيَ مِنْ نَسْلِ الْحَيَوَانِ
وَالْإِنْسَانِ.

II

لَيْلُهُ مُورَقَةٌ

وَحَيَوَانَاتٌ تَتَنُّ أَمَامَ بَابِي

عَلَى الْأَرْجَحِ، إِنَّهَا الصُّبَاعُ الَّتِي تَنْزَهُ مَعَ

أَطْفَالِهَا فِي الْأَفْقِ

مُسْتَوْحِشَةً تَسْفُوها رِيَاخُ وَجَنَامِينِ

وَسَحْرَةً يَرْكَبُونَهَا بِالْمَقْلُوبِ

مِنْ قَرِطٍ يَأْسُهُمْ أَخَذُوا فِي الْاِنْتِحَارِ

وَالهَرُوبِ.

قَادَةَ الْعَالَمِ يُوزَعُونَ الْخُبْرَ عَلَى

الْأَلَجِيِّينَ،

وَالْمَدَائِحِ

لَا صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا وَأَحْصَوْهَا فِي

كِتَابِ الْحِصَارَةِ وَالْحَيَوَانِ

(أَيْنَ حِصَّتِي مِنَ الْخُبْرِ وَاللَّحْمِ؟)

سَأَلْتُ الصُّبَاعُ أُمَّهَاتِهَا، الَّتِي انْشَعَلَتْ

فسيفساء امرأة

إلى ذكرى يسرى الصباغ

بدر الدين عرودكي

النصوص المُختارة التالية عبارة عن قطع فسيفساء مختلفة الألوان يُفترض أن تُؤلف مع سواها من النصوص الغائبة هنا لوحة فسيفساء كاملة تقدّم شخصية المرأة التي تحمل اسم أمي: "يسرى"

هذا الكتاب أو ذلك، فتسري النشوة ذاتها إلى أوصالك حتى ترتعش غبطة وبهجة. مثلك لم يكن قد عرف المدرسة.. لكنه كان تواقاً، مثلك أيضاً، إلى الحروف وإلى الكلمات التي تعلّم فكها وحده كل مساء بعد عودته من نهار عمل مُجهِد في كتاب وقع تحت يديه أو يرسمها بعد أن تلقفها من فم هذا العالم أو ذاك الأستاذ في هذا النادي أو في ذاك المسجد. وها هو قد صار ملاذ من ارتادوا المدارس والجامعات يسعون إلى حكمة لديه ولما يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره..

*** **

لم تكن أمك راضية عن هذا الرجل الذي اختاره لك أبوك. ككلّ الأمهات كانت تريد لك زوجاً يليق. كما كانت تردد أمام كل من يسمعها. بذكائك الخارق وبجمالك الجذاب. لكن الرجل المُختار لم يكن ذلك الذي رسمت ملامحه في مخيلتها. فحاولت جاهدة أن تحول بينه وبينك. لكنك كنت وقد رأيتته قد عزمت أمرك بعد أن أصابت نظرتة موضع القلب منك فنسيت كل التفاصيل الأخرى ولم يبق إلا ما أرسلته لك هاتان العينان السوداوان العميقتان من نظرة خاطفة كانت كافية كي تقول كل شيء..

انتبهت منذ اللحظة الأولى، منذ هذه النظرة الخاطفة، إلى أنك إزاء رجل يرى ولا ينظر. وصدق حدسك على مرّ الأيام والسنين. لم يكن كالأخرين ممن وضعوا الذهب بين يديك. ولا من أولئك الذين أرادوا امتلاكك بجنائهم وأنهارهم فيما وراء الحدود. كان آخرَ فعلاً. ستسعدين كلما خطر لك الأمر كيف كانت البصيرة لباس حدسك.. فقيراً ولد ونشأ فقيراً. ولا يزال وقد صرت في كنفه أو صار بين يديك. وها أنت تريدين أن تكفيه شر الألم الصامت الذي لا يخفى على عينيك وهو يحاول أن يطويه وراء قسّمات ابتسامته أو ضحكاته إذ تحاولين بكلماتك اللقحة جعله ينسى.

لكنه لا ينسى. وها أنت تريين أن الحظ قد يبتسم لك أكثر مما ابتسم له في طلب الرزق. لم يكن لديكما بعد سوى طفل واحد. وكان بوسعك أن تمحضيه عنايتك وتسهرى عليه وأنت تعملين.

الساعة الحادية عشرة صباحاً: موعد الشاي الأخضر. عادة سخت مع الأيام منذ أن كان الرجل الذي عشقته على ما بينكما من فارق في العمر تجاوز الخمسة عشر عاماً يجلس في زاوية من الغرفة الوحيدة التي كنتما تسكنانها معاً منذ عقد قرانكما. قرقرة مياه الأركيلة توقّع هنيهات لحظات تنتزعكما من هموم النهار: لا مال ولا طعام ولا لباس. والفتاة الصغيرة التي كنتها لما تبلغ الثامنة عشر من عمرها تبتسم للعينين البرّاقتين النفاذتين وقد رأتا وكأنها المرّة الأولى هذا البطن ينتفخ بعد أن كان ضامراً. يقول لك بعد أن ورّ كعادته كلّ كلمة قبل أن ينطق بها: رزقه على الله. وما كان لبشرى طفل تنتظرين قدومه أن تنتزع رجلك، حبيبك، مما رسخ في أعماق كيانه من فناعات منذ أن أدرك في قرارة نفسه أنه والمال خطان مستقيمان كلٌ يسير وجهته فلا يلتقيان.

لا يشغلك عنه شيء. هو أمامك بكل ما وسع خيالك أن يتمثل الرجولة تقولها قسماً وجهه وعروقه يديه بأصابعها الدقيقة الطويلة القوية التي سيقال لك عنها بعد سنوات طويلة من تلك اللحظة التي أنت فيها إنها أصابع عازف كان يمكن لها في زمن آخر في مكان آخر في بيئة أخرى أن تغني على البيانو أحياناً سماوية تنفطر لها وبها القلوب والأرواح. لا شيء في الغرفة مما يشي بزوجين قريبي العهد من الزواج. بل إن نسيج أثاث الغرفة يكاد في بعض الزوايا يقول عمره الحقيقي وأسماء من تتالوا على امتلاكه من قبل أن يستقر هنا. تأسرك ابتسامته. يستحوذ عليك حديثه. لم يعرف المدرسة ولا حمل شهادة منها ولا من غيرها. لكنه ينتقل بك في أرجاء العالم وكأنما قضى شطراً كبيراً من عمره في الترحال وفي الانتقال. ويطوف بك في الأزمنة منذ عهد آدم إلى عهد الأتراك وكأنما عاشها كلها من فرط دقة التفاصيل وطرافة النوادر. عالمك هو وحده صار بعد أن كان أبوك يملأ هذا العالم وحده.

تتأملين قسّمات وجهه وقد أخذته النشوة فطفق ينشد ما يجب من قصائد حفظها عن ظهر قلب، أو يروي حكايات وأخبار قرأها في

حلم.. لكنه عيد وسفر وكائن ينتظرونك في الغداة، قبل أن يدركك القنوط (ما أكثر ما كنت ترددين: ولا تقنطوا من رحمة الله). لم تكن كلمات الأغنية في أعماق روحك ووجودك تعني ما تعنيه لمن يسمعها ومَن حولك. كانت تعني دوماً شيئاً آخر. شيئاً كنت تتلهفين إليه وإلى بلوغه. كنت أسميه مع جنون الشباب ولما أبلغ التاسعة عشر من عمري المطلق، وكنت تسميه كليّ الحضور، ولم تكوني قد تعلمت بعدُ القراءة أو الكتابة، ولا كنت قد قرأت أو قرأ عليك أحدهم فتوحات ابن عربي المكيّة...

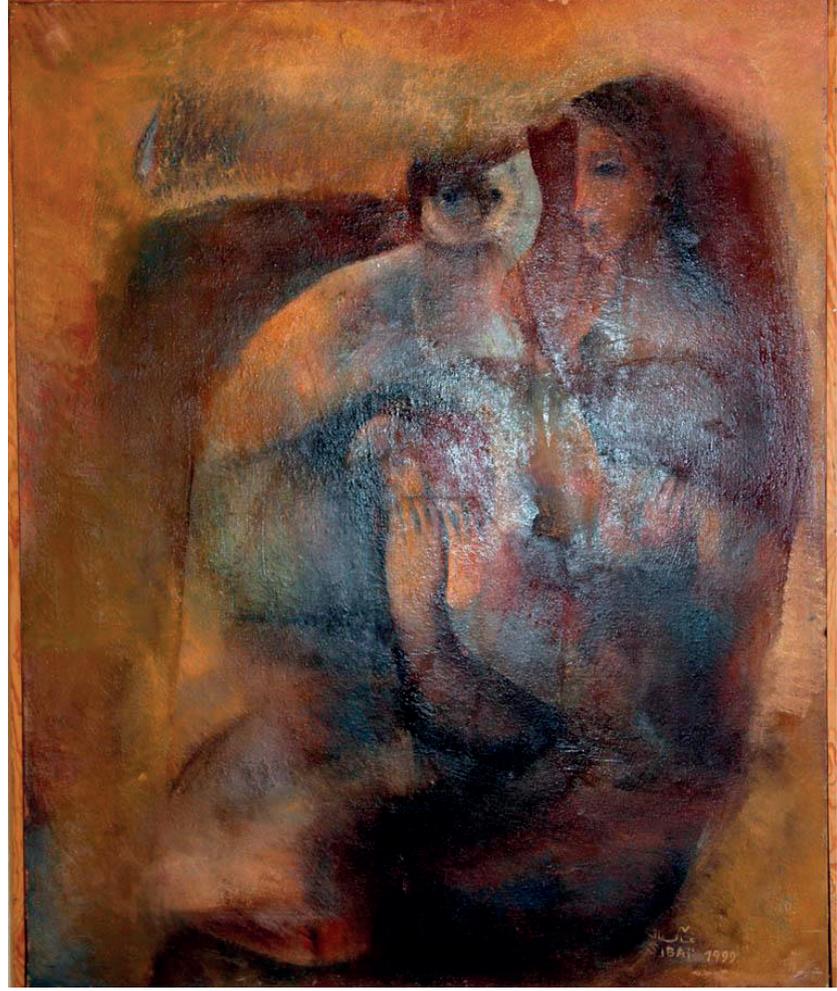
** ** *

لم تتح لك فرصة ارتياد المدرسة. كنت مسحورة أمامي طفلاً وأنا أعود منها مع كتيبي مرديداً ما تعلمته من أناشيد أو من قصائد. بقي ذلك سرّاً في أعماقك لا تبوحين به إلى أحدٍ مَن حولك.

وجاء يوماً صار فيه العلم ضرورة من ضرورات حياتك. ما عادت حياكة الصوف ولا آلة الخياطة تملأ عليك وقتك ولا تحملُ لك من المسرّة ما كنت إليه تطمحين.

بعد وفاة طفلك البكر إثر مرض لم تستطيعا أنتِ وأبي أن تتغلبا عليه من فرط فقركما، ها هو ابنك الثاني، وقد صار بكرّاً، وقد صاروا ينادونك باسمه، يرتاد المدرسة، وها هو أمامك، يحمل كلَّ يوم كتاباً جديداً يأتي به ويقضي الساعات في التهامه كمَن به مسّ.

كنت، في غيابه، تنظرين إلى الكتب وتودّين لو فككت رموز الحروف والكلمات. مشتاقة أنتِ إلى ذلك، تواقّة. صار الأمر هاجسك ولم تكوني تعرفين كيف يسعك أن تجدي السبيل إلى ذلك. وكيف يسعك إن وجدته أن تعثري على ساعة فيما وراء الساعات التي تقضيها في خدمة أولادك الستة آنثى (وقد صاروا تسعة من بعدُ، وزوجك، وبيتك؟ لكنك كنت امرأة صابرة، لكنك كنت امرأة تواقّة، وها أنتِ، في ليلة كان القمر فيها بدرّاً، وقد خلد زوجك وأولادك إلى النوم، تصعدين درجات السلم المؤدي إلى الغرفة الوحيدة القائمة على سطح البيت: الغرفة الطيّارة، بما أنّ الرياح كانت كلما هبّت تكاد تحملها.. لم يكن يصدر عنها أي ضوء، لكنك وقد كنت تريدين الاطمئنان إلى نوم ابنك، واصلت الصعود. لم يكن نائماً. ما إن وصلت إلى الغرفة حتى لمحت عبر النافذة بصيص ضوء خافت. كان ضوء الشمعة التي يقرأ أمامها كتابه ■



التي أسكنك فيها زوجك. وتردّدين ما كنت بين الحين والآخر تسمعين من أغاني لأم كلثوم أو عبد الوهاب: يا ليلة العيد، حآبله بكره، بكره السفر..

لا يزال صدى الأغنيات يسكن جدران هذه الغرفة في هذا البيت المتداعي من حي الشيخ محي الدين بدمشق. كنت كلما مررت أمامه أكاد أسمعك، أسمع صوتك يردد ها وأرى عيون الفتيات يرنون إليك معجبات مرددات وراءك كالجوقة: بكره السفر!

كلّ ما كنت تطمحين إليه أن تتمكني من حيازة قروش قليلة كان القرش أيام ذاك يتكلم، كما كان يُقال! تسعدين بها زوجك الشاب وتشتريين ثياباً تدفئ وليدك الثاني بعد أن أودت الحمى بالأول. لم تكن لديك مدفأة، بل وعاء تشعلين فيه القليل من الفحم لتدفئة اليدين وغطاءات الفراش على الأرض تحمي من شتاء دمشق القارس.

والعيد حلم، والسفر حلم، ومن ستقابلينه

واستحالت الغرفة الواسعة التي تسكنانها مصنعاً للملابس الصوفية تعمل على حكايتها فتيات الحي يعملن إلى جانبك كي يساعدنك على الاستجابة إلى عشرات الزبائن يرجون ما كنت تصعينه ويتلقفونه من بين يديك كثرة هبطت من السماء.

وذاث يوم ألقيت إلى حبيبك بورقة المائة ليرة. كان في الأربعين من عمره وكان يمشها للمرة الأولى في حياته. نظرة العرفان استعداد نظرة الحب الأولى.. كان الحب يتضاعف عرفاناً.

** ** *

أكانت الدنيا تبدو لك لحناً يصلك بما وراءها؟ وإلا فلماذا تشجيك هذه الأغنية إذ تتحرّك بها شفتك وإذ تنير وجهك هذه الابتسامة التواقّة؟

كنت في العشرين. ومن حولك فتيات في عمرك يشتغلن طوال النهار في حياكة الصوف تحت إشرافك في الغرفة الوحيدة

افتتنت بالمنظر وحفت. تقولين له: قد نام أبوك، لا عليك أن تقرأ على ضوء الكهرباء. حذار عينيك! وتلمع الفكرة في رأسك، وتستحيل كلمات خجلى سائلة:

- ابني، ما رأيك أن تعلمني القراءة والكتابة؟ والفخر يفمرني. أنا الذي سيكون أستاذ أمه؟ بالتأكيد يا أمي. ولكن متى؟ - في مثل هذه الساعة من كل يوم.

ها أنت، في الثلاثين من عمرك، تدخلين المدرسة التي ما أكثر ما تطلعت إلى ارتيادها بشوق ونهم..

وها هو الموعد الذي بات يومياً، وها هو السهر يصير جزءاً من مسراتك اليومية: أما استحال الحلم حقيقة؟ ها أنت تبدئين درسك الأول، وتبادرين إلى رسم الحروف وتردادها. لكنك كنت تستعجلين القراءة ولا تطبقين انتظاراً.

فكرة طرات. أهي وحي؟ كيف جاءتك؟ ها أنت تتناولين وقد حفظت الحروف عن آخرها قراءة ورسماً المصحف، تفتحين صفحاته على السورة التي تحفظينها عن ظهر قلب: الفاتحة. وتبدئين قراءة حروف صرت تعرفينها فتتعرفينها كلمات ما كنت من قبل تدريكينها. تبدو القراءة لك أسهل مما ظننت. يفتح لك كتاب، وأي كتاب، بأكمله. ثم يساورك الشك بين الحين والآخر كلما غابت الألف أو الواو أو الياء من كتابة كلمات الآيات التي لم تكوني تحفظينها عن ظهر قلب، فتهرعين إليه يفسر لك أنها الطريقة القديمة في كتابة بعض الكلمات. فيطمئن قلبك، وتعودين إلى ما كنت مستغرقة فيه.

درس شبه يومي استمر عدداً من الشهور. كان أول كتاب بعد القرآن أردت أن تختبري قدرتك على القراءة فيه هو كتاب محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية. تطلبين إلي أن أفتح الكتاب مغمض العينين ثم سرعان ما تتناولينه من يدي وتبدئين القراءة.. على حذروهبة سرعان ما استحال غبطة تنير وجهك ومحياك..

هكذا وضعت نهاية لدوري كي يبدأ دورك أنت..

آه، كم وددت لو أنني استطعت أن أسجل ما كنت تجودين به خلال ساعات ثلاث بين يدي جملة لا تتجاوز سطرًا في كتاب الشيخ الأكبر.. ما أشد الألم الذي يلبسني حين كنت أستمع إلى نثار مما قلته صباح اليوم نفسه أمام نساء جنن من كل فج عميق كي

يستمعن إليك..

وها أنت تجتازين عتبة عالم بلا حدود.. تدخلينه مطمئنة عبر أبواب واسعة عديدة ..

** ** *

هل تذكرين؟ سرٌّ فريدٌ كان يقودك كل يوم إلى أبيك بعد الظهر. ما كانت تلك عادتك من قبل، لكن هذا المشوار، كل يوم، بدأ وكأنه من طبيعة الأشياء. من طبيعة حياتك كل يوم، لا يدري به إلا أنت.

كان أبوك في سنته الأخيرة. وكنت تبخثين عنده عن شيء يصلك به، لم يكن المال الذي كان ينقصك ولا كان بوسعه ولا يرادته أن يمنحه إليك. كان شيئاً آخر، سرّاً من أسرار هذا الرجل الذي تصدق ذات يوم على شجرة في خريف ذات سنة واضعاً عليها أرغفة الخبز التي ذهب يشتريها لأهله فنسيهم وقد رأى الأغصان عارية من أوراقها وكأنها تتضوّر جوعاً وبرداً.. سرّاً من أسرار هذا الرجل الذي كان يأوي إلى السرير وليس في بيته طعام يؤكل ولا مالٌ يُصرف ولا يدري كيف سيصحو في اليوم التالي ولا يهّمه أن يعرف ما سيكون عليه أهله في الغدا، يقيناً منه لا يتزعزع يحظ من الدنيا حصّه الله به، فلا قلق ولا حزن.

كان أبوك في سنته الأخيرة، وكأنما الإحساس بذلك قد استحوز عليك، فصرت تذهبين كل يوم كي تقومي ما وسعك على خدمته وتقصين عليه هواجسك. هو الآخر لم يكن يدري ما يدفعل إلى المجيء كل يوم فيسألك إن كان هناك ما يعكّر صفو حياتك في بيت زوجك فتفكرين بعد أن استقرت في أعماقك القناعة بأنه قدرك، وأنه قدر على ما فيه من صعوبة، جميل، جمال الحب الذي محضته إياه. كان قد أدرك ببصيرته ما آل أمرك إليه فأكبر فيك صفات نساء نادرة كالماس. لكنه لم يكن يدر بعد أنك منذورة، وأنت بين أبنائه وبناته، كنت الوحيدة التي تصله فيما وراء علاقة الأبناء والبنات بأبائهم.

كان قد أدرك ببصيرته ما آل أمرك إليه، ثم جنّته، على خوف ورهبة، تقصين عليه حلمك.

كنت في مدينة النبي، في الروضة ما بين القبر والمنبر. يُقدّم إليك تمر المدينة (ما أشد طبيته، فتأكلين منه. ويُقال لك إنك تتطعمين سورة البقرة وآل عمران، فتجدين شفاهاك تصطبغان مع ما حولهما بلون التمر. فجأة،

ينقلك الحلم نفسه إلى غرفة أبيك التي أنت فيها الآن تقصين فيها عليه حلمك. كان على سرير مرتفع ارتفاعاً يجعل وجهك قبالة قدميه. تستيقظين فجأة. تدركين أنك كنت في حلم داخل حلم، وأن الحلمين قد انتهى، وأنه لا قبل لك بالانتظار، فنذهبين إليه من فورك تقصينه عليه. فيدرك كل شيء.

فهم أنّ حلمك كان رسالة له وأنت تحملين هذه الرسالة لأنك أنت من سيتابع الطريق من دون أبنائه جميعاً على سعة رغبتهم في الأمر، ذكوراً وإناً. أدرك أنه ليس هو من يختار بل تمّ الاختيار، وأنه لو أراد لما حاد. يضع يده على رأسك المغطى. يطلب إليك الصلاة، والصلاة على النبي خصوصاً. فهو الإمام، وهو الدليل، وهو الوسيلة، وهو الحبيب.

تستكين نفسك. تستعبدن المشوار منذ البداية. تبدأ الأشياء بالكشف عن معانيها واحداً بعد الآخر. ففرك، زوجك، أولادك، استماتتك في تعلم القراءة والكتابة وقد تجاوزت عمرك الثلاثين، وأملٌ غامضٌ يضيء وجهك نوراً ونفسك حيرة، لكنّ السكينة تغمر أعماقك.

** ** *

كنت كالذي يكتشف جديداً كلما كانوا يقولون لك ما كان تأثير ما كنت تقولينه لهم. تفاجئك هذه القدرة وتتساءلين: كيف، لم تكوني تعرفين، ولن تعرفي. فكنت تسلمين أمرك إليه، هو، بما أنه هو، هو الذي يفعل ما يشاء على يدك.

منذ اللحظة الأولى في سلوك الطريق، وحتى اللحظة الأخيرة قبل الرحيل الأخير.. كنت لا تدريين ما تفعلين. تقولين: أنا موظفة عنده، هو، وتشيرين بإصبعك إلى السماء. ثم تصرّين على أن تصنعي بيدك حساءً غنيّاً بالحبوب وباللحوم كل أسبوع لأكثر من مائتي امرأة يأتين إليك سعياً من أرجاء دمشق وما حولها كي يستمعوا إلى معاني الحب تتدفق من ثغر بشار، ومن روح كنسمة الربيع تداعب الوجوه وهي تعيد إليها نضارتها. وتغمر الدموع عينيك حين تعلمين أن كثرة من هاتيك النساء لم يكن يذقن مع أولادهن طعم اللحم إلا مرة في الأسبوع أو في الشهر..

لم أكن أدري أن صديقي عمر أميرالاي كان قد نذر ذبيحتين للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الذي كان جاره كلما أنجز فيلماً من

زوجك، حبيبك، فلا يدري كيف يستطيع أن يستعيدك إلى عشكما الأثير. ها هو أبوك يمر أمام حانوته. يهرع صديق من أصدقائه كان على علم ليأتي به يشارك في جلسة الشاي الأخضر التي كانت شعيرة من شعائر حياته وحياة أصدقائه اليومية.

يجلس أبوك. يبادره زوجك بكأس الشاي الأخضر. يرشف الرشفة الأولى فيسأل:

. نسييت السكر!

يجيبه: "أشرب".

يكرر أبوك ثانية: "أقول لك إن الشاي مرّ، شديد المرارة!"

فيجيبه: "وأنا أقول لك اشرب".

فجأة أدرك أبوك. يخاطب زوجك: اذهب

اليوم إلى بيت أمها واصطحب زوجتك إلى بيتكما!

وسرعان ما حضر السكر!

** ** *

ها هو يطرق الباب. قلبك يقول إنه هو. وكل خلايا جسمك النحيل المتناسق تتفتح فجأة تقول لك إنه هو.

كنتما وحدكما، أمك وأنت. تفتح أمك الباب.

ها هو صوته الرخيم الرجولي ينطلق حنوناً.

يلقي بأعذب التحيات على أمك. فتردّ

بجفاء. يفضّ الانتباه والطرف عن جفائها.

يقول لها حرّقت، وحدته. بينما تتابعين أنت

كلماته وتخاطبينه في أعماق قلبك، كلما

تحرقّ، بصمت تنطق به عالياً قسماً وجهك:

هو: لم أعرف أمي،

أنت: أنا أمك،

هو: ولم أعرف أبي،

أنت: أنا أبوك،

هو: وليس لي من صديق،

أنت: أنا صديقتك.. أنا صديقتك..

ثم ما تلبثي أن تُبعدي أمك كي تفتحي

الباب وتطلبين إليه الدخول والانتظار ريثما

تلبسين ثياب الخروج والعودة بصحبته.

كنت تعلمين أن قلبك لم يكن مخطئاً. كنت

المرأة في أجمل تجلياتها عاشقة معشوقة.

وكان هو الرجل، الرجل المأمول..

ألم يحطم وهو في السبعين من عمره،

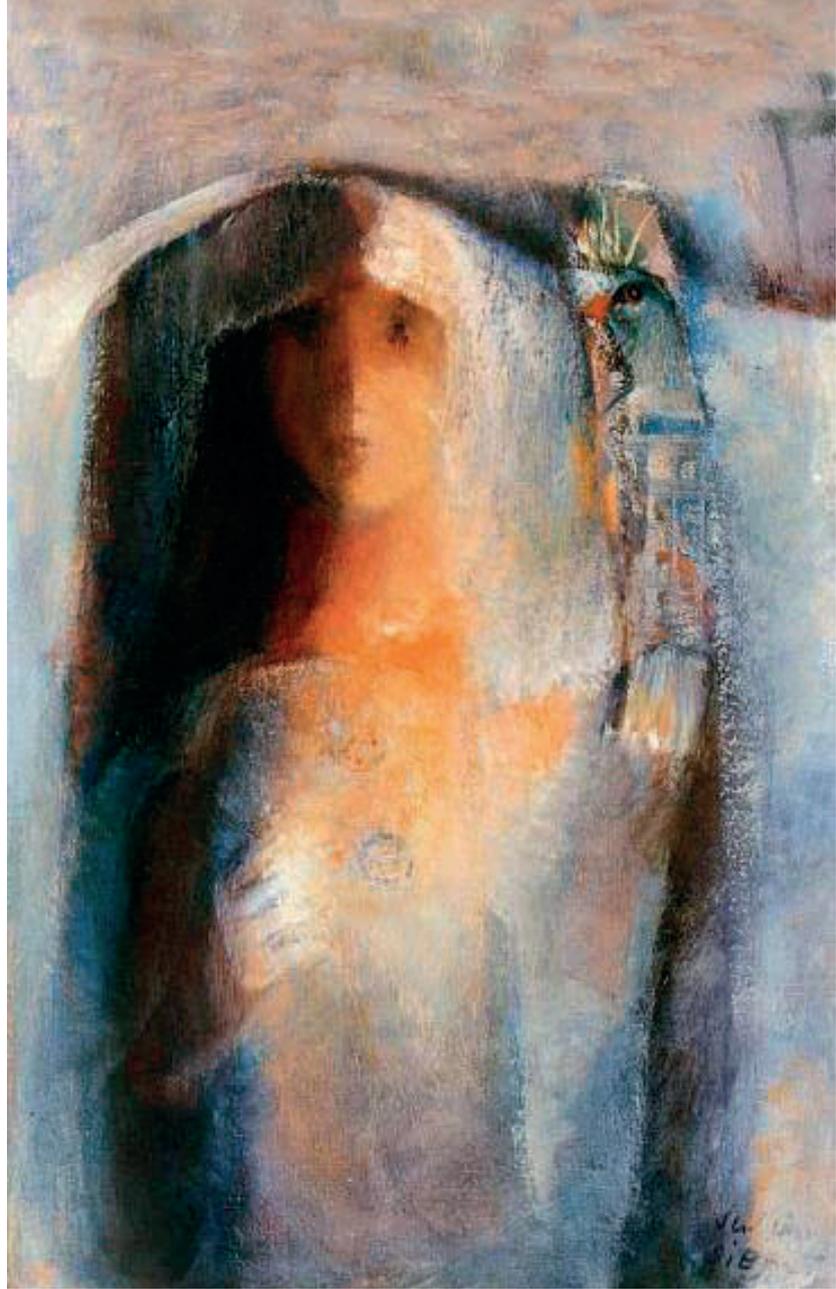
بضربة واحدة تقاليد مئات السنين في

الرجولة الفارغة حين قدّم نفسه للملأ ذات

يوم لا باسمه، إسماعيل، بل بوصفه زوج أم

بدرالدين؟ ■

كاتب من سوريا مقيم في باريس



كعادتها من أن أبيتك لم يعرف كيف يختار من كان يجب أن يكون جديراً بك، بذكائك، بناهتك.. ولا تعقيبين، كأنما الأمر لا يعينك، فالرجل الذي اختاره أبوك لك على شيء من مفض، هو من اختاره قلبك ومن كنت ستختارينه لو حُجرت! كانت أمك قد أرغمتك على مغادرة العش الزوجي لعلها تفوز. أخيراً. بفصلك عن زوجك الفقير هذا وتزوجك من ابن عمته الغني الذي ذاب عشقا فيك منذ طفولتكما.. أيام مضت وأنت في غضب مكتوم. أما

أفلامه حين جاءني ذات يوم يطلب إليّ أن أستأذنيك في أن يحقق فيلماً عنك. قال لي: ما تفعله أمك هو أنها عرفت كيف يمكن أن تحلّ المشكلة الاجتماعية في بلادنا وتعمل في هذا الطريق الذي صار طريقها. اعتذرت بخجل شديد.. لم تكوني تعرفين ولن تعرفي أثر ما كنت تفعلين. لكنني علمت بعد وفاته بأمر ذبيحتيه وأدركت حينئذ ما كان بينك وبينه من صلة قري خفية لا يدركها إلا من حظي بقلب شفاف وبصيرة. تسهرين الليل وأمك تندب حظك، وتتأوه

القتل بالكلمات

كيف تتحول اللغة إلى طقس من طقوس القتل

إبراهيم سعدي



تعتبر اللغة من أهم ما ابتكره الإنسان ومن أهم ما يميزه عن بقية المخلوقات، فهي الأداة التي أتاحت نشأة المجتمعات والحضارات وتحقيق كل التطور الذي عرفه الإنسان قديما وحديثا، يعني هي "أمّ الظواهر الإنسانية جميعا"، ومع ذلك فإن اللغة قابلة أيضا للاستخدام في غير صالح البشر، بل وحتى لقضائهم على بعضهم بعضا، شأنها في ذلك شأن الأشياء الكثيرة الأخرى التي أبدعها بنو آدم. لكن ليس معنى هذا أن اللغة تؤدي في حد ذاتها وظيفة القتل، فالمسؤول الأول عن تحويلها من أداة تواصل إلى أداة فتك وقتل، هم البشر أنفسهم. لكن لا نعني هنا البشر على وجه الإطلاق، بل فئة معينة منهم، وبالضبط من يملكون السلطة، فاللغة في حد ذاتها، إذا ما استثنينا قواعدها المتعارف عليها، لا سلطة لها في حد ذاتها على الإنسان.

كذلك تقريبا. وهذه الظاهرة ليست في الحقيقة حكرا على تاريخ الغرب، إذ نجد مثلا تنكرر أيضا في العالم العربي، كما يمكن أن نلمس ذلك منذ التقلبات التي صارت تعيشها المنطقة العربية ابتداء من عام 2011. فقد حدث في بلد عربي أن وصفت السلطة القائمة آنذاك المتظاهرين بـ"الجرذان" وأكّدت بأنه ستتمّ إبادتهم "زققة زققة.. دار دار، مما يعني أن القضاء عليهم ليس جريمة، لأنهم ليسوا بشرا أصلا حتى يصح إطلاق تلك الصفة على هذه العملية، فقتل الجرذان لا يعد جريمة. ولا داعي للحديث عفا جرى بعد ذلك، فالجميع يعرف. وعندما استعمل في بلد عربي آخر، وفي ظروف مماثلة، تعبير القضاء على الجرائم، إشارة إلى اعتماد الحل الأمني لمعالجة مشكلة ذات طبيعة سياسية، فإن الأمر لم يكن يتعلق بمجرد تشبيه لغوي، بل بعملية نزع رمزي لصفة الإنسان عن الضحية المعلنة، تمهيدا لنفي صفة الجريمة عن قتله والقضاء عليه. فإبادة الجرائم ليست جريمة. إن أول مظهر للجريمة السياسية أو العقائدية أو العنصرية له دائما شكل لغوي، يتم من خلاله نزع صفة الجريمة عن فعل

شأنه أن ينفي صفة الجريمة عن استعبادها أو القضاء عليها، لأن القضاء على حيوان متوحش لا يعد جريمة. لهذا نجد فيكتور هيغو، الكاتب الفرنسي الكبير، مؤلف رواية "البؤساء" المشهورة، الذي كان أيضا برلمانيا، المالك بالتالي لسلطة مزدوجة بوصفه شاعرا وسياسيا في آن واحد، يتوجه إلى المارشال بيجو الذي تنسب إليه أكثر من محرقة في الجزائر، قائلا له في دفاعه عن الاستعمار الفرنسي: إنها الحضارة ماشية على أنقاض الوحشية. وفي خطاب آخر له ألقاه في مؤتمر السلم (21 أوت 1849) يقول في ذات السياق بأن "إفريقيا ستعاد إلى الإنسان، مشيرا هكذا على نحو مبطن، وتحت ستار المهمة الحضارية" للإمبراطورية، إلى أن إفريقيا ما قبل قدوم الكولونيات لم يكن يقطنها بشر، أو على الأقل بشر بمفهوم الغرب آنذاك، وعليه فإن ما يقترف فيها من جرائم ومجازر لا يجب النظر إليها كما لو أنها أفعال تتناقض مع الأنوار التي أسست مبادئ حقوق الإنسان التي نادى بها الثورة الفرنسية، أو الشعور بالذنب، وباختصار لا يجب وصف هذه الأعمال بالإجرامية، لأن الضحايا ليسوا من البشر أصلا أو ليسوا

ذلك أن اللغة تستمد سلطتها من خارجها، أي من السلطة التي يملكها الناطق بها، فوفقا لما يراه بيار بورديو ليست سلطة الكلام إلا السلطة الموكولة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق باسم جهة معينة. والسلطة التي تهمنا هنا هي السلطة ذات الصبغة السياسية، فهي التي تتجلى فيها أساسا ظاهرة توظيف اللغة كأداة من أدوات القتل، فاللغة السياسية، كما يؤكد الروائي والباحث الإنكليزي جورج أورويل "مصممة على نحو يجعل الأكاذيب تبدو حقيقة والقتل محترما..".

ولعل أكثر مظهر من مظاهر توظيف اللغة كأداة تبيح القتل وتشعره وتجعله شيئا محترما، وفق تعبير أورويل، وذلك قديما وحديثا، هو نزع صفة الإنسان عن الضحية، أي تحويله بواسطة اللغة إلى حيوان أو نحوه، حيث لا يسري على القضاء عليه مفهوم الجريمة أو صفتها. فالمستعمرون مثلا وصفوا الشعوب التي استعبدها ودمروها بالشعوب المتوحشة، بمعنى أنها أقرب ما تكون إلى الحيوانات التي تعيش وفق قانون الغاب، منه إلى البشر، أي هي بمثابة شبه حيوانات تعيش في الغابة، الأمر الذي من



سكانها إذا ما اعترضوا مشروعاتنا الرامية إلى الاستيلاء على خيرات بلادهم. من هنا يأتي التحايل على اللغة والالتفاف عليها وانتهاكها هروبا من سلطتها كضمير أخلاقي وقانوني بشري عام. نفهم لهذا السبب لماذا يرى جورج أروويل أن هذا التبييض اللغوي ضروري إذا ما أردنا تسمية الأشياء دون استدعاء الصور الذهنية المتطابقة معها. لكن يمكن أن نضيف أيضا بأنه ضروري أساسا إذا ما أردنا الإفلات من مجابهة السلطة الأخلاقية للغة، ومن خلالها السلطة الأخلاقية بكل بساطة.

والحقيقة أن من بين ما تسببه الحروب والنزاعات الداخلية من خراب، هناك أيضا اختلال ووظائف اللغة، إذ تفقد الأشياء، في مثل هذه الظروف، أسماءها التي تواضع عليها البشر، يعني تفقد الأسماء والكلمات صلتها المتوافق عليها بمسمياتها، تتفكك العلاقة بين الدال والمدلول، فتتطغى على اللغة وظيفة التضليل والخداع وتتحول بدورها إلى أداة فتك، يعني تصبح، في ظروف غير طبيعية كالحرب، هي نفسها غير طبيعية. تنشأ لغة جديدة هي لغة الموت والدمار.

كاتب من الجزائر

الإجراء الوحيد المعمول به في طقوس القتل في الإطار الذي يعيننا، بل يمكن القول بأن لكل عصر ولكل سياق عام لغته المشرعة للقتل الرمزي، الممهدة للقتل الفعلي. ففي العالم العربي والإسلامي، نجد أيضا، ليس فقط نزع صفة الانتماء إلى البشر، باعتباره قتلا رمزيا، كما سبق وأن أشرنا، بل قد يتم ذلك أيضا من خلال نزع الإيمان عن الضحية، أي تكفيره، وبالتالي نفي صفة الجريمة عن قتله. وهذا النوع من التبييض، والذي يمكن وصفه بالتبييض الديني، لا يختلف كثيرا في الحقيقة عن التبييض القائم على نزع صفة الإنسان عن الضحية لنفي وجود جريمة القتل التي يكون موضوعا لها.

والحقيقة أن اللجوء إلى هذا التبييض، أو التلطيف وفق تسمية جورج أروويل لهذه الظاهرة، سببه في مثل هذه الحالات العجز عن تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية أو المتوافق عليها من طرف البشر، ذلك أن تسمية الأشياء والأفعال، في مثل هذه الظروف، بأسمائها الحقيقية، سيحول اللغة إلى أداة إدانة، فداخل كل لغة يوجد ضمير أخلاقي. فلم يكن بوسع المستعمر مثلا أن يقول: سنستولي على أراضي إفريقيا ونبيد

القتل أو التدمير من خلال نزع صفة الإنسان، بهذه الدرجة أو تلك وعلى هذا النحو أو ذلك، عن الضحية.

ويتحدث جورج أروويل في مؤلفه السياسة واللغة الإنكليزية (1946) عن هذه الظاهرة، ظاهرة توظيف اللغة بغرض ما يمكن تسميته بتبييض القتل والتدمير، فيقول: «فرى لا حول لها ولا قوة تتعرض للقصف الجوي، ويُسزّد سكانها في الخلاء، وتُرش قطعانها بنيران الرشاشات، وتدمر أكواخها بقنابل نارية، فيطلق على كل هذا اسم التهذؤة. ملايين من الفلاحين يُطردون من منازلهم ويلقى بهم في الطرقات دون مؤونة خلا ما استطاعوا حمله، فيسمى كل ذلك تحويل سكان أو تعديل حدود. أفراد يسجنون دون محاكمة مدة عدة سنوات، أو تحرق قفاهم بطلقات الرصاص، أو يرمى بهم في معسكرات الخطابين في القطب الشمالي ليموتوا بداء الحفر، فيطلق على ذلك تعبير: تصفية عناصر مشبوهة». قول يذكر، إن على صعيد الصور وإن على صعيد اللغة المستعملة (لغة التبييض)، بما يجري اليوم في العالم العربي.

غير أن نزع صفة الإنسان عن الضحية، وقتله بالتالي رمزيا قبل قتله فعليا، ليس بالضرورة



تحسين الخطيب

القصيدية الشافية

المسرة والألم، فإنها تصبح ملهمة ومعالجة وشافية. فأكثر العلاجات نجاعة، هي تلك التي تعمل على أن يجد المريض معنى لذاته، والتي تمنحه القدرة على تحفل الألم، بعثوره على القوة الذاتية المناسبة لذلك. فالعلاج بالفنون يساعد الناس على أن يتخففوا من وطأة الضغوط، وعلى تعزيز كبرياتهم وشعورهم العالي بذواتهم. كما يساعد المرء على الغوص عميقاً في مشاعره الذاتية، حتى يصبح متوائماً مع ذاته تماماً، وغير منفصل عنها.

كما يتحدث العلماء عن ثمار توظيف الفنون في العلوم الطبية. فالشعر يساعد الأطباء على أن يصبحوا معالجين أفضل، في ضوء حقيقة الحديث عن قدرة القصائد على تعليم الناس أن يروا العالم من وجهة النظر العاطفية للذين كتبوها في الأصل؛ أي من وجهة نظر شخص آخر. ثم يدعو المتحمسون لفكرة التطبيب بالفنون، إلى أن تقوم ممارسة الطب، نفسها، على فلسفة تنطوي على نطاق المشاعر الإنسانية برمته. وبما أن الأميركيين، بحسب الدارسين، قد وصلوا إلى نقطة ارتياح عظيمة بنظام الرعاية الصحية، فأصبحت علاقة الطبيب بمريضه، في أحسن حالاتها، هي علاقة متباعدة ومتنافرة، فإن البحوث المستندة إلى ظاهرة السرديات الشخصية بوصفها وسيطاً للشفاء، هي ظاهرة أخذت تتعاطم، في الآونة الأخيرة، في حقول الطب والمعالجة النفسية. فالدواء السردية، إن صحت ترجمتنا لهذه التسمية، يستطيع

لاحقة، جون فوكس، وهو كاتب ومعالج مجاز للمداواة بالشعر.

تتمحور التيمة الأساسية، في أطروحات هؤلاء العلماء، على أن اللغة قوة قادرة على نقل المرء من الخسارة واليأس إلى السعادة والأمل. لذا، يسعى جون فوكس إلى حث الطلبة الذين يدرسون الطب على كتابة الشعر، موضحاً أن الفنون تستطيع مساعدة الأطباء على النظر إلى تجاربهم مع المرضى من منظور الأبعاد الإنسانية لتلك السرديات، وليس من منظور بيولوجي فحسب. فالشاعر والطبيب، بالنسبة إلى جون فوكس، يمكن لهما أن يكونا معالجين، ولا بد لمن يعملون في حقل الطب أن ينتبهوا إلى هذه الحقيقة. ثم يقدم الدكتور أوكم تفسيرات دامغة حول ما يدعو إليه، بالحديث عن قوة الكلمات الشافية وعلاقتها بهرمون الإندروفين، الذي يُعد من أهم مسكنات الألم التي يفرزها الجسم بشكل طبيعي. فهذا الهرمون هو المسؤول المباشر عن توصيل الإشارات العصبية. فحين يفرز الجسم الإندروفين -أو قناع الغبطة، وفق توصيف الدكتور ألين هيرش، مدير مركز الأعصاب في مؤسسة الشَّمّ والذوق للبحوث العلمية بجامعة شيكاغو- فإنه يرتبط بمستقبلات الألم، ثم يعمل على تخفيف حدّة الشعور بالألم، بالطريقة ذاتها التي تقوم بها العقاقير المخدرة، كالمورفين والهيريويين والكوكابين؛ كما يعمل على تحسين المزاج، وعلى شعور المرء بالغبطة والسعادة والحبور.

وبما أن القصائد هي تعبير عاطفي عن

هل هل يستطيع الشعر أن يشفي

جروح النفس الغائرة، وأمراضها المستعصية، وأن ينشل المرء من غياهب الألم، وأن يحزّه من برائن الأوجاع الكامنة، كسرطان بحري، في أعماقنا؟ يقول نوفاليس، شاعر الرومنتيكية الألمانية، إنه على ذلك لقادر. ففي شذراته الفلسفية، كتب، صاحب تراتيل الليل، في العام 1798، قائلاً: يشفي الشعر الجراح التي تسبب بها العقل. ولا يشدّ عن جوهر ذلك مولانا جلال الدين الرومي حين يقول: الجرح هو المكان الذي يدخل منه الضياء إليك، ولا حين يقول: إن كنت تتوق إلى الشفاء دع نفسك تمرض. فثمة، في الشعر، قوة سرية، قادرة على شفاء ما استعصى عليه الدواء.

القصيدية المداوية، والاستشفاء بالشعر، وفنّ شفاء نظم القصائد، والشعر بوصفه دواءً، والدواء الشعري؛ عبارات تركزت مراراً، في الآونة الأخيرة، على ألسنة المعالجين النفسيين. بل إن تياراً قوياً يدعو إلى توظيف نشاطات إبداعية في علاج المرضى، راح يكتسب مكانته المرموقة، في السنوات القليلة الماضية، بين الأطباء والمعالجين. يقود القائمون على مستشفى شانديس، بجامعة فلوريدا، في الولايات المتحدة، الجهود الداعية إلى عدّ الفنون جزءاً لا يتجزأ من عملية الشفاء نفسها. وقد اجتمع ثلاثة أطباء يعملون في هذا المستشفى، روب لورنس وجون غراهام بول، وهما طبيبا أطفال، ومايكل أوكم، وهو متخصص في علم الأعصاب، ثم انضم إليهم، في مرحلة

دعوة مفتوحة

الجديد

تدعو

حملة الأقلام العرب

إلى المشاركة

في نشر نتاجاتهم الإبداعية

والفكرية

والمساهمة

في نقد المنشور على صفحاتها

للاستئناف

الحوار والجدل والسجال

في الحياة الثقافية العربية



فكر حر وإبداع جديد



والرجم بالغيّب. لقد أصبحت تلك القصائد علاجها الشعريّ ودواءها وصلاتها. ولم تكن الكلمات، بالنسبة إلى المرأة التي أنقذتها القصائد، مجرد حكمة فحسب، بل جعلت جسدها يهتزّ على تذبذبات المقاطع والصور. كيف تجعل الكلمات الشعرية الجسد يهتزّ ويرتعش؟ وهل ثقة للشعر تأثير فيزيقيّ ملموس؟ وللإجابة على هذا التساؤل، تستشهد كيم روسن بمقولة لإيميلي ديكنسون، الشاعرة الأميركية العظيمة: "أنا أقرأ كتابًا، فيصيبُ جسدي كلّه ببرد شديد، فلا ناز تكون قادرة على تدفئته قطّ، أعرفُ أنه الشعر. وأنا أشعر، في جسدي، كأنّ قمة رأسي قد بنرت، أعرف أنه الشعر".

هنا، تصبح القصيدة -القصيدة التي تعرف من حياة شاعرها وعذابات، أو ما يطلق عليها "قصيدة الحياة الجوانية"- تربية سرّية، تعويذة ورقية. تنسرب المقاطع الشعرية، بإيقاعاتها وأصواتها وصورها، إلى مفاصلك، فتهزّها، تتمازج مع أنفاسك، وتتمازج معها، فترعشها وتخصّها. تضرب، بطقسها الكهربائي، في أعماق روحك، تخلّع أبواب القلب، وتصعد بك إلى أعلى عليين، ثم ترميك، دفعة واحدة، إلى أسفل سافلين. ثم وفي أطوار الفصول كلّها، وفي أطوار الولادة جميعها، ترى نفسك من جديد، جالسة في "مقعد الروح"، بين تلاقي الجواني بالبراني، وهي تطلّ على المكان الذي يدخل منه الضياء إليك: على الجرح وقد صار منارة تنير لك درب الرجوع إلى "الغريب الذي هو نفسك التي سوف تعشقها ثانية، من جديد".

كاتب من فلسطين مقيم في الاردن

مساعدة الممرضات والأطباء والمرشدين الاجتماعيين، كما يساعد المرضى على العمل مع بعضهم البعض، لتكوين نظام رعاية صحية فعال، وعلى قدر عال من الأهلية. تأخذنا كيم روسن، صاحبة كتاب "أنقذني القصيدة: قوة الكلمات المتحوّلة"، في رحلة مشوّقة، وهي تبحث عن قوة الكلمات، عبر مقالاتها المنشورة بمجلة "الروحانية والصحة"، في العام 2012، والتي جاء عنوانها "قوة الشعر الشافية". تقول روسن -وهي التي كانت، بحسب قولها، تخاف الشعر، معتقدة أنه نوع من كتابة سرّية لجمعية نخبوية- إنها، وفي غمرة كآبة قاتلة اجتاحتها في العام 1994، تعرّفت على تلك القوة الشافية للشعر، بمحض الصدفة، عبر تسجيلات مهمة، تعود لحقبة دراستها الجامعية، عثرت عليها وهي تنظف بيتها ذات يوم. أدارت التسجيلات، بعد أن مسحت المسجّل من وبر القط والغبار الذي كان يعشّش فوقه، فعَمّ المكان صوت رجل يقرأ الشعر. صوت تجعلها ترتعش. بعد تلك الحادثة، جعلت روسن القصائد جزءًا أصيلًا من حياتها؛ ليست قراءة الشعر بصوت مسموع وتقليب صفحات كتبه فحسب، وإنما عملت على تطوير علاقة ثرة مع القصائد التي أحبّتها أكثر من غيرها. حفظت روسن تلك القصائد عن ظهر قلب، ثم طبعت بعضها على شاشة الكمبيوتر، وعلّقت بعضها الآخر على ثلاجة المطبخ. ولم تكن روسن تغادر بيتها قطّ إلا وقصيدة في جيبها. ثم أقدمت على طباعة مقتطفات من الشعر الذي عشقته على بطاقات صغيرة، ثم راحت تستخدمها كأوراق لقراءة البخت،

أربعاء الحواس

22 قصيدة

مريم حيدري

عِنْدَ ذَلِكَ
رُبَّمَا أَتَحَدَّثُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ عَنِ أَحْلَامٍ
تَرَكَتْهَا غَيْرَ مُكْتَمِلَةٍ
وَأَذْكُرُكَ بِفُرَى حَمْرَاءَ شَهِدَتْ أَوَّلَ
اللَّمَسَاتِ
وَالخَطَايَا الْبِكْرِ
عِنْدَ ذَلِكَ.
لَوْ بَقِيَتْ عَيْنَاكَ تَقْدِفَانِ نَحْوِي تِلْكَ
السَّيَاطِ
سَأَنْسَحِبُ ثَانِيَةً مِنْ بَقَايَا صَجْرِكَ
وَأُرْمِي بِنَا فِي مَنَارِلِ الْخَرَابِ.

هَدْيَانُ

حِينَ يَخْرُجُ الْجَمِيعُ مِنْ بُيُوتِهِمْ
لِيُعْبَرُوا عَنْ فَرْحِ مُبَاغِتِ
أَعْرِفُ أَنَّكَ فِي الْبَيْتِ الْبَعِيدِ
تُوَاصِلُ الْوُفُوفِ
وَالسَّجَائِرِ
النَّهَارُ بَعْدَ قَلِيلٍ سَيَخْتَنِقُ بِجِبَالِ صَمْتِكَ
وَيَهْوِي
صَرَخَتُهُ تَضْجُ فِي رَأْسِي
وَهُوَ يَسْفُطُ
فَوْقَ
سَرِيرِي

خُذُوا مِنِّي نَظْرَاتٍ تَضَعُ قُلُوبَكُمْ فِي
إِطَارَاتِ شَبَابِكِ خَشْيَةِ خَضْرَاءِ
قَلْبِي لِلْأَخْضَرِ الْيَوْمِ
لِلْأَشْجَارِ
وَالشُّوَارِعِ
وَالْحَافِلَاتِ الَّتِي تَحْمِلُ حُرْنَنَا
وَتَسْلُمُهُ لِيَدِ النُّسَيَانِ.
جُسُورُ يَتِينِي بِكَ الْيَوْمِ
تَمْتَدُّ
تَمْتَدُّ
لِيَعْبُرَ الْعُشَاقُ
وَالْعُرَبَاءُ

نَافِضِينَ عَنِ أَخِيلَتِهِمْ رِمَالِ أَمْسٍ قَاحِلٍ.

بصوت خافت

حِينَ تُغَادِرُ السَّكِينَةَ رُوحِي
جَنَاحَهَا سَوْفَ يُعْطِي
شَجَنًا قَدِيمًا،
شَمْسًا تَدْعُوكَ لِلصَّبْرِ مِنِّي،
وَتَوَايَاكَ الَّتِي تَخْتَرْنَهَا لِسَنَوَاتٍ قَادِمَةٍ
بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْبُعْدُ
مَرَقَّ حَنَاجِرَ أَيَّامِنَا.
وَحِينَ تَلْمَسُ أَيَّ زُرٍّ فِي حَيَاتِكَ
لَا تَجِدُ إِلَّا الصَّمْتَ

هُزُوبٌ

تَذْهَبُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ يَسْحَبُ النَّهَارُ يَدَهُ مِنْ يَدِي
وَيَنْتَعِكُ
فِي ظِلْمَةِ الشَّارِعِ الْكَبِيرَةِ
جَسَدِي تَمْتَالُ بُنْيُ
لَا يَرَى
وَلَا يَرَى.

هذا اليوم

الْيَوْمِ
أَفْتَحُ رَاحَتِي
فَيَمْتَصُّ الصَّيْفُ نَبَاتَاتِ شَهْوَةٍ نَابِضَةٍ
يَوْمٌ نَادِرٌ
كِعْرَقِي أَحْمَرَ فِي جَسَدِ السَّنَةِ
يُمْكِنُكَ أَنْ تُعِيرَ فَرْجِي لِلْعَالَمِ كُلِّهِ
أَنَا لَكَ الْيَوْمِ
لِلْعَالَمِ
أَعْطِي قَنَادِيلَ يَدَيْكَ
أَعْلَقُهَا فِي الْعُرْفِ الْجَرِيحَةِ الَّتِي تُفَكِّرُ
فِي الْإِنْهَادِ
أَصَابِعُكَ تَكْفِي لِتِنْدَى الصَّحَارَى
الْمُنْتَفِخَةُ تَحْتَ جِلْدِي
خُذُوا بَعْضَ الْقَطْرَاتِ

إزتظام

لِقَاءَ قَصِيرٍ لَا يَكْفِي
لَأُفْرِدَ صَوْنِي عَلَى حُرْنِكَ
وَوَدَاعٌ مِثْلُ هَذَا بَيْنَ سَيَّارَاتٍ مُسْرِعَةٍ
وَأَنَاسٍ غَاصِبِينَ
يَرْتَطِمُ
وَلَا يُحَدِّثُ إِلَّا الصَّدَى الْخَفِيفَ.
كَانَ يُمَكِّنُ أَنْتَهَضَ مِنَ الْكُرْسِيِّ الْأَسْوَدِ
وَتَفْتَحُ أَوْرَاقًا مُنْكَمِشَةً فِي
لَا تَنْفَسَ بِهْدُوءٍ
وَأَرَى مَلَاحِمَ نَهَارِكَ تَتَضَحُ
وَتَرَعَى هَوَسِي بِعِنَاقٍ طَوِيلٍ
لَكِنَّكَ بَقِيَتْ تُوَاصِلُ كِتَابَةَ نَصٍّ عَنِ
السَّيْنِمَا
ثُمَّ لَعَنَتْهَا
وَجِينَ غَادَرْتُ
كَانَ يَصِلُ مِنَ الْغُرْفَةِ
صَوْتُ أَعْضَانِكَ الْهَشَّةِ
تَسْقُطُ
فِي الْهَاوِيَةِ
وَوَحْدِي كُنْتُ أَسْمَعُ.

وَدَاعٌ

نَسَيْتُ فِي بَيْتِكَ
نَبَاتَاتِ اللَّيْلِ الدَّاكِنَةِ الَّتِي لَنْ تَحْرُسَهَا
تَمَائِيلُ أَصْوَاتٍ مُبْتَهَجَةٍ سَوْفَ تَنْكَسِرُ
كِتَابًا مُوقِعًا وَمَرْهَقًا خَلْفَ لَوْحَةٍ صَفْرَاءَ
رُبَّمَا مِظْلَةً
رُبَّمَا قَطْرَاتِ فَلَاقَةٍ قُبَيْلَ الصُّبْحِ
رُبَّمَا شَمْسَ قُبَيْلَةَ،
لَنْ يُنْقِذَهَا مِنْ خَلْفِ الْجِيَالِ أَيُّ مِنْ
عُشَاقِي الْمُقْبِلِينَ
سَتَمُوتُ قُبَيْلَتِي فِي وَحْدَتِهَا
وَأَنَا أَخْرُجُ بَعْدَ صَوْتِكَ الْعَالِي
الَّذِي كَانَ يَنْتَظِرُ خُرُوجِي



وَتَأْخُذُهَا إِلَى عَتَمَةِ التُّرَابِ
فِي بَيْتِي الصَّغِيرِ تَحْتَ الْعَالَمِ
سَوْفَ تَفُوحُ رَائِحَةُ جِلْدِكَ
حَلِيْبِي أَخْضَرَ
سُرِّي نَافِذَةً سَعِيدَةً
وَنَهْدَايَ قَنْدِيلَانَ لِلْأَرْوَاحِ الَّتِي تَضَلُّ
الطَّرِيقَ
وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ..
حِينَ تَسْكُنُ فِي بَيْتٍ قَرِيبٍ
سَوْفَ تُطْبِقُ جَفْنَيْكَ الصَّغِيرَيْنِ
وَلَنْتَعَلَمَ شَيْئًا عَنِ ذَلِكَ كُلِّهِ.

جَسَدُهُ الْمُغْمَى عَلَيْهِ
وَحُضْنِي
يَمُرُّ فِيهِمَا هَوَاءٌ حَارِقٌ يَأْتِي مِنْ جِهَتِكَ
هَلْ تَسْمَعُ هَذَيَانَ الْمَسَاءِ؟

تَحْتَ الْعَالَمِ

قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ
النَّبْئَةُ الْأَخِيرَةُ فِي الْعَالَمِ
سَوْفَ تَشْرَبُ مِنْ بِيضِ عُنُقِكَ
يَدِي الْمُشْتَاةُ تُمْسِكُهَا
يَدِي تَلْمَعُ



عِنْدَ الْأَدْرَاجِ.

هَذَا هُوَ إِسْمِي

خَفِيْمَةً تَنْهَضُ عُرْلَتِي
وَتَنْفَسُحُ الْمَكَانَ لَكَ
إِفْتَرَبُ
إِخْلَعِ الْغَلَالَاتِ عَنْ جَسَدِ الْعَاطِفَةِ
أَسْكُبُ عَيْنَيْكَ فِي بَيْرِي
وَبِقَمِ عَارٍ تَحَدَّثُ
أَيُّهَا الْمُتَأَخَّرُ!
النَّبْضُ الْأَنْثَوِي فِي صَدْرِ الْأَرْضِ
أَحْسَنُ الْقِصَصِ
مَنْ يُفَسِّرُ أَحْلَامِي الَّتِي رَكَضَتْ فِيهَا بَيْنَ
السَّنَابِلِ
عُرْيِكَ؟
قَدَمَايَ بَيْنَ الْكَائِنَاتِ
وَرُوحِي لَمْ تَعَادِرْ بُرْجَ الرُّؤْيَا
يَدِي الْوَحِيدَةُ تَلُوذُ بِقَيْرُوزِ الْقِرْمِيدِ فَوْقَ
الرُّفُوفِ
بِظِلَالِ آهَاتٍ
بِمَعَارَاتٍ هَجَرَهَا الرُّسُلُ الصَّغَارِ
يَدِي سَتَخْرُجُ
وَتَفْرُدُ آيَاتَهَا فَوْقَ هَضَابِكَ.
وَجِبْنَ تَعْوِينَا فِتْنَةَ الْبُعْدِ
مَنْ عَيْبَرُكَ سَيَقُومُ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلاً
صَوْتُكَ عَتَمَةٌ إِسْمِي
تَنْفَطِرُ
يَلْهَتْ وَيَلْمَعُ
أَيْتُهَا الْأَعَالِي الْعَمِيَاءِ،
أَنْصِي
هَذَا هُوَ إِسْمِي
إِسْمِي قَمُهُ
إِسْمِي صَمْتُ قَمِهِ.

مَنْطِقُ الطَّيْرِ

الْقِطْعَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الرَّحِيلِ،
أَنْتَ

الطُّرُقُ شَطَايَا مُهْمَلَةٌ
الْجُسُورُ أَفْوَاسٌ يَأْسَسُهُ
السَّرَابُ شَا حَبُ
وَأَنَا نِصْفِي حِصَانٌ مُسْرَجٌ
وَنِصْفِي صُخُورٌ صَامِتَةٌ
بِشَقَّتَيْنِ مَرْسُومَتَيْنِ
بِجَفْنَيْنِ مُطْبَقَيْنِ
أَلْقِي فَأَكْهَةِ أَنْوَتِي فِي مَا يَحْدُثُ بَعْدَكَ
تَحْتَ سُقُوفِ السُّكْرِ
دُخَانَ الْآخِرِينَ
وَالنَّجْوَى الَّتِي تَنْتَشِلُنِي مِنَ الذَّاكِرَةِ
وَتَحْمِلُنِي نَحْوَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ
هَنَّاكَ
ظِلَالَكَ صَيْفُ النَّسْبَانِ
عُشْيَ الصَّغِيرِ يَحْتَرِقُ
وَالرَّحِيلِ،
مِرَاةً تَتَوَحَّدُ فِيهَا أَرْوَاحَنَا
أَنَا تَلَاثُونَ طَيْرًا
تَلَاثُونَ دَرَبًا
تَلَاثُونَ قِمَّةً.
كُنْ وَاحِدًا
وَانظُرْ.
كُلُّ نَجْمَةٍ
فِي الْحُضْنِ الَّذِي لَا أَنَالُهُ
نَهْدَايَ يَحْتَسِبَانِ حَلِيبَ اللَّحْظَاتِ
عِظَامِي طَبُورِ الْعَتَمَةِ
وَالثَّرْبَةَ الصَّامِتَةَ تَحْتَ جِلْدِي
تَتَطَايَرُ فِي الْهَوَاءِ
وَتَتَنَفَّسُ
كُلُّ حُفْرَةٍ صَغِيرَةٍ شَفَّةٌ لِاسْمِكَ
هَلْ تَسْمَعُ؟
وَتَحْتَ الْغَلَالَاتِ
نَمَّةٌ مَلَكَ مُشْرَدٌ

يُهَيِّئِي الْمِرَاةَ لِعُرْيِكَ

الْخُطُوطُ
الدَّوَائِرُ
زَوَايَا الظِّلِّ وَالضَّوْءِ
تَنْعَمِسُ فِي لَوْحِ اللَّيْلِ
كُلُّ نَجْمَةٍ أَدْنُ لَامِعَةٍ
أَهْمِسُ
أَهْمِسُ.

أَرْبَعَاءُ الْحَوَاسِ

يَدُلُّفُ الصُّبْحُ إِلَى الْأَرْبَعَاءِ
لَا تَعْرِفُ..
لَا تَعْرِفُ..
وَمِنَ الْأَيَّامِ الذَّاهِبَةِ الَّتِي لَا تُرِيدُ لَهَا
الْحَيَاةَ
تَخْرُجُ الْمِيَاهُ وَالرِّيَّاحُ
وَتُجَالِسُ كُنْفَيَّ
وَالْحَوَاسُ تَرَعَى الطَّبِيعَةَ فِي غِيَابِكَ
الرَّصِيفُ،
حَرِيرُ الصَّبَاحِ تَحْتَ قَدَمِي
الْأَشْجَارُ فِي الْأَزَقَّةِ النَّائِمَةِ،
سَلَالِمُ النَّسْبَانِ
وَحَلِيبُ اللَّيْلِ،
يَقْطُرُ مِنْ أَبْقَارِ مُمْتَلِئَةٍ نُحْبِنِي
مُغْرَمُونَ بِقُلُوبِ صَغِيرَةٍ
وَبَيْتٌ بِلَا أَسْرَةٍ
أَرْقُصُ وَحْدِي وَسَطَ هُدُوءِهِ
هَكَذَا،
هَلْ أُهَيِّئُ الْعَالَمَ لِمَجِيئِكَ
أَمْ يَبْقَى قَلْبِي جَرَّةً زَرْقَاءَ فَوْقَ الرَّفِّ
لَنْ تَلْمَسَهَا أَصَابِعُكَ
وَلَنْ تَنْكَسِرَ؟

وَاحِدٌ اثْنَانِ

الْمَكَانُ الْفَارِعُ الَّذِي يَتَّبِعُنِي
يَكْبُرُ كُلَّ مَسَاءٍ
وَيُرِيحُ الْمُرَافِقِينَ



إِنَّهُمْ ظِلَالٌ فَقَطْ.

تِلْكَ النَّظْرَةُ

عَاقِبَةُ حَارِقَةٍ

نَظَرْتُكَ

حِينَ تَهَيَّبُ مِنَ السَّلَامِ

وَتَقِفُ لِي فِي الرُّقَاقِ

تَصْقِلُ الأَوْهَامَ وَالتَّدْصِمَ

سِدْرَةَ المُنْتَهَى

تَذُبُّلُ فِي ظِلِّكَ.

بَابُ مُوَارِبِ

هُنَا خُلُودُ الخُمْرِ

خُلُودُ الذِّينِ يُغْرَوْنِي بِالقَمَرِ الصَّغِيرِ

فِي ضَحَكَتِهِمْ

خُلُودُ الفَوَصَى..

شُمُوعُ المَسَاءَتِ..

نَجْمَةُ الفِتْنَةِ القَرِيبَةِ مِنْ صُورَتِي

وَالنَّبَاتَاتِ الحَافِظَةَ الأَسْرَارِ

خُلُودُ عَفْلَتِكَ

حِينَ تَقْرَأُ الحُرُوفَ المُوهِمَةَ بِالدُّبُولِ

تَرْحَلُ

وَلَا تَدْخُلُ البَابَ المُوَارِبِ.

أَيُّهَا الشَّاعِرُ

الآبَاءُ يَحْمِلُونَ الأَطْفَالَ بِمَلَاسِ رَثَّةِ

وَبِظُهُورِ مُنْحَنِيَةٍ.. يَسْتَلُونَ الرُّوَجَاتِ مِنْ

غَوَايَةِ الصَّيْفِ وَكَيْالِيهِ

وَيَرْحَلُونَ

العُشَاقُ يَرْمُونَ كَلِمَاتِهِمْ وَالشُّكُوكَ

الجَمِيلَةَ خَلْفَ الأُفُقِ الشَّاحِبِ

وَيَسْعَوْنَ خَلْفَهَا

المَجَانِينُ يَنْسُونَ كُلَّ مَا يَرَوْنَ وَيَتَابِعُونَ

سَيْرِهِمْ فِي الشُّوَارِعِ

وَإِنَّ الصَّوْتِ المُخِيفِ

التَّائِمُونَ

الشَّجَرَةَ الوَحِيدَةَ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْ رَتْبَتِهَا

هَوَاءُ الضَّلَالَةِ الطَّاهِرِ

أَنْتَ

وَأَنَا فِي البَعِيدِ

أَنْتَفَسُ

وَأَمْسِكُ اليَدَيْنِ.

العُرَبَاءُ

يَقْبِضَةُ طَفَحَتِ بِهَمْسِ العُرَبَاءِ

أَهْبِطُ بَيْنَ جُدْرَانِ أَطْبَقَتْ عَلَى آثَارِكَ

قَلْبِي ظِلُّ مَدِينَةٍ

أَتْرَكُهَا

وَأَلْتَحِقُ بِهِمْ مُسْرَعَةً..

العُرَبَاءُ الذِّينَ لَا يَعْرِفُونَكَ

يَجْلِسُونَ عَلَى أَرِيكَتِكَ وَاحِدًا تَلُو الأَخَرَ

يَخْدِشُونَ الرُّوَائِحَ القَدِيمَةَ بِقَمْصَانِهِمْ

يَلْعَقُونَ عَسَلَ النَّهَارِ وَيَبْتَسِمُونَ

وَفِي اللَّيْلِ حِينَ يَخْتَسُونَ خَمْرَكَ

المُتَبَقِّي

لَا يَسْكُرُونَ

لَا يُطِيلُونَ الحَدِيثَ

وَلَا يَنَامُونَ مُبَكِّرًا

وَالأَشْجَارَ

وَالتَّمَاثِيلَ الَّتِي تَرْمِي المَاضِي فِي وُجُوهِ

العَابِرِينَ

المَكَانِ يَسِيرُ

...

جَسْمِي وَاحِدٌ..

وَكَأَنِّي اثْنَانُ.

لَا يَدَ تَسْتَيْقِظُ فِي الذِّكْرَى

لَا يَدَ مِثْلَ يَدِكَ

لِكِنِّي أَتْرُكُهَا عَابِقَةً وَعَدْرَاءَ

كَوَجَعِ عَيْبَرِ مُبَالٍ بِأَيْدِي الأَخْرِينِ

أَهْبِهَا لِفَتَيَاتِ هَرَمَنْ فِي مُنْتَصَفِ العُمُرِ

وَأَسْكُنُ بِلَادًا بَعِيدَةً

يَدَايَ ثُقْبَانَ كَبِيرَانَ فِي الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ

يَنْقُلَانِ العُشَاقَ الحَزَانِي إِلَى وَهْمِ

الشَّهَوَاتِ

وَيَنْتَظِرَانِكَ كَيْ تَدْخُلَ

يَدَايَ لَكَ حِينَ تَشِيخُ

وَتَسْقُطُ مِنْ أَعْصَانِكَ الثَّمَارُ وَالعَاشِقَاتُ

وَالنَّعْمَاتُ وَالخُمُورُ

وَفِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ مِنْ عُمُرِ العَالَمِ



يَتَخَلَّوْنَ عَنْ بَقَايَا أَحْلَامِهِمْ
وَيَهْرَعُونَ نَحْوَ مُدُنِ الشَّمْسِ فِيهَا أَقْلٌ
وَالدَّمُ وَالنَّدَمُ وَالذَّمْعُ
أَقْلٌ

يُعَادِرُونَ

وَاحِدًا

تَلُوْ

الْآخِرِ

وَحَدَهْنَ الْعَاشِقَاتِ

يَتَرَكْنَ الشَّبَابِيكَ مُسْرَعَةً فِي بُيُوتِهِنَّ

وَيَذْهَبْنَ إِلَى بَغْدَادَ.

هُنَاكَ، وَهِيَ تَبْدَأُ يَوْمَهَا

قَادِرَةٌ يَدِي أَنْ تَلْمَسَ فَمَكَ الصَّارِحِ أَيْهَا

الْكُوْنُ

كَيْ تَهْدَأَ قَلِيلاً

وَتَسْتَظِلَّ بِكَلِمَاتِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ

يُصِحُّونَ أَجْمَلَ حِينَ يَثْمَلُونَ

يَدِي الَّتِي تَصِلُ مَعْرُورَةً وَحَائِرَةً

فِي بَغْدَادَ - أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ -

تَعْرِفُ كَيْفَ تُشَدِّدُ عُرْلَتَهَا

كَيْفَ تَحْضُنُ

كَيْفَ تَصْحُو لَامِعَةً فَوْقَ السَّرِيرِ

وَكَيْفَ تَنْفُضُ الْأُورَاقَ الصَّفْرَاءَ عَنْ

رُوحِكَ

وَأَنْتِ تَنْتَظِرُ أَوْلَى أَمْطَارِ الْخَرِيفِ

أَيْهَا الشَّاعِرِ.

دَمِي الْأَخْضَرُ

الآنَ

وَالكَائِنَاتُ الْخَائِفَةُ تَتَجَرَّأُ

وَتَتَمَتُّ بِكَلِمَاتِ الصَّبَاحِ فَوْقَ رَأْسِكَ

دَمِي يُفْرَعُ ذَاكِرَتَهُ الْمُضْطَرِبَةَ الْحَمْرَاءَ

يَخْرُجُ إِلَى الشَّارِعِ

وَيَبْدَأُ بِالتَّقَاطِ مَا تَرَكَهُ الْخَرِيفُ

دَمِي الْأَخْضَرُ

سَوْفَ يَنْقِذُ الْفِرَاعَ الْأَبْيَضَ

فِيكَ

فِي الْمَرَّةِ الْمُقْبِلَةِ

حِينَ نَلْتَقِي.

فَزُقِ الْمَسَافَةَ

رَأَيْتَكَ

الغَيْمَةُ الَّتِي كَانَتْ تَهْرُبُ كُلَّ مَسَاءٍ

مِنْ صُدُورِ النِّسَاءِ الْمُشْرِفَاتِ عَلَى

المَوْتِ

إِلَى عُنُقِي

لِتَعَشِّشَ رُوحِي الصَّغِيرَةَ فِيهَا

ذَهَبْتُ

وَبَقِيَتْ رُوحِي الصَّغِيرَةُ

تَجْهَلُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَنْ يَذْهَبُ

وَمَنْ تَذْهَبُ رَأَيْتَهُ.

رَجُلٌ آخَرُ

حِينَ تَخْرُجُ مِنَ الْقَمِيصِ الْأَبْيَضِ

الْغَرِيبِ

الَّذِي لَا يَعْرِفُنِي

الْقَمِيصُ الْحَزِينُ الَّذِي لَا يُرِيدُ أَنْ

يَعْرِفُنِي،

وَتَخْرُجُ مِنَ الْكَنْبَةِ الَّتِي تَكُورُ نَفْسَهَا

مِثْلَ عَجُوزٍ مَنَسِيَّةٍ فِي رُكْنِ الْعُرْفَةِ

وَتَقْفُ

لِتُنْبِتَ الْعُرُوقَ الطَّرِيَّةَ عَلَى جَبِينِكَ

أَتَذَكِّرُ حِينَهَا أَنْ أَشْمَّ صَدْرَ الرَّبِيعِ

الرَّبِيعِ،

الرَّجُلُ الْوَجِيدُ الَّذِي أَعَانَفُهُ دُونَ أَنْ

أُتِيحَ لَكَ أَنْ تَشُكَّ.

حَاقَةَ الْوَقْتِ

أَفْرَعُ الْحَقَائِبَ

وَالْمِزْهَرِيَّاتِ

الرَّفُوفِ

وَالْأَرَاكِ

أَفْرَعُ بَيْتِي الَّذِي هُوَ جَسَدِي

وَطَرَقِي الصَّغِيرَةَ الَّتِي أَمُرُّ بِهَا كُلَّ يَوْمٍ

أَفْرَعُ حَيَاتِي

لِتَجْلِسَ فِيهَا كَلِمَاتُكَ

قَبْلَ الْحُزْنِ

قَبْلَ الرَّحِيلِ الْخَادِعِ

قَبْلَ أَنْ تُطَوِّحَ بِهَا غَاضِبًا

لِرَأْهَا مِثْلَ أَغْصَانٍ يَابِسَةٍ عَمِيَاءَ

هَائِمَةٍ

فِي الْفِرَاعِ الْكَبِيرِ.

عَامٌ آخَرُ

عَامِي التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ

دَرَيْي فِي رَحِيلِكَ

يَعْتَرِضُهُ الدُّخَانُ

كُوُوسٌ لَيْلِكَ

عَطَشُكَ لِقَطْرَاتِ نَادِمَةٍ

وَدَيْكَ يَصِيحُ لَيْلَ نَهَارٍ

يَصِيحُ

يَصِيحُ

وَيَرْعَشُ دَمَكَ/دَمِي...

فِي الْأُفُقِ الْأَحْمَرِ

هُنَاكَ مَنْ يَرْفُضُنِي لِئِنِّي بِنَتَائِيرِ بَيْضَاءَ

وَفِي الْهَيْئَامِ

يَرْسُمُنِي لِئِنِّي دَوَائِرَ النَّسِيَانِ

الْأَصْوَاتُ تُورِدُنِي

وَوَاحِدًا وَوَاحِدًا يَطُوفُ بِي الطَّائِفُونَ

التَّصَاوِيرُ تَخْرُجُ مِنْ رَأْسِي وَتَخْتَفِي فِي

صَبَابِ الدَّوَائِرِ

هُنَا

أَشْعُرُ بِأَمِّي

تَصْرُخُ فِي الْعَالَمِ

وَتُحَاوِلُ أَنْ تَلِدُنِي فِي صَحْرَاءَ بَيْضَاءَ ■

شاعرة من إيران تكتب بالعربية والفارسية



النخبة والناس

ملف سجالي



سجال

يشكل هذا الملف عتبة يمكن أن ترتقى عبوراً إلى حوار أوسع تقترحه "الجديد" انطلاقاً مما أثاره الملف المنشور في عددها الثاني تحت عنوان "ثقافة النخبة وثقافة الناس". هنا نقاش وحوار وتعليق وسجال ووصف حال في قضايا أثارها مقالات ابراهيم الجبين "سؤال النخبة: هل سيحكمنا الرعاع"، خزعل الماجدي: ثقافة الأقلية وثقافة الناس"، خطار أبو دياب: النخب العربية وضياع فرصة الربيع"، يحيى العريضي: نخبة الضياع"، خالد قطب: النخبة الثقافية والديمقراطية الغائبة". وبالتالي فإن النصوص المنشورة في هذا العدد تناقش طائفة من القضايا التي تتصل بوعي النخبة المثقفة لذاتها وعلاقتها بالناس وبمنظومة الأفكار المتداولة في مجتمع الثقافة العربية. وتبرز بينها، خصوصاً، مسائل وموضوعات ومصطلحات كالديمقراطية، السلطة، الناس، الثقافة، التطرف، الثورة، التغيير، الليبرالية، النهضة، النكوص الحضاري، إلخ. بينما تذهب موضوعات أخرى في الملف إلى مناقشة حال العرب اليوم بوصفهم أمة في حالة قلق وتمزق، وتواجه عدواناً قومياً وعنصرياً عليها، وغزواً إيرانياً امبراطورياً لجغرافياتها يزعزع كياناتها، ويضعها في مواجهة خطر وجودي ماحق.

هنا، في هذا الملف السجالي تتعدد المنظورات وكذلك مستويات التناول كما تعددت الموضوعات التي شكلت تحدياً للأقلام التي رأت محاورتها ومساجلتها، أو الانطلاق من أسئلتها لتوليد المزيد من الأسئلة واشتقاق موضوعات جديدة جديدة بالطرح والعرض

والمناقشة ■

قلم التحرير

قراءة في ملف «ثقافة النخبة ثقافة الناس»

النخبة والنخبوية

أبو بكر العيادي

يوحي عنوان الملف، الذي ورد في شكل جملة اسمية لا تفصل مبدئياً عن خبرها فاصلة أو حرف عطف، بأن ثقافة النخبة هي ثقافة الناس، ثم جاءت الديباجة لتعيد صياغته في شكل تساؤل «هل هناك ثقافة نخبة وثقافة ناس؟» وكنا نتوقع أن ينصبّ اهتمام المساهمين على ذلك السؤال الجارح، لتبين كقراء- معنى ذينك المصطلحين، ونعرف ما إذا كانت ثمة فجوة بينهما، وهل من سبيل إلى تقليصها أو سدها، إلا أنهم اختاروا البحث عن أسبابه.

الإفراط في الاستئثار بالوسائل الغاية المنشودة، ما جعل تلك التقنيات تتجمع بين أيدي النخبة (التي تملك المال أو المعرفة) فمن يملك الوسيلة يملك الغاية. ماركس يفسرها اقتصادياً، ويرى أن الإمساك برافعة الآلة الاقتصادية يمنح الطبقة التي تمسكها السيطرة على جهاز الحكم. أما فيلريدو باريتو، فيعتقد أن كل المجتمعات نخبوية، ولا تختلف إلا في الأسلوب، فالنخب، سواء لجأت إلى الحيلة أو العنف، لا غاية لها إلا تكريس الهيمنة. بل إن الديمقراطية البرلمانية في رأيه ليست إلا خدعة موصوفة لما يسميه «حكومة أثرياء وغوغائية».

النخبة في بلاد العرب

هي من صميم المجتمع، يقول إبراهيم الجيين، اشتغل شخوصها على ذواتهم، وطوّروا أسباب وجودهم. إقطاع مستمر، أو طبقة مثقفة جاءت من الجامعات الغربية والإرساليات التي انتشرت في الشرق، أو عادت من البعثات في أوروبا والعالم الحديث، جالبة معها أفكاراً منجزاً، أنتجته مجتمعات أخرى. وهذا في حدّ ذاته لا يعيب، لأن سائر البلدان التي عاينت تقدم الغرب أرسلت هي أيضاً بعثات تعليمية إلى جامعاته، وعادت هي الأخرى بفكر جاهز، ولكن الفرق بيننا وبينها أنّ نخبتنا استوحت من الغرب ما يستقيم مع مجتمعاتها، وصهرته في ثقافتها لتخطط لهضة وطنية شاملة في شتى المجالات، واستطاعت في وقت وجيز أن تلحق بركب الحضارة، بل وتتجاوزه في بعض الحالات، فيما أسقطت نخبتنا الفكر الدخيل على ثقافتنا، تزيد فرضه فرضاً عليها، أو وقفت موقفاً متعالياً عزلها عن الناس بـ«جدار زجاجي» على رأي الجيين، وآثرت تقديم الولاء والطاعة لصاحب التجلّة والجاه، بعبارة ابن خلدون، لتغتم من قربها منه منافع ومكاسب. وبذلك انتشرت بضاعة النخبة العربية بين صنّاع القرار. واتضح أن مشروع النخب العربية لم يكن سوى مشروع للاستيلاء على السلطة. وتحوّل الحكم إلى استبداد وحشي بالتحالف مع الكولونيالية المنسحبة شكلاً والباقية من خلال وكلائها. وظلت النخبة تنتج النخبة وتستحوذ على

في الحقيقة لم تخلُ عناوين المقالات التي أثنت الملف من عبارة «النخبة»، وقد وردت جميعها في صيغة إدانة «النخبة الثقافية والديمقراطية الغائبة» لخالد قطب، «النخب العربية وضياع فرصة الربيع» لخطار أبو دياب، «نخبة الضياع» ليحيى العريضي، أو في صيغة ازدراء «سؤال النخبة: هل سيحكمنا الرعاع» لإبراهيم الجيين، ولم ترد في شكل محايد إلا في عنوان مقالة خزعل الماجدي، وإن استبدل الأقلية بالنخبة «ثقافة الأقلية وثقافة الناس». أي أنها تناولت في عمومها فشل النخب العربية سواء في بلورة مشروع نهضوي قومي، أو في سكوتها عن الاستبداد، أو في تواطئها مع منظومة الجور والفساد، وحتى في انحراف ثورات الربيع العربي، ولم تعرض لملامح ثقافتها ولا للعلاقة بين تلك الثقافة وثقافة العامة إلا في القليل النادر.

ما هي النخبة؟ وما أسباب استقوائها؟

يعرّف معجم لاروس النخبة بكونها مجموعة أشخاص يحظون داخل مجتمع ما بمكانة بارزة ناجمة عن خصال ذات قيمة على المستوى الاجتماعي، كالنخبة الثقافية والنخبة السياسية. وهي في وجه من الوجوه شريحة من الشعب لها مكانة في قمة السلم التراتبي -أو ما يسميه القدماء الطبقات- وهي التي تمسك عادة بالسلطة. ويفترض مصطلح النخبة مبدأ الأفضلية والاختيار أو الانتخاب. والعبارة في مقابلها الفرنسي مستمدة من اللاتينية electus اسم مفعول من الفعل eligere ومعناه اقتطف أو اختار. ومنها نتجت فكرة التفوق، لأن من نختاره هو الأفضل والأصلح والأحسن. نجد ذلك حتى في الأنظمة الديمقراطية، والحال أن الديمقراطية، نظرياً على الأقل، تفترض المساواة بين سائر المواطنين. فالمساواة، طبيعية أو مدنية أو سياسية أو اجتماعية، هي مطمح كل المجتمعات ولكن لا الثورة الفرنسية ولا الثورة الروسية أفلحتا في تحقيق ذلك. ففي الغرب مثلاً، صارت الجدارة méritocratie مقدّمة على المساواة، لأن المجتمعات الغربية صاغت تقنيات اصطناعية للترقي الاجتماعي: تقنيات مادية قائمة على الممتلكات، وتقنيات ثقافية قائمة على العلم والمعرفة. وصار



خطار أبو دياب يرجع أسباب فشل العرب في بناء مشروع نهضوي إلى عدم وجود ديناميكيات قادرة على التغيير نتيجة عدم بلورة مشروع ديمقراطي عربي ينهل من التراث العريق ويتأقلم مع متطلبات العولمة في عالم تسوده التجمعات الكبرى: فهو يتحدث عن فشل المحاولة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر، ثم فشل المحاولة الثانية عقب هزيمة 67

الثروة. هذا التوصيف ينطبق على بلدان المشرق والمغرب على حدّ سواء، وإن بفوارق بسيطة. وإذا كان خطّار أبو دياب قد استند إلى نظرية ابن خلدون في العصبية والقبلية لتفسير استئثار فئة معينة بالسلطة وفرض الاستبداد، فإن الجبين والعريضي وقطب عزوه إلى النخب السياسية ثم إلى النخب الدينية والثقافية التي تمالي الحاكم فتسوّج جوره واستبداده، أو تعارضه فيجد في معارضتها مسوغاً لطغيانه حفاظاً على السلطة، ضارباً كل مرة رأساً برأس كما تقول العامة.

استقالة المثقف

في وضع تلك سمائه، ليس أمام النخبة المثقفة إلا الممالة والتواطؤ أو الاستقالة، فالعسف - كما قال أبو دياب مستشهداً بابن خلدون - يؤدي إلى خراب النفوس وفساد النوع. ومن ثمة يقول العريضي: ترى الأنامل النخبوية الفكرية الثقافية قد آثرت الاختباء في الظل الآمن العفن على الانكشاف والسقوط الأكبر والنهائي. ولكن ما قدر المثقف إذا قوبل بالقمع والتعذيب والقتل؟ إذا وُجد من بين النخبة المثقفة من باع ضميره طمعا في حظوة أو منصب أو عطايا سنّية، فإن من بينهم أيضاً من قاوم فُشجن أو نُفي أو قُتل، ومنهم من اعتبر بكل ذلك فاختار الصمت، لأن آتية الطين - كما يقول المثل الفرنسي - لا تصمد أمام آتية الحديد. ولا يمكن أن نطالب المثقف بالبطولة والاستشهاد ليحوز مكانة في ضمير أمة قد لا تعي وجوده أصلاً. يقول ألبير كامو على لسان أحد أبطال مسرحيته 'الحصار': إذا كان الظلم والجور والفسوة تدفع الناس إلى التمرد، فإن الغباء يثبط العزائم، والرجال (المتمردين) إذا ما أعتيهم رؤية الغباء منتصراً على الدوام، يسلمون أمرهم ويلوذون بالصمت. وقبله بقرون قال سيبسون (106-43 ق م) 'بما أن أصواتنا ما عادت تُسمع لا في مجلس الشيوخ ولا في الفوروم، فلنتعظ بالحكماء الأوائل، ولنخدم بلادنا عن طريق كتاباتنا'. وفي رأينا أن الجبين يبالغ حينما يلغي كل جهد بسؤاله الإنكاري 'ما هو الإرث الذي تركته النخبة العربية للعامة حتى ما قبل العام 2011؟' فالذنب ليس ذنب صادق جلال العظم وحسين مروة ونصر حامد أبو زيد وعلي حرب والطيب تيزني ومحمود إسماعيل ومحمود طه ومحمد عابد الجابري وهشام جعيط ومحمد الطالبي وعبد المجيد الشرفي وآخرين إذا كانت العامة لا تقرأ، وإذا كان الساسة والمتفقهون يكرسون الأمية وخطاب الجهل، عبر القنوات التي تدخل البيوت بغير استئذان وتروج للفكر الذي يريده الحاكم.

أما عن نزوع النخبة العربية إلى التقلب وتغيير مواقعها والتنكر لثوابتها طمعا في التقرب من السلطة، فهذا ليس حكراً على العرب وحدهم، بل هي سمة من سمات البشر، وإن شئنا الموضوعية قلنا نفر منهم لا مطمح له إلا حيازة رضا الحاكم والاستفادة من مزاياه. هذا مثلاً بنجامين كونستان الذي انقلب على نابليون بعد سجنه في جزيرة إلبا، وأعلن وفاءه للويس الثامن عشر، نكت عهده وقيل أن يكون مستشار نابليون فور فراره من السجن وعودته إلى السلطة في العام نفسه، أي 1815،

بل إنه حرر له مشروع الدستور.

ولا نوافق وصف العريضي النخب العربية كافة، بلا استثناء، بنخبة الضياع، فقد يصح ذلك الوصف على من بيده تصريف شؤون البلاد، فجعلها نهبا للفساد والجهالة، ثم للتكفير والترهيب والتدمير، ولكنها ليست حالة عامة تنطبق على الجميع، حتى أولئك الذين قاوموا وناضلوا وضحو بحياتهم لإقامة مجتمع عادل. أما وصفه الوضع الراهن بأنه حالة عبثية، لا نموّ فيها للثقافة ولا للنخبوية، ففيه نظر، فالثقافة قد تزدهر أحياناً وسط الخراب، ولنا في أميركا اللاتينية زمن سطوة العسكر أسوة. وكذلك نظرته إلى الثقافة الأميركية، فالعيب مرة أخرى فينا وليس فيها، لأننا لم نأخذ منها غير القشور، فيما لبثها في طليعة الحركات الثقافية. فأمبركا، بشهادة العارفين، قوة ثقافية قبل أن تكون قوة عسكرية. أما عن تفضيل الفرجوي على المقروء فهي ظاهرة عالمية لم تسلم منها حتى المجتمعات المتقدمة، والاحتفاء بفوز فريق كرة بكأس أو لاعب بميدالية يفوق ما يلقاه الفائز بجائزة أدبية ولو كانت عالمية، فالسواد الأعظم من الفرنسيين مثلاً يعرف زيدان بطل العالم في كرة القدم، وحتى أبسط مقدمة برنامج تلفزيوني أكثر من معرفته باتريك موديانو المتوج هذا العام بجائزة نوبل للآداب.

من يحكمنا وكيف؟

ما من ثورة إلا وكان الشعب قادحها ووقودها، برأس أو بغير رأس، ولكن الشعب لا يستطيع أن يقود نفسه بنفسه، وقد لمسنا ذلك في الحالتين التونسية والمصرية عقب تنحية بن علي ومبارك. فهو بحاجة إلى من يسوسه، وتبقى صيغة الحكم محل جدل، في نوع من التناقض أحياناً بين المساهمين، فأبو دياب يرجع أسباب فشل العرب في بناء مشروع نهضوي إلى عدم وجود ديناميكيات قادرة على التغيير نتيجة عدم بلورة مشروع ديمقراطي عربي ينهل من التراث العريق ويتأقلم مع متطلبات العولمة في عالم تسوده التجمعات الكبرى. فهو يتحدث عن فشل المحاولة الأولى في أواخر القرن التاسع عشر، ثم فشل المحاولة الثانية عقب هزيمة 67، وعن مشروع لم يظهر إلى حيز الوجود يريد له التأقلم مع العولمة التي، ظهرت كفكرة (العولمة البشرية ثم عولمة التبادل التجاري) منذ مطلع القرن العشرين، ولكنها لم تبرز كمنشآت تجاري عابر للحدود، مثل التجمعات الكبرى، الاتحاد الأوروبي بخاصة، إلا بعد نهاية الحرب الباردة، أي في مطلع تسعينات القرن نفسه. كما يتحدث عن تراث عريق نهل منه، ونحن نعرف أن نظام الحكم منذ بداية العصر الأموي صار نظاماً ملكياً وراثياً، يستند في المقام الأول إلى الجبر الديني، أي أن شرعية الخليفة تستمد من السماء، فهي قضاء من القضاء وليس للرعية فيها خيرة. ولا ندري أيّ مثال يعود إليه العرب، الذين لم يعرفوا في تاريخهم الطويل مصطلح الحرية، كي يختاروا نموذجهم الديمقراطي. هذا رغم أن الكاتب يقول في المقال نفسه 'إن الديمقراطية ليست هي الترياق للمشاكل البنوية ولمعضلة إيجاد صيغة الحداثة الملائمة'.

خالد قطب من ناحيته يشك في حسن نيات النخبة، لكونها



الحريات الفردية الخاصة والحرية العامة لأي مواطن. ولكن المعيار الديمقراطي في الواقع، وإن كان هو وحده من يرفع تنظيم المجتمع، لا يضمن فعاليته، في حال تدهور الاقتصاد. عندئذ لن يكون النظام السياسي هو الذي يبرز عن الشعب نفوذه، بل الاقتصاد الضعيف الذي لا يسمح بإيجاد ما يمكن تقاسمه أو توزيعه. فالمعروف أن القدر الكبير من الثروة يعطي قدرا أكبر من القوة والنفوذ، ويفترض أن تمنح تلك الثروة المواطنين مزيدا من الحرية والديمقراطية، إذا ما تم توزيعها بالعدل والقسطاس. ولكن الديمقراطية الليبرالية في الواقع لا تلبى تلك الوظيفة، بل لا تسمح إلا بحرية الثعلب في قن الدجاج. فهي تمنح صاحب الثروة قوة يستعملها لهيمنة على ضعاف الحال واستغلالهم وإخضاعهم لمشيئته. يتبدى ذلك على الصعيد المحلي، حيث تستأثر الأقلية بالثروة وتخضع العموم للاستنزاف، ويتبدى أيضا على الصعيد الدولي، حيث تفرض الدول الغنية والشركات العملاقة مشاريعها على الدول الضعيفة، وترسم لها مخططاتها، خصوصا في ظل العولمة التي جعلت الشركات العابرة للقارات المتعددة الجنسيات تمارس استعمارا جديدا على البلدان المتخلفة، التي توصف تخلقا بالبلدان السائرة في طريق النمو. وقد رأينا مساوئ تجريب تلك الليبرالية في بلداننا، حيث العمالة وافرة، والأجور زهيدة. والرابح الوحيد هو النخبة السياسية الحاكمة والدائرون في فلكتها من سماسرة ووكلاء. والنتيجة أن الديمقراطية الليبرالية التي يراها صديقا خزل وسيلة مثلى للحكم، لا تخلق فقط عدم المساواة، وهذا أمر متصل بطبيعة الليبرالية، بل تنشر الفقر والخصاصة بين أوساط المجتمع، حينما تعمد إلى طرد العمال أو نقل مؤسساتها إلى الخارج، لا لشيء إلا لأن أرباحها لم تكن بالحجم الذي تطمح إليه. فأى ديمقراطية ليبرالية في مجتمعات لا تنتج شيئا، وتتوكل على الغرب حتى في غذائها؟

ثقافة النخبة وثقافة الناس

مقالة الماجدي هي وحدها التي ظلت لصيقة بالموضوع، فقد كان صاحبها واضحا منذ البداية حين أقرّ بوجود ثقافة نخبة تختلف عن ثقافة الناس، ثقافة نخبة متعلمة تربط المجتمع بعصره وتشعره بما يجري في العالم، وثقافة شعبية هي مصدر الإنتاج الفطري... الذي يشكل النضج العام الجمعي. ولكنه صار أقل وضوحا عند الحديث عن العلاقة بينهما، فهما مرة متنافرتان، تفصلهما فجوة، ومرة منفصلتان شكليا ومتصلتان وظيفيا، وما الفجوة التي بينهما سوى فجوة أميبية الحركة لا يمكن رسمها وتحديد مناسبتها. ثم يعود إلى الفجوة فإذا هي هوة، لا يمكن ردمها إلا بتقدم المجتمع كله وتحضره، مع الجزم بأن ذلك لن يحدث قريبا وهو ما لا نتوقع حصوله خلال قرون قادمة. ثم يعود مرة أخرى ليجزم لا أعتقد أن من صالح المجتمع ردم الهوة. أو يصرح أن الثنائية نخبة/ناس التي تخضع لفصل حاد في ذهن المتلقي... يمكن تفكيكها وتجاوز تعارضها والاعتراف بتواشج قطبيها. ليس عيبا أن نقول إن ثمة ثقافة نخبة وثقافة عامة، فعلماء

تمارس نوعا من تزييف وعي المواطنين، ويشك في مستواها، لكون الواحد منها أصبح عاجزا عن القيام بدوره الأساسي وهو تنوير الناس، لأنه ببساطة يحتاج إلى تنوير، مثلما يشك في أن تكون الديمقراطية السبيل الأمثل، لأن فكرة الاقتراع التي تمارسها السياسة تحت مسمى تطبيق الديمقراطية إنما هي فكرة ساذجة للغاية وتستخف بالعقل الإنساني. ويدعو إلى ما يسميه الديمقراطية اللانخبوية. لما لها من دور في تنمية الشخصية الإنسانية عن طريق المشاركة في الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها. أي أنه يدعو، إن لم نخطئ الفهم، إلى ديمقراطية مباشرة، وقد رأينا مآلها على سقراط نفسه، ثم رأيناها في شكل معقم في استبداد الثورة الفرنسية إبان أعوامها الأولى، حيث حوّل الثوار البلاد إلى حمامات دم ساهمت في زرع الفوضى ومهدت لوصول عسكري شاب هو بونابرت إلى السلطة. إن الديمقراطية منذ نشأتها كانت تحت المحك، والديمقراطيون الأثنيون، شأنهم شأن الليبراليين المعاصرين، يعرفون مخاطر الرشوة والفساد، وانحراف السلطة التي ينبغي تطهيرها، ومخاطر الغوغائية التي يمارسها بعضهم لاستغلال ساذجة الجماهير، فأبتدعوا ميكانيزمات مراقبة هي تداول المهام، القرعة، وفصل السلط. وهو ما استفاد منه مونتسكيو فيما بعد لتطويره على النحو الذي يمارس اليوم في البلدان المصنعة. ورأي قطب في النهاية مثالي لأن الطريق إلى الديمقراطية اللانخبوية في تصوره تقوم على مشاركة المواطنين في تحديد أولياتهم المعرفية. وهذا مرهون بالمستوى التعليمي العام، وهو كما نعرف أمنية لم تتحقق بعد في بلاد العرب. يقول التعليم هو البوابة الرئيسية للديمقراطية المستنيرة. وهذا في المطلق صحيح، فاكستاب المعرفة هو الوسيلة الأساس للرفق بالفرد، حيث المدرسة هي السبيل الأمثل للترقي الاجتماعي، ولكنه لم يتحقق بعد حتى في المجتمع الفرنسي الذي أقر إجبارية التعليم وتعميمه منذ عام 1881 زمن الجمهورية الثالثة. وما زال فلاسفة الغرب يشكون في أن تكون المدرسة ديمقراطية، عادلة في خلق المساواة، قادرة على تقليص النخبوية أو تغيير عناصرها، بل هي تعيد إنتاج النخب وفق آليات يحللها بورديو وجان كلود باسرون في كتاب 'الورثة'. ولا تكون الديمقراطية خصبة إلا حين تغير المسافة بين النخبة وعامة الشعب، من خلال انتداب قائم على الكفاءة، فتقطع الطريق على التوريث، وتقلص الفوارق بين النخب وبقية المجتمع.

أما خزل الماجدي فيعتقد أن الديمقراطية وحدها لا تكفي ولا بد من شفعتها بالليبرالية بدعوى أن حضور الليبرالية مع الديمقراطية أمر في غاية الأهمية لأنه يصون الديمقراطية من الكسر والتعثر ولأنه يحقق حقوق الأفراد سواء كانوا من النخبة أو الناس. والديمقراطية الليبرالية، نظريا، هي نظام سياسي متكامل فيه الديمقراطية والليبرالية بهدف حماية



خالد قطب من ناحيته يشك في حسن نيات النخبة، لكونها تمارس نوعا من تزييف وعي المواطنين، ويشك في مستواها، لكون الواحد منها أصبح عاجزا عن القيام بدوره الأساسي



الثقافة المدرسية، وهو ما أشار إليه كل من خالد قطب وخزعل الماجدي. فالنهوض بالتعليم شرط أساس لتقليص الفجوة، لأن ثقافة النخبة ضرورية لإنتاج الفكر وتطوير نظرياته، واكتساب المعرفة طريق العامة لفهم آلياته والاستفادة منه في حياته.

النخبة وثورات الربيع العربي

صار معلوما اليوم أن الذين خرجوا في ثورات الربيع العربي لم يطلبوا الحكم، كما كتب الجبين، منددا بالنخبة إذ تركت الشباب النائر نهبا للمنظومة القمعية، ولم تقدم منارة الهداية، بل خرجوا مطالبين بالكرامة ومواطنة ينكرها عليهم نظام جائر. وإذا كانت أقل عنفا في تونس ومصر، قبل التطورات الأخيرة وظهور عدة تنظيمات إرهابية، فالسبب هو عدول الجيش في البلدين عن قمع المتظاهرين. وبعد فشل التجربة الإسلامية عاد الوضع إلى سالف عهده، بل بحريات أقل في مصر، وبأمان أدنى في تونس. ولا نحسب، في الظرف الراهن، أن تكون التجربة المصرية معيارا لإعادة تركيب النظام الإقليمي العربي الذي تهاوى ما بعد حرب العراق 2003 كما قال أبو دياب، الذي ينصح في طيبة من يتوسم الخير في البشر كافة من الأفضل أن يكون هناك موثيق شرف وعهود تحدد الثوابت من أجل عدم الوقوع في شرك الاستبداد بوجوه جديدة، والحال أنه أدري بتأصل نزعة الاستبداد لدى حكامنا، وما حققته تونس، بوضعها دستورا جديدا توافقت عليه الأحزاب والمؤسسات وهيئات المجتمع المدني، لا ينبغي أن ينسبنا أن كل دساتير العرب جيدة، على الورق فقط، أما التطبيق، فمرهون بمشيشة الحاكم الذي لا يرده عن انحرافه قانون، لأنه فوق القانون، وفوق المحاسبة. يقول توني نيغري عن الدستور: هو آلة قانونية يراد منها تنظيم عجز الجماهير، حلقة بسيطة في الماكنة الاجتماعية لتقسيم العمل. وما النخبة في وضع كهذا إلا «فبركة وطنية» على رأي إبراهيم الجبين.



مقالة الماجدي هي وحدها التي ظلت لصيقة بالموضوع، فقد كان صاحبها واضحا منذ البداية حين أقر بوجود ثقافة نخبة تختلف عن ثقافة الناس



خاتمة

تراوحت المقالات بين الدقة والتعميم، والعمق والتساهل أحيانا، ولكن ما يُحسب لها أنها صيغت في لغة واضحة يفهمها العارف وغير العارف، وهو ما حرصت عليه مجلة «الجديد» في بيانها التأسيسي، إيمانا منها أن غاية الثقافة هي التبادل، فإذا حادت عنها فقدت مبرر وجودها، وتحولت إلى تخصص، يقود حتما إلى تدني ملكة الفهم، ويؤدي في الوقت نفسه إلى تشويه صورة المثقفين ■

كاتب من تونس مقيم في باريس

الاجتماع أيضا يعرّفون ثقافة النخبة بكونها ثقافة الطبقات المتعلمة، ولكنهم يعتبرون أن الثقافة لا تنفصل عن الوضع الإنساني، وبالتالي فإن ثقافة النخبة هي ثقافة من بين ثقافات أخرى، ولو أنها تلعب دورا مهيما، لأن أفكار الطبقة المهيمنة هي أيضا، في كل العصور، الأفكار المهيمنة كما يقول ماركس. وثقافة الناس أو الثقافة الشعبية هي في الغالب إجابة مشتركة لذلك الوضع الإنساني، وميزتها الأساس أنها صادرة عن الأغلبية ومفضلة لديها، خلافا لثقافة النخبة التي لا تمس إلا فئة ميسورة أو متعلمة، ولكن العيب أن تتعالى النخبة عن ذلك الرصيد الشعبي الثر، فهو معينها الذي لا ينضب، وتراثها الذي لا تكتمل هويتها من دونه، بل قد يكون أكثر عمقا وإنسانية من ثقافة النخبة. ولنا في «حكايات ألف ليلة وليلة» خير دليل، فصفاة ذلك الوقت رأت أن الحكايات لا ترقى، من حيث صياغتها ولغتها ومضامينها، إلى مستوى الأدب. فهي في رأي ابن النديم مثلا كتاب غث بارد الحديث تلوّكهُ ألسنة العامة. وفي نظرتوحيدٍ كتابٌ وُضع فيه الباطلٌ وخُليطَ بالمُحال، ووَصَلَ بما يُعجِبُ ويُضحك، ولا يُؤوّلُ إلى تحصيل. ومَرَدَ ذلك إلى النظرة المحافظة إلى التراث التي لا تهتمّ إلا بما كان مدوّناً في لغة فصيحة، وإلى التنقيص من قيمة الإبداع الشعبي وصدق إلهامه.

وسدّ الفجوة ممكنة، إذا ما غيرنا نظرتنا إلى العامة، وتعاملنا معها على كونها شرائح تعلم ما لا نعلم في مجالات نشاطها وبيئاتها المدنية والريفية. في البلدان الغربية رافق الثورة الصناعية خلال القرن التاسع عشر مولد ثقافة عقال، ووفود ثقافات أخرى من العمالة الوافدة من أوطان بعيدة لتمتزج بثقافات البلدان المضيفة وتغنيها. وظهرت أنواع من المؤلفات تراعي مستوى كل فئة وتلبي أفق انتظارها، كرواية العمال، ورواية الأرياف، ورواية المغامرات، والرواية التاريخية، والرواية البوليسية، ورواية الهروب من مكابذات المعيش اليومي... وكلها تساهم في تثقيف العامة وردم الفجوة بينها وبين النخبة، فيما ظل إنتاجنا معقدا، باحثا عن التفرد، حكرا على النخبة المتعلمة. في حديث له بمجلة «الثقافة العربية» الليبية في أواسط السبعينات، اعترف نجيب محفوظ أنه كان مطلعاً على ما بلغته الرواية الغربية، ولكنه اختار التبسيط في بداياته، لعلمه أن الجمهور الذي يتوجه إليه لم يألف بعد الأدب الروائي، وقد يعزف عنه لو نهج منهج السرياليين مثلا في ذلك الوقت.

والحديث عن الثقافة لا يمكن أن يتم بمعزل عن التربية والتعليم، فالنخبوية تعتمد هذين المحورين، والبيداغوجيا قادرة، إذا ما صح العزم السياسي، على أن تتخطى حدود

المنهج المثالي في نقد "ثقافة النخبة وثقافة الناس"

عمار ديوب



يريد إبراهيم الجبين
القول إن النخبة
السياسية لم تطرح
قضايا الشعب، وبالتالي
من الطبيعي أن تكون
الثورة ضدها، ولكن هذا
لم يحدث، بل وجدنا
المعارضة تتسلط على
الثورة

أثارت دعوة ملف العدد الثاني من مجلة الجديد، والمعونة بـ "ثقافة النخبة وثقافة الناس" الالتباس الرئيسي في العلاقة بين الثقافتين، وكأنّ ثقافة الناس تتشكل بسياق تاريخي خاص بها، وثقافة النخبة تتشكل بسياق تاريخي آخر. وفي نهاية الدعوة هناك تفسير للاستقلال الافتراضي، حيث السبب ربما ما تحوزه الثقافة من سلطة معرفية بخلاف ثقافة الناس، وربما بسبب علاقتها بالسلطة المستبدة واتفاقهما في احتقار الناس وثقافتهم.

من خلال حياتهم، ولكنه في بعض مقاطع نصه يقدم ثقافة الشعب وكأنّها متوارثة من الماضي، وليست بسبب التاريخ الحديث وبسبب الآليات التي تنتجها الطبقة المسيطرة. ثم يقدم إبراهيم النخبة وكأنّها ليست من الشعب؛ متسائلاً هل شعوب الشرق قادرة على حكم نفسها بنفسها؟، ثم يردف بأن الشعب لأول مرة يبدأ مرحلة الوصول إلى الحكم 2011. ربما يريد القول إنها ثورة شعبية عارمة، ولكن أجد من الخطأ إخراج النخبة الثقافية أو الطبقة المسيطرة من مفهوم الشعب.

ما بدأ في كافة الدول العربية منذ أواخر 2010 هو فعلاً يحمل تدخلاً للشعب في تقرير مصيره بقوة وفاعلية، ولكن هذا لا يعني أنه يثور ضد فئات لا يسري عليها هذه الصفة. ربما يمكن القول إن الطبقات الفقيرة والمتوسطة، ثارت ضد السلطات المستبدة الممثلة للطبقة الثرية مثلاً، أو لأول مرة يستطيع الناس إزالة الأنظمة، ولكن من الدقة ضبط المفهوم وإعادة تعريف الطبقة الحاكمة أو النخبة في إطار مفهوم الشعب.

لثورة أسباب

ثم يوجه إبراهيم نقداً للناس، ولصمتهم عن الطبقة الحاكمة وعدم تغييرها قائلاً "الفبركة الوطنية، إذن كانت بإرادة العقل العام نفسه، ولم تكن مفروضة فرضاً، ولو شاء الناس، لانقلبوا على تلك النخبة وحاسبوها، غير أن عقلية الرعية التي تدرب عليها العامة، عبر القرون، رعية الخليفة والسلطان، استمرت بعد زوال الخليفة والسلطان، لتبقى الرعية تبحث عن راع". هذا النقد لا يأخذ الظروف العامة التي تسبب الثورة أو لا تستدعيها، بل يقرر الكاتب أن على الناس أن تثور؛ فهل تثور الناس في أيّ وقت أم تثور بسبب جملة شروط تتكثف وتنتج ثورتها؟ عدا أن عدم الثورة لا يفسر بعقلية الرعية بل بغياب شروط الثورة؛ ثم يوجه نقده للنخبة ذاتها وكان الأجدر بالنخبة الفكرية، التي ظهرت في ذلك الحين، التوقف بأمانة عند هذا التمير الخطر، للعلاقة ما بين الشارع والنخبة، فهي الأكثر إدراكاً وتسليحاً بالمعارف والعلوم، وكان عليها أن

الثقافة

تقرأ في حقل التاريخ، أي في إطار مجتمع محكوم بسلطة ما استبدادية مثلاً، وهي المقصودة بالدعوة. الثقافة العامة والنخبوية تتأثر بهذه السلطة؛ وهنا أنطلق من فكرة أجدها صائبة وهي أنّ الثقافة السائدة، سواء لدى النخبة أو الناس، هي ثقافة الطبقة السائدة.

تتغير هيمنة الطبقة المسيطرة على الثقافة والوعي وسواهما، بصراع فعلي في حقل الثقافة والسياسة وكافة مجالات المجتمع، ولكن غياب الصراع في هذا الحقل، وتسييس كل حقول الصراع يمنع تشكل الثقافة الجديدة، وحينها تنتقل ثقافة السلطة إلى ذهنية النخبة والناس معاً فتهيمن عليهم. وفي حالتنا السورية، فشلت النخبة في تشكيل ثقافة وطنية تغير من الثقافة التي كرستها الطبقة المسيطرة.

أيضاً، أغلبية النصوص في الملف ماثلت بين النخبة وبين الطبقة المسيطرة، ليبدو وكأنّ الحديث عن النخبة هو حديث عن الطبقة المسيطرة، وهذا سببه التباس نص الدعوة كما أوضحنا. ونضيف أنّه لا تمكن قراءة وضعية الثقافة العربية خارج التاريخ العام لمجتمعاتنا العربية، وفي سياق تشكلها الحديث؛ وأيّ قراءة لا تنطلق من هذه الوضعية، كأن تنطلق من الماضي مثلاً، تفشل في تفسير مشكلات الثقافة أو تفسير طبيعة السلطات، ولماذا هي مستبدة مثلاً، رغم التمايز بين السلطة السورية والمغربية مثلاً أو السورية والتونسية، بينما مجتمعاتنا تعاني من مشكلات تتشابه في هذا وذاك.

النخبة والطبقة

حاول إبراهيم الجبين الربط الدقيق بين الامبريالية والكولونيالية كأصل لتشكيل مجتمعاتنا وكسبب للتمايز بين ثقافة النخبة عن ثقافة الناس، وأن زوال الاستعمار لم تزل معه الكولونيالية، فهي الامبريالية في مجتمعاتنا، وأن التبعية والأنظمة الشمولية تستدعي بالضرورة ذلك التمايز، فتشتغل النخبة بما هي فئات مجتمعية مختصة بإنتاج المعرفة بكل أشكالها، بما يخص عالمها الخاص بينما تتشكل ثقافة الناس



فصل لعبيي

بين الأثرياء والمشتغلين بالثقافة ليعود للتفريق بينهما، وهذا يربك البحث، وهذا بأثر من نص الدعوة التي أشاعت الالتباس، كأن يقول 'بينما يمكن الحكم الذي نشأ على يد النخبة ذاتها في عواصم المشرق، وتحول إلى استبداد وحشي بالتحالف مع الكولونيالية المنسحبة شكلاً والباقية من خلال وكلائها، تركت النخبة تنتج النخبة، بينما كان الشارع ينتج ذاته كل مرة، وحرّم الاستبداد الطبقة الوسطى من تطوير ذاتها، لتصبح قيادة للناس، بفعل الضغط الكبير الذي مارسه عليها'. والسؤال من هي النخبة التي أنشأت الحكم هنا؟ وبعد كيف تنتج النخبة ذاتها وقد استقلت عن السلطة؟ أو الشارع ذاته؟ أعتقد أن هذا غير ممكن؛ فثقافة الشارع والنخبة تُنتج ضمن شروط تاريخية محددة، تُشكلها الرأسمالية العالمية، والتي كانت سبباً في تفكك الدولة العثمانية وفي بداية الاستقلال القومي لكثير من الشعوب، والذي ترافق مع بداية الاستعمار الأوروبي، وضمن ذلك الإطار برزت فئات ثرية، ولها نخبها، وراحت تُنشئ دولتها، ولنقل سلطاتها، وكان ذلك يتم في إطار صراع المصالح وتشكيل السلطة، وهذه العملية بمجملها كانت تعيد تشكيل النخب والناس وثقافتهم كذلك.

ينكرر الالتباس مجدداً من خلال القول التالي 'ما هو الإرث الذي تركته النخبة العربية للعامة حتى ما قبل العام 2011؟، هنا يشير إلى تطابق النخبة مع الثقافة ولكنه قبل قليل كان الالتباس مشوّهاً للنص. ولنتابع معه فيعطي تعريفاً جديد للنخبة وهي إما 'المعارضات السياسية أو الطبقة الأكاديمية وبين المفكرين والعلماء' وهنا تصبح النخبة خليطاً بين السياسيين والمثقفين، وهذا بدوره لا يساهم في قراءة المسألة المطروحة بشكل موضوعي، فالساسة لهم مجالهم والمثقفون لهم مجال آخر. وهنا يصبح من الضرورة الفصل بين النخبة كمنتجة للثقافة والمعرفة وهي وظيفتها وبين الساسة، وعملها في حقل السياسة حصراً وبين الناس، أي المفكرين والطبقات الوسطى، والتي علينا قراءة ثقافتها ضمن ما تكرسه الطبقة المسيطرة، وإلا وقعنا في الفصل بين الثقافتين وكأنّ الناس يختارون بمحض إرادتهم شكل وعيهم

تنير للناس خياراتهم بدلاً عن السكوت على ذلك التنصيب البائس الذي لم يستند سوى إلى شرعية جهالة العامة، لا شرعية تفوق النخبة'. وكأنّ النخبة بلا مصالح طبقية تعمل لأجلها، وكأنّ مهمتها أن تتقدم بكلية المجتمع نحو حقوقها العامة؛ النخبة الوطنية، في زمن الاحتلال الفرنسي أو بعده، كانت نخبة تمثل طبقات اجتماعية محددة، وسواء سميت الطبقة الإقطاعية أو البرجوازية التقليدية أو أي تسمية أخرى، فهي طبقات تمثل مصالح مجتمعية محددة، وبالتالي تكمن مصلحتها ليس في تنوير الناس بل في زيادة جهلهم، وواقع ما حدث إبقاء الناس على حالهم، وبالتالي تغييرهم عن السياسة والمشاركة وهو ما يعزز مصالح تلك النخب، إضافة لغياب الأسباب الفعلية للثورة أو الانتفاضة.

وبعد أن يكتب ما قلناه يعود ليؤكد أن النخبة إما إقطاع مستمر، أو طبقة مثقفة جاءت من الجامعات الغربية، بينما كان يجب قراءة تلك النخبة أنّها بالأساس جزء من طبقة لها مصالحها وهي كانت جزءاً من أثرياء بلاد الخلافة العثمانية أو لاحقاً كانت جزءاً من مشروع الدولة العربية الفاشلة أو من الفئات الثرية في ظل الاحتلال الفرنسي، ودخول فئات جديدة إليها، لا يغير من طبيعتها كطبقة لها مصالح متميزة، وبالتالي بروز مصالح خاصة بها، مما يستدعي تغييب التنوير للعامة. التنوير بالمعنى الاختصاصي والأكاديمي قضية مؤسسات الدولة الحديثة من تعليم وجامعات لحاجاتها، وهذه كلها لم تكن متوفرة إلا بحدودٍ شحيحة وخاصة للأثرياء أو بما هو خاص بالتعليم الديني 'الكتاتيب'، وهو قضية الطبقات المضطهدة وممثليها لتغيير واقعها كذلك. طبعاً يمكن لمثقفي الطبقات الثرية أو المثقفين الفاعلين من أجل سيادة الطبقة الرأسمالية أن ينشروا الثقافة والوعي ولكن فعلهم ذلك لن يتجاوز أفراد الطبقات الثرية أو الأفكار التي تدعم سيادة تلك الطبقات.

النخبة لا تنتج ذاتها

يشير الجيبين أحياناً إلى أن النخبة خلقت السلطة، وهنا يماثل

أولاً لا توجد ثقافة يعمها السكون، بل هي متغيرة بهذا المقدار أو ذلك، ووفق التغيرات التي تطال كلية البنية الاجتماعية، بالاقتصاد والسياسة والتعليم، وتخضع ثقافة الناس وثقافة النخبة ذاتها لهذه التغيرات، بل إن الثقافة ذاتها انعكاس للواقع وليس العكس؛ وبالتالي لن تتطور الثقافة بكل أشكالها ما لم يتطور الواقع ذاته؛ ووجود محاولات فكرية للخروج هي أيضاً من ضرورات الواقع في إطار نزوعه نحو التغيير. يتضمن قول الأستاذ خزعل، أن الوضع في الغرب شيء وفي الشرق شيء، مدلولات إشكالية، وأولها تغيير دور البلدان المتقدمة في إدخال العالم (ومن الشرق) بأكمله في تاريخ واحد، ولكن بشكل مميز في تطوره تقدماً أم تخلفاً. لذلك يجانب الصواب نصه حينما يقول الشرق شرق والغرب غرب، وأن الشرق 'المتخلف' لن يصل إلى مصاف الغرب إلا بعد قرون وقرون.

يصور الأستاذ خزعل العلاقة بين الثقافتين بأنها عملية إرادية محضة، ويؤكد ضرورة التواضع والاعتراف بينهما، وبمنهجية تفكيكية يؤكد ضرورة الالتئيم للمجتمع. أولاً لا يمكن إلغاء أي ثقافة باعتبار الثقافة فعلاً اجتماعياً مستمراً، والثقافة ذاتها عملية متبدلة ومتغيرة، وتخضع للتحوّل المستمر، وفقاً للتغيرات العامة، وتتحكم الطبقة المسيطرة في إعادة إنتاجها بما يتوافق مع مصالحها؛ أما ما يشكل ثقافة مغايرة فهو وجود مشروع تاريخي مغاير فقط. باستثناء ذلك فإن كل أعمال الثقافة النخبوية وثقافة الناس، هي نتاج التحكم الطبقي للطبقة المسيطرة. وفيما يخص مفهوم الصراع الطبقي والطبقات فيسود وهم كبير أن المجتمعات المتقدمة مرت بفترة كان الصراع الطبقي واضحاً فيها، وأن هذا يعود للتفارق المطلق بين الطبقة العاملة والطبقة البورجوازية، ووجود الصراع بينهما على ساعات العمل وسوى ذلك، ولكن بتطور الرأسمالية ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية تغير الأمر، فلم نعد نرى طبقة عاملة كما كان قبلاً ولا طبقة رأسمالية كذلك وهكذا، وكأن الصراع الطبقي يتجلى فقط في الوضع الطبقي المتفارق بشكل كبير.

المفاهيم والتغيرات

هذا الوهم لا يدرك أن مفهوم الطبقة والصراع الطبقي هو بالأصل مفهوم نظري وليس مفهوماً يرصد من خلال شكل محدد من النضالات اليومية، وبالتالي لا يوجد شكل محدد للصراع الطبقي كمعيار له، بل هو يأخذ أشكالاً كثيرة ولا متعددة، وكي لا نرهق البحث كثيراً، أوجز قائلاً ما دام النظام الرأسمالي قائم فهو ينتج طبقات مستغلة ومستغلة، وينتهي مقالته بتغيير الأساس الاقتصادي للثورات العربية، والتي هي السياسات الليبرالية الجديدة، والتي دمرت الزراعة والصناعة البسيطة وأنتجت ملايين العاطلين عن العمل وأجراً لا يتساوى مع الأسعار، وهي السياسات المعممة عالمياً منذ بداية الثمانينات، والتي أوصلت نتائجها البسار

ولا يصنع لهم، خاصة في زمن الاستقرار. ويمكننا القول إنّه في زمن الثورات ما لم تطرح رؤى جديدة فعلاً فإن ثقافة السلطة ستسود مجدداً، وإن بأشكال مختلفة.

بعد ذلك يقتر الجبين 'بمرور السنوات الأخيرة على انتفاضة الشارع على النخبة، سواء كانت حاكمة أو معارضة للحكم' حقيقة لم أفهم كيف يثور الشعب على النخبة؟ من الطبيعي القول على 'الحاكمة' أما على المعارضة فهذا تقرير لواقعة لم تتحقق. يريد الجبين القول إن النخبة السياسية لم تطرح قضايا الشعب، وبالتالي من الطبيعي أن تكون الثورة ضدها، ولكن هذا لم يحدث، بل وجدنا المعارضة تتسلط على الثورة ولاحقاً إزاحة الشعب وتصلحت مع السلطة القديمة لتشكل سلطة واحدة. الشعب التائر لم يثر مجدداً ضد تلك المعارضات السياسية التي كانت مبعدة عن الحكم من قبل؛ وهذا ما سيكون ربما لاحقاً باستمرار التأزم وعدم حل المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والعودة على الحكم الأقرب للتسلطي.

وينتهي بحثه الهام مؤكداً التفارق بين الشارع وبين السلطات الحاكمة ومعها النخب، ليؤكد ضرورة أن يتقدم الشارع بمشروعه الخاص، ولكن ذلك غير ممكن دون 'نخبة' ما وهذا مما لا يوضحه بحثه أبداً.

ربما الإشكالية الأكبر في النص أنه انطلاقاً من الأخلاقي وأن على النخب أن تعي مسؤوليتها الوطنية العامة، وهذا خطأ فالنخبة دائماً لها مصالحها الطبقية، ويجب أن تقرأ مواقفها ضمن هذا الإطار.

الغرب والتمايز الكوني

يميز خزعل الماجدي، بين ثقافة النخبة وثقافة الناس وأن ثقافة النخبة أعمال تخص الفكر والأدب ومنها يعتاش المثقف وبالتالي هي تخصصية وسوى ذلك، وأما ثقافة الناس فهي عاداتهم وتقاليدهم وفلوكورهم وسوى ذلك، وهي تتمازح في سياق التطور مع الأولى وتتطور بدنامية مستمرة. الإشكالية مع نصه أنه يجرده من سياقه التاريخي والأيدولوجي وكأن الأمر مسلمة أصبحت ليست مثار شك، لتظهر الثقافة وكأنها إنتاج معرفي يستهدف الحقيقة كل الحقيقة، بينما المعرفة خاضعة باستثناء العلوم الطبيعية لمجمل رؤية الباحث والمفكر والأديب وانتمائه الطبقي، والأمر عينه بما يخص ثقافة الناس؛ وهذا السبب الرئيسي في تبني أشكال محددة من الفكر والثقافة والآداب، وهي عملية واعية وغير واعية بأنها واحد، ولكنها تعكس الواقع المميز لطبقات المجتمع وللأفراد الذين يشكلونها.

ثم يعرّج على قضية، تبدو للوهلة الأولى محقة، متسائلاً هل يمكن ردم الهوة بين ثقافة النخبة وثقافة الناس، ثم لماذا نردمها، وهذا يتطلب قروناً في مسار المجتمعات المتخلفة.



يميز خزعل الماجدي،

بين ثقافة النخبة وثقافة

الناس وأن ثقافة النخبة

أعمال تخص الفكر

والأدب ومنها يعتاش

المثقف وبالتالي هي

تخصصية



اليوناني إلى الحكم، وقبلها أوصلت اليسار اللاتيني إلى الحكم، وهي السبب الرئيسي للثورات العربية. طبعاً الدولة الشمولية مُشكلة منذ عقود، ولكنها لم تكن سبباً للثورات، و فقط حين وصل الوضع الاقتصادي إلى حالة من التآزم الشديد انفجرت الشعوب وبهذه اللحظة كان لا بد من تدمير السلطة الشمولية. سبب غياب قيادة ثورية مانعاً لهذه الثورات من الوصول إلى أهدافها.

ويهي الماجدي نصه مؤكداً ضرورة الديمقراطية ويقرنها بالليبرالية، وأنها وحدها تصون الحريات العامة والخاصة. هذه رؤية خاطئة؛ فالديمقراطية هدف من أهداف الثورات العربية دون شك، وهي من مهام الطبقات المفكرة وليس الفئات الليبرالية. الأخيرة لا تخدمها الديمقراطية،

لذلك كانت الأنظمة وتحديداً في مصر وتونس وفي كثير من دول العالم ليبرالية ومنها اليونان ولكنها عممت السياسات النيوليبرالية وسببت الكوارث للشعوب وحينها ولا سيما في اليونان كانت الديمقراطية الغطاء لذلك النهب؛ وبالتالي الديمقراطية هدف رئيسي للشعوب في سعيها لتحقيق أهدافها العامة. وإن وجود مثقفين ليبراليين يثمنون الديمقراطية لا يغير من طبيعة الليبرالية وأنها وظفتها من أجل مصالح تلك الفئات وعلى حساب بقية طبقات المجتمع.

الواقع المغيّب

يؤكد خطار أبو دياب أن الثورات هي رد فعل على الضعف العربي البنيوي، وعلى تغييب الموقع العربي ضمن المعادلات الإقليمية والدولية وتهميشه. ولكن هل حقاً هي كذلك؟ لا أظن الثورات كذلك،

والضعف العربي كان واقعة تتطور بشكل مستمر. السبب الذي يذكره أبو دياب سبب عام وقديم، أما سبب الثورات فيتحدد بوصول العاطلين عن العمل إلى مستويات قياسية، وفشل السياسات الليبرالية الجديدة فشلاً كاملاً، ولم يكن بين الأسباب 'تغييب الموقع العربي' حيث أن هذا الموقع ازداد تراجعاً بعد الثورات؛ أقصد أن قراءة الثورات العربية أسباباً ونتائج تتطلب الانطلاق من الواقعي وليس من العام؛ فدون شك هناك ضعف وتراجع، ولكن ليس هو سبب الثورات، ولذلك لم تذهب نحو تجاوز الضعف والتراجع، بل وكان من نتائجها حتى مرحلتها الراهنة تحكماً امبريالياً بالدول العربية، وعودة إلى اعتماد السياسات الليبرالية من جديد، وبعض الدول العربية دخل في حروب أهلية، وبعضها

تتحكم به دول إقليمية. يشير أبو دياب إلى أن الطبقة السياسية لم تكن على مستوى طموحات المصريين. والوصول بالثورة إلى تحقيق أهداف الثورة. المشكلة هنا في تصوّر أبو دياب أن تلك الطبقة مهمة فعلاً في تحقيق طموحات المصريين. كان الأدق الانطلاق من طرح السؤال التالي: لماذا لم تكن على مستوى تلك الطموحات؟ وهذا ما سيفتح البحث نحو التفكير في مشروع يحقق تلك الطموحات، وبالتالي الخوض في كل المشاريع السياسية المطروحة في مصر وغير مصر.

أقصد أن الثورات العربية كانت انفجارات مجتمعية كبيرة وسريعة، ولم تسمح ببروز قيادات ثورية لها، وذلك لأسباب متعددة. بحث هذه القضية وإنهاء التحليل السياسي المشخص للأنظمة، واعتبار مشكلات الشعوب سببها رؤوس الدول فقط أصبح أكثر من ضرورة. ثانياً مماثلة الثورات العربية بالثورات الديمقراطية لشعوب الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية كان خطأ فحواً وهذا ما عممته الأقسام الليبرالية وأن الطريق الديمقراطية والسلمية هو ما سيحقق النقلة في مجتمعاتنا، بينما هي لها طبيعتها المميزة، ومنها أن الثورة المصرية أخطأت حينما سلّمت للجيش ولاحقاً للإخوان ولاحقاً ومجدداً للجيش، بينما كان عليها إنهاء السلطة القديمة واستلام الحكم هي بذاتها في مصر وفي كل الدول العربية، ولكن هل هذا كان ممكناً أيضاً؟



إذا أردنا فهم أسباب الانحطاط السياسي الحاد وتفاهم العنف السياسي، لا بد من العودة للخلفية الثقافية للمجتمعات العربية



الحاضر مفتاح التفسير

ثم يشير بأثره 'وإذا أردنا فهم أسباب الانحطاط السياسي الحاد وتفاهم العنف السياسي، لا بد من العودة للخلفية الثقافية للمجتمعات العربية. وفي هذا الإطار كان عبدالرحمن بن خلدون قد تبنى نظرة موسوعية للتاريخ العربي تفيدنا اليوم في فهم أسباب التخلف وعدم القدرة على اللحاق بالعصر.'

هذا يعني أن طبيعة مجتمعاتنا الراهنة وشكل أنظمتها الراهنة، لا تفسر بأنها جزء من عالم موحد، وأن هذا العالم هو سبب التمايز الكوني بين دولة متقدمة ودولة متخلفة، وأن التبعية البنيوية بين الدولة المتقدمة والمتخلفة هي سبب هذا التمايز. أعتقد أن تفسير مجتمعاتنا لا يكون بالعودة للماضي بل يكون من خلال ما أشرنا إليه. وأضيف أن تنمية التخلف، الذي قامت به الأنظمة العربية كان بسبب طبيعتها كمثثلة للطبقات البرجوازية التابعة، ولتعزير تبعيتها كان لا بد من شكل وحيد للنظام السياسي هو الشكل الشمولي تارة



والطائفي تارة كما في لبنان، وهذه الأشكال كانت تؤيد الطبقة المتخلفة وتؤمن مصالح الامبرياليات العالمية، ومن هنا نتفهم لماذا حافظت الإمبرياليات العالمية على كافة أنظمة المنطقة الشمولية والطائفية وسواها.

وينهي أبو دياب، مقاله بالرغبة في تشكيل أحزاب جديدة تجدد النهضة المؤجلة مراراً ودون أيّ تحديد لطبيعة هذه الأحزاب مجدداً؛ المنطق القومي في النص يمنع الدكتور من خوض غمار لماذا فشلت النهضة؟ ولماذا أخفقت الطبقة المتوسطة في تحقيق أهداف الثورة؟ وأي رؤية وأي طبقات قادرة على النهوض بالمنطقة العربية؟ لا سيما وأن الليبرالية القديمة سقطت بعيد الاستقلال والطبقة الوسطى سقطت مشروعها وكذلك الطبقة التابعة من بعدها، والآن أوضحت الثورات الحدود القصوى لإمكانات الطبقة الوسطى وتسليمها للحكم مجدداً للعسكر وسواهم، وبالتالي كيف يمكن إيقاف كل هذا التدهور، وكل هذا الضعف البنيوي؟ هذا الأمر متعلق باليسار تحديداً والأخير غارق في مشكلات، ووضعيته هذه بالتحديد هي ما يؤدي إلى فشل الانفجارات، فالليبراليون ليسوا هم الحل وبغياب اليسار تصبح حصيلة الثورات المندلعة منذ عام 2010 ضعيفة.



أغلب المداخلات تنتهج المنهج المثالي، وتعالج قضايا كثيرة، وتنتقل من عصر إلى عصر، أو تغطي بعض الأفكار أكثر من قرن، وهكذا. وبذلك تعد هذه المداخلات مواقف سياسية أكثر مما هي أبحاث معرفية



الطابع الأخلاقي
مقال يحي العريضي، يغلب عليه الطابع الأخلاقي، فهو يرفض كل ما يجري، ورغم أنه يعيد كل التطورات إلى سيطرة الزمن الأميركي، وثقافة المعلوماتية والتضحية بالثقافة والفكر، إلا أنه لا يحلل معنى الزمن الأميركي هذا؛ وما فعلت أميركا بعد أن هيمنت على العالم وبعد تعميمها السياسات النيوليبرالية. والأمر ذاته حينما يتناول النظام السوري، أيضاً يركز على رأس النظام بدلاً من بحث آثار السياسات الاقتصادية التي عممها النظام وكانت سبباً في الثورة السورية. هنا لا يجتهد الفكر في محاولة تلمس المشكلات، وبالتالي يعزز النزعة التذميرية عند أغلبية المعارضين بدلاً من إنتاج الأفكار والتحليلات المعمقة للمشكلات وللبدائل أيضاً. وبعد الكتابة عن كارثية الاستبداد يتحدث عن غياب أي إمكانية لبروز أي نخبة، بل يستغرب كيف ظهرت شخصيات كالماعوط وزكريا تامر. أعتقد أن الشمولية كشكل مطلق للنظام ورغم كل كوارثها فإن السوريين ظلوا ينتجون معرفيا وسياسيا وإن بدرجات أضعف، وهذا بصفة خاصة قبل الثمانينات وحتى لاحقاً عليها ظل الأمر عينه؛ حيث ظهرت قوى سياسية معارضة وكما ظهر إنتاج معرفي، ورغم ضعفه وتعثره، فإن عدم تشكيكه للوعي العام متعلق بطبيعية النظام الشمولي ذاته؛ ولكن أيضا هذا لم يمنع تحويل سوريا إلى صحراء قاحلة، ويمكن رصد سوريا بين 2000 و2003 وكذلك في بداية الثورة ليتوضح لنا الكثير مما كان يتراكم وكان بالذد

من النظام وكل سياساته. يتجاهل العريضي عام 2011 والذي ظهرت فيها المعارضة وألوف الشباب اليساري والليبرالي والإسلامي المتنور والقومي كأول من أطلق الثورة، وإن كانت تستند إلى الطبقات الفقيرة والمهمشة، ولكن شدة القمع والتغيب والتهميش لاحقاً وقوة التدخل الإقليمي هي ما هزم تلك القوى، عدا عن ضعف برامجها، وليبرالية أغليبيتها. وبالتالي من الخطأ تصوير النخب السياسية والثقافية وكأنها لم تكن فاعلة بالثورة، طبعاً نخب السلطة هي نخب الطبقة المسيطرة ولن تترك مواقعها أبداً، ومن فعل لفترات صغيرة سرعان ما عاد إلى موقعه. وينتهي مقالته: «أهو ضياع النخبة؟ أم نخبة الضياع؟».

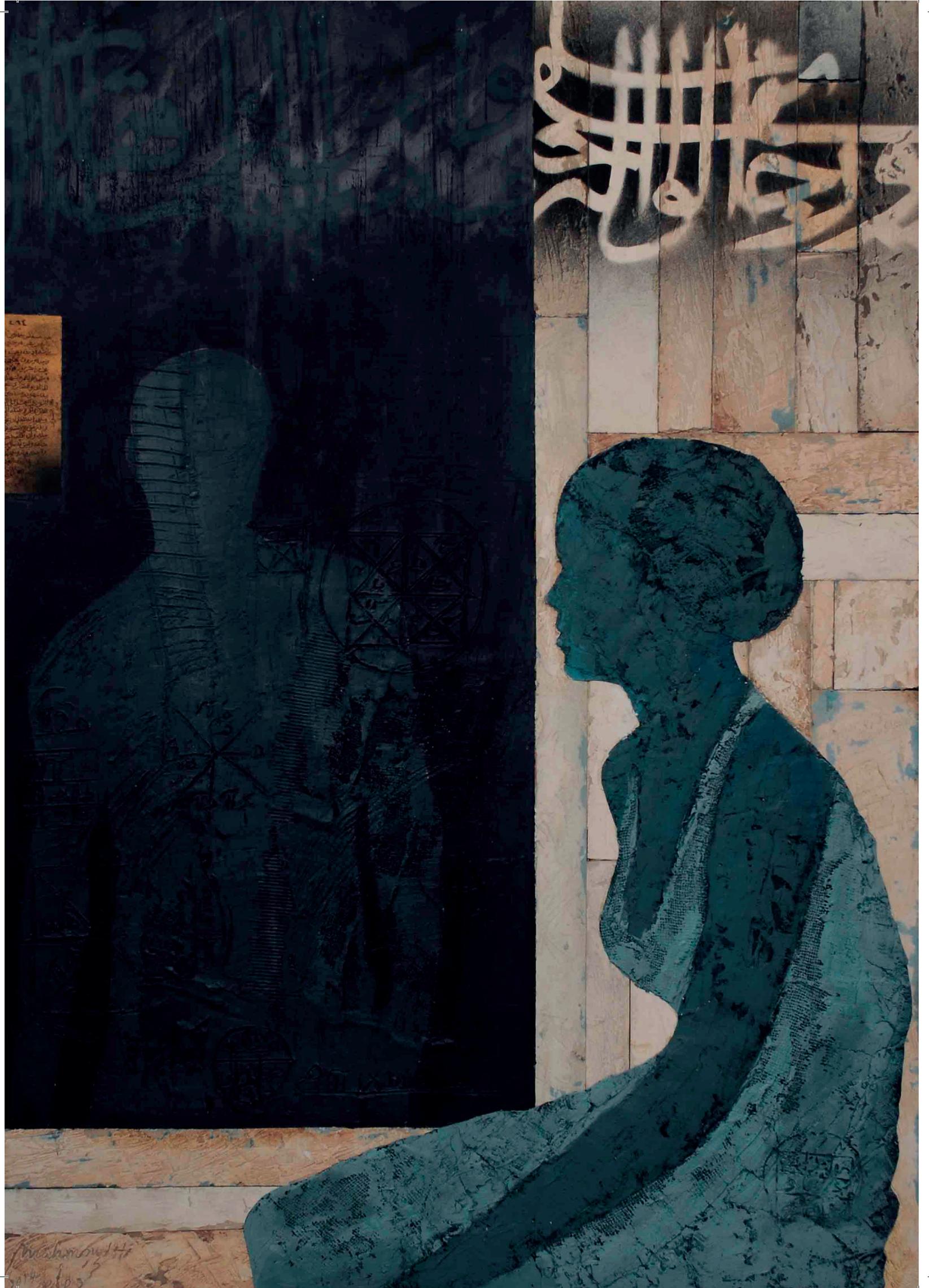
يقلل الدكتور العريضي من دور النخبة، وهو بذلك يتجاهل دورها بالكامل. وهذا غير صحيح، ونؤكد أن النخبة والمعارضة بالثورة ولكنها فشلت في فهم أهداف الثورة ودفعت هي ذاتها أثمناً باهظة وإن كانت لا تقارن أبداً بما قدمته الطبقات الفقيرة.

إشكالية الليبرالية والديمقراطية

خالد قطب، في مقالته «النخبة الثقافية والديمقراطية الغائبة» يقدم قصة فرنسيس بيكون وكأنها السبب في نشوء مجتمع النخبة ومجتمع الناس؛ وكأن هذا بجديد؛ ألم يكن هناك فارق بين السلطة والناس من قبل مثلاً؛ ورغم قراءتي للنص عدّة مرات، فلم أجده يكتب عن خصائص تلك النخبة وتحديداً السياسية منها وليس العلمية، أي النظام الرأسمالي الذي شهد فرنسيس بيكون بداية نشوئه، وبدلاً من نقاش قضية الثقافة ضمن النظام الرأسمالي وكيف تتخذ تموضعاتها، يميل لتكرار فكرة واحدة أن النخبة تزيف الواقع وتقدم ما تريد والناس عليهم رفض ذلك؛ وأخيراً يقدم نقداً للديمقراطية وفق الشكل الرأسمالي السائد، وأنها لا تؤمن حقوق أغلبية الناس وحاجاتهم، وهذا صحيح، ويدعو إلى ديمقراطية عميقة، يكون الناس هم صانعوها، ولكن أيضاً لا يوضح كيفية تحقق ذلك، فكيف ستكون تلك الديمقراطية؟ هل يمكن تحقيقها في إطار النظام الرأسمالي؟ وهل هو يسمح بذلك، أم عبر مجتمع يتجاوز الرأسمالية مثلاً؟ أيضاً لا نجد تحديداً دقيقاً للموضوع، ففي الرأسمالية لا يمكن للديمقراطية أن تتجاوز الحقوق والواجبات المنصوص عليها في الدستور والقوانين والتي تنظم شؤون الدولة بكافة مستوياتها، وبما يؤيد كتشكيكة اقتصادية واجتماعية.

أغلب المداخلات تنتهج المنهج المثالي، وتعالج قضايا كثيرة، وتنتقل من عصر إلى عصر، أو تغطي ببعض الأفكار أكثر من قرن، وهكذا. وبذلك تعد هذه المداخلات مواقف سياسية أكثر مما هي أبحاث معرفية ■

كاتب من سوريا مقيم في دمشق



Handwritten text in Arabic script, likely a title or inscription, located in the upper left corner of the painting.

Mahmoud H.
1983

هياكل فارغة النخب والناس

عبدالرحمن بسيسو



«لم يكن لهذا المقال أن يُكتب لينشر ويقرأه من سيقراه من النَّاس لولا إقدام مجلة «الجديد»، في عددها الأول، على فتح صفحاتها لتناول موضوع «ثقافة النُّخبة وثقافة النَّاس» عبر مقالاتٍ متنوّعةٍ خَطَّتها أقلامٌ كُتَّابٍ مرموقين تتعدّد توجهاتهم الفكرية، ورؤاهم، ومنظوراتٍ تناوَلهم للموضوع المطروح، بقدر تعدّد الأبواب التي اختاروا فتحها لدخول مداراته، والزوايا التي أطلوا منها عليه، وذلك على نحوٍ أتاح إمكانيةً واسعةً لاستنباط خلاصاتٍ قيّمةٍ والتوصّل إلى استنتاجاتٍ وإضاءاتٍ معرفيةٍ تستحقُّ التأمل والمراجعة، وثحفُّ العقل على مقارنةٍ جوانبٍ أخرى من الموضوع، من منظورٍ آخر، ومن زاويةٍ تحليلٍ مُغايرةٍ، وذلك بغيةٍ إثارة حوارٍ خلّاقٍ يسهم في تأصيل الخلاصات المستنبطة، أو الإضاءات المستنتجة، ويُلقي المزيد من الضوء على مسألةٍ لها ما لها من أهميةٍ بالغةٍ تتصلُّ بسعيِّ النَّاس الألهبِ إلى إنهاض حلمهم بالنُّهضة، وبمسعى مجلة «الجديد» التنويري المُقدَّر»

يبدو أن لا مناص لأجّ محاولة موضوعية ومحابذة للإجابة عن هذا السؤال من أن تأخذ في اعتبارها جميع الاحتمالات الممكنة للاتجاه الذي ستأخذه أيّ إجابة ممكنة، سواء أكان هذا الاتجاه متساوفاً مع ما قدّمناه من مقارنةٍ توصيفيةٍ، ولا نقول تعريفاً جامعاً مانعاً، لمصطلح «النُّخبة»، أم مُناقضاً لمحتوى هذه المقاربة ذاهباً لإلغائه وإثبات نقيضه، أم آتياً بما هو مُغايرٌ وجديد، وذلك استناداً إلى ماهية المحتوى الذي يملأ ذلك الشكل الفارغ الذي تسكنه

المتزايدة العمق والاتساع، ورؤاها وأولوياتها وسلّم قيمها، ومُكوّنات خطابها وتوجهاتها وقراراتها المفضية إلى تحقيق هذه المصالح وتعزيز حمايتها، على تلك التشكيلة الإطارية. كما يكونُ لهذه المجموعة النُّخبوية، التي صارت محكومة بمصالحها، وبارتباطاتها الوثيقة بِنُخبةٍ سياسيةٍ تشكّلت في ظلّها وتبادل معها الدِّعم والتعزيز، أن تتولّى التّفكير والتقرير والإعراب والتعبير نيابةً عن الآخرين، وربما تذهب، وهذا هو ما يحدث على الأغلب، إلى مُصادرة حقِّ الآخرين من أفراد التشكيلة الإطارية الأوسع في المشاركة في التفكير والمناقشة واتخاذ القرار، وذلك كمدخلٍ لتهميش هؤلاء الآخرين وإلغاء دورهم الذي ترى أنّ الحرص على تفعيله لن يكون إلا مُعيقاً، ومُعطّلاً، ومُضيقاً للجهود والوقت وغير ذي جدوى، لكونه يُناقض مصالحها، أو لأنه يقتضي تقاسم السلطة والثروات معها؛ ولئن كانَ هذا هو تصوّرُ المجموعة النُّخبوية مع جماعتها الأقرب إليها، ومع آخريتها المقربين، التي هي رأس هرمها وهرمهم، فكيف يكونُ حالُ تصوّرها مع عامة النَّاس أو «سواد النَّاس»، أو مع «الجماهير»، و«الدّهماء» و«الحشود»؟

مَنْطِقُ التَّرَاتيبِ وَخَوَاءِ النُّخْبِ

يبدو أن لا مناص لأجّ محاولة موضوعية ومحابذة للإجابة عن هذا السؤال من أن تأخذ في اعتبارها جميع الاحتمالات الممكنة للاتجاه الذي ستأخذه أيّ إجابة ممكنة، سواء أكان هذا الاتجاه متساوفاً مع ما قدّمناه من مقارنةٍ توصيفيةٍ، ولا نقول تعريفاً جامعاً مانعاً، لمصطلح «النُّخبة»، أم مُناقضاً لمحتوى هذه المقاربة ذاهباً لإلغائه وإثبات نقيضه، أم آتياً بما هو مُغايرٌ وجديد، وذلك استناداً إلى ماهية المحتوى الذي يملأ ذلك الشكل الفارغ الذي تسكنه النُّخبة، والذي تُحدّد مُكوّناته هُويّته، وبالتالي هُويّة النُّخبة التي تسكنه. وأياً ما كان أمرُ الاتجاه الذي ستنحو إليه الإجابة، فإنّ نهوضها على حقائق

حول مفهوم «النُّخبة»

ينصرف المعنى الاصطلاحي لأجّ من التشكّلات النُّخبوية، القائمة واقعاً أو تصوّراً في واقعنا العربي وفي وعي النَّاس ومخيالهم، إلى الدلالة على مجموعة من الأفراد المُتميّزين والمستقلين نسبياً، والذين يَعتقِدُ واحدهم في نفسه أنه الأسمى والأعلى شأناً إنّه هو فُورنُّ بالآخرين من أفراد النَّاس ولا سيما من غير المنتمين إلى مجموعات نُخبويةٍ أخرى، أو المنتمين إلى مجموعاتٍ نخبويةٍ أخرى هي أقلُّ شأناً في تصوّره، وفي مخيال النَّاس الذي يتصوّرهُ. وينبعُ هذا الاعتقاد من افتراض أنّ أفراد المجموعات النُّخبوية، العديدة ومتنوّعة الانتماءات والاختصاصات والاهتمامات على نحوٍ يخترقُ جميع الطبقات والفئات، ويُغطّي جميع الحقول المعرفية والعلمية والمهنية والأنشطة الإنسانية جميعاً، يتوافرون على معارف ومهارات وقدرات وخبراتٍ وسماتٍ ومميزات تفوق ما يتوافر عليه غيرهم من أفراد الفئات والشرائح الاجتماعية أو المهنية أو غيرها، فينهضون بمهامٍ ووظائفٍ وأدوارٍ جوهرية ذات صلة بأنشطة المجتمع وحياة النَّاس، فيتبوأون مراكز اجتماعية سامية تستند إلى ما يؤدونه لمجتمعاتهم من خدماتٍ ضروريةٍ مُلِحّةٍ وما يسبغونه عليها، بفعل ذلك، من «أفضالٍ» عالية الشأن والقيمة، وإلى ما ظلُّوا يراكمونه، استناداً إلى ذلك، من ثرواتٍ ماليةٍ وكفاءاتٍ إداريةٍ وخبراتٍ تنظيميةٍ وتمثّلاتٍ تصوّريةٍ وقدراتٍ إبداعيةٍ وقوِّى رمزيةٍ، وسلطاتٍ فعليةٍ، وحضورٍ طاغٍ وأشكالٍ سيطرةٍ ونفوذ.

وبهذا المعنى، يكونُ للمجموعة النُّخبوية، أياً كان مجال اختصاصها وحقل نشاطها، أن تُمارس سلطتها على التشكيلة الإطارية الأوسع التي هي نُخبتهَا، أي صفوتها المنتقاة وأسمى من فيها ورأس هرمها في سلّم التراتب، ويكون لها كذلك أن تعمل، بحزمٍ وصرامةٍ يتوسلان الإقناع أو التلقين أو الإرعام حسب مقتضى الحال، على فرض شبكةٍ مصالحها



والمالية والاقتصادية، والجثوم الفعلي للقاعدة العسكرية الاستعمارية الصّخمة المُسمّاة 'إسرائيل' على قلب الوطن العربي الذي كان ولا يزال اسمه وسبقه 'فلسطين'. قد كرس حقيقة استحالة إقدام الأنظمة العسكرية والسياسية التّخوية الاستبدادية التي حكمت العرب ولا تزال تحكمهم في أقطارهم المنفصلة، على تبني مشروع نهضويّ تنمويّ جامع شامل ومتكامل، أو حتى مشاريع نهضوية تنموية جزئية ومنفصلة تعكس واقع حال الانفصال والتشطي وثُحافظ على بقائه وتُرسّخه. ولقد أفضت هذه الحقيقة المُكرّسة في واقع العرب، ضمن ما أفضت إليه، إلى الإبقاء على التشكلات التّخوية العصبوية والقبلية والطائفية والدينية والثقافية القديمة التي أنتجت قرون مديدة من احتجاز التّطوّر الطبيعي طوال أزمنة الاستعمار الأجنبي المُباشر، وإلى ترسيخ وجود هذه التّشكلات وتأكيد فاعليتها عبر توسيع دورها والاستمرار في توظيفها من قبل أنظمة الاستبداد التي شكّلتها تُخب سياسية تابعة ومُستبدة تعدّت أفنعتها الأيديولوجية ومرجعياتها الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية وتباينت وتبدّلت، ولكنها تضافرت في سعيها لتأييد حكمها عبر تعميق الاستبداد والطغيان وتوسيع نطاقهما، وإلغاء النَّاس، أو اعتبارهم، في أحسن الأحوال، محض أتباع، أو عبيد، أو رعايا قاصرين، أو في أحسن الأحوال بشراً أحراراً ولكنّ مُؤجّلين!

الاحتواء والاحتجاز وفرض الهيمنة

وإلى جانب الإبقاء على القديم الملائم وتكريسه وتقويته، عملت التّخب السياسية والعسكرية المُستبدة، بأقصى ما تستطيعه من جهد وشُرعة ودأبٍ عنيد، على مسارين استهدفت من خلالها تحقيق أمرين، أولهما: احتواء أيّ شكل من الأشكال التّخوية التي بزغت حاجةً مجتمعية أو إنسانية إلى وجوده، وذلك عبر ملئه بمحتوى يُلائم حاجتها هي ولا يُلائم، بأيّ حال،

ومعطيات ونتائج وخلاصاتٍ أسفرت عنها بحوثٌ ودراساتٌ تُوّسّلت مناهج البحث والتحليل المعتمدة في حقول الدراسات الإنسانية ذات الصّلة، لكفيل بأن يجعلها إجابةً مؤصّلة لا يُمكن لعاقلي إلا أن يأخذ بها، ويبنى عليها ما تستوجب الرّغبة في النهوض بالمجتمعات وإثراء الحياة وإسعاد النَّاس من موافق وتصرفاتٍ واتجاهات سلوك.

قد يرى بعض الدّارسين أنّ التّخبة، بطبيعتها كونها 'تُخبّة' ولما يحكم تشكّلها من مُحدّدات وعلاقات وتوجّهات ومقاصد وغايات، إنما تعمل على تعميق الهُوّة بينها وبين عامة النَّاس، إذ ينحو فكرها، كما سلوكها، إلى التعالي والغرور، وذلك على نحو لا يدفعها إلى فصل نفسها عن العوام فحسب، بل إلى السّعي نحو تعميق الهُوّة بينهم وبين المثقفين عموماً، وذلك بما يستجيب للدّور المنوط بها من قبل التّخبة السياسية (رأس هرم السّلطة الحاكمة، التي تتساقق كُتَيْة معها، وتنمو في ظلّها، وتأنمُر بأمرها.

ويبدو أنّ منطق التراتبية الذي يحكم تشكّل أيّ جماعة أهلية أو مجتمع أو مجموعة نخبوية، ويفرض جوهره على بُناها، يُتيح لهذه التراتبية، ولهذه الهياكل، أن تتبدّى، في التّصوّر التّظري، على هيئة أشكال فارغة من أيّ محتوى وغير مُسمّاة، حيث يُمكن ملء هذا الشكل أو ذاك بأيّ محتوى وتسميته وفق ما تمليه ماهية هذا المحتوى وهويّته، وذلك لأنّ المحتوى، والتسمية التي ثوابه، إنما ينبثقان، في كل وضع وحال، من معطيات شبكة المصالح والعلاقات القائمة في الواقع الفعلي والتي تستدعي إقامة التراتبية عبر أشكالٍ متعدّدة ومتنوعة المجالات.

تبديل الأقتعة والمرجعيات

إنّ الاستبداد السياسي، المُعزّز باستمرار وجود الاستعمار الأجنبي لبلادنا بأشكالٍ شتى ليس أقلها التبعية السياسية

وتواشج يستهدف الذهاب إلى آفاق أبعد على كل مستوى وصعيد؛ أي إلى مستقبل قابلٍ للتحقيق لأنه لا يُستدعى من ماضٍ مضى، ولا يُستجلبُ من حاضرٍ قائمٍ في مكانٍ آخرٍ غريبٍ وبعيدٍ، بل يطلعُ من قدرةِ النَّاسِ، محقِّرين برؤى أفرادِ النَّخبِ من أبناء النَّاسِ وجهودهم، على دفعِ إمكاناتِ الواقعِ القائمِ إلى أقصى مدى ليأتي الواقعُ الممكنُ محمولاً على الجهدِ الإنسانيِ الخلاقِ، الشاملِ والمتكاملِ والمتواصلِ، من المستقبلِ.

نُحْبُ غائبةً وحُلْمٌ مكبوح

فهل نذهبُ في ضوءِ ما تقدّمَ من كلامٍ ينطوي بعضه على مكوناتِ حلمِ مكبوح، إلى القولِ بأنَّ الواقعِ العربي، الذي نعابنه ونعاني قسوته وضراوةِ مراراته، لم يتوافر يوماً على نُحْبٍ راسخةٍ وقويّةٍ سوى النَّخبِ القلبيةِ والعصبويةِ والدِّينيةِ والطائفيةِ التي أرادِ الاستعمارُ، إذ لاعمه استمرارُ وجودها، تقويتها وإدارتها عن بُعدٍ، أو عبر أنظمةٍ سياسيةٍ استبداديةٍ تحكمها نُحْبٌ عسكريةٌ أو سياسيةٌ جرى تشكيلها أو تدجينها لتتولّى القبضَ على زمامِ الأمورِ كي لا يفلتِ استعمارُ البلادِ التي تمَّ تحويلها إلى 'سلسلةِ أسواقِ ضخمةٍ، أو شركاتٍ متعدّدةٍ الجنسياتِ' أو شركاتٍ 'عابرةٍ للقومياتِ، أو 'قواعدٍ عسكريةٍ' أو غير ذلك من أشكالِ وكياناتِ ما عدا شكلِ 'الدولةِ' وكيانها وكيونتها، من يدِ الاستعمارِ الذي لا يكفُّ، بدوره، عن تبديلِ الأفتعةِ لتسويقِ منظوماتِ قيمٍ زائفةٍ تجسدها هذه الأفتعة، ويتخذها هذا الاستعمارُ غطاءً لفواحشٍ وجرائمٍ ضدَّ الحياةِ والإنسانيةِ يرتكبها باسمِ الحياةِ والحريةِ والديموقراطيةِ والإخاءِ والمساواةِ والعدلِ والإنصافِ وحقوقِ الإنسانِ!

وهل نذهبُ إلى القولِ إنَّ ما يوجّهُ من نقدٍ لاذعٍ وجارحٍ إلى النَّخبِ العربيةِ التي يُعتقدُ أنها 'تقاعست' أو 'استغربت' أو 'استمضت' أو 'خافت' أو 'جبت' أو 'تماهت مع الاستبداد' أو 'تحالفت مع عدوها' أو 'أمعنت في إذلالِ نفسها'، أو 'أضاعت الفرصَ، أو 'غرّدت خارجَ سربها'، أو 'تواطأت مع نقيضها' أو 'بدت خاليةِ الوفاضِ حينِ استدعاها دورها'، أو 'خانت دورها التنويري'، أو 'ضاعت بين الجمودِ والصلَمِ والانسحابِ' أو 'آثرتِ الاختباءَ في الظلِّ الآمنِ العفنِ على الانكشافِ والسقوطِ الأكبرِ والنّهائي' أو 'استمرّت قول ما هو 'مخالفٌ للحقيقة' بقصدِ 'خداعِ الجماهيرِ' و'تحريفِ الوقائعِ، أو اعتمدتِ الكذبَ وسيلةً شرعيةً للمعاركِ السياسيةِ والثقافيةِ والدِّينية'، أو 'عجزت عن 'تنويرِ النَّاسِ' لكونها هي من 'يحتاجُ إلى تنويرٍ أو إلى تربيةٍ عقليةٍ نقديةٍ تؤهله إلى قراءةٍ واقعةٍ قراءةً صحيحةً، أو ألحّت على النَّاسِ أن يكفّوا عن 'الإسرافِ في استعمالِ العقلِ أو طرحِ التساؤلاتِ أو التناولِ التحليليِ والنّقديِ للأفكارِ والآراء' لأنَّ 'كثرةِ السُّؤالِ تُؤدّي إلى المهالكِ، وتدخلُ في بابِ البدعِ التي قد تُؤدّي بالمتساؤلِ إلى النَّارِ، أو استأثرتِ 'باتخاذِ القراراتِ نيابةً عن الجماهيرِ' التي حينِ توجّهتِ إليها لا تناشدها المشاركةَ في انتفاضاتِ النَّاسِ المندلعةِ ضدَّ الاستبدادِ في القرى والبلدات والمدن، وفي

الحاجةِ الأصليةِ التي ولّدت الحاجةَ الماسّةَ إلى وجوده؛ وثانيهما: احتجازُ إمكانيةِ نشوءِ أيِّ شكلٍ نُخبويٍّ يُتوقّعُ له أن يتأبّى على الاحتواءِ، مع الحيلولةِ دونِ تجدّدِ انبثاقِ الحاجةِ إلى هذا الشكلِ أو ما مثله من أشكالٍ في أيِّ وقتٍ لاحقٍ، وذلك بتشديدِ قبضاتِ الاستبدادِ والطغيانِ متعدّدةِ الأنماطِ على المجتمعِ والنَّاسِ، وفرضِ سطوةِ الأجهزةِ الأمنيةِ المتكاثرةِ ومتعدّدةِ الاختصاصاتِ على أيِّ شكلٍ من بين تلكِ الأشكالِ النخبويةِ التي تأبّت على الاحتواءِ، أو لم يُستكملِ قمعها أو لم يُحكَمْ إغلاقُ منافذِ ولادتها، ربما يكون قد بزغ، مُجدّداً وفي غفلةٍ من تلكِ الأجهزةِ، بصيصُ نورٍ لتشكُّله، وذلك لاجتثاثِ إمكانيةِ أن يُصبحَ، في مُقبلِ الأيامِ، نواةً لمُعارضةٍ سياسيةٍ أو اجتماعيةٍ حقيقيةٍ، أو إطاراً ثقافياً حاضناً لاستنباتِ بذورِ مشروعِ نهضةٍ عربيةٍ شاملةٍ تتطلبُها الحياةُ الحقّةُ ويتوقُّ إليها المجتمعُ، وينتظرها النَّاسُ!

ويبدو أنَّ إصرارَ أنظمةِ الاستبدادِ والطغيانِ الأسودِ على احتجازِ إمكانيةِ أن تتشكّلَ، على نحوٍ طبيعيٍّ وفي أيِّ من المجتمعاتِ العربيةِ، منظومةٍ متكاملةٍ ومتفاعلةٍ للنَّخبِ متعدّدةِ المجالاتِ والاختصاصاتِ، وذلك عبر استمرارِ عملها المحمومِ على تعزيزِ هذا الاحتجازِ بالحرصِ الصَّارمِ على جعلِ الاشتغالِ في السياسةِ، أو الاقترابِ من حرمةِ مُعلقِ الأبوابِ، واحداً من الثّابواتِ التي يتشكّلُ منها نظامِ الثّابو العربي، قد أتاحَ لهذهِ الأنظمةِ فرصةً مفتوحةً للسَّعيِ المستمرِّ لفرضِ 'نظامِ قيمها الخاصِ' -وهو النِّظامِ المتبدّلِ، قليلاً أو كثيراً، حسبِ إملاءاتِ ما يقتضيه تعميّقُ أو توسيعُ أو حتّى تأييدِ حكمِ النَّخبةِ الحاكمةِ من ضروراتِ تستدعي تبديلِ الأفتعةِ- على المجتمعِ بأكمله، وذلك على النِّحوِ الذي أغلقَ إمكانيةَ انبثاقِ 'نظامٍ مُوحّدٍ ومُوحّدٍ للقيمِ' كان لانبثاقه أن يؤسّسَ لانتقالِ التجمعاتِ الأهليةِ أو 'المجتمعاتِ القائمةِ الآن في بلادِ العربِ إلى حالةٍ اجتماعيةٍ أعلى وأرقى وأكثرِ انفتاحاً على الحياةِ والعصرِ، وذاتِ مقوّماتٍ وإمكاناتٍ تفتحُ آفاقاً واسعةً أمامَ تشكّلِ مجتمعاتٍ مدنيةٍ حقيقيةٍ تحتزُّ إمكانيةَ تحوّلِ الإنسانِ العربيِ من رعيّةٍ إلى مواطنِ، وتحوّلِ القبائلِ والطوائفِ والعصبياتِ والمذاهبِ مشطّاةِ الانتماءِ وألوياتِ الهويةِ، إلى 'أمةٍ مُلتحمةٍ، عاليةِ الشانِ والقيمةِ، وجديدةِ ببناءِ 'دولةٍ' هي دولةُ المواطنينِ المتساوينِ في نطاقِ 'دستورٍ' يُجسّدُ 'نظامَ قيمٍ جمعيٍّ مُوحّدٍ، يُعزّزُ وحدةَ الأمةِ ويُرسّخها، ويُفجّرُ طاقاتها الكامنةَ ويستحثّها على الشروعِ في تنفيذِ مشروعها النهضويِّ الشَّامِلِ والمتكاملِ والمفتوحِ على صيرورةٍ مُنتظرةٍ لا تكفُّ أبداً عن الاشتغالِ؛ دستورٍ يظلُّ هو الإطارُ النَّظريُّ والمحقِّزُ الرئيسُ لعبورِ كلِّ ما سبقَ افتراضِ عبوره من مراحلٍ وتحولاتٍ، ويبقى، في ضوءِ انفتاحه على ما يمليه التطورُ المفتوحُ من مراجعةٍ وتحديثٍ، منبعاً استراتيجياً لوضعِ خططِ عملٍ متعدّدةِ المجالاتِ في تكاملِ



حرصت أنظمة الاستبداد على جعل الاقتراب من حرم السياسة المُغلقِ الأبوابِ واحداً من الثّابوات التي يتشكّل منها نظام الثّابو العربي



الأزفة والشوارع والأحياء والميادين، وفي جميع أرجاء بلاد من البلاد، فحسب، بل تدعوها إلى الإقدام على تولي قيادتها، لاذت بزوايتها الخافتة، أو صرخت: أبحمنا الرّاع، ثمّ قرّت هاربةً بجلدها وبما راكمته من ثروات سرقتها من خزائن النَّاس، ولاذت بالأقوياء المستحدثين أيّا كانوا، أو انزوت تراقب منتظرة اتضاح مآلات الأوضاع لترى ما ترى! فهل نذهب إلى القول إنّ كلّ هذا التّفد الجارح والمُحقق، وكلّ هذا التوصيف الدقيق تماماً على المستوى التّصوّري، إنّما كان موجّهًا إلى هياكل فارغة جوفاء شوهاء، إلى مجموعات نخويّة زائفة لم تكن تُوجد، ماهيةً وهويّةً ودورًا، إلا في تصوّر زائف فرضته هذه المجموعات الزائفة نفسها على وعي النَّاس الذي بذلت كلّ ما في وسعها من أجل تدجينه، أو تزييفه، أو تزويره، أو محوه تمامًا!

نعم، سنمنح أنفسنا حقّ قول هذا القول، ولو لمرةً واحدة! وذلك لأنّ التاريخ يُعلمنا، إنّ نحن قرأنا بعض صفحاته، أنّ ليس ثمة من إمكانية فعلية لتشكّل نخبة حقيقية، فلسفية أو فكرية أو علمية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك، بمعزل عن وجود قيادة سياسية وطنية ديمقراطية، صادقة ومخلصة، ذات معرفة مستنيرة ورؤى خلاقة، وتنبّئ مشاريع نهضوية شاملة تثري الحياة وتُعمّق جوهرها عبر الاستجابة الواعية لأشواق النَّاس وحاجاتهم، ولتطلّعهم اللاهب إلى مستقبل أفضل ينتقلون معه، بالجدد المثابر والبذل والعرق، من واقع قائم إلى واقع ممكن في سياق صيرورة مفتوحة على مستقبل لا يكفّ أبداً عن المجيء من المستقبل.

استغراب أعمى

ومن جانبٍ آخر، ومع افتراض وجود إمكانية، مهما صُغّلت، لتشكّل مجموعات نخوية حقيقية، يمكنها الانتقال من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل في ظلّ أنظمة الاستبداد والطغيان والقهر، فإنّ المجموعات النخبوية الجديدة التي تمكّنت من الوقوف لبرهة على تخوم حيّز الوجود الفعلي، رفعت من الأسوار والحواجز ما سدّ كلّ منفذٍ قد يحملها عبوره إلى رحاب هذا الوجود، وذلك لأنها استمرأت استعارة منظومات القيم ومناهج التحليل الاجتماعي والعلمي والنقدي، وطرائق العمل وأدواته وأساليبه وغير ذلك، من مكان آخر هو الغرب الغريب الذي لا يصله بواقع العالم العربي إلا المشترك الإنساني والثقافي العام الذي ألفت عليه حقب التاريخ الاستعماري الغربي الصّاري لبلادنا العربية ظلالاً معتمّة وشكوكاً عميقة، حيث بدأ أمر الاستغراب الأعمى، أي غير الففكر فيه وفق حاجات بلادنا ومتطلبات

نهضتنا، فجاً ومريباً، إذ لا يُمكن عزله، أبداً، عن المخططات الاستراتيجية الاستعمارية الغربية، وربما الإقليمية، الرّاهنة، وفي صلبها المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني الجاري تنفيذه بدءاً من فلسطين، وهي المخططات التي تستهدف، فيما نحسب، إعادة إنتاج الاستعمار بأشكال جديدة عبر تعبئة محتواه القديم، الذي أعيد صوغه وفق ميزان القوى العالمي والإقليمي الجديد وفي ضوء الحاجات المتجدّدة لهذا الغرب المُتجدّد، في جرار من صنع النظام الدولي الجديد، والتقانة الحديثة، اللذين يعملان على تهيئة العالم لقبول ما كان يرفضه من تمامٍ مع هذا الغرب، أو إذعان لمشيئته الاستعمارية وترتيباته التي يُريد فرضها على العالم بأسره؛ فكيف يُمكن قبول الاستغراب الأعمى الذي عجز عن إضاءة ما يكفي من القواسم المُشتركة، الخيرة والتّبيلة، التي تفتح

الثقافات الإنسانية جميعاً على الثقافة العربية، لتنتخّ جميع هذه الثقافات، في تفاعل ثريّ، على إمكانية بناء عالم إنسانيّ مُشترك يليق بالإنسانية المشتركة التي تجمع كلّ البشر على مبادئ وقيم وتطلعات وحاجات إنسانية مُشتركة، وعلى تبادل تجارب وخبرات ومصالح، وعلى تفاعل إنسانيّ ثرّ وخلاق.

أمّا بضعة المجموعات النخبوية السياسية متعدّدة الاتجاهات الفكرية والأيدولوجية، التي تمكّنت من دخول حيّز الوجود الفعلي عبر التّفاد من شقوق صغيرة في جداره الذي أسهمت هي نفسها في بنائه، فقد وجدت نفسها محكومةً بشروط واقع استبداديّ ضارٍ لا يتيح لها مواصلة البقاء في ذلك الحيز إلا إنّ هي عدّلت اتجاهاتها الفكرية والأيدولوجية وما تملّيه هذه الاتجاهات من برامج وتصرفات، فاندلث، فكراً وسلوكاً، وصارت متساوقةً مع نظام الحكم بالدّرجة التي تُملّيتها ورؤيته ومصالحته، أو متماهيةً به واضعةً نفسها في تصوّفه لتصير تابعةً له، تتحرّك على هامشه بوصفها جزءاً ثانوياً منه، أو أداةً من أدواته التي يُخرجها من تحت إبطه عند الاقتضاء.

وعلى ذلك، فإنّ غياب مشروع نهضويّ وتنمويّ متكامل، مؤسّس على وعي عميق بالواقع القائم المراد نقله إلى واقع ممكن، ومُتّين من قبل المجتمع بأكمله في أيّ بلدٍ من بلاد العرب أو من قبل المجتمعات العربية جميعاً في جميع بلاد العرب، قد أدّى بأيّ نخبة سعت إلى الشروع في العمل الجاد إلى الاصطدام بالواقع الذي لم تُحلّله، امتداداً وعمقاً، فلم تُدرکه كما كان ينبغي لها أن تفعل.



كان لغياب مشروع نهضويّ عربيّ أن يفضي إلى الإبقاء على التشكلات النخبوية العصبوية والقبلية والطائفية والدينية والثقافية القديمة وأن يرسخ وجودها، ويؤكّد فاعليتها





أما ثاني هذه الأمور فيتمثل في قراءة ماضي 'الأنا' عبر إعادة قراءة 'التراث العربي' وتفكيك خيوط شبكاته المعرفية وتحليله ونقده لاكتشاف إمكاناته التي يُمكن أن تسهم في حملنا إلى المستقبل بغية تمييز الخطوط الفكرية والثقافية الإيجابية، الوضاعة والمُنبهة، التي ينبغي التواصل معها وتعزيز حضورها في الحاضر ومدّها إلى المستقبل، وتحديد الخطوط الفكرية والثقافية التي طالها الاهتراء أو تراكم عليها العفن أو تجاوزها الزمن، والتي لن يكون للتشبث بها إلا أن يسحبنا إلى الماضي ليحبسنا، خاملين مؤجّلي الوجود، في أقبينته، أو ليترسّخ حضوره في حاضرنا، فيطمس هذا الحاضر ويغلق المنافذ المفضية إلى أيّ مستقبل، حيث لا يكون أمامنا، إن نحن أردنا ذهاباً إلى مستقبل أفضل، إلا أن نعمل على فرز هذه الخيوط، وتحبيدها، وتحقيق القطيعة النَّاجزة مع كلِّ ما تحمله من فكر أو تتضمّنه من 'رؤى للعالم' تجاوزتها الحياة، وعفا عليها الزمن!

وفي ضوء الأمرين الأولين، يتحدّد الأمر الثالث المتمثّل في ضرورة إدراك إمكانات الواقع العربي والطاقات البشرية والإمكانات والموارد الأخرى التي يتوافر عليها، والتي ينبغي استثمارها وتوظيفها على أفضل وجهٍ ممكن لبناء مستقبل أفضل يفتتح على مستقبل أفضل في سياق صيرورة تاريخية دائمة ومفتوحة؛

تفتيت البلاد وتشظية الهوية

في ظلّ غياب أو ضلّة حضور أو هامشية تأثير ما قد أنجز من الأمور الثلاثة التي أشرنا إليها للتو، يحقُّ لنا أن نسال: ما الفرقُ إذن بين من يستدعي نموذجاً يزعم أنه كان مُتَحَقِّقاً في 'عصر ذهبي' من زمنٍ ماضٍ قد مضى، وذلك الذي يستدعي نموذجاً يزعم أنه متحقّق بالفعل في مجتمعٍ آخرٍ بعيدٍ ومختلفٍ من أكثر من مكوّنٍ وحالٍ ومنظورٍ ووجهة، ليكون مستقبلاً لمجتمعاتٍ وأوطانٍ وكياناتٍ تنتمي إلى أمّةٍ مجرّحةٍ تمرُّ بواقعٍ انتقاليٍ صعبٍ ومريرٍ، ولكنها تتوافر على كل ما تحتاجه الأمم الحُرّة، ذات الحضارات العميقة والممتدّة والثقافات عالية الشأن في تاريخ الإنسان، من مقوّماتٍ تؤهلّها للانخراط في مخاض صيرورة تحملها إلى انبثاقٍ جديدٍ، ما الفرقُ؟!

وما الفرق بين هذين الموقفين المتباعين ظاهرياً والمتلاصقين منهجاً ومآلات، وتلك المواقف التي راحت تتوسّل نقاط ضوء في حضارات قديمة تحقّقت في بلاد العرب وصارت مناراتٍ في متحف الحضارات الإنسانية، ليمنحها الأولوية في تحيّل الهوية، ويجعلها مشاعل تُضيء أعماق هويّةٍ نكوصيّةٍ تمّ تكوينها في مخيال ذواتٍ إنسانيةٍ مجرّحةٍ يحكمها الاستعمار السّافر أو المُقنّع، والتخلّف الموغل في التخلّف، والاستبداد الأسود، والركون المهين إلى حوائط العجز المهيب؛ ربما لا يُوجدُ فرقٌ يُعتدُّ به من حيث الجوهر، فكلُّ تلك التصوّرات والدّعوات إنما تذهب إلى دفع واقع العالم العربي، قسراً وعتناً، نحو مزيد من التشظّي والتفتت والانهيان، وذلك ضدّ مصلحة النّاس، جميع النّاس؟!

سؤال النّهضة وتطابق الإجابات المتناقضة!

لقد كان لعجز هذه النّخب عن قراءة الواقع على نحو عميق وصحيح يُمكنها من إدراك مكوناته وتحليله وفهمه، أن يحملها إلى تقديم إجابات عن سؤال النّهضة تُجافي هذا الواقع وتؤسّس لاقتراح مشاريع تتضمّن أفكاراً وتصوّرات وغايات وأهداف تنأى عنه فيتأبى عليها إذ يُلْفِظُهَا النَّاسُ. وعلى الرّغم من تنوّع اتجاه الإجابات ما بين إجابة دينية 'سلفية' ماضوية متحجّرة، وإجابة دينية سلفية ماضوية غير متحجّرة وربما مستنيرة على الأرجح، وإجابة ليبرالية 'مستغربة'، وإجابة يسارية 'متمركسة'، وإجابة 'قومية' مُغلّقة، وإجابة 'طائفية' أو 'شعبوية' أشد انغلاقاً، أو غير ذلك من إجاباتٍ افتقرت الأصالة لمجافاتها الواقع، فإنّها التقث جميعاً، رغم تباينها وتناقضها وتعدّد مرجعيّاتها واتجاهاتها الفكرية والأيدولوجية، على مبدأ التعامل مع كلِّ من 'الواقع القائم' و'الواقع الممكن'، بوصفهما هيكليْن فارغين يُمكن ملؤهما بأيّ محتوى سواء أكان ذلك على صعيد تحليل الأول وإدراكه أو استشراق الثاني وتصوّر مكوناته وممكناته؛

ومن اللافت للانتباه، هنا، أنّ ما اقترح من أفكار أو ما عُرض من تصوّرات من قبل السلفية الدينية المتحجّرة، أو السلفية الدينية المستنيرة، أو الليبرالية المستغربة الرّخوة، وبالرّغم مما بدت عليه تلك الأفكار والتصوّرات من تناقض فادح يتأسّس على الثنائية الرّائفة 'ماضي الأنا وحاضر الآخر'، إنما تلتقي جميعاً وتتطابق من الوجهة المنهجية، ومن حيث صعوبات التطبيق القسريّ وعقائيله ومآلاته، في إطار واحد يضمّ 'مُجافاة الواقع' و'إغفال الصيرورة التاريخية' متعددة المجالات والسياقات، و'استدعاء النموذج الجاهز' وذلك إمعاناً في التّعاس عن إعمال الفكر أو تشغيل مناهج التحليل الاجتماعي والعلمي المحكمة لإنجاز ثلاثة أمور أساسية بالغة الأهمية والضرورة. وربما كان ينبغي لهذه الأمور الثلاثة، التي سُوردها على الفور، أن تكون قد أنجزت من زمن بعيد لو لم تخن تلك النّخب نفسها والنّاس وتحوّل إلى هياكل فارغةٍ عديمة الوجود، أو هياكلٍ خاويةٍ موجودةٍ بالقوّة لا بالفعل وذلك إذا ما نظّر إلى وجودها في ضوء ماهيتها الحقيقية، وهويّتها المُرتجاة، ودورها المنطقي المُتصوّر.

يتمثّل أول هذه الأمور الثلاثة في إقامة تصوّرٍ مُؤصّلٍ، تاريخياً وفكرياً، عن ماهية العلاقة (أو العلاقات، التفاعلية الإيجابية مع 'الآخر الغربي' أو أيّ 'آخر' وتحديد كيفية، أو كيفية، إقامة هذه العلاقة (أو العلاقات)، بسويّة وإنصافٍ وتقاسم منافع وغايات، وتبيان آليات تحقيق الإفادة المشتركة من تفعيلها والاستمرار في تطویرها، عمقاً وامتداداً، وذلك استجابةً لمتطلبات تواصلها ولاستكشاف آفاقها الأعمق والأوسع والأبعد.



كان لنظام التّابو

العربي أن يمنح

أنظمة الاستبداد

فرصةً مفتوحةً

للسعي لفرض "نظام

قيمه الخاص" على

النّاس



ووجه أمتهم.

الشَّرعية المفقودة وتعنيف النَّاس

ولعلَّ هذا الرَّفض، من جهةٍ ثانية، أن يكونَ هو السبب الفعلي الأبرز لإقدام النَّخب السياسية الحاكمة المُستبدَّة، حينما أدركت خواء التشكُّلات النَّخبوية التابعة لها وفراغ محتويات هياكلها الفكرية والتَّصورية جرَّاء انعدام صلتها بالواقع وعدم قدرتها على تلمس أسواق النَّاس، على تبديل توجهاتها الأيديولوجية وبرامجها ومشاريعها من دون النَّحلي، أبدأً، عن متابعة فرض هيمنتها على المجتمعات والنَّاس بالقوَّة الغاشمة والاستبداد الطَّاعي، وعلى اعتماد ذلك منهجاً وأسلوباً لم تكفَّ أبدأً عن الأخذ به وإعماله بين فينة وأخرى، وحسب مقتضى الحال، وذلك على نحوِّ أكَّد، مراراً وتكراراً، كذب دعاوى هذه الأنظمة السياسية العربية المحكومة بنُخب سياسية فارغة لا تفتقر إلى رؤية للعالم أو مشروع نهضوي أو رؤية أيديولوجية متماسكة ورسينة فحسب، بل تفتقر، أصلاً، إلى الشَّرعية، ولا تتوافر على أدنى درجةٍ من درجات الانتماء إلى مجتمع أو وطن أو أُمَّة أو هويَّة؛

إزاء كلِّ ذلك، وبغية تبرئة نفسها بإلقاء تهمة العجز أو التقاعس عن النَّهوض بالمجتمعات والأوطان على نقيضها الذي هو، وفق تصوُّرها الموافق واقع الحال، أقرب شَماعةٍ تطالها يذُّ خداعها ومراوغتها واستبدادها، سارعت النَّخبُ السياسية القابضة على الحكم، كما سارع أصحاب تلك التشكُّلات النَّخبوية الفارغة المتماهية بالسلطات الحاكمة والدائرة في فراغ فلکها الخاوي إلا من الاستبداد والقمع،

إلى إلقاء اللوم والتَّعنيف والازدراء على هذا التَّقويض؛ على النَّاس؛ على تلك الشُّعوب التي أسبغت عليها من النَّعوت ما رأت أنه لائقٌ بها أو أقلُّ ما يُمكن أن تُوصف به، فهي الجاهلة المحكومة بالتَّخلف والجمود والغباء والعناد والحمق، وهي التي تُصرُّ، وتُمعن في الإصرار، على أن تبقى كذلك بالبصاق على يد السُّلطة الحاكمة الممدودة إليها بخيرٍ هو جوهر الخير، ولكنها، لغباؤها الرَّاسخ وحمقها، لا تُدركه ولا تعيه، فترفضه من فورها وتُمعن في رفضه؛

ثنائيات مُهلكة وهياكلُ سُوءها!

لقد اعتقدت تلك النَّخبُ، تلك الهياكل الفارغة السُّوءها مفترقة الانتماء لبنية اجتماعية متماسكة تتحرَّك في إطارها ومن أجلها، أنَّ مهمتها الرئيسة إنما تكمنُ في التفكير نيابةً عن النَّاس، أو العمل، في أحسن الأحوال، على توعيتهم بما

ما الفرق بين من نادى، أو قد يُنادي، بالفرعنة أو الفينقة، أو الكنعنة، أو الأوشرة، أو السومرة، أو الببلنة، أو الأومرة، أو الأورمة، أو الفرسة، أو الصَّوفنة، أو الشَّيعنة، أو التَّركنة، أو السَّينينة، أو غير ذلك من تشطيات عنصرية وشعبوية ومذهبية وطائفية وعرقية ودينية وأيديولوجية، ماضوية ومتحرَّجة دائماً، وذلك الذي يُنادي، جهاراً نهاراً، بالأسرلة التي تنوَّجى إقامة عالمٍ تتسيَّد عليه، وتحتكره لنفسها، نخبة النَّخب من النَّاس، أو النَّاس الذين هم النَّاس، لأنهم وحدهم الأحياء المُصطفون من إله قيل إنه قد قال: 'إنهم شعبي' لأنهم هم وحدهم البشرُ الحقيقيون؟! ما الفرق؟!؛

ومن هم أصحابُ المصلحة الفعلية في تفتيت بلاد العرب وفي تشطية الهويَّة المُلتحمة التي تجمع أهلها من كلِّ الأعراق والأجناس والألوان والطوائف والمذاهب والديانات؟ من هم أولئك الذين يريدون لتشديد سطوة الاستبداد والإرهاب والقمع وإشعال الفتن وشنُّ الحروب أن تحقَّق تلك الغايات والمقاصد السَّوداء؟!؛

ومن هم من بين الذين يعيشون بيننا، أو من بين 'ناسنا'، أولئك الذين ارتهنوا أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم لقويٍِّ مستبدِّ، أو لسلطانٍ جائر، أو لأقوياء قساةٍ ومستعمرين غاشمين، فكانوا محضَ حَمالي حطبٍ محلبين يرفدون المحرقة المنصوبة على امتداد بلاد العرب بالحطب، ولن يؤلوا في خاتمة المطاف إلى شيء سوى أن يكونوا محضَ أحطابٍ جاقَّةٍ تُلقَى، ذات لحظةٍ يستوجبها انتهاء الوظيفة الدَّور وفقدان الحاجة إلى دفع الأجر، في المحرقة نفسها؟!؛

اللُّغة: الأُمُّ الرَّوومُ ووجهُ الأُمَّة

هكذا رُفضت، وفُوقومت، وعُزلت في الماضي القريب، ويجري رفضها ومقاومتها وعزلها في الحاضر الرَّاهن، ومن قبل الأعم الأغلب من المثقفين العرب الجادين والمجتمعات العربية الرَّاسخة وأصلاء النَّاس، كلُّ تلك التشكُّلات النَّخبوية الجوفاء والتَّصورات الأيديولوجية الزائفة التي لم تسفر عن شيء سوى هياكل فارغة لم تُفلأ إلا بمحتوياتٍ سوداء! ولعلَّ لهذا الرَّفض الصَّارم من قبل العرب وغير العرب من أهل بلاد العرب لهذه الهياكل الفارغة والمحتويات السَّوداء أن يكونَ، من جهةٍ أولى، كاشفاً عن الجوهر الإنساني النبيل للثقافة العربية التي أسهم في بنائها وتطويرها وإعلاء شأنها العرب وغير العرب من أهل بلاد العرب، والمُكْتَرَّةُ قيمها العالية في أعماق لغة عربية جامعة هي اللُّغة التي يعيشها وينطقها ويكتب بها جميع النَّاس والمفكرون والمبدعون من النَّاس في بلاد العرب من جميع الأعراق، لأنها مجالهم الحيوي الرَّحب، أمُّهم الرَّووم،



ردّة فعلٍ متسرّعةٍ على تحديات ماثلةٍ تزول إن زالت؟ وهل ثمة ما يصلُ هذه الدّعوة بما كان مأمولاً به، ولم يتحقّق على النّحو الذي ترحوه الحياه ويرجوه النّاس، عقب صدمة الحداثة قبل ما يربو على قرنين وعقدين من الرّمان؟ وما الذي يتوجّب فعله من قِبَل الأفراد الذين يحتمل أن يُشكّلوا نُخباً، ومن قِبَل النّاس التّواقين لوجود هذه النّخب، لإنجاز ذلك؟ وما المنظور الذي ينبغي أن تتشكّل وفقه هذه النّخب، وعلى أيّ أسايس فلسفيّ أو فكريّ أو ثقافيّ أو اجتماعيّ أو سياسيّ أو اقتصاديّ... الخ، وفي أيّ سياقٍ عمليّ، ولأيّ غاياتٍ، وبغية إنجاز أيّ مشروعٍ، ينبغي لهذه النّخب أن تتشكّل وتتحرّك وتعمل؟

يا لكثرة الأسئلة ويا لضغوبة العثور على إجابات موضوعية دقيقة هي الأقرب إلى الصواب لأنها الأعمق صلةً بالواقع القائم وبالزّوى الواقعية التي يُمكن أن تنقله إلى واقع ممكن؛ فعلى الرّغم من فيض الإجابات القديمة والمعاصرة متشعبة الاتجاهات والحقول المعرفية ومتباينة المناهج والمنظورات، إلا أن ما اتسم به أغلبها الأعم من تناقضاتٍ ظاهرية تكشّفت مع أوّل تفحصٍ منهجيّ مُعقّقٍ عن تطابقتٍ جليّةٍ، يجعلنا أعجز من أن نُعوّل عليها في شيءٍ إلا تفحصها من جديد عبر إخضاعها لقراءة نقدية يحكمها التساؤلُ والشكُّ اللذان هما دائماً وأبداً ظلُّ ما هو مبحوث عنه من يقين!

وإذ نحاولُ التّهُوض بمثل هذه المقاربة، فإنّ العنوانَ "حول النّخب والنّاس الذي نسترشدُ به دليلاً ونبراساً يُضيء ما نعتمزه من قراءاتٍ وتحليلاتٍ، والذي يُفلي علينا ما سنذهبُ إلى تفحصه من مقترحاتٍ وفروضٍ وعلاقاتٍ تتفرّع عنه ويفضي تحليلها إلى انبثاق مقترحاتٍ وفروضٍ وعلاقاتٍ أخرى تُعطي جوانبَ البحث ومداراته، وتسمح بإقامة تصوّرٍ نظريّ مؤصّل ومتماسك بشأن ما يثيره من قضايا ومشكلات وإشكاليات، يُملي علينا أن نُشرع، كمدخلٍ ضروري لإنجاز المقاربة التي نُريد، في تعرّف ما ينطوي عليه مُصطلح "النّاس" والمصطلحات المتحوّلة الأخرى الدّالة على "النّاس" من معانٍ ودلالاتٍ وعلاقاتٍ ومفاهيم، ولا سيما أننا قد أنجزنا في الصفحات السّابقة ما افترضنا أنّه مقاربةٌ كافيةٌ على نحو ما لتعرّف المنطويات المفهومية لمصطلح "النّخب"، وإدراك مآلات حضوره عبر "الهياكل الفارغة" لتشكّلات النّخب العربية تحت سطوة أنظمة الاستبداد التي حكمت، ولا تزال تحكم، الواقع العربي الذي نُعائنه ونعاني وطاقته الباهظة ■ (وللكتابة صلة)

براتسلاف، مارس (آذار) 2015

ناقد من فلسطين مقيم في سلوفاكيا

يستجيب لحاجات السلطات الحاكمة، وبما يضمن ولاءهم لها، وإذعانهم لأوامرها، وانخراطهم في السير في الاتجاه الذي يُلائم مصالحها، والتزامهم أداء الدّور الذي تُحدّده لهم، أو على الأقلّ كَفَّ شَرّهم عنها بعدم الانخراط في أيّ نشاطٍ أو حرّكٍ اجتماعي أو ثقافي أو سياسيّ قد يُزعج حرصها على تأييد حكمها وتحكّمها رغم تقاعسها إلا عن ممارسة الاستبداد، أو قد يُقلق نومها عن إنهاء الحياة، أو قد يدعواها إلى سياسة أمور النّاس وفق مصالح النّاس، فانتهى الأمر بهذه "النّخب" إلى ما انتهت بها إليه: نُخبٌ زائفةٌ كاذبةٌ؛ خاوية الفِكر والرّوى؛ متعاليةٌ وجوفاء؛ لا يسكن وجدانها ضميرٌ ولا يبرقُ في نفوسها المعتمدة بصيغ وجدان؛ وتدّعي الدّفاع عن قيمٍ لا تُؤمن بها أصلاً. نُخبٌ هي، في أفضل توصيفٍ لنعنتها بإنصاف، أذرعٌ مُساندةٌ لأنظمة الحكم على جميع المحافل والصّعد؛ تابعةٌ وذليلةٌ، تستجدي رضا الحاكم المُستبدّ وتضرعُ إليه أن يُنبئها بعض رضاه، وأن يسبغَ عليها ما قد يُسبغُه عليها من مناصبٍ وألقاب، وأن يُنعمَ عليها بما قد يُنعمُه عليها من مُناتٍ موائده، ومن رُشاشٍ مكرماته ونِعَمه، ومن كَيْدٍ عطاياه، وأن يُحيطها، في كلّ حالٍ وحين ودوماً وأبداً، برعايته وفضله؛

هكذا إنزُ تشكّلت في بلادنا، في المخيال الاجتماعي والسياسي والثقافي العام، الثنائية التصورية المهلكة: "النّخب" و"النّاس"، وهي الثنائية التي لم يكن لتشكّلها أن يتحقّق لولا ثنائية أخرى هي ثنائية "العصا والجزرة" التي أُحكِمَ تطبيقها على جميع المستويات والصّعد، وفي شتى مجالات الحياة والأنشطة المجتمعة الإنسانية، بفضل الرعاية السّامية والدّؤوبة من قبل أنظمة الاستبداد وأجهزتها المحكومة لإرادة نُخبها السّياسية الحاكمة، تلك التي لم تكفَّ أبداً عن تكريس القطيعة الاجتماعية الكاملة والنّاجزة بين جميع "النّخب"، وجميع "النّاس".

قطع القطيعة واستعادة اللّحمة

كيف يُمكن، في ضوء ما تقدّم واستجابةً لما تتطلبه الحياة ويرجوه النّاس وضمنهم المثقفون من النّاس، إغلاق هذه الهوة السّاسعة؟ كيف يُمكن قطع هذه القطيعة واستعادة الصّلة التفاعلية، بل والعضوية الملتحمة، بين "نخب النّاس"، ولا نقولُ "نخب أنظمة الاستبداد والفساد"، و"النّاس"؟ وهل ثقة من حاجة أو أهمية، أو ضرورة مُلِحّة، لفعل ذلك الآن، وقبل فوات الأوان؟ وهل ثمة من حاجةٍ لوجود هذه النّخب أصلاً؟ هل ثمة من دور ينتظرها كي تُؤديه؟ هل تتأسس الدّعوة إلى وجودها على ما ينبغي أن يكون لها من دور عظيم في مواجهة تحديات وأخطار ماثلة تتهدّد العرب جميعاً؟ وهل يُمكن أن تُحمّل هذه الدّعوة على كونها مجرد



ليس ثمة من إمكانية فعلية لتشكّل نُخب

حقيقية بمعزلٍ عن وجود

قيادة سياسية صادقة ومخلصة، تتوافر على

معرفة مستتيرة وتبني

مشاريع نهضوية تفتتح

على الحياة وحاجات

النّاس





حوار المختلف والمتعدد

أسئلة في ثقافة النخبة وثقافة الناس

عواد علي

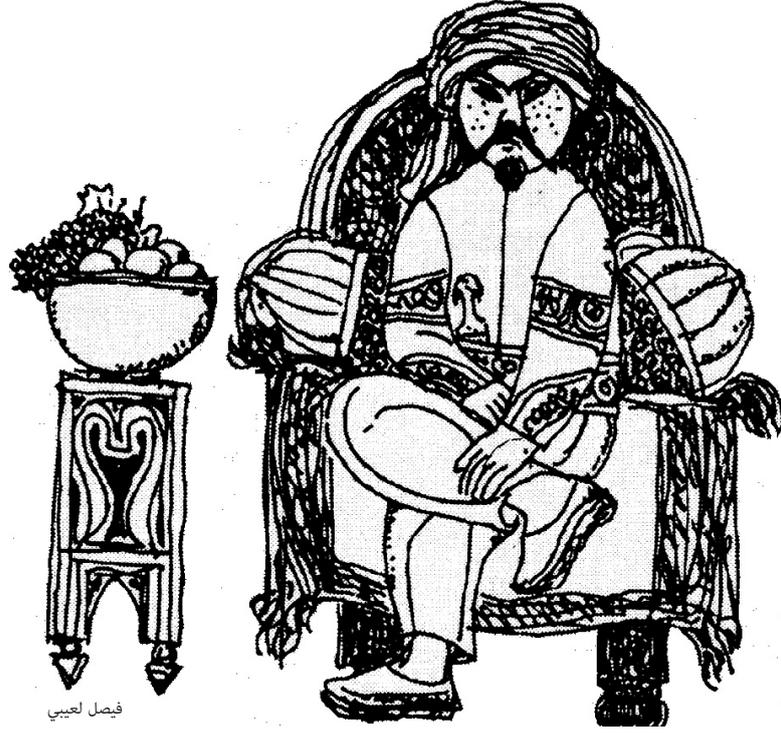


قديمًا قسم الغزالي الناس إلى عامة وخاصة، وقال «خاطبوا الناس على قدر عقولهم؛ ذلك أن الكلام في المسائل الدقيقة أمام العوام هو عبث لا طائل منه. ويُفهم من قوله أن وجود مستويين مختلفين من الوعي والثقافة أمر لا مناص منه في كل زمان ومكان، وأن محاولات إحداث تمازج بينهما لم يكن مشجعاً على الإطلاق

الثقافة بمفهومها العام، في المنظور الأنثروبولوجي، هي طريقة عيش شعب بعينه، أو ذلك النسيج المكون من العقائد والمفاهيم والنظم والعادات والتقاليد وطُرز الحياة السائدة في بقعة محدّدة من الأرض. وطبقاً لهذا المنظور يلخص محمد عابد الجابري معنى كلمة «ثقافة» بأنها تعني ما نعبر عنه نحن اليوم بـ«حضارة»، فهي ليست البناء الفكري وحسب، بل أيضاً السلوك الفردي والمجمعي وما يرتبط بهما من تقاليد وأعراف وأخلاق. وعلى المستوى الإنساني العام هي الأعمال الفكرية والفنية الخالدة، أي تلك الأعمال التي تعبر عن موقف الإنسان إزاء الطبيعة وما وراء الطبيعة، إزاء نفسه ومصيره. ومن منظور سوسيوسياسي ثمة من يرى أن الثقافة «دلالة على نضج أو تخلف سياسي واجتماعي» كما يقول غسان الإمام.

وعن نوع تفاعلها مع العالم المحيط، وعلى صفحاتها، تمكن قراءة المجتمع الذي تعبر عنه، وبنيتها العقلية -بتعبير كلود ليفي شتراوس- وشخصيته الحضارية، ففيها يخرج ما بداخل مستودع الذاكرة من معطيات قابلة للتحليل الاجتماعي. إن ثقافة النخبة تتسم بطابعها المنهجي الدقيق والمؤسسي، وبخاصيتها التدوينية، في حين يغلب على الثقافة الشعبية الطابع الشفهي العفوي التلقائي، والموروث الذي يجسد تجارب المجتمعات الشعبية -تاريخياً- في مختلف أصددها حياتها. وقديمًا قسم الغزالي الناس إلى عامة وخاصة، وقال «خاطبوا الناس على قدر عقولهم»، ذلك أن الكلام في المسائل الدقيقة أمام العوام هو عبث لا طائل منه. ويُفهم من قوله أن وجود مستويين مختلفين من الوعي والثقافة أمر لا مناص منه في كل زمان ومكان، وأن محاولات إحداث تمازج بينهما لم يكن مشجعاً على الإطلاق. ويشكّل هذان المستويان ثنائية ترقى في تأثيرها - إلى مستوى الازدواجية القابلة لتوليد كل أنواع الانقسام والقطيعة، حسب تعبير الباحث المصري محمد حسن عبدالحافظ، لكن من جانب آخر يكمن عقل الأمة ورشدها في المستوى الأول، بينما يكمن وجدانها في المستوى الثاني. كان مفهوم النخبة، ولا يزال، يشكّل موضوعاً للبحث والتحليل والتنظير منذ بداية القرن الماضي حتى اليوم، حيث تقاطرت حوله النظريات، وتمحورت حوله الدراسات الاجتماعية والسياسية دون انقطاع. ومن بين المفكرين الذين كانت العلاقة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية مدار اهتمامهم، المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي، والفرنسي بيير بورديو، فقد بنى الأول مشروعه الأيديولوجي الاستراتيجي على تحطيم نخبوية الثقافة وتعميم المعرفة الفلسفية، بالإجهاز على ذلك الوهم الذي يرى في الفلسفة شيئاً غريباً وصعباً لمجرد أنها النشاط الفكري لفئة من المتخصصين أو الفلاسفة المحترفين. وأصبح همّ غرامشي إثبات أن كل البشر

عادة ما يوجد في كل مجتمع نوعان من الثقافة، ثقافة نخبة وثقافة عامة، أو ثقافة عالمية وثقافة شعبية (ثقافة الناس). وللتعبير عن النخبة الثقافية استخدم المفكرون عادةً عدداً من المصطلحات أبرزها: مصطلح «الأنجلنسيا» بصغته الماركسية، ومصطلح «المثقف العضوي» وفقاً لنظرية غرامشي، ومصطلح «المفكر الرسولي» صاحب الرسالة وفقاً لمصطلح إدوارد سعيد، ومصطلح «المفكر النقدي» وفقاً لمنظور نيتشه وسارتر. الثقافة الأولى تتكون بطريقة فردية واعية وتكون أكثر درايةً ببنيتها العميقة، وذلك لأن أصحابها، وهم قلة في مقابل كثرة، وتُدرة في مقابل وفرة، يتملكونها عن طريق القراءة والتأمل والحوار الرفيع والمقارنة وطرح الأسئلة.. والفردية هنا صفة تصنعها الموهبة والتعلم والمنافسة، وتدلل على الجهد والمكابدة بما يفرض على علميّة الفرد ومعرفيته في حقله، حسب رأي الناقد السعودي صالح زياد. أما الثقافة الثانية فإنها ليست كذلك، بل تتكون بطريقة غير واعية وغير مقصودة، حيث يتشربها أبناء المجتمع ويتشبعون بها مثلما يتنفسون الهواء، كما يذهب الباحث السوري عبدالكريم بكار. وهي تتمثّل في التعبير الشفهي (غير المكتوب)، مجسداً في أجناس مختلفة من الفنون الحركية والبصرية والسمعية مثل الغناء والأمثال والسير الشعبية والنحت والفرن التشكيلي والنقش على الخشب والمعادن والجبس والرخام والجسد (الوشم)، والتطريز والحياكة.. وغير ذلك، والتجليات المختلفة في المأكل، والملبس، وطقوس العبادة، ومراسيم الاحتفالات والأعياد والمواسم والمآتم، فيما يسمى بمنظومة العادات والتقاليد والمعتقدات. ويلاحظ عبد الإله بلقزيز أن هذه الأشكال التعبيرية الشعبية لا تقل قيمةً عن النصوص المكتوبة في مضمار التعبير عن نوازع الذات وحاجاتها الجمالية، والوجدان الفردي والجمعي،



فيصل لعبيبي

فلاسفة.. وبالفعل، كان غرامشي يرى في كل الناس فلاسفةً، بمعنى مختلف عن الفلسفة النظامية للمتخصصين، وأطلق من ثقة على تلك الفلسفة الملائمة للجميع اسم «الفلسفة العفوية»، كما يقول عبدالحافظ.

لكن تقييم غرامشي السائد في كتاباته حول الثقافة الشعبية كان سلبياً، كما يعتقد الباحث عصام فوزي في بحثه «آليات الهيمنة والمقاومة في الخطاب الشعبي»، المنشور ضمن كتاب «غرامشي وقضايا المجتمع المدني»، فقد عرض الباحث الإيطالي ألبرتو ماريا كيريسي تصنيفاً للتعارضات التي أقامها غرامشي بين خصائص الثقافة الفولكلورية الشعبية وثقافة النخبة (الثقافة المتخصصة)، وهو تعارض مائل بين الطبقات الخاضعة والطبقة المهيمنة: فالأولى تحمل تصوراً سلبياً للعالم، وتتسم بكونها خاضعةً بسيطةً زائفةً تضمنيةً وذات مركب غير عضوي وتنظيم داخلي متشظ، في حين أن الثانية مهيمنة عالمية أصيلة صريحة ذات مركب عضوي وتنظيم داخلي موحد.

وذهب غرامشي أبعد من ذلك حينما أكد أن الأدب الشعبي، بالمعنى الدنيء، هو انحطاط «سياسي-تجاري» للأدب «القومي-الشعبي» الذي نعثر على نماذجه في المآسي اليونانية والشكسبيرية. ومن ثمة فإنه لم يلقِ الضوء ساطعاً على الثقافة الشعبية إلا ليلقي بضوء أكثر سطوعاً على ضرورة نقدها وتحويلها، حيث تأخذ بعد ذلك نعتاً محدداً هو: الأدب «القومي-الشعبي». بمعنى آخر إن دعوة غرامشي إلى الاقتراب من ثقافة الجماهير فارغة من المعنى إذا لم تُدرك بوصفها دعوةً غزبيةً لخلق جماهير مثقفة، حسب رأي فيصل دراج، في بحثه «الثقافة الشعبية في سياسة غرامشي»، المنشور ضمن كتاب «غرامشي...» آنف الذكر.

رفض بورديو، في سياق نظريته العامة حول الهيمنة، النظر إلى المجتمع كما لو كان وحدةً متكاملةً ومنسجمةً (التوجه

البنوي الوظيفي)، أو كتلاً منقسمةً حسب ملكية وسائل وقوى الإنتاج بين المالكين وغير المالكين (التوجه الماركسي)، بل اعتبره، كما يقول الباحث المغربي حساين المأمون، فضاءً متشكلاً من حقول (سياسية علمية أدبية جامعية قانونية دينية صحفية تربوية...) يشغلها مفوضون مهيمنون وآخرون مهيم عليهم، بوساطة الرأسمال، لا الرأسمال المادي فحسب، بل الرأسمال الرمزي والاجتماعي والثقافي كذلك.

وعاين بورديو، مثل غرامشي، الثقافة الشعبية في صورتها السلبية وفي تكريسها لفكر الهيمنة (الذكورية والسلطوية)، وفي اختزالها للممارسات الشعبية في صورها الهمجية أو السوقية. ورأى أن «عبادة الثقافة الشعبية» تنهض -نخبوياً- على فكرة «احترام الشعب»، على نحو يُعاد فيه إنتاج القيم الرمزية الكامنة في الثقافة الشعبية في «الكتابة النظرية» التي تقوم بدورها على تكريس الهيمنة. وتصور بورديو أن هذه الفعالية المنحدرة للثقافة الشعبية تمثل حصاراً لها، وعزلاً لها عن تحقيق ثورة وتمرد على الحط والخضوع والإنذاع.

إلا أن التفاوت بين الثقافتين بقدر ما هو مصدر للتوتر والنزاع يمكن أن يكون في الوقت ذاته مصدراً للتطوير نحو الأفضل إذا أُديرت العلاقة بينهما بما هو مطلوب من الذكاء والوعي. وتأكيداً لهذه العلاقة نرى، مع صبري حافظ، أن ثمة مستويات متعددة من الخطاب الثقافي، بعضها يحظى بانتشار واسع وبعضها الآخر يظل محصوراً في دائرة أضيق، وهذا أمر قائم في كل الثقافات تقريباً.

وتأتي حيوية أي ثقافة من خلال الحوار بين هذه المستويات المتعددة، لأن أي قطعة بين هذه المستويات، ستؤدي إلى عزلة الثقافة المسماة بثقافة النخبة عن الثقافة الشعبية، وأن وعي الثقافة الشعبية بوجود ثقافة النخبة وفعاليتها يؤدي إلى الارتقاء بمستويات هذه الثقافة العريضة ■

كاتب من العراق مقيم في الأردن

المسألة الثقافية العربية وفردوس معاوية المفقود

عن مستقبل العرب على مفريقي الدين والدولة

ابراهيم الجبين



لكن بغداد سقطت
من جديد في زمننا،
ولم يكن سقوطها
مجرد احتلال كما
تعرضت وتعرض غيرها
لاحتلالات مختلفة،
لكن مسرحية السقوط
ومشهديته، كانت
أكثر تمزيقاً في وعي
العرب، حين عبرت
القوات الأميركية جسور
العاصمة العراقية،
ونشرت مرتزقتها
في أنحاء بلاد أعرق
الحضارات، ولعل أبلغ
صور ذلك السقوط
تجلى في سجن أبي
غريب، ثم في سلسلة
المحاكمات المصورة
للقيادة العراقية
السابقة، والتي أريد لها
أن تكون محاكمة للفكر
القومي العربي، دون
أن يعطى المتهم فرصة
الدفاع عن نفسه

في الأيام الأولى لاندفاع السوريين في انتفاضتهم السلمية في آذار من العام 2011، كتبت بياناً للمثقفين السوريين، يوضح تمسكنا بوحدة سوريا وهويتها ونداءات شعبها التي لم تتوقف، موصولة مع عمقها الحضاري الذي لا يستثنى مؤسساً أو تائراً أو مخزوناً ثقافياً عالمياً أو عربياً أو أيّاً كان منبعه ضمن التكوين السوري، لكن اسماً ورد في البيان، تسبب في توقف عددٍ من المثقفين عن الاستجابة للتوقيع عليه، وقال بعضهم، كيف يمكن لمثقف علوي مناصر للثورة أن يقبل بورود هذا الاسم في نص البيان؟ كان الاسم.. معاوية بن أبي سفيان، وكان السياق الحديث عن الدولة المدنية التي أسسها معاوية في الشام، الدولة العربية اللادينية الأولى، وكنت شخصياً أضع اختباراً للوعي، لتوثيق قدرة المثقف العربي على الفصل ما بين الإرث الثأري القادم من الديني، والوعي المكتسب المتوقع من المدني لدى العرب مهما اختلفت جنسياتهم وانتماءاتهم الطائفية.

لدى كثير من الأقوام التي عاشت معهم، وتشاركت يومياتهم، كرد وفرس وآخرون، يرون أن نهوضهم يتطلب سحق العرب، وطمس منجزهم المعرفي بطمس هويتهم، وتحميلهم أوزار الأنظمة التي رفعت شعارات العرب وأحلامهم مراكب لتصل بها إلى الهيمنة والبطش بالجميع وعلى رأس ذلك الجميع العرب أنفسهم قبل غيرهم.

في هذه اللحظة ذاتها، يواجه فيها العرب دعوات للانحسار والتراجع عن الأراضي الشاسعة التي فتحوها، ونشروا فيها ثقافتهم، والعودة إلى جزيرة العرب، بعد خمسة عشر قرناً، حاملين معهم حملتهم الثقافية، وكأنما يقول لهم غيرهم، تلك بضاعتكم ردت إليكم، عند هذه اللحظة، يطرح سؤال العرب الوجودي والمعرفي في آن معاً، وكأنّ لا شيء فعلوه ولا حضارة أنشؤوها، ولا مساهمة في مسار البشرية قدّموها، ليصبح النكران هو نصيب العرب من جميع الشعوب التي لو أن العرب أبادوهم لما استمروا إلى هذا الوقت، وكان هذا ممكناً كما حصل في غير مكان من الأرض، وليس الهنود الحمر في أميركا بالمثل الوحيد، على محو الهوية وصعود المستعمر الجديد.

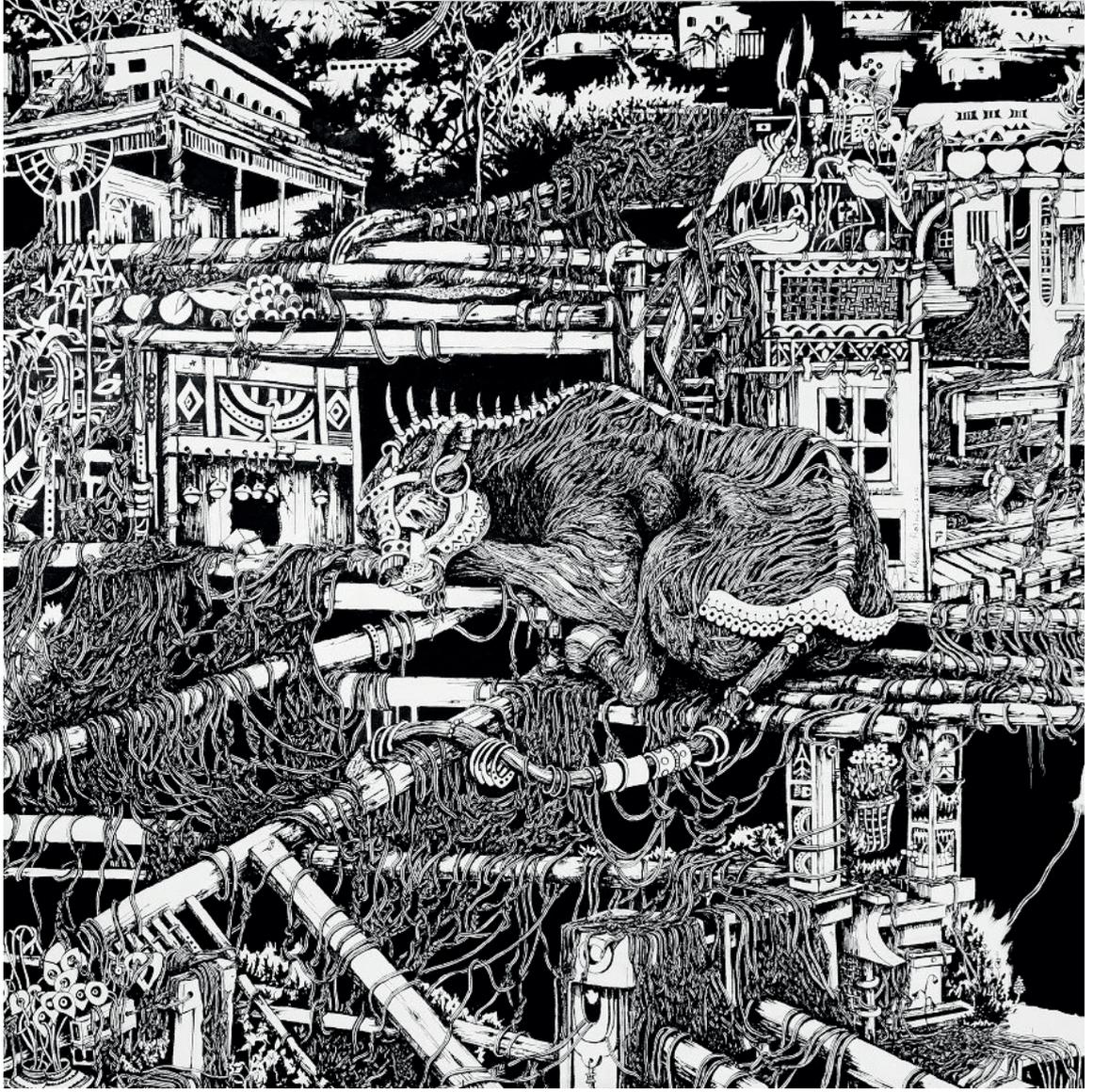
عصر السقوط الثاني لبغداد

تقرن عصور الانحطاط العربي الشهير، بمرحلة ما بعد سقوط بغداد على يد هولوكو، واجتياح التتار للمشرق العربي مدمرين كل أشكال النماء والازدهار الذي عرفه أهله، بمكوناتها

اليوم، أرادت افتتاحية العدد الثاني من مجلة الجديد، أن تثير قضية يتجنب الخوض فيها، كثير ممن تقع على عواتقهم مسؤولية الحديث فيها وعنّها، لا سيما في مناخ لا يوفر سهماً من سهام الانتقام والحقد التاريخي والعنصرية والتأر، دون أن يؤجّجه نحو جسد القضية ذاتها، العروبة، الهوية العربية، العرب.

وإذا طرح رئيس تحرير المجلة الشاعر نوري الجراح، أسئلته، في البحث عن مشروع ثقافي عربي، مستفتحاً بسيرة أولئك الذين قال عنهم: ماذا يريد هؤلاء القوم الذين أسمتهم كتب الحضارة عرباً، وقد صاروا يخجلون من اسمهم. ماذا يريد العرب من أنفسهم اليوم وقد باتوا يتوارون في ظلال أمم أخرى. ماذا يريدون من وجودهم وقد بلغوا بنسبهم أرض اليأس، وبتاتوا في حال ينكرون معها أنفسهم، فما عادوا يطبقون أن يكونوا عرباً؟ ولكن ماذا في وسع العرب أن يكونوا إن لم يكونوا ما كانوا دائماً. هل يصيرون فرساً، أم يصيرون تركيا، أم صقالبة! ماذا يريدون أن يكونوا وقد باتوا على شفا حفرة من أن يكونوا هنوداً حمراً لأمم تجاورهم؟، وهي أسئلة قد تعطيتها اللحظة التاريخية شرعية، من فداحة الصورة أمام ناظري المرء، لكن في أوقات مختلفة، قبل هذه اللحظة الطويلة وبعد انقضائها، سيكون الأمر مختلفاً.

الهزلي والمأساوي معاً، أن العرب كأمة، لها ملامح وثقافة وتاريخ ومصير مشترك، كما حدّد مفكرو الثقافة العربية الأول، باتوا موضع جدل وشك، وأن وجودهم ذاته بات موضع تساؤل



البعث، ولم تكن الطريقة التي تم تنفيذ حكم إعدام الرئيس صدام حسين بها وكيفية عرضها والهتافات المرفوعة من حوله من قبل ملثمين مجهولين، وهو دكتاتور مثله مثل غيره لا نناقش في هذا، لم تكن سوى استبدالاً وإحلالاً مقصوداً لفكرة في مطرح فكرة، انهيار الحلم العربي، وصعود الحلم الطائفي الشيعي، ذلك الحلم الذي استثمرته إيران، ليكون حلماً فارسياً، اشتغل طويلاً على 'بعث' الفكر القومي الساساني القادم لينتقم من الجميع.

هل هي نهاية الحلم العربي إذن؟ للإجابة على هذا السؤال، ليس علينا فقط البحث في مراكز الدراسات وعقول المفكرين العرب والمنتج الثقافي العربي اليوم، بل سيتطلب الأمر تطوفاً واسعاً على يوميات الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج، وكذلك في المنافي، لا سيما بعد صعود وسقوط المفاهيم الدينية المتطرفة، والتي لم تبق للعربي سوى هويته الثقافية

مجتمعة عربياً وفرنساً وكرداً وأفغاناً وباكاً وبشتوناً وصولاً إلى سور الصين شرقاً.

لكن بغداد سقطت من جديد في زمننا، ولم يكن سقوطها مجرد احتلال كما تعرضت وتعرض غيرها لاحتلالات مختلفة، لكن مسرحية السقوط ومشهدياته، كانت أكثر تمزيقاً في وعي العرب، حين عبرت القوات الأميركية جسور العاصمة العراقية، ونشرت مرتزقتها في أنحاء بلاد أعرق الحضارات، ولعل أبلغ صور ذلك السقوط تجلى في سجن أبي غريب، ثم في سلسلة المحاكمات المصوّرة للقيادة العراقية السابقة، والتي أريد لها أن تكون محاكمة للفكر القومي العربي، دون أن يعطى المتهم فرصة الدفاع عن نفسه، وتهديداً وتلويحاً صريحين أمام ملايين العرب من المشاهدين، بأن العودة إلى مثل هذا الفكر ستكون نهايتها كما ترون.

ولم يكن فكر البعث هو المستهدف، بل الشعارات التي رفعها

محمد، الذي قدّم حاملاً دينياً صقل الهوية العربية ونقلها من حال إلى حال، فنشأ من بعده صراع يقف على ضفة من ضفتيه الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، من جهة، ويقف على ضفته الأخرى عرب كان فهمهم مختلفاً للدين والدولة، مثلهم معاوية بن أبي سفيان.

تبع الخلفاء الراشدون الأربعة النبي برضوخ وأمانة، والتصقوا بالأفكار، ولم ينظروا إلى المستقبل، لأن المستقبل بالنسبة إليهم لم يكن على الأرض بل كان في السماء وما يوعدون، بينما نظر معاوية إلى الأرض، وعرف أن الدولة لا يمكن أن تتأسس بقيم السماء فقط، فواجه المشروع الديني، وبقيص عثمان أو من غيره، كان معاوية سائراً إلى المواجهة، رافضاً الدولة الدينية، مؤسساً لمشروع عابر للعصور، لم يتوقف يوماً، ولم تكن نهايته له، فقد عاد وظهر في الأندلس على يد أحد سليل البيت الأموي ذاته عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، ثم عاد ليظهر في المشرق والمغرب مع تقدم الزمن.

ويمكن أن نتخيل العالم العربي في حال انتصر علي بن أبي طالب وطبق مشروعه الديني، بغض النظر عن عالم القيم الأخلاقية المتضمنة فيه والتي هي نسخة ثانية عن إسلام النبي وإسلام عمر، وكم سيصمد هذا المشروع أمام تحولات العالم في ذلك الزمن، وكيف سيكون شكل المجتمعات العربية (ومعها الأقوام التي دخلت الإسلام والأديان التي بقيت على حالها بعده، تحت الحكم المرتبط بالسماء في عهد علي وأبنائه وأحفاده).

صعود معاوية، والتأييد الذي لاقاه من العرب من أهل الشام والأمصار الأكثر احتكاكاً بالحضارات الأخرى، لم يكن سوى ذلك التوق العربي إلى دولة مدنية، حتى لو كان حاكمها ملكاً وليس نبياً أو شبه نبي.

وقد تغنى العرب قديماً وحتى اليوم، بدهاء معاوية ومكره، لكنهم في الواقع يشيرون، بشكل غير واعٍ، إلى أن معاوية كان مؤسس "السياسة" أيضاً في تاريخ العرب، فالدولة لا تبنى بالمفاهيم وحدها، ولا بالقوة منفردة، و"فن الحكم" يتطلب الكثير مما ينطلق من شعرة معاوية الشهيرة التي يرخيها إذا شدّها الناس ويشدّها إن هم أرخوها، وهو القائل "إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين العامة شعرة لما انقطعت، إن جذبوا أرخيتها، وإن أرخوها مددتها"، وكان لمعركة صفين أثر كبير في المقارنة بين فكرين، ونظرتين إلى الحياة، عراقية علوية أرادت السفر إلى القيم، وشامية أموية أرادت الاستقرار على أرض الواقع، مهما كلف الثمن من تآكل في صورة العدا للبيت المحمدي، قيل لمعاوية بن أبي سفيان في يوم صفين: إنك تتقدم حتى تقول: إنك تقبل وإنك أشجع الناس، وتأخر حتى تقول: إنك تفر وإنك أجبن الناس، فقال "أتقدم إذا كان التقدم غنماً، وتأخر إذا كان التأخر عزماً".

فكان يحارب علي بن أبي طالب، وفي الوقت ذاته يرسل إليه ليستفتيه في شؤونه الدينية، في رسالة واضحة، تقول إنك أعلم وأعلى مكانة منا بالدين، لكننا أولى منك بالدولة.

كجدار يسند إليه ظهره.

وكان ما كان بعد سقوط بغداد في العام 2003، فتداعت الثقافة العربية، غير قادرة على مواكبة العولمة القادمة بالقوة هذه المرة، مزلزلة زمنياً أبعدت فيه الملايين من العرب عن القرار والتأثير والشأن العام، بسطان الاستبداد، ولم يبق أمامها سوى الانخراط الكلي في مشروع القرية العالمية الصغيرة، الذي يطمس الهويات ويجعلها مادة للفرجة والتزيين، وليس كموتاً يحرك ويغذي الفكر والحياة.

لكن هل يمكن والحال هكذا، أن يحلّ الإنسان العربي، البسيط والمثقف، مسؤولية الفشل الذريع في تصدير الهوية الذي شهدته القرون الأخيرة وتشهده هذه السنوات؟ كيف وقد كان العربي طريداً منفيلاً لاجئاً حبس نضاله من أجل لقمة العيش، ممنوعاً من الكلام، ممنوعاً من السماع، ممنوعاً من السفر، ممنوعاً من التفكير، من الكتابة، من الرسم، من كل شيء؟ لتأتي لحظة حاضرة جديدة، لتمنعه اليوم من أن يكون له وجود.

أمّ الحكايات

لا ينفك العقل العربي يقيس ما يكون بما كان، ويستعير من هنا وهناك من حوادث الدهر، كيف يفهم حوادث الراهن بها، وينتقد المفكرون ومنهم الراحل محمد عابد الجابري، قصور العقل العربي بسبب ميله إلى القياس، وليس استنباط الجديد، لكن تثبيت التاريخ، في مرات كثيرة، بالقوة، سيحجر العربي وغير العربي على تثبيت أدوات فهمه للتاريخ، وما عرفته الحياة العربية منذ مئة سنة مضت وحتى اليوم، لم يكن سوى تثبيتاً للحظة انهيار إمبراطورية غير عربية حكمت العرب، أدى تقاسمها إلى تفتيت أرض العرب ومعها الشخصية العربية وأحلامها.

وقيل للعرب اصنعوا دولتكم الحديثة، وسط عشرات المؤثرات التي تمنعهم من صناعة زورق ورقّي، وليس مشروعاً بحجم دولة، فكانت أولى الضربات تحوير ميثاق دمشق، من ميثاق مدني يطلب دولة مدنية إلى ميثاق يفاوض عليه رجل يطلب الخلافة لنفسه، الحسين شريف مكة، ثم اتفاقية سايكس بيكو سزانوف، ثم وعد بلفور بدولة دينية لليهود وسط امتحان أممي للعرب بأن يؤسسوا دولة مدنية لكل مواطنيها.

ثم الاحتلال الكولونيالي المباشر، ثم تعيين القادة والرؤساء بالوكالة في بلاد العرب، للحفاظ على المصالح الغربية، وضبط السكان، ثم عرض المشروع العربي على لسان الدكتاتوريات للإمعان في تشويبه، كما تفعل اليوم داعش بصورة الإسلام. حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم.. هل بقي من العرب شيء يذكر؟

لكن الحكاية لم تبدأ هاهنا، بل إنها صراع قديم كابده العرب أول مرة في النزاع على مشروع الدولة الأولى بعد رحيل النبي



**قيل للعرب اصنعوا
دولتكم الحديثة، وسط
عشرات المؤثرات التي
تمنعهم من صناعة زورق
ورقّي، وليس مشروعاً**

بحجم دولة



الانقلاب على الدولة الدينية

تُبث معاوية نظريته في الحكم، مبكراً، قبل أن يندلع نزاعه مع علي، وكان منذ البداية، يعرف أنه سيكون على النقيض مع متشدّد أكبر وأكثر تعنتاً من علي، إنه عمر بن الخطاب، فقد روي في سير الأعلام عن إسماعيل بن أمية: أن عمر أفرد معاوية بالشام، ورزقه في الشهر ثمانين ديناراً، ولما قدم عمر الشام، تلقاه معاوية في موكب عظيم وهيئة، فلما دنا منه، قال له عمر: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك. قال: نعم. قال: ولم تفعل ذلك؟ قال معاوية: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يرهبهم فإن نهيتني انتهيت، قال عمر: يا معاوية، ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس، لئن كان ما قلت حقا، إنه لرأي أريب، وإن كان باطلا، فإنه لخدعة أديب. قال: فمرني. قال: لا أمرك ولا أنهاك.

وقال المدائني: كان عمر إذا نظر إلى معاوية، قال: هذا كسرى العرب، وقال عنه عبدالله بن عباس: علمت بما كان معاوية يغلب الناس، كان إذا طاروا وقع، وإذا وقعوا طاروا.

وحين مكّن دولته، اتخذ وزراء من العرب المسلمين والنصارى، وكان أول من اتخذ الديوان للختم، وأمر بالنيروز والمهرجان، واتخذ المقاصير في الجامع، وأول من قام على رأسه حرس، وأول من اتخذ الخدام الخصيان في الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشرة مرقة، وكان يقول: أنا أول الملوك، وكان أول من استعمل السفن في البحار للحرب، وأول من حاصر عاصمة الروم القسطنطينية، ودام حصاره لها سبعة أعوام كاملة، انتهت بعقد هدنة، قضت

على حلم الروم باسترداد الشام ومصر، ورشخت حدود الدولة العربية الأولى في العام 680 للميلاد.

شجرة الفكر

يستفز الجراح المثقفين العرب، بإشارته إلى أن نهر الدم الذي تدفق في عواصم الحاضر العربي ومدنه وأريافه لم يستطع أن يهز شجرة الفكر عن ثمار جديدة. فها هو الفكر يقف عاجزا عن قراءة ما يجري، محبباً وغريباً، حتى وكأنه لا يرى في نفسه ابناً حقيقياً للتجربة الإنسانية الدامية، إن في سنواتها الأربع المنصرمة، أو في أرومتها الممتدة إلى نصف قرن من الاستبداد باسم الدولة العربية، والواقع أن الجملة لا تصف الحقيقة، بل ما تراه فقط، فالفكر لا ينشأ بالشر، ولا يكون ردّ فعل مباشر على حدث مهما كبر، لكنه صيرورة، تبدأ بمؤثرات مثل التي ذكرت، ولا نرى أن الفكر العربي يحتاج إلى أن يولد من جديد، فهو موجود حقاً وسلفاً، ولكنه اليوم يحتاج حواضن، مع الأسف

باتت كهرم مقلوب، فبدلاً من أن يتبع العسكري السياسي ويتبع السياسي وعلى السياسي أن يتنازل ويبحث عن الفكري في القاع.

أما شجرة الفكر، فهي ممتدة ضاربة جذورها، لا يلغيها ولا يبتريها ما يحدث، بل لعله هذا يزيدنا تفجراً وتوسّعاً، لكن بعد حين، فالشيء يظهره ضدّه، ولعل تياراً عربياً قادماً يبني على ما مضى، ويتخلص من كل أخطاء الاستبداد، ويكون رداً على الانحطاط الحاصل في الفكر والثقافة.

والمثقف الذي تصفه الافتتاحية بأنه 'مصباح الأمم'، لم يكن يوماً مصباحاً لأمتة في حياته، بل بعد زمن طويل، بل إن تلك الأمم التي ظهر فيها مثقفون، لم تقصّر في التنكيل بهم، وصلبهم، وحرقت أعمالهم وإبادت أفكارهم، لكنهم استمروا وزالت هيمنة العهود التي عاشوا فيها، وتبدّل الزمان، لذلك نجد أن ما يحدث الآن يؤسس للقادم، وعليه فإننا نكتب اليوم في ماضي المستقبل العربي، ونصنع للقادمين تراثاً سيعثرون عليه.



لعل تياراً عربياً قادماً يبني على ما مضى، ويتخلص من كل أخطاء الاستبداد، ويكون رداً على الانحطاط الحاصل في الفكر والثقافة



الثقافي الفكري السياسي

أي أدوات حادة بوسعها الفصل، ما بين الثقافي والفكري والسياسي اليوم، دون أن يضاف إليه ما تبقى من وجوه الكريستال، فالغطاء السياسي المنكشف اليوم، سببه غياب الخيمة الفكرية، والفكر منتج ثقافي، والثقافة لا تزدهر في البيئات المجهلة، والمحرومة من التنمية وأساسيات الحياة، وهي أكثر مهمة حرص على تحقيقها الاستبداد المورّع على خارطة العالم العربي، فمن أين سيأتي الثقافي اليوم؟ وكيف يمكن له أن يتحوّل إلى تمثيلاته الأكثر تطوراً في فضاءات معادية؟

لا شك أن المنتج الثقافي العربي خلال المئة عام الماضية، وهي ساحة التحولات الزمنية، التي تؤثر أكثر من سواها الآن، هو المستهدف في نقد المسار الثقافي العربي، فلو أن القصيدة العربية تجاوزت حدود الظواهر الفردية إلى الحركات الشعرية الكبرى، ولو أن الرواية العربية أصبحت تياراً واسعاً، ولو أن الفنون العربية تأصلت واتخذت لذاتها بصمات واضحة، لكان السؤال عن وجودها اليوم من عدمه، سؤالاً عبثياً، لكن يبدو أن التأسيس لم يكن جاداً، ولم يكن مكيناً بما يكفي للتعبير عن ذهن ثقافي مدني، قادر على قهر الرعوية والدينية والطائفية والعرقية التي تضرب بعنف هذه الأيام في جسد العروبة، المفهوم فوق السياسي، الذي يريد البعض اليوم تكسيه كما تكسّر داعش تماثيل آشور ■

كاتب من سوريا مقم في دوسلدورف -ألمانيا



مقدمات أولية نحو بناء مستروع ثقافي عربي

أزراج عمر

توقفت طويلا عند المبادرة التي تضمنتها افتتاحية "الجديد" التي كتبها الشاعر نوري الجراح تحت عنوان "من حدائق الصور إلى حرائق الخارطة: في السؤال عن مشروع ثقافي عربي" المنشورة في العدد الثاني من المجلة والتي أبرز فيها ضرورة وأهمية فتح ملف المشروع الثقافي العربي للنقاش والإثراء من أجل النهوض بالثقافة العربية وثقافات الإثنيات من المحيط إلى الخليج وذلك في إطار الانفتاح على الثقافات العالمية المتطورة ذات المضمون الإنساني التقدمي، في ظل لحظة عربية غير مسبوقة بحوادثها ومفاجأتها العنيفة والدامية وعوارض تخلخل اجتماعي وثقافي عربي يحتمل على أهل العربية ضرورة التوقف للتفكير والمراجعة.

والذهنية الاسطورية وهلم جرا. أشير هنا بسرعة أيضا إلى عقبات ونقائص لافتة للانتباه وتتمثل في أن أغلب المساهمات العربية التي ساهم بها عدد من دارسي الثقافات الوطنية، والمفكرون المنشغلون بالتراث الثقافي العربي/الاسلامي في تقديم بذور التصور للمشاريع الثقافية العربية يسيطر عليها إما التمركز الوطني، أو التمركز المشرقي الذي يعتبر نفسه المرجعية الأصل للفروع أو للأطراف بلغة المفكر سمير أمين، أو المغربي في قليل من الأحيان ونادرا غالبا. وفي هذا السياق فإننا نجد بعض هذه المشاريع موسومة بالأيديولوجية القومية العربية، أو الماركسية ذات الطابع الكوني، أو الليبرالي ذي الطابع الرأسمالي العالمي أيضا، أو الإثنية المنغلقة على نفسها في إطار ما أدعوه بالتمركز الإثني كردّ فعل دفاعي عن الذات الثقافية المهمة حيننا والمتنكر لها حيننا آخر.

إضافة إلى ما تقدم فإن ثمة مشاريع للثقافة العربية ينظر لها في إطار العالم الثالث، أو في إطار الكونية الاسلامية، أو في إطار النسب العرقي، أو الطائفي الديني، أو في فضاء الكومنولث الإسلامي الواسع والرومانسي كما نجد ذلك في أطروحات المفكر الجزائري مالك بن نبي. لا شك أن عنقود هذه المشاريع الثقافية تحتاج كل واحدة منها إلى دراسات خاصة لغربلتها والوقوف عند نقاط القوة أو الضعف فيها ويدخل هذا في اعتقادي في منظور الشروع في بناء التصور المتكامل للمشروع الثقافي الوحدوي بكل تنوعاته، وأسس وروافعه التاريخية على طريق إبداع مخطط ثقافي قابل للحياة والتطبيق. لا بد هنا من الإشارة المقتضية إلى المواثيق الثقافية العربية التي خصصت مكانا للمشاريع الثقافية التي تتميز غالبا بالتمركز القطري المحلي والتي تبقى دائما ضحية للخيارات السياسية الوطنية من جهة، وللتغيير أو للإلغاء بمجرد تغيير الحكام في سدة الحكم من جهة أخرى. في هكذا مناخ نجد أنفسنا أمام فسيفساء من بذور التصورات لشبه مشاريع ثقافية فردية، أو شللية، أو حكومية لا تستقر، وهي مجتمعة لا تفعل، ولا ينتقل بها إلى صيغة تكاملية حتى داخل الوطن الواحد في

في اعتقادي أن هذه المبادرة تنضم إلى عدد من رؤوس أقلام مشاريع فكرية وثقافية مطروحة في الساحة الثقافية والفكرية العربية منذ ما يقرب من قرن من الزمان ولكنها بقيت مجمدة في الأرشيف، ومطبوعة في الوقت نفسه بطابع الجهود الفردي الذي لم يتطور إلى عمل جماعي من جهة، وإلى سياسات ثقافية وطنية موحدة في إطار المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم التابعة للجامعة العربية. لا شك أن هناك أكثر من مساهمة قامت بمراجعة السجل الثقافي العربي وبتحليل المشكلات الكبرى والمحورية التي عطلت ولا تزال تعطل بناء هذا المشروع الثقافي وتنفيذه في الواقع. في هذا الإطار بالذات يمكننا أن نتفق مع الدارس والناقد السوري طيب تيزيني أن طرح مشكلة وحدة الفكر العربي المعاصر من الأمور المعقدة حتى الحد الأقصى، ومبعث التعقيد هذا هو أن تجزئة الوطن العربي جغرافيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ما تزال تنطوي على جذور عميقة في واقع هذا الوطن. إن هذا التعقيد يبدو واضحا في انقسام عرى الوحدة بين الفكر والثقافة وبين السياسات العربية المتشظية التي تتعارض أساسا مع إقامة كتلة نوعية بينهما بما يخدم النهوض الحضاري. قبل مناقشة بعض المشكلات التي تعترض المشروع الثقافي العربي، وقبل الإشارة السريعة إلى عينات من التجارب والمقترحات لتكوين الوحدات الثقافية في أوروبا، وأميركا والصين، أرى أنه من الضروري التذكير بسرعة بعدد من المساهمات التي حاولت أن تقدم التحليل النقدي للبنى الثقافية العربية كما هي في تراثنا وفي السجل الرمزي المعاصر لدينا، إلى جانب تحليل المشكلات الناجمة عن عدم إجراء المثاقفة الجادة والمستمرة مع ثقافات الجوار العربي، ومع ثقافات الإثنيات بداخل فضائنا الجغرافي وكذلك مع السجل الثقافي والفكري وتجلياته في الحياة اليومية لشعوب المعمورة وخاصة في المواقع التي تسود فيها الثقافة العليا المتطورة وتطبيقها وكذلك الثقافة الشعبية المتقدمة بعد تحديثها وإخراجها من أنفاق الخرافة، وأشكال الفلكلور المبتذل،



في اعتقادي أن هذه المبادرة تنضم إلى عدد من رؤوس أقلام مشاريع فكرية وثقافية مطروحة في الساحة الثقافية والفكرية العربية منذ ما يقرب من قرن من الزمان ولكنها بقيت مجمدة في الأرشيف، ومطبوعة في الوقت نفسه بطابع الجهود الفردي الذي لم يتطور إلى عمل جماعي

كتابه 'صدام الحضارات' و'من نحن' مع العلم أن أطروحة هذا المفكر الأميركي الاستراتيجي يطابق الهوية الثقافية بالعرق حيناً، والدين المشترك حيناً آخر، وبطبيعة الصراعات على النفوذ والقبطية العالمية حيناً آخر وهو ما جعله لا يدرك علاقة الهوية بالتحول في التاريخ، وعلاقتها أيضاً بالهجنة التي أصبحت تسم مجتمعات العالم بميسمها بنسب مختلفة طبعاً. في الإطار الأوروبي دائماً فقد استوقفني الفيلسوف الألماني المعاصر لنا يورغن هابرماس وخاصة في كتابه 'التحول البنيوي للمجال العام' الذي يدرس فيه نمطاً ثقافياً ليبرالياً برجوازيًا انبثق في أوروبا في المرحلة الحديثة المبكرة. في هذا الكتاب درس هابرماس 'كتابات المنظرين السياسيين والمؤسسات والأشكال الاجتماعية التي تحقق وأنجز في رحمة المجال العام، أي ثقافة المجال العام البرجوازي المشتركة ومؤفصلاته' في أوروبا القرن السابع عشر. لا أدعو طبعاً إلى تقليد أو استعادة هذا النمط من المجال العام البرجوازي كركيزة ثقافية تصوغ النفسية في مجالنا العام الثقافي ومؤسساته وضوابطه وساحات تفاعلاته الذي نأمل أن يبني في فضائنا الممتد من المحيط إلى الخليج، بل فإنني أُلح على أهمية استيعاب آليات هذه التجربة، ومفهومها ولعل ذلك يساعدنا لاكتشاف آلياتنا ومفهومنا من أجل صنع مشروع المجال العام الثقافي الخاص بنا.

هناك نموذج آخر، ضمن نماذج أخرى من الصعب تأملها وفحصها ودراستها بالتفصيل في مقالة واحدة، وهو نموذج الصين الشعبية الدولة الوطنية التي لم تستكمل بعد سيادتها الجغرافية الكاملة والتي يبلغ عدد القوميات فيها 55 قومية ذات لغات وقيم وانتماءات روحية/دينية متنوعة. في كتابه المهم 'الصينيون المعاصرون: التقدم إلى المستقبل انطلاقاً من الماضي' يقترح الناقد الثقافي الصيني البارز وو بن رؤية منهجية للمشروع الصيني الثقافي للبحث عن القواسم الثقافية المشتركة للمواطنين والمواطنين الصينيين والصينيات في النقاط التالية، وهي: الأحوال النفسية، وعقيدة المعاني والمفاهيم الثقافية، ووجهة النظر إلى القيم، والفكر الأخلاقي، وأسلوب التفكير، والشخصية. بعد تقديمه لهذه المنهجية فإنه يقترح أيضاً ما يدعو بنظام المراجعة لدراسة الصينيين فيقسمه إلى هذه النقاط: 1- الصينيون التقليديون، الإنسان العصري في الصين، 3- الأجنبي، وهنا يدعو إلى دراسة معمقة للتكوين الثقافي والقيمي والروحي لكل فئة من هذه الفئات من أجل سبر الأبنية الثقافية التي تنتمي إليها وتعتبر على أساسها كل واحدة منها باعتبار تلك الأبنية المشتركة ناظماً ثقافياً ونفسياً للهوية. في هذا الكتاب يلح الناقد وو بن على أن سنوات الثورة الثقافية قد كبنت الصين وأبعدتها عن الانفتاح على الثقافات العالمية وخاصة المتطورة منها وكانت هذه التجربة السلبية عبئاً ثقيلاً وحائطاً حال دون تمثل تلك الثقافات والنهل من نقاط قوتها الإبداعية.

على ضوء ما تقدم يبدو لي أن الانطلاق في وضع اللبنة للتصور الخاص بالمشروع الثقافي الجماعي لبلداننا ينبغي أن يستلهم روح منظور ومنهجية هذه التجارب المذكورة وليس استنساخ مضامينها الخاصة بها والمميزة لها ■

شاعر وكاتب من الجزائر مقيم في لندن

الغالب. أعتقد أن ثمة مشروعية في مقترح الشاعر نوري الجراح حيث هناك إمكانية لبناء هذا المشروع الثقافي الذي يحمل نعت 'العربي' مؤقتاً شرط أن يكون مؤسساً على الأرضية الديمقراطية والتنوعات الثقافية واللغوية التي هي الشرط الأساسي الذي يبدو إشكالياً ومحفوفاً بالعراقيل حقاً حتى الآن في هذا الوضع العربي الدكتاتوري والمحكوم بميراث الحاكم الواحد المستبد على مستوى الهرم الأعلى للسلطة العليا، وبيراديغمات (Paradigms) السلطة السفلى منها للأصولية الإسلامية، والأصولية العلموية، وقيم العشيبة، أو الطائفة، أو القبيلة، وبنىات المشاعر الانعزالية (Structures of feelings) إذا صح لي استخدام هذا المصطلح الذي كرسه الناقد الثقافي البريطاني ريموند وليامز في تحليلاته النقدية للفيلم وتقاليد الدراما البريطانية والذي هو في الواقع مصطلح متطابق في الدلالة مع مصطلح 'الإبستيمي' الذي نظّر له ميشال فوكو في سلسلة من دراساته التي رصد فيها نمط الفكر السائد في مرحلة تاريخية واجتماعية معينة ومحددة في الثقافة الفرنسية والأوروبية. عندما أقول بأن ثمة إمكانية لوضع تصور حقيقي للمشروع الثقافي الرابط بين بلداننا فذلك لأن هناك تجارب تاريخية ناجحة في السياق أو النموذج الأوروبي، الغربي على المستوى القاري أو الأطلسي، وفي النموذج الصيني متعدد القوميات في الوقت الراهن وبعد تجاوز مطبات الثورة الثقافية الصينية. في السياق الأوروبي، مثلاً، هناك المشروع الذي تقدم به الشاعر المفكر ت. س. إليوت في كتابه 'ملاحظات حول تعريف الثقافة' - 1948 م الذي خصص فيه فصلاً كاملاً في صورة محاضرة بعنوان 'وحدة الثقافة الأوروبية'. لقد كانت هذه المحاضرة في تأويلي الخاص ردّاً فكرياً مناهضاً للتمزقات والحروب التي كسرت ظهر وفقاً وأوروبا ودعوة لتلحيم الجروح وتجاوز الوطنيات الانعزالية إلى أفق الوحدة الثقافية التي تؤطر التنوعات المختلفة والتعامل معها كعناصر لبناء تركيبة تمثل تنوع التجارب التاريخية والحضارية وبهذا الخصوص كتب إليوت 'من الضروري أن نستوضح ما نعنيه بكلمة الثقافة حتى نستوضح الفرق بين التنظيم المادي لأوروبا، والكيان الروحي لأوروبا.

لو مات هذا الكيان لما بقيت أوروبا، بل تحولت إلى مجرد كتلة من البشر تتكلم عدة لغات مختلفة، ولما بقي ثمة مسوغ لأن يستمروا في التكلم بلغات مختلفة لأنهم لن يجدوا بعد شيئاً يقال إلا ويمكن قوله بنفس الإجابة بأي لغة، أو باختصار لن يبقى لديهم شيء يقولونه في الشعر. وقد أكدت من قبل أنه لا يمكن أن توجد ثقافة أوروبية إذا انعزلت أقطارها المختلفة عن بعضها البعض، وأضيف الآن أنه لا يمكن أن توجد ثقافة أوروبية إذا طبعت هذه الاقطار بطابع واحد. فنحن نحتاج إلى تنوع داخل الوحدة..'

هذا هو تصور إليوت لوحدة الثقافة الأوروبية الذي نختلف معه في مسألة مركزية وهي كونه ينظر إلى أساسها في الدين المسيحي لأن المسيحية ليست أساساً للثقافة الأوروبية فقط وإنما هناك مجتمعات أخرى تدين بهذه الديانة وتستمد منها بعض أعرافها وطقوس حياتها وقيمها. أما في الوقت الراهن فإننا نجد صموئيل هنتنغتون يوسع دائرة الانتماء الثقافي حيث يضع فيها أوروبا وأميركا على نحو خاص جداً وذلك في





جاد الكريم الجباعي

بعد ثقافة العبيد تأتي ثقافة الحرية

تشهد المنطقة تغييرات تاريخية تتصارع فيها عدة تصورات للمستقبل: استعادة رؤية الكون المرتبطة بالقراءة الأصولية للنص الإسلامي متمثلة بـ"دولة الإسلام" والقراءة المعتدلة المرتبطة بالإسلام "المتحرر أو المعتدل" والقراءة الثورية المرتبطة بحضور قوى اليسار التي تهدف إلى قيام دولة علمانية يسودها القانون إضافة إلى الحضور القائم على التحالفات التي تخدم خطاب الديكتاتورية.

هذا الحوار مع المفكر السوري جاد الكريم الجباعي يقف على جملة من القضايا التي فجرتها أسئلة الانتفاضات العربية، وما طرحه الحراك الشبابي العربي من تحديات أمام حركة الثقافة العربية، وما دفعه من دم جديد في شرايين التفكير حركة التفكير العربي. الجباعي يرى في حوارنا معه أن التغييرات التاريخية لا تتوقف؛ بعضها لا يكون ملحوظاً، أو معلوماً، وبعضها يكون مفاجئاً، كثورات "الربيع العربي". وصفة التاريخية التي توصف بها التغييرات تعني أن هذه التغييرات لا تحصل دفعة واحدة، ولا تتجلى في مظهر واحد. فالتاريخ هو توقيع أو "وقعة" ممكنات على حساب ممكنات أخرى، وهذا ما يفسح في المجال لإرادات البشر الذين يصنعون تاريخهم بأنفسهم، ولكنهم لا يصنعونه على هواهم، حسب كارل ماركس. ثمة إذاً سيرورات متداخلة ومتأنية ومتعارضة ومتوازية ومتشارطة.. تتجه عند نقطة معينة، في لحظة تاريخية معينة، باتجاه واحد، فيحدث التغيير النوعي في صيغة ثورة أو انقلاب أو حدث تاريخي. ويرى المفكر الجباعي أن ما من ثورة تولد أو تتولد إلا وتولد معها أو تتولد ثورة مضادة وما من حدث يحدث إلا ويولد نقيضه. من هنا يمكن القول إن ما تشهده المنطقة هو لحظة انفجارية أو زلزالية نتجت من سيرورات مختلفة، اجتماعية اقتصادية وثقافية وسياسية، محلية وإقليمية ودولية لا تكشف عنها الخطابات، بل تقنّعها، وتحجبها. وقد لا يكون لتصورات المستقبل أي رصيد من الواقعية، أو إمكانية التحقق، إذا استندت إلى خطابات أو مقالات أيديولوجية. المستقبل ممكنات الحاضر، ولا شيء غير ذلك.

سيما أسطورة الخلق التوراتية وفكرة الخليقة ومركزية الذات الفردية والجمعية (ego-centralism)، فهي التي تحدد إمكانية أو عدم إمكانية الاعتراف المتبادل بين الأفراد والجماعات بالتساوي في الكرامة الإنسانية والحقوق المدنية والسياسية، والتشارك الحر في الشؤون العامة وفي حياة الدولة، وتحدد من ثمة إمكانية أو عدم إمكانية أن تكون الدولة فضاء عاماً ووطناً سياسياً لجميع مواطناتها ومواطنيها بالتساوي، بلا استثناء أو تمييز، على أساس العرق أو الدين والمذهب أو الجنس أو لون البشرة أو اللغة والثقافة أو الانتماء الفكري والسياسي.

فلا يمكن لمن يعتقدون بفكرة "شعب الله المختار، وبأن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أي تأمر بما تراه هي وحدها، أو الناطقون الرسميون باسمها، معروفاً، وتنهى عما تراه هي وحدها، أو الناطقون باسمها، منكرًا، لا يمكن لهؤلاء أن يقبلوا بتساوي الأفراد المختلفات والمختلفين في

بداية هل هناك في نظرك ثمة كوسمولوجيا معينة، أو رؤية عامة للكون، خلف التصورات المختلفة للمستقبل؟

الجباعي هذا مؤكد. ذلك لأن العلاقات الاجتماعية والإنسانية وسائر القيم المعيارية والأشكال المؤسسية ترتبط أوثق ارتباط بالرؤية العامة للكون، للطبيعة والعالم والمجتمع والإنسان، والمرأة بوجه خاص، ومدى انفتاح هذه الرؤية على واقع التنوع والاختلاف.. أي إنها ترتبط أوثق ارتباط بالثقافة التي يتبناها الأفراد والجماعات ويعدونها هويتهم، على اعتبار الثقافة أول رأسمال بشري. فالرؤية الكوسمولوجية العامة لنشأة الكون ونظامه ونشأة الإنسان والاجتماع البشري ونظامه تحكم الأفكار والتصورات والقيم وعمليات إنتاجها اجتماعياً. ومن ثمة لا يكتفى تفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية التي أنتجتها الثورة من دون الكشف عن خلفيتها الكوسمولوجية، الأسطورية، والدينية ذات البعد الأسطوري، ولا



النيابة عنه، في حين عملت السلطة كل ما تستطيع من أجل كتم صوته كلياً، وحين حاول أن يتعلم الكلام عاجلته بترسانتها العسكرية والأمنية والأيدولوجية والإعلامية. والثانية هي انفصال النخبة عن الشعب، وهو ما يضره السؤال عمداً أو عفواً، منطلقاً، على الأرجح من هشاشة النخبة وخلافاتها التي لا تنتهي، وعجزها عن التوافق على رؤية وطنية مشتركة، وتحولها إلى استطلاعات للقوى الإقليمية والدولية وأدوات في أيديها. والثالثة أن الاستقطاب الحاد بين السلطة والمعارضة أحدث تصدعاً عميقاً في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية يحتاج إلى جهود كبيرة ووقت طويل لرأبها. فتراجعت إمكانية التوافق على المستقبل تراجعاً خطيراً، في ظل تمادي العنف والإرهاب وتقطيع أوصال البلاد وهيمنة الأيدولوجيات الإثنية والدينية والمذهبية على معظم النفوس والعقول. والرابعة أن الثقافة القومية، التي فرضت على الشعب وأريد لها أن تتحول إلى 'دين شعبي'، لأنها محوِّلة عن عقيدة دينية أساساً، لم تحل دون إعادة إنتاج الثقافة الشعبية، التقليدية، بل حفزت ذلك بطرق شتى. وأخيراً لم يبذل المثقفون والمؤسسات الثقافية أي جهد لردم الهوة بين الثقافة الشعبية الشفوية والثقافة 'الرفيعة' المكتوبة، على افتراض أن ثمة ثقافة رفيعة ذات شأن.

من البديهي أن جميع أفراد الشعب غير المنضوين في جماعات مسلحة ومؤسسات عنف، وغير منخرطين في القتال يتوقون إلى متابعة حياتهم بهدوء، بعيداً عن صراعات القوى. ولكن هذه البدهية غير كافية للحكم في وجود 'خطاب شعبي' أو توجه شعبي من هذا النوع. لأن فئات الشعب المختلفة ليست خارج علاقات القوة وصراع القوى، وإلا فإن صراع القوى يجري في فراغ. الأرجح أن هناك من النخبة من ينتحل خطاباً 'شعبياً' على مجرى العادة، مؤداه التوق إلى 'عودة الحياة إلى مجاريها'، ولا يستبعد أن يكون هذا الخطاب ملغوماً، يتجاهل أربع سنوات كانت أربعة عقود من التوتر والمعاناة على الأقل. يبدو لي أن هذا الخطاب المنتحل أو المنحول، خطاب مصنوع أو مطبوخ في مطابخ السلطة والسلطات، فلم نسمع عن أي مسح جدي أو بحث ميداني يثبت أن ثمة صوتاً للشعب أو أكثريته، أو أن ثمة ميلاً فعلياً يتشكل ويبحث عن أدوات مناسبة لإمكان تحقيقه. يتعلق الأمر، هنا، بتحديد من هو الشعب. المثقفون والأحزاب السياسية يتحدثون عن شعب في رؤوسهم، لا عن شعب له وجود عياني وتنظيمات ومؤسسات ذات نظم مستقرة وقيم حاكمة. لنتساءل: أليست النقابات على أنواعها والأحزاب السياسية والفعاليات الاجتماعية والثقافية والمنظمات الشعبية الرسمية ونظيراتها مما أنشأته المعارضة هي الشعب؟ أم بقية الأفراد المنعزلين واللامبالين والمنكفئين على أنفسهم؟ أليس الشعب بنية علائقية بين أفراد حرائر وأحرار ومنظمات ومؤسسات، أم هو مجرد معطى إحصائي؟

المثقف النقدي

إثر التغييرات التي تمر بها المنطقة رأينا العدد من الشخصيات الثقافية والأدبية تتوزع وتنقسم، بعضها شارك الشارع والشعب همومه والتحم به، والبعض الآخر نأى بنفسه، لنجد أنفسنا أمام شكلين: المثقف المنخرط في خطاب التغيير والآخر مشاهد يقوم

الكرامة الإنسانية والحقوق المدنية والسياسية والمشاركة المتساوية في الحياة العامة، ولا يمكن أن يقبلوا بحقيقة أن العدالة تدبير بشري للكون الاجتماعي، لا تدبير إلهي للكون. هذه الرؤية الكوسمولوجية تستعاد دوماً في الوعي واللاوعي، ولدى ممارسة الطقوس والشعائر.. وهي ماثولة في العادات والتقاليد والأعراف، علاوة على التراث، ولكنها تغدو متوترة في أوقات النزاع، وتشكل أساس الخطاب الأيدولوجي.

في ضوء التوتر الحاصل، من الصعب تعيين الحد الفاصل بين 'القراءة الأصولية' للنصوص التأسيسية وما يسمى 'القراءة المعتدلة'، فالأصولية قاسم مشترك بين القراءتين أو التأويلين، إذ ما الفرق بين قراءة تنظيم دولة الخلافة في العراق والشام وممارساته الهمجية، المستندة إليها، وبين فتوى الأزهر، رمز الاعتدال، في جواز حرق أعضاء هذا التنظيم وتقطيع أوصالهم، رداً على إحراق الطيار الأردني، الذي يقاتل في صفوف 'الصليبيين' وحلفائهم، ناهيك عن القراءات الإخوانية؟ هذا لا يعني أن ثمة قراءات معتدلة بالفعل لمفكرين مستقلين عن المؤسسات الدينية.

'القراءة الثورية' قراءة أصولية أيضاً، تنبثق من كوسمولوجيا مادية أو مادوية وُضعت أسسها منذ ما سمي الثورة الكوبرنيكية (نسبة إلى كوبرنيكوس)، التي نفت مركزية كوكب الأرض في الكون، وفي المجموعة الشمسية، وأسست لنفي مركزية الإنسان، ورفدتها النيوتنية، التي رأت الكون آلة متقنة الصنع، والداروينية في ما يخص نشأة الإنسان. المادية المشار إليها مادية ميكانيكية، تجاوزتها المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، عند ماركس وإنجلز، ولكن هذه الأخيرة باتت عتيقة، بعد نسبية آينشتاين العامة والخاصة ومنجزات الفيزياء الأحدث والنظرية الهولوجرامية. الأصولية والتطرف سمتان للعصية، بالمعنى الخلدوني، وهذه تحمل جرثومة العنف والإرهاب، فلا فرق كبيراً بين أصولية وأخرى، سوى الفرق الذي يقيمه الهوى. المشهد الثقافي العربي مشهد أصوليات متنافية ومتعادمة، لم يفلح التليفق، القومي والإسلامي والاشتراكي، سوى في تأجيل التنافي والتعادم للذين نشهد تظاهراتهما في صفوف 'النخبة' و صفوف العامة على السواء؛ فقد كشف انفجار المنطقة عن انحطاط ثقافي وأخلاقي مريع، بفعل اكتساح الأيدولوجيا للمجالين الثقافي والسياسي، وإلا كيف يمكن تفسير هذا النكوص إلى الهمجية؟

النخب والشعب

أين ترى دور الخطاب الشعبي الراغب بمتابعة شؤون حياته بعيداً عن صراعات القوة التي تشهدها المنطقة..؟ وهل هناك من قنوات قادرة على إيصال صوت الناس..؟ ومن هو المعني بسماع أصواتهم في ظل التناقضات المتصارعة على الأرض والخطاب والتوجه..؟

الجبايعي يطرح هذا السؤال عدة مشكلات جدية، أولاها أن أكثرية الشعب مفقرة ومهمشة ومستعبدة من مجالي السياسة والثقافة، (تقدر نسبة الفقراء السوريين فقراً متعدد الأبعاد، اليوم، بنحو 80 بالمئة من السكان، فمنذ أزيد من نصف قرن لم يسأل أحد عن الشعب، ولم يصغ إلى صوته، وتطوعت نخبة ثقافية وسياسية



المساجلة والمجادلة والملاسة والكيد، لأنه يذهب عميقاً إلى الجذور والأساسات ويهدم ما يتغذى منها وما بني عليها، ويكشف عن خيط الحياة الرهيف القابل للنمو والتطور في الظواهر والنصوص التي تناولتها وتناولها. النقد موقف شاق ومكلف، وكذلك الانحياز إلى الثورة أو إلى المستقبل الممكن.

أنا أتفهم الخوف البشري، لأنني أخاف، ولا أدين الخائفين، بل أدين الشروط الاجتماعية والسياسية والدينية والنظم الاستبدادية، التي تنتج الخوف وثقافة الخوف، وأنفهم حق الأفراد في الاختيار، وأحترم خياراتهم، إذ قلماً يتوقف أمر من الأمور على خيارات فلان وفلانة من المثقفين والمثقفات، في أوقات النهوض، إذا كان المقصود من السؤال الغمز من قناة هذا المثقف أو ذاك. ثقة مثقفون هنا وهناك يشتمزون من التسلط والاستبداد والفساد، ولكنهم لا يجروؤن على مواجهتها ومواجهة المستبدين والمتسلطين والفاستدين بأعيانهم. هكذا هي الأمور، وهكذا كانت على الدوام، عندنا وعند غيرنا. لقد مرّ وقت طويل في سوريا كنا نقصد الاستبداد والتسلط والفساد والانحطاط الأخلاقي.. ولكننا لم نكن نجرؤ على تسمية المستبدين الصغار والمستبد الكبير الذي يتربع على قمة هرم الاستبداد، حسب وصف الكواكبي، ولم نكن نجرؤ على تسمية المتسلطين والفاستدين والمنحططين أخلاقياً بأسمائهم. ومن علامات خوفنا أننا كنا، ونحن نعاني من استبداد حافظ الأسد، نضرب مثلاً على الاستبداد بصدام حسين تحديداً، لأنه خصم حافظ الأسد.

ثقافة العبيد

هناك أصوات ومواقف هامشية شهدت المنطقه انبعثت في ظل التغييرات، وقد وجدت لنفسها قنوات مختلفة لإيصال أصواتها، هل يمكن التعويل على هذه الأصوات في ظل غياب الرؤية الواضحة للمستقبل، وأين دور النخبة المثقفة (في حال وجودها) في التأسيس لحضور هذه الأصوات التي تمثل رؤية جديدة لمستقبل المنطقة..؟

الجباعي حسناً إذا كان للأصوات والمواقف الموصوفة بالهامشية، وهو وصف إيجابي، في نظري، قنوات لإيصال أصواتها، فهذا تقدم كبير، ولكنني لا أرى الأمر كذلك. ويحزني موقف النخبة المثقفة السورية، إذا كان من الجائز أن نتحدث بهذه العمومية. فحين أشرت إلى جفاف الحياة الثقافية في

سوريا، كنت أقصد من جملة ما أقصده هزال النخبة المثقفة وتشرها وعجزها عن القيام بالدور الذي يفترض أنه منوط بها، في لحظة تاريخية نادرة (لا نزال فيها)، لعل مرد هذا العجز والتشر وأشياء أخرى من هذا القبيل إلى تبعية الثقافة للسياسة على مدى أكثر من نصف قرن، وتبعية المثقف للسياسي. يبدو أننا محتاجون إلى تحوير قولة كارل ماركس "نقد الدين مدخل إلى نقد السياسة"، لتصبح نقد الثقافة مدخل إلى نقد السياسة. السياسة عندنا حرب، هي منظومة حروب

بالتقييم، لكن ما رأيك بانخفاض صوت النقد لحراك التغيير نفسه، وكيف تصف الانحيازات التي اتخذها البعض في ظل طغيان خطاب الخوف على خطاب التحرر؟

الجباعي هذا سؤال يثير كثيراً من الشجون، وينطوي على التباسات. في الشجون، سألتني في بدايات الثورة السورية صبية، تعرف أنني معارض مرّ: لم لا نراك في المظاهرات والاعتصامات؟ فأجبتها ببساطة، لأنني أعتبر هذه الثورة ثورة عليّ وعلى أبناء جبلي، وليس من حقي وحق أمثالي أن يركبوا موجهاً، فنحن مسؤولون عما وصلت إليه بلادنا من فقر وحرمان واستبداد وطمغيان، ولا سيما من كانوا مثلي منخرطين في أحزاب أيديولوجية معارضة أو موالية، ولا فرق، أو مع فروق ضئيلة، لكي لا ننفي مبدأ الفرق والاختلاف. أحد الفروق الضئيلة أن الأحزاب الموالية تدافع عن سلطة قائمة ومكاسب وامتيازات فعلية، والأحزاب المعارضة تناضل من أجل سلطة ممكنة ومكاسب وامتيازات ممكنة. وكل واحد من هذه الأحزاب ملة ناجية قائمة بذاتها، وله مشروعها الخاص لوطن لا يتسع لغيره، وشعب هو شعبه الخاص، كشعب الله المختار.

أما في الالتباس، فالأمر يتعلق بمن هو المثقف، من جهة، وبالقسمة التي أقامها غرامشي، وصارت سنّة، بين المثقف العضوي والمثقف القابع في برجه العاجي، فضلاً عن المثقف البورجوازي (= الليبرالي).

بالمعنى الواسع للثقافة، جميع الناس مثقفون، على ما بينهم من اختلاف وتفاوت. وبالمعنى الضيق، المثقف هو من ينتج أفكاراً وتصورات جديدة ومعاني وقيماً جديدة، وينقد ما هو سائد ومحفوظ ورث ومتخلف، والمثقفة كذلك. بهذا المعنى الضيق المثقفة هي الفاعلة في الحقل الثقافي والمثقف كذلك. ومن ثمة فإن السؤال يتحول إلى الفاعلية الثقافية شكلاً ومضموناً واتجاهاً وغاية. في سوريا جفاف ثقافي مزمن، منذ تسبّت الثقافة القومية الاشتراكية طيبة الذكر، فأنتجت مثقفة السلطة ومثقف السلطة، سواء كانت السلطة هي السلطة القائمة بالفعل أم السلطة الممكنة، ولو نظرياً. بهذا المعنى الأكثرية العظمى من المثقفات والمثقفين عضويات وعضويون بالمعنى الغرامشي، وبعضهن مخبرات وبعضهم مخبرون، وهذا شكل مبتكر من النضال.

من البديهي، وهذه الحال، أن يكون صوت النقد خفياً وخجولاً، وأن يكون المثقف الناقد منبوذاً، والفكر النقدي مهمشاً، لأننا إزاء عقائد يندرج نقدها

في باب المحرمات ويوصف بالانحراف والتحريف والمهرطقة والزندقة والكفر، ولا سيما نقد الثورة التي رفعت إلى مصاف المقدسات والثوريين الذين رفعوا إلى مصاف القديسين. التقديس عنصر في الشعور، يظل مقبولاً في إطار الرؤية الشعورية والموقف الشعوري، ولكنه غير مقبول في إطار الرؤية النقدية والموقف النقدي. النقد إبداع وشرط من شروط الإبداع، فليس بوسع الكثيرين أن يكونوا نقاداً، إلا إذا اعتبرنا السجلات العقيمة الدائرة اليوم نقداً. النقد غير



ما الفرق بين قراءة تنظيم دولة الخلافة في العراق والشام وممارساته الهمجية، المستندة إليها، وبين فتوى الأزهر، رمز الاعتدال





الوقوف في وجه الخطابات المختلفة التي تقدمها النخبة المثقفة، التي تحتكر المنابر وتمارس عنفاً من نوع ما (رمزيا) على صوت الشارع؟ وهل هناك من حلٍّ لحالة الفصام بين ما تراه النخبة وما يعاينه الشارع في المنطقة وخصوصاً في سوريا؟

الجباعي أفترض أن منظمات المجتمع المدني ومؤسساته ليست خطابية، وليست معنية بالخطابات، التي تقدمها النخبة أو تعتاش عليها، على اختلافها وتعارضها، إنها بالأحرى منظمات وظيفية تتشكل بدواعي الحاجة، بمبادرات مدنية ذاتية، لتقوم بالوظائف الاجتماعية التي لا تقوم بها الدولة أو تقصّر عن القيام بها، بل هي معنية في المستقبل بانتزاع بعض وظائف الدولة، لكي تحول دون تجاوزات السلطة على حريات الأفراد وحقوقهم المدنية والسياسية، وتكون قوة ضغط ورقابة على الحكومات.

في جميع الأحوال، لا تزال ثقافة المجتمع المدني جنينية عندنا، ولا تزال روح المبادرة المدنية ضعيفة، وكذلك الشعور بالمسؤولية، ولا تزال الهوة قائمة بين الحياة الشخصية للأفراد وبين حياتهم النوعية، أي حياتهم الإنسانية، الاجتماعية والسياسية والثقافية العامة، وذلك بسبب هدر مبدأ العمومية، ولا سيما عمومية الدولة، التي غدت في سوريا 'دولة البعث'. وهذا ما يفسر سيطرة السلطة العسكرية-الأمنية سيطرة مطلقة على المجتمع وعلى الحريات الخاصة للأفراد والجماعات، فمن البديهي أن هدر العمومية هو هدر للخصوصية.

هناك منظمات أقامت السلطة والأحزاب السياسية، توصف بأنها منظمات مجتمع مدني، وليست كذلك بالفعل، بل هي استطلاعات سلطوية، لأن السلطات والأحزاب العقائدية لم تعن وليست معنية اليوم بالمجتمع المدني ومسائل الاندماج الاجتماعي، بل لعلها من العقبات التي حالت ولا تزال تحول دون ذلك. هذه المنظمات ضرب من احتيال على المجتمع المدني. وبالمناسبة لم توصف هذه المنظمات بالمدنية إلا في سياق 'ربيع دمشق'، عام 2001، لقطع الطريق على المبادرات المدنية المستقلة.

قطيعة معرفية

يشهد الشارع السوري عدداً من التصورات التي ترتبط بمستقبله وتختلف باختلاف وضعية السوري، فهناك من يعيش في ظل الحرب والقصف، وهناك من يعيش في المناطق الآمنة وهناك من في الخارج، كل التجمعات ترى لنفسها مستقبلاً يختلف عن الآخر هل من طريقة لإيجاد صيغة تجمع كل هذه الرؤى في ظل دولة سورية مدنية ديمقراطية وذلك لاختلاف الظروف التي تمر بها كل فئة؟

الجباعي لعل كثرة التصورات وما تنطوي عليه كل منها من رغبات يعني عدم وجود تصور قابل للتحقيق، وإلا لكان في وضع مختلف عما نحن فيه. كل التصورات مشروعة، من وجهة نظر أصحابها، ما

صغيرة وتافهة، تديرها مصالح خاصة عمياء، لا علاقة لها بتدبير الشأن العام وتقدم المجتمع وإثراء الحياة الإنسانية. والسياسي الأمي غالباً والمتنفخ فساداً وغطرسة هو أستاذ المثقف وولي نعمته. طوبى للأصوات المهمشة التي وجدت لها قنوات إعلامية.

ليس للنخبة السورية المثقفة أي دور مختلف عن الدور الذي تقوم به اليوم، ما لم تستقل الثقافة عن السياسة، والمثقف عن السياسي، وتعود الأمور إلى نصابها حيث يعود المثقف أستاذاً للسياسي، لتحرير السياسة من الجهل، وتحرير الثقافة من الشطارة، ووضع للأيدولوجيا التي التهمت الثقافة، وتعرية المثقف الذي يلعب بالبيضة والحجر، ويقدم خدماته، غير مشكور، لمن هو أدنى منه معرفياً وأخلاقياً. التبعية هي التبعية، سواء كانت لقوى التسلسل المحلية أم لقوى إقليمية ودولية. وظيفة المثقف الحر هي مناهضة التبعية، وهذه اسم آخر للعبودية. العبد، حسب أرسطو، هو من ضعفت روحه وقلت حيلته، فأُتبع نفسه لغيره. يجب أن يفتح في سوريا ملف ثقافة العبيد وأخلاق العبيد.

المنظمات المدنية

هناك آراء ترى أن جهود المؤسسات المدنية في سوريا التي تشهد حرباً ضارية هي جهود عبثية، إذ الشارع مشغول بقوت يومه، إضافة إلى أن التهديدات تستهدف وجوده، ما رأيك بهذا الرأي؟



في جميع الأحوال، لا تزال ثقافة المجتمع المدني جنينية عندنا، ولا تزال روح المبادرة المدنية ضعيفة



الجباعي قد تكون هذه الآراء مغالية قليلاً أو كثيراً، إذ لا غنى عن انتظامات المجتمع المدني وتنظيماته. بل أذهب إلى أن مستقبل سوريا منوط بنمو التنظيمات المدنية، على اختلافها وتعدد وظائفها وأهدافها المحلية والوطنية. فإن خنق المجتمع المدني في سوريا وخنق تنظيماته المستقلة، واختراع 'منظمات شعبية' وتشكيلها بمراسيم فوقية، وجعلها أدوات توتاليتارية علاوة على خنق مؤسسات الدولة وتحويلها إلى إقطاعيات خاصة، من أبرز أسباب الانفجار الربيعي عام 2011. واليوم ليس للشعب السوري من قوة يواجه بها إرهاب السلطة وإرهاب الجماعات الجهادية سوى انتظامات المجتمع المدني وتنظيماته ومؤسساته الرسمية وغير الرسمية، وعمليات الإغاثة الجارية على الأرض تؤكد ذلك.

ولا بد في هذا السياق من تفهم مصاعب الولادة والنمو، وضرورة نقد المنظمات الناشئة لتنصّب جهودها في مشروع إنتاج عقد اجتماعي جديد. لذلك لا أرى أي عبثية في جهودها أو لا جدوى منها، مع الحذر من ارتهاق بعضها كلياً أو جزئياً لقوى سياسية محلية أو خارجية، فإن ما يجعل من هذه المنظمات منظمات مدنية حقاً وفعالاً هو استقلالها وعمومية وظائفها وقيمها الأخلاقية، سواء كانت هذه الوظائف محلية أم وطنية.

منظمات وظيفية

هل مؤسسات المجتمع المدني وما ينضوي تحتها قادرة على



هي قضية المصير، فيغدو السؤال: كيف يدبّر سكان سوريا الجغرافية-السياسية مصيرهم، أو كيف سيشكلون وجودهم الاجتماعي ونظام حياتهم، بصفتهم سوريين، لا بأيّ صفة أخرى، عربية أو إسلامية؟ هذا لا يعني إلغاء العروبة والإسلام أو الكرودة وغيرها، الإلغاء الفعلي، لا الخطاب، ليس بمقدور أحد غير التاريخ. ولكن ثمة إلغاء سياسي للقومية العنصرية والدين، إسلامياً كان الدين أم مسيحياً...، على نحو الإلغاء السياسي للملكية الخاصة في النظام الديمقراطية الحديثة، المستوفية شروط الديمقراطية، كما تصورها كارل ماركس، أي التي يشترع فيها غير المالكين للمالكين، على اعتبار غير المالكين لوسائل الإنتاج هم الأكثرية. المجال الطبيعي للعروبة والإسلام والكرودة والمسيحية.. هو المجتمع المدني وفضاؤه الثقافي، على اعتبارها جميعاً معطيات ثقافية، لا يجوز أن تنتج منها أيّ نتائج سياسية، على صعيد الدولة ومؤسساتها، وإلا فلا مواطنة ولا وطن ولا دولة حديثة ولا ديمقراطية ولا من يحزنون.

مصير السوريين اليوم على المحك، ومن الصعب توقع ما ستكون عليه، في ظل إمعان جميع الأطراف المسلحة في القتل والتدمير والتفجير، ولا فرق في ذلك بين إرهاب النظام السوري وإرهاب داعش، ولا بين النظام السوري وبين داعش، ولو من غير إرهاب، لأن المشترك بينهما أكثر من غير المشترك. عندما تطرح قضية المصير جدياً، ويتوافر نوع من توافق على دولة وطنية فدرالية ديمقراطية يغدو بالإمكان إعادة تكوين النسيج الاجتماعي الوطني، وإن من غير صعوبات، بعضها صعوبات كبيرة، كإعادة الإعمار وإجراءات العدالة والمصالحة، التي لا بد منها، فلا مصالحة دائمة بلا عدالة دائمة.

حدث تاريخي

هل مازال من الممكن التعويل على الربيع العربي بوصفه حالة تغيير تشمل كافة الجوانب أم بالإمكان تجاوز العقبات الظلامية والديكتاتورية، في سبيل استعادة حضور الكلمة الشعبية وإسقاط زيف الأقنعة النخبوية التي تخدم مصالح شخصية أو جهات ومنظمات خارجية تستثني الوجود الشعبي والتاريخي ورغبات قاطني المنطقة وخصوصاً سوريا وما حولها؟

الجباعي أنا من الذين ما زالوا يقولون على الربيع العربي، لأن ما حدث في المنطقة المعنية في هذه الأسئلة، وفي سوريا خاصة، ليس شيئاً عابراً، ليس زوبعة في فئجان، بل حدث زلزالي بجميع المعاني وعلى جميع الأصعدة، وحدث تاريخي بكل ما للكلمة من معنى، وله تداعياته وارتداداته، والثورة المضادة (الظافرة) ستزيد من هذه الاحتمالات، بما في ذلك احتمال انتصار النظام السوري على الشعب. وما زلت أعتقد أن الربيع العربي لا يزال في خلفية الأحداث التي تجري على السطح أو فوق خشبة المسرح. الربيع العربي افتتح مرحلة جديدة طويلة المدى، فلم يعد بوسع الأنظمة المعنية سوى الإمعان في القمع وتصدير أزماتها، لتأجيل الاستحقاقات التاريخية، والقمع أحد عوامل الثورة. ولن تكون أي دولة من دول المنطقة في منجى من ذلك. وقد فرقت من البداية بين الثورة السلمية التي تشد الحرية والحياة الإنسانية الكريمة، وبين الحرب التي تتغيا أطرافها السلطة ومغانمها، واعتبرت الثورة والحرب ظاهرتين مختلفتين لا

دامت تصورات ذاتية ورغبات. لم يصل السوريون بعد إلى نقاش عام حول عقد اجتماعي جديد، ولا تزال القوى الخارجية تحول دون ذلك، وتعمل على إضعاف جميع الأطراف، لتكون طيعة لها وأدوات لتحقيق مصالحها. هذا التشاؤم، لمن يريد أن يصفه كذلك، نابع من غياب المصلحة الوطنية العامة عدة عقود، إذا لم نذهب إلى أبعد من ذلك. مفهوم الوطنية المرادف للعمومية، التي لا تنفي الخصوصيات ولا تلغيها، غائب عن الوعي والثقافة. كل فئة أو جماعة تريد لخاصها أن يكون عاماً. هذا هو الاستبداد، الذي لا يزال في أحضانه، وهو من أبرز أسباب خلافات النخبة. هذه الوضعية تحتاج إلى كسر، وقطيعة معرفية وفكرية وأخلاقية مع الاستبداد. لعل الأصدقاء الروس والإيرانيين أو الأتراك والسعوديين، فضلاً عن الأميركيين والأوروبيين صاروا أدرى بمصلحتنا منا. من المؤكد أن ثمة صيغة يمكن أن تجمع الرؤى المختلفة، يعرفها الجميع، ولكنهم لا يريدونها، أو ليسوا جاهزين لها بعد. يجب أن تكون سوريا لفئة ما، لشخص ما، لا وطناً لسوريين، المطلوب سوريا للأسد أو لأسد آخر أو نمر أو كلب.

المسألة الكردية

كتبت عن المسألة الكردية، كيف تقيم ما يحصل الآن في المنطقة وخصوصاً في ظل آخر الأحداث المرتبطة بكوباني والتحالفات المختلفة ضد الدولة الإسلامية؟

الجباعي المسألة الكردية، بما هي مسألة وطنية، ومسألة حق قانوني وأخلاقي للأكراد في أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم، هي اليوم موضوع تلاعب من قبل النظام والأتراك والإيرانيين، وموضوع غش وتحايل من قبل الأميركيين والأوروبيين، ومسألة كوباني، في أحد جوانبها تعبير عن ذلك. أنا أتطلع إلى سوريا فدرالية، تكون دولة وطنية، بالمعنى الحديث، يتمتع فيها الأكراد والجماعات الإثنية والدينية والمذهبية كافة بحقوق المواطنة المتساوية، ومن حق الأكراد أن يقرروا ما يريدون، ولا يحق لأحد أن يصادر هذا الحق. وبالمناسبة، تعبير الدولة التعددية مراوغ، وتعبير الدولة المدنية ينم عن جهل العلمانيين ومكر الإسلاميين.

قضية مصير

كيف من الممكن إعادة إدخال الخاضعين ضمن الدولة الإسلامية سواء بإرادتهم أو لا في ظل دولة مدنية بعد الوحشية التي يشهدونها في كل يوم؟ أي هل من الممكن تجاوز خطاب التوحش الذي تمارسه دولة الإسلام للوصول إلى خطاب يلائم الفئات الشعبية بعيداً عن تصورات البعض التي ترى أن وجود الدولة الإسلامية مؤقت ولا تتجاوز كونها حدثاً عابراً؟ ومن جانب آخر ماذا عن الشخصية التي طالها عنف النظام بطريقة جنونية هل يمكن لها أن تقبل بوجود النظام بعد الآن، وهل يمكن لها أن تتجاوز الشرخ الطائفي الذي يزرعه والهويات الطائفية التي يكونها..؟ وهل الباقون على الحياد قادرين على الانخراط في ظل الدولة الجديدة في سبيل إعادة تكوين النسيج الاجتماعي في ظل دولة المواطنة والديمقراطية؟

الجباعي هذا حشد من الأسئلة، يمكن جمعه في قضية مركزية



حوار



والديمقراطية واستئصال جذور العنف والقمع؟ أم هل هناك صيغة يمكن من خلالها إعادة هيكليّة المؤسسات التي تغلّغت بها القوة القمعية للتأسيس للدولة الجديدة؟ وهل قدمت سواء المعارضة كأشخاص مستقلّين أو كهيئات رؤية جديدة بعيدة عن النخبوية والبعد عن الواقع وأقرب للمطالب الشعبية؟

الجبايعي الذين يتحدثون عن تفكيك المؤسسات وبناء مؤسسات جديدة، وهو حديث حماقة، لا ينم عن معرفة بما هي الدولة وما هي المؤسسات، ولا ما هو المجتمع المدني وانتظاماته الحرة ومنظّماته المستقلة. هؤلاء عينهم على مؤسستي الجيش والمخابرات، وهما أصل الداء وسبب كل بلاء. فلا أحد من هؤلاء يتحدث عن تفكيك البنك المركزي والنظام المصرفي، مثلاً، أو وزارة التربية أو التعليم العالي أو وزارة الزراعة أو الصناعة.. إلخ، وكلها مؤسسات فاسدة لأن النظام فاسد. فإذا ما كان بالوسع تغيير النظام من نظام خاص بحزب وعائلة إلى نظام عام، أي وطني، تتغير طبيعة المؤسسات وتغدو وظائفها وظائف عامة، بما في ذلك مؤسستا الجيش والمخابرات. على صعيد التطلع الذاتي، أتطلع، على المدى البعيد، إلى دولة ودول بلا جيوش وبلا مخابرات، لأن ثمة تضامناً وظيفياً وسياسياً بين الجيش والمخابرات، ولا سيما في بلادنا، أي إنني أتطلع إلى عالم بلا أسلحة وبلا حروب. هذه يوتوبيا، لا مفر من الاعتراف بذلك، ولكن من حقنا أن نحلم. فإن مجرد وجود جيش هو حضور للحرب أو استحضر لها. لم توجد الجيوش للدفاع، بل للعدوان إما على الآخرين وإما على الشعب، كما هي الحال في سوريا. عبقرية الشعوب كفيّلة باجتراح سبل الدفاع عن نفسها بلا جيوش.

تتعايشان معاً، فما أن تضع الحرب أوزارها، حتى تستعيد الثورة وهجها، فالحرية ليست مطلباً عابراً يسقط بالتقادم. إن اعتبار الحرب الدائرة امتداداً للثورة يهدر القيمة المعرفية والثقافية والأخلاقية للثورة السلمية، وما تعبّر عنه من تحولات غير قابلة للانعكاس، على جميع الصعد، ويخضعها قسراً لنموذج الثورة المستقر في الأذهان، ويخفي أو يريد أن يخفي دور الفئات أو الشرائح الاجتماعية التي نهضت بها والمبادئ والقيم التي وجهتها. فإنّ من أولى ميزات الثورة السلمية أنها غيرت مفهوم الثورة وفصلته عن العنف والحرب، فأهدت لعالم القرن الحادي والعشرين بشارة بإمكانية تغيير قواعد السلطة وقواعد السياسة بما يتناسب وثورة المعرفة، وارتقاء الفكر والعمل، ونموّ الروح الإنسانية، ومهدت الطريق لاستيلاء سلطة المجتمع المدني وتنظيماته الحرة والمستقلة عن السلطة المركزية، وزعزت قواعد المركزية الذكورية ذاتها، فأضافت شيئاً جديداً، بل أشياء جديدة إلى علم السياسة والفلسفة المدنية، يضع حدّاً لمفاهيم السياسة التقليدية، التي لا تزال تحكمها تصورات ماكيافيلية، وقد تكون موضوعاً للفكر السياسي في مستقبل قريب. والأهم من هذا وذاك أنها بشارة بإمكانية وضع حد نهائي للحرب، لأنها هي ذاتها ثورة على الحرب، وعلى السياسة بصفتها حرباً، وعلى السلطة بصفتها حرباً، وعلى الجيوش والمخابرات، بصفتها عيباً، وشيئاً بدأياً متوحشاً، ومرضاً خبيثاً لا تتعافى الجماعة الإنسانية منه إلا بالقضاء عليه باستئصال أسبابه.

حديث حماقة

هل لا بد لنا من تفكيك أجهزة الدولة السورية ومؤسساتها في سبيل بناء مؤسسات جديدة تقوم على أساس خطاب المدينة



كثر اللفظ حولها. هؤلاء الأصدقاء وغيرهم يعرفون رأيي في المعارضة التي أصفها دوماً بالتقليدية، مع أنني عشت في صفوفها منذ شبابي الباكر حتى عام 1996، وقد بينت ذلك بوضوح، في كتابي "طريق إلى الديمقراطية".

حصاد السرديات

هناك شعار رفع في سوريا هو (يا الله مالنا غيرك يا الله، وكأن الشعب السوري قزّر للجوء للغيب حين عجزت القوى المادية عن إنقاذه وتخليصه من مأساته، وكأنهم أيتام لجأوا للدعاء، هل ما زال السوريون على يتمهم؟ وماذا تثير فيك الحقيقة التراجيدية باللجوء إلى الغيب للخلاص في ظل انهيار السرديات الكبرى التي شهدناها العالم؟

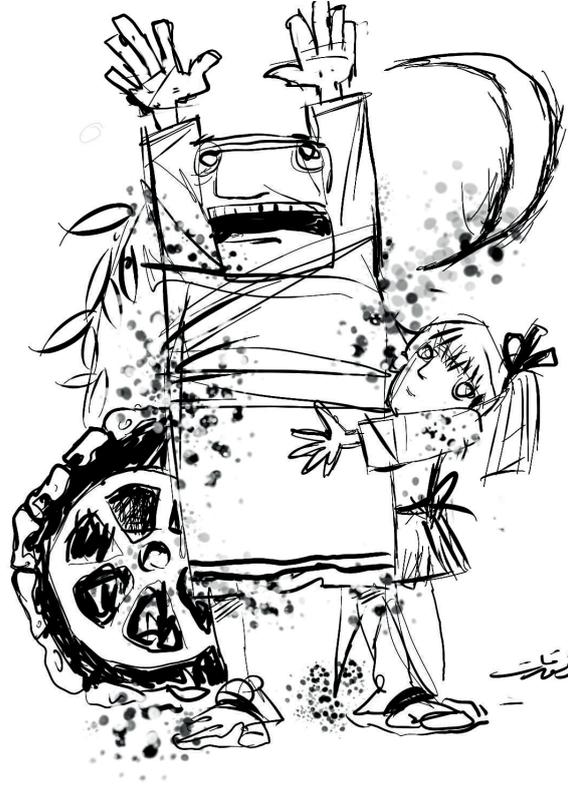
الجباعي نحن، في ما عدا حياتنا البيولوجية، ومتعنا الصغيرة، وخوفنا المقيم، أبناء سرديات كبرى ونصوص مقدسة، نحن أبناء نصوص شكلت وجودنا الاجتماعي والثقافي والسياسي والأخلاقي، وشكلت وجداننا وأجسادنا، وما نشهده من همجية هو حصاد هذه السرديات. لا مستقبل إنسانياً لنا قبل نقدها بمطرقة، كمطرقة نيتشه، وتفكيكها. وشعار "يا الله ما لنا غيرك، ليس تراجيدياً، بل من نوع الكوميديا السوداء، لأنه مما جاء بالرايات السوداء والموت الأسود، (وفق الدلالة التقليدية والعنصرية للسواد). أتساءل: متى كنا لا نلجأ إلى الغيب، والماضي غيب، مثله مثل المستقبل لدى الحالمين، أليست أيديولوجياتنا الكبرى ماضويات ومستقبلات؟ نحن لم تكن يوماً في الحاضر، ولسنا بعد من هذا العصر. هذه مسائل لا تهم المثقف العضوي، أو المناضل الملتزم، أو الكاهن، الذي ينافق الشعب ويتحدث باسمه.

سؤال فخ

هل أنتجت الثورة السورية مفكراً إنسانياً جامعاً، أم أن المصالح والتدخلات كانت تجهض هذه الجهود لنرى الشعب السوري دون أي تمثيل بل يتخطى في ظل صراعات القوى الكبرى دون وجود مفكر أو مفكرين يحملون هم الإنسان؟ إذ تم تجاوز العديد من الأفكار التي أسس لها مثقفو اليسار بسبب تسارع الفعل في الشارع والتطور السريع للأحداث الذي ترك بعض المثقفين في صدمة وجعلهم يتخبطون في مواقفهم (أدونيس مثلاً)؟

الجباعي هذا السؤال فخ، تعمّد خلط مسألتين مختلفتين، الأولى مسألة نتوج المفكر الإنساني، والثانية مسألة تمثيل الشعب السوري. المثقفون المرضى بأنفسهم فقط يظنون أنهم يمثلون الشعب. المثقفون لا يمثلون الشعب إلا رمزياً، وذلك بثقافتهم، لا بأشخاصهم. الذين يمثلون الشعب بأشخاصهم هم من ينتخبهم الشعب انتخاباً صحيحاً. المثقف الذي يجيز لنفسه أن يتحدث باسم الشعب أو باسم الثورة مثقف مريض بمرض الأنبياء والمتنبئين. لست مع الحملة الهوجاء على أدونيس الشاعر والمفكر، ثم على الدكتور صادق جلال العظم، المفكر النبيل، لأن كلتا الحملتين أرادتا تقزيم علمين من أعلام الثقافة السورية إلى مسخين طائفيين ■

أجرى الحوار في دمشق عمار المأمون



المثقف الميت

هل بالإمكان أن نشهد الآن ظهور المثقف العضوي الحامل لهموم الطبقة أم أن انتشار وسائل التواصل الحديثة جعلت لكل فئة، (بل حتى كل فرد، القدرة على إيصال صوتها ورغباتها؟ وهل يمكن التعويل على هذه القنوات الجديدة أم لا بد من استعادة صورة المثقف القادر على إيصال صوته للملا؟

الجباعي لقد بينت رأيي في مقولة المثقف العضوي، وآمل أن نودعه الوداع الأخير، مكللاً بالورد.

الثورة المضادة

ما رأيك في سلوك المعارضة السورية سواء في الداخل أو في الخارج، ففي الداخل نراها عقيمة أو مشلولة، وفي الخارج نراها تسعى وراء الدول الأخرى لنيل الاعتراف والتمويل، هل يمكن التعويل على هذه الأشكال لإقامة سوريا الجديدة؟

الجباعي المعارضة التي تعنيها هي التي أشرت إلى أن الثورة ثورة عليها، ويجب أن تكون كذلك. خلافاتها ومهاراتها صارت مخجلة، وبعثت في النفوس شيئاً كثيراً من الإحباط واليأس. كثيرون من أشخاصها وقادتها أصدقاؤي وجلهم من أبناء جبلي وممن انخرطوا في الأحزاب العقائدية، ومعظمهم لا يزالون على قديمهم، ولهذا السبب يمكن أن يكونوا في عداد الثورة المضادة، موضوعياً، لا ذاتياً، أداؤهم داخل المؤسسات التي أحدثوها أو انتظموا فيها، وهو الأصح، وخارجها أيضاً يوحي بذلك. ولا أشك في أن بعضهم وجد نفسه في وضع مأزقي لا يحسد عليه، فلا هو قادر على المضي إلى الأمام ولا هو قادر على التراجع، وبعضهم استقالوا من هذه المؤسسات التي

جذور المواقف الفارسية المعادية للعرب

تيسير خلف

قد يكون العرب هم الأمة الوحيدة التي تدرس تاريخها لأبنائها كما كتبه أعداؤها القوميون والعقائديون. فالحقبة التي تسمى الجاهلية، وهي تاريخ العرب ما قبل الرسالة المحمدية، والحقبة التي تسمى صدر الإسلام أي سيرة الرسول الكريم والخلافة الراشدة والدولة الأموية، كتبت كلها وصيغت بناء على الصورة التي كرستها مؤلفات المؤرخين والإخباريين الفرس المسلمين القائمة على فكرة التفوق الحضاري الفارسي، مقابل البربرية العربية الموصومة بالبداءة والسلب والنهب.



الحركة الشعبية التي مثلت أقصى درجات التطرف وكلفت سوريا في العامين 749 و750 للميلاد، أكثر من 600 ألف قتيل معظمهم من العرب المسلمين، بحسب المراجع التاريخية المسيحية المعاصرة لتلك الفترة، بالإضافة إلى إقصاء العرب عن دائرة القرار بشكل متعمد استمر إلى فترة الحروب الصليبية.

تدمير السلسلة الحضارية العربية

تتقاطع المعطيات الأثرية التي حددت موعد خراب مدن السلسلة الحضارية العربية في الخليج، مع المعطيات التاريخية التي تحدثت عن انقلاب سياسي في إيران المجاورة، تمثل بسقوط البارثيين وصعود الساسانيين إلى حكم إيران الكبرى في العام 226 م، والمرتبط، بشكل أو بآخر، مع نهاية حكم سلالة هان الملكية الغربية في العام 220 م، هذه النهاية التي كان من نتيجتها انقسام الصين إلى ثلاث ممالك متناحرة، هي مملكة 'شو هان' في الغرب، ومملكة 'واي' في الوسط والشمال، ومملكة 'وو' في الجنوب والجنوب الشرقي، خاضت فيما بينها حروباً أهلية دامت إلى العام 280 ميلادي، تولت بعدها السلطة أسرة 'ألجين' التي أعادت توحيد الصين من جديد. لقد سعى أردشير بن بابك بن ساسان للسيطرة على حكم إيران الكبرى منذ العام 220 م، أي

أما الأسرة البارثية الطورانية فلم يعرف عنها موقف معادي للعرب، أو غير العرب من شعوب المنطقة، نظراً لأنها قامت أساساً على مبدأ اللامركزية والتوافق مع الزعامات المحلية.

وحتى الساسانيون الذين بدأوا حكم سلالتهم بحرب الممالك والمدن التجارية العربية على ساحل الخليج العربي، ثم في فترة لاحقة داخل العمق العراقي والشامي، انطلقوا في حروبهم هذه من أرضية اقتصادية تجارية هدفت إلى تدمير طريق الحرير البحري الذي كان يشكل مصدر دخل مهم للعرب الشام والعراق، وإلى الاستحواذ على نصيب الأسد من عائدات طريق الحرير البري، الذي كان ينطلق من مدينة تشانغان (شيان اليوم) في الصين ويصل إلى وسط وغرب آسيا قبل عبوره إلى أوروبا.

ومع أن شعباً آخر قوض نفوذ الساسانيين في أواسط آسيا في القرن السادس الميلادي، وانتزع منهم أجزاء كبيرة من طريق الحرير البري، والمقصود هنا شعب الخزر الطوراني، إلا أن المؤرخين المسلمين ذوي الأصول الفارسية، صوّبوا جام غضهم في فترة لاحقة، على الجنس العربي في بداية التدوين في العصر العباسي، مستندين إلى نزعة قومية موابية للأسرة الساسانية، قادت إلى ظهور

ما سلف هو الصورة التي انعكست في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في مؤلفات المستشرقين الغربيين ولا تزال مستمرة لدى الكثير من الأوساط البحثية في الغرب، بالإضافة إلى تعميم الرؤية العباسية-الفارسية لحقيقة الصراع على السلطة منذ حادثة سقيفة بني ساعدة وصولاً إلى سقوط الحكم الأموي في الشام، وهي الرؤية التي تبناها المؤرخون اللاحقون، في العصرين الأيوبي والمملوكي، وهي عموماً رؤية تتفق بشكل أساسي مع الأيديولوجيا الشيعية حول تلك العصور، ولا مجال هناك للحديث عن أوجه الائتلاف والاختلاف بين الرؤيتين الشيعية والعباسية من هذه المرحلة لعدم تشتت القارئ.

جذور النزعات الفارسية

من الناحية العلمية، لا يمكن إعادة جذور الاستراتيجيات الفارسية المعادية للعرب إلى الفترة السابقة للأسرة الساسانية التي بدأ حكمها في الربع الأول من القرن الثالث الميلادي (حوالي 226 ميلادي)، فالعلاقات بين الأسرة الإخمينية، أول سلالة فارسية حاكمة في المنطقة، والعرب كانت على خير ما يرام في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، بحسب مؤرخ اليونان الشهير هيرودوت.

وجعله خياراً وحيداً نحو الغرب، وانفراد أسرة من الأسر الصينية الثلاث بهذه التجارة وتحويلها إلى الطريق البري فقط، نظراً لعدم قدرتها السيطرة على الطريق البحري. فبعد أن قام أردشير الأول بتأسيس قاعدة ملكه في إصطخر (بيرسيس)، توسعت أراضي مملكته بسرعة، ودان له أمراء المقاطعات الفارسية بالولاء، وخلال سنوات تُوج في طيسفون كحاكم وحيد لبلاد فارس، وأخذ لنفسه لقب (شاهنشاه) أو (ملك الملوك). وتشير الوثائق الصينية إلى توطيد علاقات الساسانيين مع السلالات الصينية المتتالية، بعد إغلاق طريق الحرير البحري، تلك السلالات التي كان يهمها عودة الحياة إلى طريق الحرير البري، والذي ضمنه الساسانيون وعملوا على تأمينه قدر ما استطاعوا إلى ذلك من قوة.

وقد ورد في الوثائق الصينية القديمة تقرير عن ثلاثة عشر سفيراً تجارياً ساسانياً جاؤوا إلى الصين. وأشارت الوثائق أيضاً، إلى أن النشاطات التجارية بين الساسانيين والصين شهدت نشاطاً ملحوظاً منذ عهد أردشير وابنه شابور الأول، حيث نشط طريق الحرير عبر المقاطعات الإيرانية الشمالية مع سلالة شو

هان، وبعدها سلالة ألجين. كما أرسل الملوك الساسانيون في مناسبات مختلفة أكثر الراقصين والموسيقيين الفرس موهبة إلى الإمبراطورية الصينية في فترة حكم ليو يانغ في عصر سلالة ألجين (265 م - 420 م، وسلالة وي الشمالية، وسلالة تشانجان، وسلالة تانغ وغيرها).

ويبدو أن السلالات الحاكمة في الإمبراطوريات الصينية، وكذلك الإمبراطورية الساسانية، استفادت على حد سواء من التجارة على طول طريق الحرير عبر آسيا الوسطى. وقد جمعتهم المصلحة المشتركة في صون وحماية تلك التجارة، فتعاونوا معاً في حراسة طريق الحرير البري، وحفروا الآبار في مناطق الحدود الآمنة لإبقاء القوافل بعيدة من قطاع الطرق وقبائل الترك الرحل.

وبذل الساسانيون والصينيون جهوداً عديدة لعقد التحالفات بينهما ضد العدو المشترك الـهفتاليون، وهم قبائل الهون البيض، وفي الوقت الذي نمت فيه قوة إحدى القبائل التركية (كوكتلر) في آسيا الوسطى، تعاون الصينيون والساسانيون في محاربة هذه



وكرخ ميسان في شمالي الخليج العربي قرب موقع المحمرة الحالية، فهذه المدن انتهت عملياً بتدميرها على يد قوات أردشير في فترة تتراوح بين عامي 226 و236 للميلاد، فيما واصلت تدمر، في عمق البادية السورية، ودورا وأوروبس، على شاطئ الفرات، والحضر، جنوبي غربي الموصل، الحياة بقوة خطوط تجارية أخرى، بعيداً عن الحرير وعوائده العالية، ولكن، ومهما تعددت الأسباب، يبدو أن التاريخ لا يرحم، وكان لا بد من نهاية هذه المدن في عهد ابن أردشير وخليفته شابور الأول في أربعينات القرن الثالث الميلادي، والذي رسم بهجماته المدمرة، المقترنة بالحرق، نهاية سوداء لحقبة ذهبية نادرة في تاريخ العرب الشماليين.

طريق الحرير البري

لا نعرف الآن بالضبط ماذا حل بشبكة طرق الحرير بعد نهاية أسرة هان الغربية، ولكن الوقائع تشير إلى تدمير طريق الحرير البحري العابر للخليج العربي على يد الملك أردشير الساساني، مقابل تعزيز طريق الحرير البري

في العام نفسه الذي سقطت فيه أسرة هان الغربية، ولم يبلغ غايته الأخيرة إلا في العام 226 م، أي أنه خاص حرباً طويلة ضد البارثيين استمرت ست سنوات، استخلص خلالها السلطة بشكل متدرج ومدينة مدينة، وذلك نتيجة طبيعة السلطة البارثية المعتمدة بشكل رئيس على قوة الزعامات المحلية والإقليمية. وكان من نتائج ضعف البارثيين وفقدانهم عائدات شبكة طرق الحرير التي تمر في أراضيهم؛ أن انفضت تلك الزعامات المحلية عنهم مرجحة بزعيم جديد ينتمي إلى سلالة دينية عريقة، ويحمل مشروعاً مركزياً لعموم إيران، وربما وعوداً بإعادة فتح طريق الحرير.

لا بد أن هذه التواريخ والمعطيات تعني أن المشرق العربي دخل عصراً جديداً من العلاقات الدولية، من أبرز ملامحها نهاية السلسلة الحضارية التجارية العربية - الآرامية في الخليج العربي وحوض الفرات، وفي سياقها نهاية مدن مثل مليحة في إمارة الشارقة الحالية والجدهاء (الزارة في القطيف، شرقي المملكة العربية السعودية الحالية،



الإمبراطورية الولىدة التي كانت تعتبر خطراً مشتركاً عليهما.

وكما أثبتت وقائع التاريخ، أن الصينيين لم يكونوا يهتمون لمصير طريق هنا أو مدينة هناك، بقدر اهتمامهم بانسياب الحرير إلى مختلف أسواقه في الشرق والغرب، وتأمين العائدات المطلوبة لتمويل إمبراطوريتهم مترامية الأطراف.

ويعطينا المسار الدراماتيكي لصعود وأفول مدن السلسلة التجارية العربية في العصر الهلنستي، عبرة حول دور التجارة في صناعة التاريخ، وهو دور تغفله، في كثير من الأحيان، الدراسات التي تحاول مقارنة العلاقات الدولية في العصور القديمة، والتي تسعى لتأكيد مبدأ القوة بمعزل عن حواملها الاقتصادية والمالية.

المصادر العباسية

وهنا، لا بد من تناول المصادر التاريخية الإسلامية، ذات المرجعيات الساسانية، التي جبرت التاريخ لصالح وجهة نظر أيديولوجية شعبية نشأت بعد الإسلام، فحوّرت أخبار هجوم أدرشير على الساحل الغربي للخليج العربي، عازية السبب إلى عصيان العرب لأوامره، وليس لأنه أراد تقديم أوراق اعتماد لإحدى الأسر الصينية التي تسيطر على إنتاج الحرير!

هكذا، نقرأ في شاهنامه الفردوسي التي جمعت في العصر العباسي الأوسط، قصة عن متمرد فارسي يدعى هافت واد تحالف مع العرب ضد أدرشير فما كان من الأخير إلا أن عبر البحر بعد أن قضى على هافت واد، وأخضع العرب في البحرين والساحل المجاور.

ويذكر الطبري، الذي يعتمد على مصادر تاريخية منحازة لبني ساسان، منها كتاب خدينامة أو سير ملوك الفرس، أو كتاب التاج في سيرة أنوشروان، أن عدداً كبيراً من ملوك العرب ورؤساء الحجاز تركوا بلادهم وسكنوا البحرين ومدن الخليج أمثال الحجر والحسا وسبع أو ثمان غيرها في عهد الملوك البارثيين (الإشكانيين)، وكانت الحجر، حسب قوله، المدينة الأهم في مدن البحرين، فأجلوا أهلها الأنباط واحتلوا مكانهم. والأنباط في عرف المؤرخين المسلمين تشمل جميع الآراميين. ومن هنا نشأ حلف التنوخ الذي انطلق نحو جنوب العراق، حسب قوله.

ويضيف الطبري أن أدرشير، الذي هاجم مدن الخليج، بنى في البحرين مدينة أطلق عليها اسم تبن أدرشير، بناها على جثث أهلها لأنهم فارقوا طاعته وعصوا أمره، فبنى ساقاً من السور لئلاً وساقاً آخر من الجثث، ولذلك سماها تبن أدرشير.

ويزودنا حمزة الأصفهاني، كعادته، بقوائم المدن والموانئ التي أنشأها أدرشير في الخليج والتي بلغت حسب زعمه 11 مدينة و8 موانئ.

ومثل هذه الأخبار والقوائم التي اعتاد حمزة الأصفهاني على تشيبتها في مؤلفاته، لا يعول عليها، وثبت أن الكثير منها محض أوهام. ولم تعثر حتى هذه اللحظة أي من البعثات الأثرية على أي مدينة من هذه المدن المزعومة.

ومن هنا، فلا يمكن تفسير هذه المبالغ التي لجأ إليها المؤرخون المسلمون من أصول فارسية الموالون للأسرة الساسانية، إلا بالصراع العربي الفارسي أثناء الخلافة العباسية، والذي ولد ظاهرة الشعوبية لدى الكثير من مثقفي الفرس المسلمين، والذين دأبوا على الانتقاص من شأن العرب؛ مقابل إعلاء شأن ملوك بني ساسان، مسقطين مواقفهم اللحظية على التاريخ، ومحاولين إثبات وجهة نظرهم بالتفوق الفارسي من خلال تأصيله وجعله صراعاً قديماً بين الحضارة الفارسية والبربرية العربية، حتى وصل الأمر بمؤلف الشاهنامه الفردوسي في عصر لاحق إلى نسبة الشخصية الأكثر شراً في الملحمة وهي أزدهاك (الضحاك) إلى الجنس العربي.

وقد تنبه الجاحظ إلى الخلل العلمي الكبير في النصوص الفارسية التي يُعتمد عليها في تدوين التواريخ والأخبار الفارسية التي قال عنها في الجزء الثالث من كتابه البيان والتبيين، إنه لا يعلم إن كانت صحيحة غير مصنوعة أو قديمة غير موكدة، إذ كان ابن المقفع وسهل بن هارون وأبو عبيدالله وعبد الحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير.

درس من التاريخ

لا شك في أن المصادر الرومانية التي تحدثت عن كثافة في عدد القبائل العربية في منطقة الخليج خلال الحقبين الهلنستية والرومانية، ومنها قبيلة نوخيتي (ربما تنوخ)، كانت تشير إلى نظام دقيق في حماية طرق القوافل

المتعددة التي كانت تعبر المنطقة، ودليل ذلك أن تلك المصادر لم تشر إلى أن القبائل المذكورة كانت تمارس السطو أو النهب، عكس المصادر الإسلامية ذات الأصول الفارسية، التي تفننت في إبراز بداوة العرب وبربريتهم، مقابل حضارة الفرس ومدنيتهم.

والملاحظ أن الرواية العربية التقليدية حول حلف التنوخ وتوجهه إلى العراق وبادية الشام، تتزامن مع تدمير حواضر الخليج، ومنها مليحة وميناء الدور، وهي هجرة اضطرت القبائل العربية لها بسبب انقطاع سبل الرزق، وليس لأي سبب آخر. وكان من نتيجة ذلك أن الكثير من هذه القبائل انخرط في الجيوش الرومانية والساسانية، وتحول خلال القرون التالية إلى قوة عسكرية لا يستهان بها، عبرت عنها كتابات مؤرخي العصر البيزنطي كأمياني مارسليوني ومالاس وبروكوبيوس وغيرهم، والذين رصدوا في كتاباتهم الفساسة والمناذرة كقوتين تقاتلان بالنيابة عن روما وطيسيفون (المدائن)، وترجحان كفة هذه القوة أو تلك.

هذه الحروب وما جرّته من كوارث على بلاد العرب كانت من الأسباب الحاسمة في ظهور الدعوة الإسلامية وانتصارها الالاف خلال عقدين من الزمن. فالعرب الذين دمرت مدنهم على يد الساسانيين لم يكونوا يملكون جيوشاً للدفاع عن أنفسهم، ولكنهم وبدءاً من أواسط القرن الثالث الميلادي انتبهوا إلى هذه الثغرة وتحولوا خلال القرون اللاحقة إلى قوة عسكرية أساسية في عموم المنطقة. والانتصارات العسكرية التي حققها العرب في فترة الفتوح الإسلامية هي خلاصة هذه الخبرة العسكرية لعرب الشام والعراق الذين اعتنق بعضهم الإسلام واحتفظ البعض الآخر بدينه المسيحي ولكنه ساهم في هذه الحروب لصالح بني قومه ضد الساسانيين والبيزنطيين، وهذه الحروب والفتوحات هي التي أدت إلى ظهور حركة التسوية الفارسية في العصر الأموي، ثم الشعوبية في العصر العباسي، والتي كانت تزعم بأن العرب قبائل والفرس شعوب وأن الله قدم الشعوب على القبائل حتى في النص القرآني ■

كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات



بورتريه



سليمان فياض

2015 - 1929

بريشة: جمال الجراح

لماذا لم نستلهم تراث بابل

باسم فرات

سؤال طالما تردد على الألسن: لماذا لم نستلهم تراث بابل؟ وهو سؤال حقّ ولكن معظم من تصدّى للجواب كان يبتعد عن الدقة والصواب؛ وعليه سأستعرض طبيعة الأجوبة ومدى معرفة مطلقها بالتاريخ، وكيف أنها أجوبة تُطلق بلا شعور بالمسؤولية، ثم أجيب على السؤال، موضحاً رأيي في الأمر. أبدأ القول إن الحديث في التاريخ سماعياً هو أحد الآفات، وأعني بالسماعي ما نسمعه ولا نمحّصه ونعود للكتب بحثاً عن الحقيقة قبل أن ننقل المعلومة ونشيعها لتترسّخ "حقيقة" عند متلقيها لا يمكن نقضها.



ومن بإمكانه التحدث بعلمية عن حضارة عربية سبقت الإسلام كانت على نهري دجلة والفرات من منابهما وحتى مصبهما وعلى أنهار بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط ودلتا النيل، ولا يُتهم بالعنصرية العربية والقومية، بينما بإمكان متطرفي الأقليات الحديث في كل شيء مهما كان عنصرياً مسيئاً للعرب وللإسلام بلا حذر.

تتعرض الشعوب لمسح ومسح الكثير من تراثها وثقافتها حين تنوء تحت احتلالات متنافرة متصارعة همها تحويل الشعب إلى عمالة كادحة أقرب للعبيد لتنتفخ خزائن الغزاة، وأطول فترة مرت على الشعب العراقي كانت تحت الهيمنة الفارسية والتي ابتدأت منذ لحظة سقوط بابل 539 ق.م. حتى الفتح الإسلامي، باستثناء فترة الهيمنة اليونانية والتي فرضت لغتها وثقافتها، ثم ذابت في النسيج العراقي، لكن الهيمنة الفارسية لم تكن تحمل معها ثقافة كما الإغريق، وعليه وجدت في العراق خزينة تدرّ عليها ما يشبع جشع السلطات ونهم الجيوش وإدامة الحروب.

حين نتحدث عن الثقافة اليونانية، فنحن نستحضر عشرات الأسماء التي كتبت بهذه

يكتب ويحدثك عن الدين والحلال والحرام وإلخ من خلال إمام الجامع أو قراء المنابر الذين لا تزيد معلوماتهم كثيراً على مستوى الأميين الذين يفتون لهم؛ فهؤلاء أعني من تصدى للأمم، تلقوا معلوماتهم من المسؤول الحزبي أو من مؤدلج ينتمي للأقليات لا يعرف حديثه المحبة وإنما يعتقد أن الإساءة للعرب والإسلام وتضخيم افتراءاته عليهما يحقق له أوامره التي يظنها حقاً مشروعة، مُقلداً السردية الصهيونية فيما يخص المظلومية التاريخية والتي جعلت الإنسان الغربي يشعر بعقدة الذنب أمام اليهود.

شخصياً أرى أن الأقليات في العراق والعالم العربي نجحت في منع المثقفين العرب من نشر ما توصلوا إليه من خلال حفريات التاريخ والتي تقول عكس أوامهم ولا أقول حقوقهم المشروعة في الحفاظ على خصوصيتهم وواجبنا الاعتزاز بها. فمن يستطيع الآن في العراق على الأقل أن ينشر بحثاً عن أكاذيب الأقليات وأوامهم وعن حسن المعاملة العربية لهم عبر التاريخ قياساً بمعاملة الفرس والأترك والإنكليز والفرنسيين والأسبان والبرتغاليين للأقليات؛

الأفة الثانية هو تناقل ما ذكر على لسان الأولين أو ما ذكرته كتب التاريخ من تمجيد لأمة والإساءة لأمة أخرى، وأقرب مثالين لدينا هو تمجيد الفرس أصحاب الحضارة العظيمة والإساءة للعرب البدو سكان الصحراء؛ والتأكيد دائماً على اقتران الفرس بالحضارة والمدنية والعرب بالبداءة والهمجية، الإطناب في مدح الفرس والإطناب في ذم العرب أيضاً، ناهيك عن أن جميع الفئات أصبحت أكثر رُقياً من العرب في الوعي الجمعي، وأصبح الحديث بعقلانية وعلمية عن هذه الأقوام يُعدّ عنصرية عربية قومية، كما يحلو للقوميين العنصريين غير العرب أن يصموا كل متحدث بإيجابية وعلمية عن العرب؛ وكان لإدخال الشائعات في الدين الطريق السالكة التي مهدت لاستقالة العقل الجمعي في المنطقة وسواها، مما جعل التحريم وربما التكفير يلحق بمن تؤدي حفرياته لنقض هذه الآفات والشائعات والأكاذيب.

الأفة الثالثة، وهي الثالثة الأثافي أن معظم من تصدى للحديث عن العراق والعرب والإسلام وحقوق الأقليات كانت معرفتهم لا تتعدى معرفة فلاح بسيط أو بائع فقير لا يقرأ ولا



الورود، أليس انتفاء ثقافة اقتناء الورود عند العراقيين بعد الاحتلال المغولي والتتري دليلاً على ما نذهب إليه، وهي أن القطيعة سببها الغزاة والطغاة وليس ادعاء أن العراق كان يخلو من العرب وفجأة دخلوه من أسطورة اسمها صحراؤهم ليفرضوا ثقافتهم البدوية. ثقافة الندرة التي تعني الخشونة. من هنا نرى أن طول فترة الهيمنة الفارسية وحروب الفرس والروم أدت إلى ضياع تراث بابل وعدم مقدرة عرب العراق رغم عراقية تواجدهم في منطقة الهلال الخصيب على تمثيل هذا التراث بما يستحق وهم الأجدد بتمثله باعتبارهم الوارثين الأكثر أصالة. لكن لا يخفى أن تراثنا البابلي لم يذهب أدراج الرياح تمامًا، فثمة ما يؤكد وجود هذا التراث ولو بنسبة بسيطة ابتداء من المطبخ العراقي حيث كشفت ألواح طبخ الملك حمورابي أننا مازلنا نتناول بشهية عالية وصفاته في إعداد المائدة العراقية، وليس انتهاء بتلك الخيوط التي تربط عاداتنا وتقاليدنا والتي نجدها بطريقة أو بأخرى لو قرأنا كتبًا مثل الحياة اليومية في بابل وآشور، وعقائد ما بعد الموت عند العراقيين القدماء ■
شاعر من العراق مقبم في اليابان

بيوت المؤلفين ومدنهم وتلامذتهم وقصور حُكّام المناطق التي عاش فيها هؤلاء الأدباء الذين لم يُسَعَف الحظ من أطلق كذبة حرق العرب لمليوئي كتاب أن يذكر لنا أسماء ولو عُشْرهم؛ بل لم نعثر حتى على نقوش كثيرة باللغة الفارسية، بينما ما عثرنا عليه من نقوش عربية في العراق وسوريا وبقية منطقة الهلال الخصيب والحجاز واليمن ومناطق أخرى هو عدد يُعَدُّ بالآلاف والتي من خلال قراءتها اتضحت حقائق كثيرة عن حضارة عربية وإن لم تبلغ مقدار ما وصلت إليه بعض الشعوب وما أصبح عليه العرب في الكوفة والبصرة ودمشق وبغداد والقاهرة، لكنها كانت القاعدة التي بُنيت عليها الحضارة العربية الإسلامية، وفي ذات الوقت تنفي الجهل والبدواة عن العرب. سيبقى مثال الورود وما كانت تدّرّه تجارتها على خزينة بغداد في العصر العباسي، دليلاً ليس على رِقّة العراقيين وتبغدهم، بل على أن الحروب والاحتلالات والطغيان تفعل فعلها في شعب لتحوّله من شعبٍ أسّس لثقافة اقتناء الورود وتقديمها إلى شعبٍ صار يرى في تقديم المال أو الفواكه والحلويات في المناسبات أكثر قيمة من

اللغة وتراثها مازال ماثلاً أمامنا مُترجماً لعدد اللغات العالمية، ومثلما أضع الزمن تراث الكثير من الشعراء والأدباء الذين كتبوا بالعربية ولكن تراجم ومعاجم الأدباء ذكرتهم من خلال الإشارة إليهم، كذلك ذكر التاريخ لنا أسماء كتبت باليونانية ولم يصل نتاجها، لكن ما حدث مع الفرس هو أننا نقرأ عن حضارة فارسية عظيمة وعن حرق العرب لمكتبة الرّي التي تضم مليوني كتاب، ولكن لا نعثر على شاعر واحد قبل أبي القاسم الفردوسي المتوفى سنة 1020 ميلادية، ووصلنا كتابه الشهير الشاهنامه؛ أي بعد أن أنجز العرب منظومة ثقافية حضارية ثرية للغاية أضحت تراثاً لو اتفقنا على أن التراث هو كل ما كان عمره يزيد على مئتي سنة، أي المنجز الذي سبق عام 820 أو 800 ميلادية. من المعروف أن الألواح الطينية في مكتبة آشور بانبيال، لها ما يماثلها في أماكن أخرى ولكنها متفرقة، بينما مكتبة آشور بانبيال فيها الألواح مجتمعة، فكيف يتم حرق مليوني كتاب في مكان واحد، ولم نعثر على أيّ كتاب في عموم المنطقة بل العالم؟ إن مليوني كتاب تعني بلا أدنى شك أن عددًا مماثلاً على الأقل موزّع في أماكن أخرى منها

يوم ونيف في يبرود

اليوم 8-3-2012 رأيت الخطر جهازًا وكنت في مواجهة الموت

دفتر يوميات

عاصم الباشا

يصحح بها كارلوس غارديل. علمت أن الإنترنت عن طريق الأقمار ما زال يعمل على الرغم من قطع الهواتف فكتبت لنيكول، وعدتها، قبل وصولها المحتمل بساعة، ثم زرت بيت أخي نيمير الكائن تحت بيت الوالدة. زوجة أخي من المطلوبين من قبل الأمن، يعتبرونها ناشطة لأنها تتظاهر! ثم عدت إلى مشغلي.

اليوم خرجت في العاشرة على الرغم من سماعي قذائف الدبابات وبعض رشقات الرصاص. كانت السيارات المتحركة في المدينة شحيحة، المحلات مغلقة والمجموعات المترقبة موزعة.

ما إن وصلت بيت الوالدة استقبلتني دراجة نارية تحترق وواجهتني دبابة وحوالي خمسين عنصرًا، علمنا فيما بعد أنهم كانوا من الفرقة الثالثة (جيش) وقوى أمن مختلفة وشبيحة بأزياء عشوائية. كان تمرکزهم أمام بيت الوالدة. لاحظت كذلك سيارتي إسعاف تابعتين للهلل الأحمر السوري، علمت فيما بعد أن مهمتهما كانت نقل الشبيحة؛ وثمة باص أخضر كبير كتب عليه: 'سوريّة للأسد أو نحرق البلد'.

تبين أنني وصلت لحظة مدهمة بيت والدتي وأخي. أخي نيمير محاصر بخمسة عناصر وقائد بلا رتب لم أجد فيه ما يذكرني بالبشر سألتني: من أنت؟ أجبت: شقيقه. هويتك.. صرخ. أعطيتها فعلق قبل أن يطلع عليها: تمشي معنا! قلت: لا مانع.

الغريب أنني لم أشعر بأي اضطراب، ها هم يعتقلوني وأنا أتفحص المشهد. جلبه تأتي من الداخل وعناصر تدخل وأخرى تخرج حاملة ما ارتأوا سرقة بمنتهى الصفاقة. طلب 'شبه البشر' من أخي هاتفه المحمول ولما وجده من النوع الغالي (أخي ميسور) خبأه في جيب سترته. شعرت بمثانتي ممتلئة، ذلك لأنني كنت قد شربت زجاجة بيرة، فسألت: هل بمقدوري التبول قبل الذهاب معكم؟ قال بجفاف من يظن نفسه الأعلى: لا، تبول على حالك. وعاد ينشغل بأخي. سأله أين سيارتك؟ أشار أخي نحوها. المفاتيح، بسرعة، عوى 'شبه البشر' (وسرقوها بالطبع). بالمناسبة، لم أسمع صوتًا إلا وحمل لهجة الطائفة إيّاه، كنت أرمقه بنظرة النحات، تلك التي يبدو أنها تحرمش، إذ وجدته يأمر عنصرًا: رافقه ليبول. مضيت إلى داخل البيت يتبعني العنصر مصوبًا الكلاشنيكوف إلى ظهري. العناصر يعيثون في غرفتين

بالأمس ودعت زوجي نيكول في مطار دمشق في السادسة صباحًا عائدة إلى مدريد، كنا قد نجحنا في مغادرة يبرود مع بدء اجتياح الدبابات لها، أي بعد انفجار القذيفة الرابعة. لم نهرب، فعلنا كي لا تضيع فرصة عودتها، وقد فاجأني برياطة جأشها، تصرّفت وكأن قذائف الدبابات ولعلة الرصاص من كل جانب أمر اعتادته. قيل لنا فيما بعد إنهم منعوا كل خروج أو دخول إلى المدينة بعد اجتيازنا حاجزي العسكر والشبيحة بربع ساعة.

ودعتها وانطلقت عائدًا إلى يبرود. لم أصادف عائقًا لوصولي إلى 'عين العصافير' حيث مشغلي. في الساعة والنصف صباحًا كانت الشمس دافئة، فقلت لنفسي، عملاً بالتقليد الروسي بعد سهرة عامرة مع أصدقاء وليلة قضيتها بلا نوم، اشرب كأسًا من البيرة قبل أن تزور أمك. ما إن تجرّعت رشفتي الأولى حتى ارتجّ الوادي بانفجار القذيفة الأولى، جاءت الإصابة على تاج صخري يعلو مكمني بحوالي المئتي متر. كان الانفجار مريبًا بالفعل، ربما لقربه، ثم تبعه انفجاران آخران في الموقع نفسه. بقيت في مكاني أرقب الجبل علني أرى حركة ما أو سبطانات الدبابات تطل. لم أر شيئًا. ثم توالى القذائف على الجبل المشرف على المشغل. قلت لنفسي: لحسن الحظ أن راعي الماعز الذي يشاركني السطح لم يخرج اليوم بقطيعه. ذلك الراعي طريف: صاح بي من الأعالي يومًا ليقول لي إنني محظوظ لأنني أعيش في عزلة عن الناس! لأنه يعيش في زحام قطيعه!.. مسكين، لا يعرف، أو ربما يعرف، أن ذلك أرحم.

ترافق قصف الدبابات برشق للرشاشات من النوع الثقيل. ما إن هدأت الأمور ذهب بالسيارة إلى بيت الوالدة في الطرف الآخر من المدينة. كانت يبرود أشبه بمدينة أشباح، إلا أن ثمة مجموعات من الناس هنا وهناك تتربّع وترمق كل ما يبعين تريد أن تعرف.

الأرجنتينية العجوز

التقيت والدتي الأرجنتينية العجوز، تلك التي أورتنتني قدرة الحضور الغائب وتقضي عامها الخامس والثمانين وهي تسمع أغاني التانغو





وآخرون يأكلون في المطبخ ما تسنى بيدهم أنهم جوعى. فكرت. باب الصالة التي تكون فيها الوالدة عادة مغلق رحى أبول والسلاح مصوب إلى ظهري. وكأني سأستخدم عضوي المتهاك سلاحاً! خطر لي.

رشق الجبل

الحقيقة أن الهلع والقلق كان بيئاً على سيماء كل من صادفت منهم (تعرضوا لبعض الكمائن سابقاً في يبرود ونواحيها). خرجنا وقادني باتجاه الباص حيث كانوا قد أدخلوا شقيقي. قبل أن نصل ظهر عنصر يحمل هويتي ويقول: هذا العاصم أتركوه! يبدو أن اسمي ليس في القائمة بعد.

أعادوا لي هويتي (أقصد البطاقة اللدائنية، هويتي لا يمتلكها غيري قط).

أطلق رشاش ثقيل مرغّب على بيك أب رشقات باتجاه الجبل.. من قبيل الوداع. ثم تحرك الفيل المعدني ذو الخرطوم المتينس وتبعته بقية آليات الحيوانات الأخرى ناقلين معهم إلى المجهول أناساً.. بينهم أخي.

دخلت أتفقد أمي، وجدتها مستلقية، في عينيها المنفرجتين كل تساؤلات العالم، لكنني لم ألاحظ أثراً للخوف ما. لم تدر أنهم اعتقلوا ابنها. قلنا لها بعد أيام إنه سافر إلى الإمارات.

عندكم آثار!

تفحصت الخراب الذي أحدثوه فيما يسقونه تفتيش عن الأسلحة؛ اكتشفت أنهم سرقوا كمبيوتر المحمول الخاص، وكمبيوتر الدار، وأشياء أخرى. أذكر كيف لوح قرد قصير بوجهي، وأنا ذاهب للتبول، بتمثال نصفي صغير حاول صانعه (همام السيد) تمثيل الماغوط (دون أن يوفق تماماً) وأهداني إياه: وعندكم آثار؟! وذهب به وكأنه يحمل كنزاً. سعدت لأنني لا أحفظ في بيت أهلي وإخوتي أعمالاً لي، لأنهم يقدروني لكنهم لا يتفهمون ما أصنع.

زوجة أخي تبكي، أخي شادي المكتئب يتحرك كالتائه. حاولت إعلام زوجتي بالأمر مستخدماً حاسوب ابن أخي، لكنني لم أفصح، فقررت التوجه إلى المشغل، أقلقني فكرة أن يصلوا قبلي.

كان هذا سماعي للخطر جهراً. كان في السيارة بضع عبوات للبيرة فارغة

أطلت المرأة مرة أخرى واقترحت عليّ أن أخرج من الزقاق بمحاذاة الجدار وأن أدلف على زقاق تال إلى اليمين حيث باب آل سركييس مفتوح دوماً.

فعلت، بالقدر الممكن من الطبيعية، التفت إلى المكان الذي كان فيه العسكر فلم أر أحداً (يبدو أنهم تحركوا نحو أسفل السوق). ما إن دلفت الزقاق القصير (حوالي 40 متراً) فوجئت بباص أبيض للشبيحة طلي رقمه بالأبيض ينتظر راكبيه، فالمحرك يعمل والسائق في مكانه. رأيت باباً حديدياً موارباً فدفعته لأجد سلقاً طويلاً جداً. جلست على الدرجة الثالثة بعد أن أطبقت الباب دون أن أغلقه (لعطل فيه). ربما دام الأمر دقائق عشر، ثم راودني: وماذا لو خطر للشبيحة العودة إلى الباص متفقدين كل الأبواب؟ أقصد اللبظ بالطبع، لأنه من طباعهم. وبابي سينفتح ليروا طلعتي البهية.

صعدت إلى أعلى الدرج وطرقت على باب، سمعت القفل يدار مرتين، وصوت نسائي ثالث يقول: زوجي ليس في البيت ولا أستطيع فتح الباب لأحد. ثلاث نسوة يرددن من بيوت لم يخرج رجالها للعمل بالتأكيد. جلست مرة أخرى مغلوباً على أمري. ثمة مرارة في فمي وحلقي، لعله بفعل الخوف أو القلق. بعد برهة سمعت صوت صبي من خلف الباب يصيح: الله ينصركم.

أنا إذن عند باب عائلة موالية للمجرمين! وماذا لو أشارت لهم أن هناك من اختبأ في مدخلهم؟! انحدرت خارجاً بشكل آلي. رأيت عسكرياً مسلحاً على بعد عشرة أمتار، سألته بالإيماء ما إذا كان بمقدوري الخروج، هز رأسه أن لا، ثم غير رأيه. سألته ما إن صرت بمحاذاة ما إذا كان بمقدوري ركوب سيارتي، قال: أيوه، لكن باتجاه الكنيسة.

صادفت حاجزاً آخر، قال من أخذ هويتي: أنا شايفك. أجبت: ربما بالتلفزيون. كان جواً سحرياً لأنه أمر سياراتهم القاطعة للطريق بالسماح لي بالمرور، بينما يناورون كنت أنظر إلى مجموعة من المعتقلين يركبون حافلة خضراء أخرى.

أول ما فعلته بعد وصولي إلى المشغل كان فتح زجاجة بيرة ■

نحات وكاتب من سوريا مقيم في غرناطة-اسبانيا

فقررت التوجه إلى مركز المدينة عساني استبدلها بأخرى مليئة. كان قراري موعدي لمواجهة الموت.. أو يكاد.

حصلت على بغيتي لأن صاحب الحانوت المغلق يسكن خلفه، فأسدى لي الخدمة. توجهت بعد ذلك إلى تصالب الشارعين الأساسيين في المدينة القديمة: شارع السوق وتصلبه مع شارع الكنيسة، فلمحت على مبعده خمسين متراً، أمامي، أربعة عناصر مسلحة يتحركون بقلق باد وأنا أتجه صوبهم، لأنها الطريق التي يجب أن أسلكها، ما إن دنوت منهم (حوالي الثلاثين متراً) حتى بدأوا بإطلاق جنوني للنار في كافة الاتجاهات. إنه تصرف الخائف، يطلق النار على كل ما يتحرك أو يتخيله. كالبرق حوّلت السيارة وعزّجت على زقاق إلى يميني. طول الزقاق 15 متراً ولا مخرج للسيارة منه. توقفت إذن وبحثت عن مخبأ. ثمة في الزقاق بابان متواجهان. قلت لنفسني: أختبئ خلف باب. قرعت الجرس فسأل صوت نسائي عن الطارق. قدّمت نفسي وطلبت أن يفتحوا الباب لأقف خلفه لأنهم يطلقون النار على كل من يتحرك. لكن الصوت أجاب: لا نملك المفتاح!

هكذا تنتهي!

بخطوتين كنت أضغط على ثلاثة أجراس في الباب المقابل وأنتظر وأنا ألقب بصري نحو مخرجي الزقاق والرصاص لا يكف. بعد لحظة بدت لانهاية أطل رأس امرأة من شرفة الطابق الثاني فكررت طلبي. أجابت أنها لا تستطيع أن تفتح لأحد. سرعان ما سمعت ضجيج آليات تأتي من شارع السوق والضجيج يقترب فقرفت أمام مقدمة السيارة لعلها تخفيني عنهم، لكن احتمال أن يظهر خلفي كان وارداً كذلك. لم يخطر ببالي وقتذاك أسلم الحلول وأسهلها: أن أستلقي داخل السيارة.

كان ضجيج الرصاص قريباً للغاية. قلت لنفسني: وهكذا تنتهي يا عاصم في زقاق سخيف وضيق من يبرود!

الغريب أنني ما كنت خائفاً إلى درجة تمنعني من التفكير تماماً. خطر لي أن أخرج زجاجة بيرة وأشربها مقتعداً أرض الزقاق.. لكن الظرف ما كان يشي بأنهم سيحجمون عن قتل سكير ما.



إعدام التاريخ

لم تكن أعمال إبادة وإعدامات جماعة للبشر وحسب تلك التي شهدها العراق وسوريا، خلال السنوات الأربع المنصرمة، بل وعمليات تطهير وإبادة للتاريخ، للحجر بوصفه وثيقة حضارية، وللمكتبات والارشيفات القديمة التي سجلت تاريخ هذين الشعبين العريقين.

ولئن كان موعد احتلال العراق والوصول بالدبابات إلى قلب بغداد حدثاً مروعاً للعرب، فإن مشهد نهب المتحف الوطني العراقي في ظل الدبابات والأعلام الأميركية، كان المشهد المرجعي لغزاة الداخل الذين سيهون عليهم قصف مدنهاهم وقراهم بقنابل الطائرات والصواريخ العابرة للمدن وأخيراً بالبرامل المتفجرة، في عملية إبادة جماعية غير مسبوقة للبشر والحجر معاً، للإنسان والوثيقة الحضارية الدالة على عراقته وعلى مكانته في تاريخ الامم.

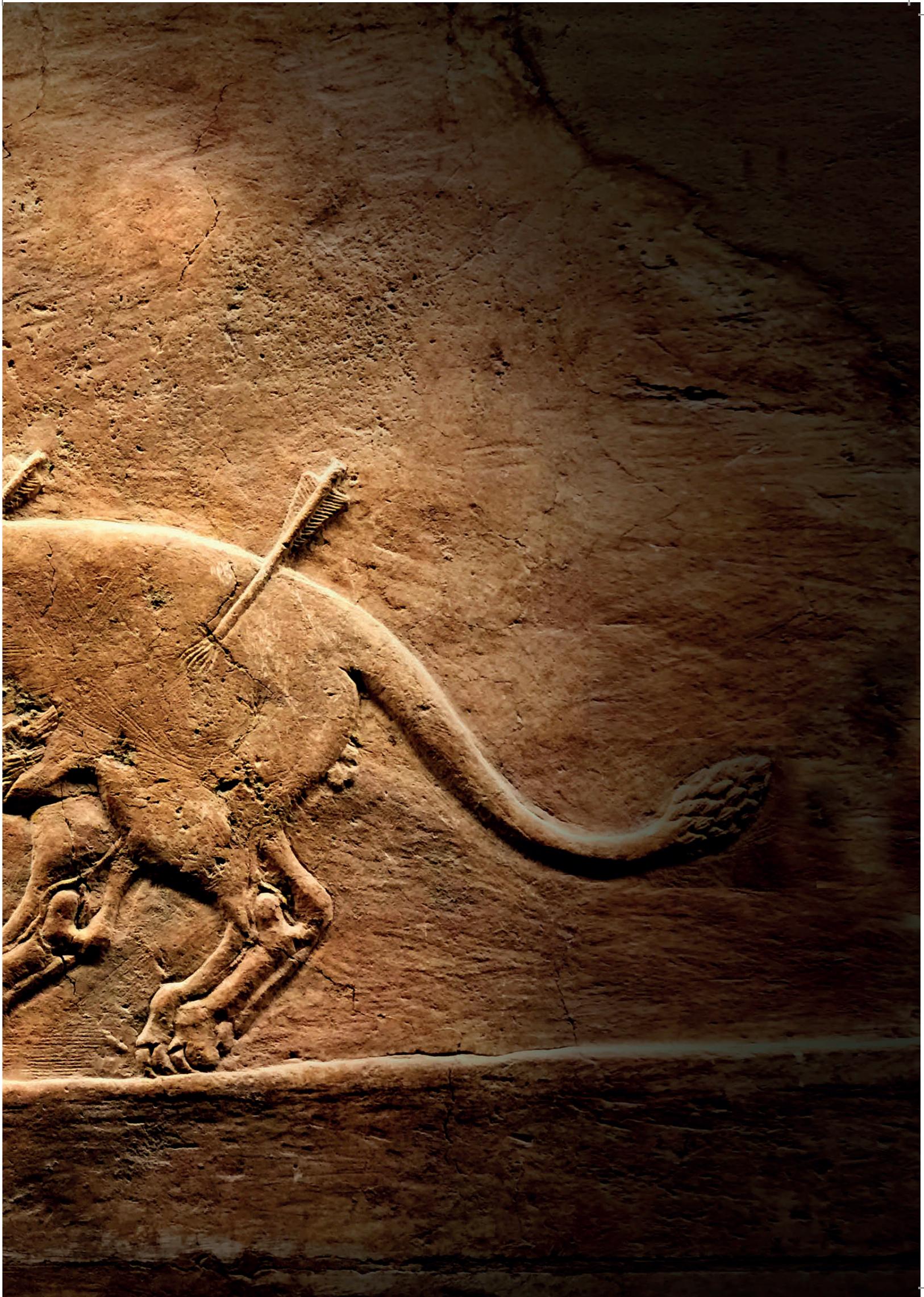
إنه إذن إعدام التاريخ، بعد أن أمسى إعدام إنسانه حدثاً يومياً تتناقله شاشات التلفزة كما لو كان شريطاً سينمائياً مثيراً، لكنه الشريط الذي لا يتوقف، الشريط الذي بلا نهاية، وقد استبيحت معه كل القيم التي كرستها كخطوط حمر النتائج الوخيمة لحربين عالميتين.

هنا في هذا الملف يتكشف العار الإنساني كاملاً، فقد شارك الجميع في عملية إعدام للتاريخ. شارك الغرب وشارك الشرق. شارك نظامان جائران في العراق وسوريا في هدم الآثار وسرقتها والمتاجرة بها، وشارك الغرب، أميركا، خصوصاً، بالصمت على الجريمة وغض النظر والسماح بها. شاركت دول مجاورة للعراق وسوريا في الحملة على الإنسان وتراثه؛ إيران من جهة، وتركيا من جهة. الأولى كغازية وراعية للعصابات الطائفية، والأخرى كمسهل لمرور الجماعات المتطرفة ولصوص الآثار الذين تقاطروا من كل حذب وصوب.

الجريمة كبيرة، والخسارة الحضارية مذهلة. فالتدمير والنهب طال تراثاً إنسانياً يشهد على فجر الحضارة البشرية. لكن ما تعرض له هذا التراث يجعله يبدو، اليوم، تراثاً محلياً يتيماً.

هنا ملف، بأقلام عراقية وسورية وشهادات دولية يروي القصة الأليمة ■

قلم التحرير



تفصيل في جدارية عراقية قديمة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن وتمثل عملية صيد السباع



مطرقة الأنظمة وسندان التطرف

خريطة الانتهاكات الأثرية في سوريا والعراق خلال أربع سنوات

جابر بكر

رسم خارطة للانتهاكات الأثرية في سوريا والعراق يحتاج لجهد مؤسسات بحث متخصصة كي ينجز على الوجه الدقيق والصحيح، لكن هنا سنحاول أن نرسم خارطة للمواقع الأكثر تضرراً في هذين البلدين اللذين يشهدان كارثة إنسانية بالدرجة الأولى واستباحة للتاريخ بكل ما يحمل من ميراث ديني وإنساني وفني وثقافي. بالطبع لن نغيب عن الأذهان مشاهد تدمير المتحف في نينوى وتدمير التماثيل التي تعود لحوالي ألف عام قبل الميلاد ومن بينها التحفة الآشورية الثور المجنح.



بناء أقدم. وثق تدميره بالصوت والصورة من قبل قوات النظام السوري أيضاً. وفي ذات المدينة قصفت مئذنة الجامع الفاطمي في شهر تشرين الثاني عام 2012، ويقع الجامع بين كاتدرائية المدينة ودير الراهب بحيرا، بني على طراز جامع كمشتمكين زمن الحكم الفاطمي، وأدخلت عليه ترميمات كثيرة، بنيت مئذنته من قبل أيوب بن عيسى النجراني عام 705 هـ/1303 م، وذلك أيام السلطان المملوكي الناصر محمد، ويصل ارتفاع هذه المئذنة إلى 19 متراً وتعتبر هذه المئذنة من الأمثلة النادرة التي تشهد على أهمية بصرى في بداية العصر المملوكي بعد تعرضها للغزو المغولي المدمر عام 1260 ميلادي، كم يشبه الغزو المغولي لتلك المدينة ما فعلته فيها قوات النظام السوري. وفي بصرى الشام أيضاً دمرت قوات النظام أجزاء من كاتدرائية القديسين سرجيوس وباخوس وتيوننتوس التي يعود تاريخها إلى عام 512-513 م، بناها الأسقف جوليانوس المشهور باستقامته وشجاعته، وهي أول كنيسة بنيت على شكل مربع تقريباً تعلوه قبة، ومقاييس جدرانها 49 متراً طولاً و27

التي تلقى اليوم رواجاً متنامياً في مناطق سورية واسعة.

حوران دمار ما بين العمري وبصرى
المجازر بحق السوريين تبعتها مجازر بحق تاريخهم وتراثهم، فالجامع العمري أول منابر الثورة السورية والذي شيد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب في القرن السابع الميلادي، قصفه النظام على مدى عامين وفي الختام هدم مئذنته في نيسان عام 2013، حيث وجهت دبابات قوات النظامي قذائفها إلى المئذنة حتى انهارت ووثقت الحادثة بالصوت والصورة.

وفي حوران خزان الآثار الرومانية شهدت مدينة بصرى الشام عدداً من الانتهاكات، كان أبرزها تهدم أجزاء من المعبد الروماني وتدمير سرير بنت الملك الشهير، وذلك في شهر تشرين الأول عام 2012، نتيجة قصف القوات التابعة للنظام لتلك المواقع. الكليية المعروف باسم "سرير بنت الملك" هو معبد وثني أقيم لحفظ نذور الضباط وأوسمتهم، ويعود تاريخه إلى القرن الثالث بعد الميلاد، ويتألف البناء من عناصر معمارية تعود إلى

لكن الواقع يقول إن هذا الدمار رغم كارثيته وقسوته ورفضه قولاً واحداً إلا أنه لم وربما لن يكون الوحيد في ظل ما يجري اليوم، فلم يأت يوم بعد الخبر حتى أعلن تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام عن تجريف مدينة نمرود الأثرية بالآليات الثقيلة، وقبل العراق دمر التنظيم العديد من التماثيل والنصب في سوريا وأيضاً عدداً غير قليل من المواقع الأثرية ذات الطابع الديني.

لكن التنظيم في الواقع هو ربما يكون الأكثر شراسة وطرحاً لأعماله التدميرية إلا أنه لم يكن السباق في الساحة السورية والعراقية، فالنظام السوري قصف ودمر مواقع أثرية وأحرق أسواق تاريخية في حلب وحمص وتدمر وجرف مواقع أثرية في درعا وقصف قلعة الحصن واستباح كثيراً من المواقع الأثرية التي أحالها مواقع عسكرية. وليكتمل المشهد لا بد من الوقف عند عمليات الاستباحة من الجانب الآخر ولأسباب مختلفة منها العسكرية ومنها الإغاثية أو الحياتية، ويضاف لكل ما سبق عمليات التهريب والحفر العشوائي والتجارة

جانب من باحة مسجد بني أمية الكبير في حلب وقد فقد منارته بالقصف الجوي.



حيث دمرت قوات النظام جزءاً من جامع الدالاتي في شهر شباط عام 2015، الجامع الذي يعرف أيضاً باسم جامع الحميدية أو جامع السلطان عبدالحميد والذي بني عام 1881 م بمساعي الحاج حسين الدالاتي، وبني على أرض تابعة لجامع النوري الكبير الملاصقة لمقبرة باب السوق التي أزيلت عام 1879 م، كما دمرت أجزاء من جامع الفضائل الأثري، والحمام العثماني، وأجزاء من قصر بسمار، وحمام السراج، وقصر الأغا، وجامع كعب الأحبار، وعدد من البيوت القديمة ولكن أبرز موقعين تعرضا للقصف والتدمير في حمص المدينة طبعاً، هما جامع الصحابي خالد بن الوليد وكنيسة أم الزنار في حي الحميدية.

تسبب قصف قوات النظام السوري على مدينة حمص صيف عام 2013، بتدمير مرقد خالد بن الوليد، وتضرر المسجد الذي يضم المرقد وبحسب ما بث من مشاهد مسجلة وبحسب عمليات التوثيق التي قامت بها جمعية حماية الآثار السورية وغيرها من المؤسسات ذات الصلة فإن أجزاء من المسجد دمرت وأحرقت، ومن المعروف أن جامع خالد بن الوليد الذي يقع في الجهة الشرقية من المدينة تأسس في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي والبناء الحالي

استغلت عصابات الآثار الظروف الأمنية الراهنة وغياب الحماية لتلك المواقع ونشطت في عمليات تنقيب غير مشروعة ومنظمة ومحترفة، وتمنع هذه العصابات بقوة السلاح الحراس وموظفي دوائر الآثار وكل من يحاول التدخل للحد من أعمال التخريب والتنقيب والنهب، وتوزعت أعمال الحفر أعلى التل من الجهة الشرقية والجهة الجنوبية الغربية، ويتجاوز عدد الحفر العشر حفر ويصل عمقها إلى 3 أمتار وقطرها إلى 5 أمتار، مما قد يتسبب بأضرار يصعب تعويضها لاحقاً إن استمرت أعمال التنقيب بهذه الحدة.

وفي نوى البلدة الحورانية الموغلة في القدم قامت قوات النظام في الشهر الأول من العام 2013، بهدم عدة مبان تعود للفترة الرومانية عن طريق البلدوز حيث تم جرف الأبنية بشكل كامل وذلك بحماية دبابة وجنود، وحجة الهدم هي اختباء عناصر من الجيش السوري الحر في هذه المباني، رغم أن المدينة في حينها كانت تخضع بشكل كامل لرقابة وقوات النظام وحواجزه المنتشرة.

حمص أم الزنار وابن الوليد

إلى حمص التي شهدت واحدة من أشرس الحملات العسكرية، ونبدأ بأحر الانتهاكات

متراً عرضاً، ومزينة من الداخل والخارج بمحاريب. ويتألف هيكلها من ثلاث حنيات، وعلى جدرانها صور ملونة تمثل رسوماً للعذراء وثلاثة قديسين يحيطون بها. وتتمتع هذه الكنيسة بطراز رفيع من الفن المعماري الأمر الذي حفز الإمبراطور جوستينيان إلى تشييد كاتدرائية آيا صوفيا في إسطنبول وكنيسة رافينا في إيطاليا وكذلك كنيسة الرصافة على غرار كاتدرائية بصرى.

أحالت قوات النظام القلعة الأثرية في المدينة مقراً عسكرياً ونقاط تمرکز للقناصة ما عرّضها للقصف من قبل قوات الجيش السوري الحر، وقلعة المدينة تحيط بالمدرج الروماني الشهير ويعود أقدم أجزائها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وقد تطور بناؤها على امتداد العصور الإسلامية اللاحقة.

كما دمرت قوات النظام أجزاء من الجامع العمري في المدينة والذي يرجع تاريخه إلى بداية العهد الإسلامي، زمن الخليفة عمر بن الخطاب 23 هـ/644 م. أما المئذنة فقد بنيت بتكليف من الخليفة الأموي يزيد الثاني 105 هـ.

ونبقى في سهل حوران حيث تعرض موقع تل الأشعري لعمليات تنقيب غير شرعية إذ



من قبل المنظمات الدولية.

حلب كارثة أثرية

لا تعرف من أين تبدأ في هذه المدينة المسجلة على لائحة التراث العالمي وبذات الوقت مسجلة على لائحة المواقع المهددة بالخطر كباقي المواقع السورية السبعة المسجلة على ذات اللائحة والتي لم تنل أي نوع من الحماية إلا التنديد والشجب والاستنكار والحزن على ما يحل بهذه المدن والمواقع من دمار، في حلب أحرقت قوات النظام السوري السوق القديم، وأحالت تلك القوات القلعة التاريخية إلى مركز عسكري ومقر عمليات، ومن قبلها أحالت جامع بني أمية الكبير لمركز عسكري واعتلى قناصة النظام المئذنة التي دمرت في 24 نيسان 2013، وتبادلت قوات المعارضة والنظام الاتهامات بالمسؤولية عن هذا العمل الذي سبقه في شهر تشرين الأول من عام 2012 تدمير وحرق أجزاء من الجامع جراء الاشتباكات العنيفة التي دارت بالقرب منه بين الجيش السوري الحر وقوات النظام، وبعد انهيار المئذنة بذل المجلس المحلي الحر جهوداً لحماية ما تبقى من الجامع بفك ونقل المنبر الخشبي إلى مكان آمن والعمل على حماية مقام النبي زكريا داخل الجامع الذي كان ذات مرة أغورا ساحة للحياة الرياضية والسياسية والروحية في المدينة في العهد الهلنستي، وأصبحت تلك الساحة فيما بعد حديقة لكاتدرائية سانت هيلينا خلال الحكم الروماني لسوريا، وعلى هذه الحديقة بني المسجد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عام 715 ميلادي وتم الانتهاء من بنائه عام 717 ميلادي في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك.

وفي أجزاء المدينة وبالذات في قلعة حلب وثقت إصابة القلعة بأضرار مختلفة وتحويلها من قبل النظام إلى مقر عسكري ودشم لمتركز القناصة، وفي منطقة قاضي عسكر دمرت أجزاء من جامع هارون داه، وتعرض خان الباشا للدمار كما تضررت أجزاء من جامع قاضي عسكر، ودمرت أجزاء من المطبخ العجمي وهو بقايا قصر يعود بتاريخه إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أي إلى الفترة الزنكية وربما هو لأحد أمراء 'نورالدين زنكي'

مديرية حماية الآثار عمليات حفر في منطقة المدافن الجنوبية الشرقية المنقبة سابقاً، كما أوضحت المعلومات وجود بعض الأضرار التي طالت معبد بل الأثري نتيجة العمليات العسكرية كما أصيبت عدة أعمدة من الرواق الجنوبي لبناء المعبد، وسجل انهيار عمودين منها، كما وثقت إصابات ناتجة عن طلقات رصاص أو شظايا بسبب الاشتباكات في عدة أماكن من الجدار الجنوبي لبناء المعبد، وبدرجة أقل في الجدار الغربي من الداخل والخارج، وإصابة تان محدودتان في الجدار الشمالي، إضافة إلى فتحتين في الجدار الشرقي لبناء المعبد، كما وثقت عمليات سرقة لبعض اللقى الأثرية في المدينة وكسر بعضها.

تدمر المسجلة على لائحة التراث العالمي مازالت اليوم تعاني مخاطر محدقة بها نتيجة العمليات العسكرية التي لم تنته بعد ومخاطر سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام على المدينة التي يحاصرها التنظيم منذ فترة بحسب مصادر من أهالي المدينة، الذين أكدوا لـ'الجديد' حالات التنقيب في مناطق مختلفة وانتشار تجارة الآثار هناك ولدى المجلس المحلي الحر في المدينة محاولات لتوثيق الانتهاكات أو الحد منها ولكنه يعاني نقصاً بالتمويل والاهتمام



تدمر المسجلة على لائحة التراث العالمي مازالت اليوم تعاني مخاطر محدقة بها نتيجة العمليات العسكرية التي لم تنته بعد ومخاطر

سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام



يعود إلى الفترة العثمانية في القرن التاسع عشر أيام السلطان عبدالحميد الثاني حيث أقيم المسجد الجامع على أنقاض المسجد القديم الذي كان قائماً في نفس المكان ومبنى على الطراز المملوكي أيام السلطان الظاهر بيبرس.

وفي شباط عام 2012، قصفت قوات النظام السوري منطقة الحميدية في حمص ما تسبب بدمار أجزاء من كنسية أم الزنار، والتي تعرف رسمياً باسم كاتدرائية السيدة العذراء أم الزنار والتي شيد قسمها المدفون في الأرض عام 59 ميلادية وكانت أشبه بقبو تتم العبادة فيه سرّاً خشية من الحكم الروماني الوثني آنذاك، والتأسيس كان على يد إيليا أحد تلامذة السيد المسيح البعديين، ثم أصبحت الكنيسة كرسي الأبرشية الأسقفية في حمص وفي عام 313 عمل مسيحيو حمص على تشييد كنيسة كبيرة فوق الكنيسة القديمة المحفورة تحت الأرض، واستعملوا في بنائها الحجر الحمصي الأسود ونقل إليها الزنار المقدس الذي كان محفوظاً بوعاء معدني وضمن جرن بازليتي، ولم تثبت أي روايات عن سرقة الكنيسة أو نهبها أو تدمير محتوياتها وبالذات الزنار عقب عمليات القصف التي أصابها.

ولا يمكن الحديث عن حمص دون ذكر تل عثمان وتمركز آليات ثقيلة وسواتر ترابية في حرم المنطقة الأثرية، وتعرض تل النبي مند (قادش) لقصف عنيف نتيجة المعارك في شهر أيار من العام 2013، وبحسب تقارير الجمعية السورية للمعلوماتية فإن قلعة الحصن الشهيرة تعرّضت إلى أضرار واضحة نتيجة العمليات العسكرية التي تسببت بقصفها في مرات مختلفة وأظهرت الصور التي نشرتها الجمعية والنشطاء الإعلاميون في تلك المنطقة آثار القصف على القلعة.

تدمر أرض المعارك

أشهر المواقع الأثرية السورية تعرّضت هي أيضاً لمجموعة واسعة من الانتهاكات على رأسها تمركز قوات النظام السوري داخل الحرم الأثري للمدينة وتحويلها لمقر عمليات ونشر الدبابات والمدفعية الثقيلة بين الآثار وبالقرب من المدافن الهرمية الهشة التي من الممكن أن تستحيل تراباً نتيجة هذه الأعمال، كما سجل في المدينة بحسب تقارير

واسمه 'مجدالدين بن الداية' الذي تقول بعض المصادر التاريخية بأنه أخو 'نور الدين' بالرضاعة، وفي منطقة البياضة سجل تدمير أجزاء من جامع الصروي الذي يعود للعهد المملوكي، ودمار أصاب جامع بردك الذي يعود لذات الفترة، وفي منطقة قسطل حرامي تضرر مخفر الشرطة الذي يعود بناؤه إلى الفترة العثمانية، وفي منطقة أقيول سجل تدمير أجزاء من جامع المحتسب الذي يعود لذات الفترة، كما دمرت أجزاء من حمام بلبغا الناصري الذي يعود للعام 1491 م، وجميع ما سبق من عمليات دمار سجلت في بدايات هذا العام، وفي منطقة باب النصر دمرت أجزاء من جامع ومدرسة العثمانية، أما في باب الحديد فقد هدمت جبهة أنصار الدين قبر الشيخ محمد النبهان وعائلته في جامع الكتاوية، وفي حي التل تضررت كنيسة الأرمن الكاثوليك المعروفة بكنيسة أمّ المعونات التي تعود للعام 1831، كما تضرر كل من جامع ومدرسة الفردوس الذين يعودا إلى العام 633 هـ 1235 م، وفي باب قنشرين تضرر خان المصري العائد للعام 1450 م، ونبقى في حلب القديمة حيث تعرض جامع السلطانية لتهدم جزئي، وفي باب النصر تضرر جامع الميداني في ساحة الأملجي العائد للفترة المملوكية في ذات الفترة أي تشرين الثاني من العام الماضي وفي باب الحديد تعرض سوق الزهر لتدمير جزئي، وتضرر خان الشونة المشيد عام 1546 م، في حين سجل انهيار مدرسة وجامع الخسروية بذات المنطقة. بالواقع لم تنته سلسلة الانتهاكات في حلب فهي تكاد لا تحصر وهذا أمر طبيعي إذا ما علمنا أن المدينة القديمة برمتها اليوم هي ساحة حرب وأي جزء من هذه المدينة له تاريخ ومسجل على أنه بقعة أثرية.

إدلب مدن ميثية وآثار تنتهك

هنا المفارقات كبيرة وكثيرة، مبان قديمة تحمي أهالي البلدات والقرى التي دمرتها طائرات النظام السوري، في سرجيلا والبارة التي استخدم أهلها الآثار كبيوت تحميهم مخاطر القصف الذي لم يوفر حتى مخيمات اللجوء، ومع الوقت يبدو أنهم استوطنوا تلك البيوت والأبنية القديمة، فبحديث مع أحد الناشطين الإعلاميين في المنقطة أكد

لـالجديد: أن تلك البقعة من القبور والقصور الرومانية باتت اليوم بيوتاً لها أبوابها ويتم قطع بعض أحجارها لاستكمال بناء حمام هنا أو غرفة هناك، ومن الواضح أن الناس الذي سكنوها لا يرغبون بمغادرتها بوقت قريب والمبرر هو أن بيوتهم دمرت بالكامل ولا يمكنهم إعادة بنائها وهم بالكاد يجدون فرصة للحياة من خلال المساعدات التي تصلهم كسلل غذائية وغيرها، وأكد الناشط الذي فضل عدم ذكر اسمه أن المنطقة تشهد حالة من إعادة الإحياء حيث تجد بعض المساحات التي تمت زراعتها مثلاً في فصل الصيف الماضي لتكون مصدر لبعض الطعام وتم استثمار كل شي في تلك البقعة لأجل البقاء على قيد الحياة وربما بحثاً عن أمل بالعودة إلى بيوتهم التي لم يبق منها إلا التراب.

السكن في تلك القبور أو القصور لا غبار عليه ولكن عمليات القطع للحجارة الأثرية واستخدامها بالبناء يبدو أمراً خطيراً، ولكن الأخطر هو تعرض تلك المناطق للقصف من قبل قوات النظام كما حدث في منطقة المدن الميثية حيث قصف طائرات النظام موقع شنشراح، الذي يعود للفترة الرومانية - البيزنطية، بالبراميل المتفجرة، ما تسبب ببعض الأضرار.



حسب تقارير جمعية حماية الآثار السورية فقد تبين أن التل الذي يقع بالقرب من مدينة كفرنبيل في ريف إدلب، تعرض لحفريات غير شرعية وأكد فريق الجمعية الميداني وجود لصوص آثار يستخدمون أجهزة إلكترونية



يضاف للقصف عمليات التنقيب والحفر غير المشروع والتخريب بقصد أو دون قصد بهدف الحصول على لقي أثرية والاتجار بها، حيث سجل في تلك المنطقة الغنية بالآثار، أعمال تنقيب سرية في موقع خربة الكسيبجة وذلك في نيسان عام 2013، ولا توجد أي معلومات عن توقف تلك العمليات حتى تاريخ اليوم، كما سجل تدمير للتوابيت الحجرية البيزنطية في موقع البارة ويعتقد أن العملية تمت بهدف البحث عن شيء في داخل تلك التوابيت أو تحتها، كما تعرضت مبان بيزنطية في منطقة باسقا للتخريب ولم تعرف الأسباب، والحال ذاته في موقع دير قيتا، كما تعرض موقع خربة الكسيبجة لبعض التخريب أو الحفر العشوائي، أما الحفريات السرية المدروسة فسجلت في موقع تل حزارين الأثري وبحسب تقارير جمعية حماية الآثار السورية فقد تبين أن التل الذي يقع بالقرب من مدينة كفرنبيل في ريف إدلب، تعرض لحفريات غير شرعية وأكد فريق الجمعية الميداني وجود لصوص آثار يستخدمون أجهزة إلكترونية في مسح التل من أجل كشف المعادن، ووجود أكثر من 50 حفرة في الموقع ووجدت بعض القطع الفخارية التي أظهرت بأن الموقع يتضمن سويات تعود إلى فترات زمنية مختلفة، منها عصر البرونز القديم وبرونز وسيط وبرونز حديث وربما عصر الحديد، وبين الفريق أن اللصوص عثروا خلال حفرهم في الموقع على عدة دمي طينية وجرة صغيرة.

عمليات الحفر لم تنته إلى اليوم وهي كثيرة وواسعة على امتداد تلك المدن الميثية وغيرها من المواقع وكذلك فإن الانتهاكات الأخرى من عمليات قصف لم تتوقف ومنها لا كلها، قصف ضريح الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز في دير سمعان، وتدمير أجزاء من الجامع الأموي في مدينة معرة النعمان وهو ثالث أقدم مسجد في سوريا بعد الأموي في دمشق وحلب، وفي معرة النعمان أيضاً قصف قلعة البلدة الأثرية والتي بنيت بشكلها الحالي عام 631 هـ/1235 م، بأمر من المظفر الثاني صاحب حماة في العصر الأيوبي.

حماة والمأساة المكررة

تجربة حماة مع الدمار قديمة، ولكن خلال



لصوص الآثار عاودوا الحفر في التل الذي يقع على بعد 10 كم جنوب شرق مدينة دير الزور، بالقرب من قريتي مراط ومظلوم، وقد ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان على أنه تل أثري قديم.

وطالت الحفريات غير المشروعة قلعة الرحبة، وتل الشيخ حمد حيث أعلنت المديرية العامة للآثار والمتاحف أن مجموعة من الملمثمين قاموا بأعمال تنقيب وحفر جائر وسرق بيت البعث الأثرية العاملة في الموقع، وذات العمليات أي التنقيب السري طالت موقع دورا أوروبوس كما نهب موقع صالحية الفرات وطالت الحفريات السرية تل باغوز الأثري، وهذا الحال ذاته عصف بموقع تل الحريبي المعروف باسم مملكة ماري حيث دمر السقف المستعار الذي يغطي جدران الموقع بسبب غياب الصيانة منذ العام 2011 فأصبحت الجدران الأثرية لقصر المدينة عرضة للتحلل نتيجة عوامل الطبيعة كما تعرض القصر الملكي الكبير لبعض الأضرار نتيجة الأحوال الجوية وكذلك نتيجة الحفريات غير الشرعية التي لوحظت تحت المصطبة المخصصة لعرش الملك في صالة العرش وفي الصالة رقم 66، كما تعرض بيت البعثة للسرقة وخرب متحف البعثة والمستودعين المخصصين لحفظ الكسر الفخارية، وحالة التخريب والسرقة أيضا طالت موقع حلبيية - زليبية على ضفاف الفرات.

أما في الرقة فقد نهب لصوص الآثار القبور في موقع دبسي عفنان بالقرب من موقع دبسي فرج الأثري، وقام أحد المتطرفين بتدمير مزار التابعي أوييس القرني ومقام النبي إبراهيم في قرية عين عروس قرب تل أبيض ومقام الدروبية، في حين عمل تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام على تدمير تماثيل الأسدين الموجودين في مدخل حديقة الرشيد، ومن المعروف أن أحد التماثيل قديم والآخر نسخة حديثة، كما هدم التنظيم مقام الوالي العثماني سعد الدين باشا العظم بالجرافة بداية العام الماضي، والمقام موجود في صحن جامع المنصور الذي بني خلال العهد العباسي والذي يعرف بالجامع العتيق، ونتيجة انعدام العناية تهدم جزء من السور الأثري للمدينة والذي يؤرخ لعام 156 هـ/772 م، كما تعرض المتحف الأثري في

الشمال من مدينة طيبة الإمام، وبحسب المعلومات فإن اللوحة تبلغ أبعادها تقريبا 5 أمتار طولا و5 أمتار عرضا وبقيت في مكانها حينما استعادت قوات النظام السيطرة على الحاجز، ومنذ ذلك التاريخ بقي مصير هذه اللوحة مجهول، ولم تذكرها مديرية المتاحف والآثار في تقاريرها أبداً.

الجزيرة السورية التطرف والسرقة

بالوصول إلى مناطق الجزيرة السورية يمكن القول بأن أعظم المصائب التي تقع على الآثار بعد القصف والتخريب نتيجة العمليات العسكرية هي عمليات التنقيب غير الشرعية، ففي منطقة الميادين في محافظة دير الزور حفر لصوص الآثار موقع عين علي الأثري وسجلت حفريات أيضا في موقع تل السن وبحسب تقرير للمديرية العامة للآثار والمتاحف فإن أكثر من 200 حفرة وخذق عميق تنتشر ضمن منطقة المدافن البيزنطية الواقعة إلى شمال سور التل، ما أدى إلى كشف العديد من المدافن وسرقة محتواها، بالإضافة إلى تحوّل مساحات من الموقع إلى مكب للنفايات والبقايا الناتجة عن هدم المنازل، واستخدام تجار النفط الجزء الجنوبي من التل كسوق لهم، وبحسب تقارير الجمعية السورية لحماية الآثار فإن



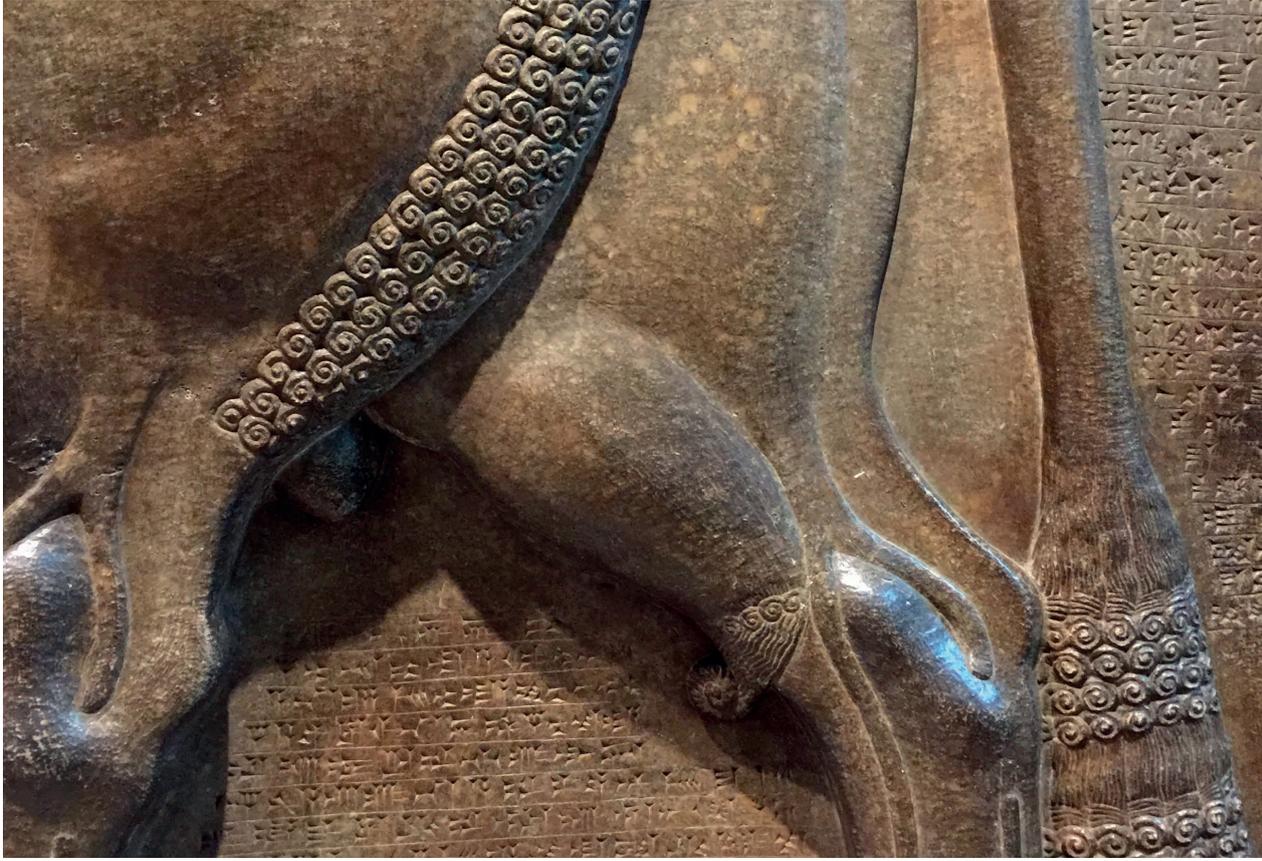
ربما لا تقاس الأضرار التي أصابت العاصمة بما أصاب غيرها من المدن، ولكن المخاوف التي تحرق بالعاصمة تبدو غير واضحة المعالم فالجميع يعلم أن الحرب النهائية ضد النظام السوري ستكون في هذه المدينة



السنوات الأربع الماضية شهدت أيضا انتهاكات في الجانب الأثري كما في الجانب الإنساني، حيث تعرضت العديد من المدافن البيزنطية في بلدة الناصرية وغيرها من القرى للحفر غير الشرعي، أما المصاب الكبير فكان في قلعة المضيق التي تعرضت في عام 2012 وعلى مدى عدة أيام لقصف من قبل دبابات كانت متمركزة ضمن الحرم الأثري في موقع أفاميا المجاور. بعد سيطرة قوات الجيش النظامي على القلعة تم شق طريق ترابي بالجرافات في التلة الأثرية التي تقع عليها القلعة، وأظهرت يومها الصور الجوية هذه الطريق التي تحيط بالقلعة.

أما أفاميا والتي تعرضت لتنقيبات سرية حيث تمكن مشاهدة تلك الحفر لكثرتها عبر صور الأقمار الاصطناعية، وكان آخر تسجيل لعمليات حفر في ذلك الموقع خلال شهر تشرين الثاني من العام الماضي، كما حوّل جيش النظام الموقع إلى تكتة عسكرية حيث نصب حاجراً داخل الحرم الأثري وتمركزت آليات عسكرية ثقيلة في المنطقة، في حين أظهرت الصور الفضائية تعرض الموقع الأثري للحفر بشكل كامل من قبل لصوص الآثار، كما تبين صور أخرى التقطها ناشطون ونشرتها الجمعية السورية لحماية الآثار حالة أحد الأبراج التي حفرها لصوص الآثار، بالإضافة إلى صور الدمار التي أصابت جزءا من الشارع المستقيم في أفاميا نتيجة القصف، وبحسب المعلومات التي نشرتها الجمعية فقد تم تهريب حوالي 30 لوحة فسيفساء من الموقع الأثري، كما ظهرت بالصور لوحات الموزاييك التي سرقت من الموقع، ومن المعلوم أن أفاميا بُنيت سنة 301 قبل الميلاد، في عهد سلوقس الأول نيكاتور، الذي حكم الشرق بعد وفاة الإسكندر المقدوني، لتكون ثاني أهم مدينة في الإمبراطورية السلوقية بعد مدينة أنطاكية.

ومن الواضح مما سبق أن هناك اتفاقا غير معلن بين لصوص الآثار وبين جيش النظام الذي يسيطر على المنطقة، وهذه الحالة تقريبا تنطبق على لوحة الفسيفساء المكتشفة في تلة السمان بطيبة الإمام، حيث أعلن المكتب الإعلامي في المدينة أن مسلحي المعارضة عثروا مصادفة على لوحة فسيفساء وذلك عندما سيطروا على حاجز تلة السمان الذي يقع نحو 1 كم إلى



المعالم فالجميع يعلم أن الحرب النهائية ضد النظام السوري ستكون في هذه المدينة العتيقة فما حجم الكوارث التي ستقع في حال دخولها الحرب، وكم ستلتهم النار والقذائف من تراثها وتاريخها، فبعض الرشقات والمناوشات تسببت في شهر تشرين الثاني عام 2013 بتدمير جزء من الفسيفساء على الباب الكبير للحرم في جامع بني أمية بعد سقوط قذيفة هاون عليه، كما تعرضت قلعة دمشق لعدة قذائف هاون بتاريخ 03 و21 و11/2013، فأحدثت فتحة في الجدار تقارب أبعادها (80x80 سم)، كما تسببت بكسر كافة الأغطية الزجاجية للمبنى والمباني الملاصقة له، ومنها ما يعرف بقاعة العرش أو القاعة الأيوبية التي تحتضن معرضاً للرسم، وذلك بحسب ما نقلت مديرية الآثار والمتاحف، كم دمر جزء كبير من مقام العسالي الذي يعود للعام 1653 م، نتيجة قصف قوات النظام للحبي، وفي حي جوبر تضرر المعبد اليهودي القديم هناك وكذلك تضرر ودمر جزء من جامع جوبر الكبير الأثري.

على طريق 'الحسكة- القامشلي' وفي ذات المنطقة سجلت حفريات غير شرعية يقوم بها التنظيم، في حين قصفت قوات التحالف قلعة سكرة التي يتحصن بها التنظيم، وفي تل عجاجة كشف عن تنقيبات سرية وتدمير تماثيل أثرية من قبل التنظيم الذي اعتقل لصوص آثار وصادر ما بحوزتهم من تماثيل أثرية تعود للفترة الآشورية عثر عليها خلال عمليات التنقيب غير الشرعية في تل عجاجة، ومن ثمة قام بتدميرها. وفي تل جولمة فوقاني بمحافظة الحسكة سجلت عمليات تنقيب سرية، حيث تعرض الموقع والذي يقع على بعد 40 كم شمال مدينة الحسكة و15 كم إلى الغرب من موقع تل شاغر بازار، إلى عمليات حفر سرية في عدة مناطق من هذا التل الذي يعود تاريخه إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

دمشق قلق ومخاوف

ربما لا تقاس الأضرار التي أصابت العاصمة بما أصاب غيرها من المدن، ولكن المخاوف التي تحدد بالعاصمة تبدو غير واضحة

المدينة نهاية العام الماضي لأضرار نتيجة القصف الجوي من قبل طائرة تابعة لقوات النظام السوري، في حين هاجم ما يقرب من مئة مسلح مستودعات مبنى هرقل الأثري، وسطوا على محتوياتها المكونة من مئات القطع الأثرية، وهي عبارة عن فخاريات متنوعة وجصيات وأجزاء من لوحات فسيفسائية وكسر فخارية للدراسة، تمثل نتائج أعمال التنقيب الأثرية لمواقع مختلفة في محافظة الرقة على مدى سنوات.

في الحسكة دمر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام مرقد المشايخ الخزنويين المؤسسين للطريقة الصوفية النقشبندية وهم الشيخ أحمد الخزنوي، والشيخ محمد معصوم الخزنوي، والشيخ علاء الدين الخزنوي، والشيخ عز الدين الخزنوي، بالإضافة إلى هدم مسجد وحلقة للعلم وحرقت كافة محتويات المعهد من كتب ومخطوطات يشرف على إدارتها أبناء الشيخ الخزنوي في قرية تل معروف التابعة لمنطقة القامشلي، وفي منطقة تل براك نسف التنظيم مقام الشيخ نامس في تل صاهوك



أما في الضمير بريف دمشق فقد تعرض جزء من المعبد الروماني في المدينة للدمار، وفي مدينة عدرا نبش قبر الصحابي حجر بن عدي الكندي من قبل إحدى الجماعات المسلحة، وفي حرستا تعرضت الزاوية الشاذلية لأضرار نتيجة قصف قوات النظام التي طالت أيضاً الحفام القديم في المدينة، وأعلنت المديرية العامة للآثار والمتاحف عن عمليات تنقيب غير مشروعة في منطقة يبرود بجبال القلمون وذلك في موقع السحل.

العراق محو للتاريخ

أما واقع العراق الأثري اليوم فيرسمه تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، والذي أقدم منذ فترة قصيرة على تدمير متحف الموصل وبعده تدمير مدينة نمرود بالجرافات، وسجل بعد سيطرة التنظيم على المنطقة الشمالية الغربية من العراق ثلاث مواقع أثرية مهددة هي نينوى ونمرود ومملكة الحضر والتي تعرف أيضاً باسم مملكة عربايا.

الانتهاكات المسجلة بعيداً عن تجارة الآثار التي تعتبر تجارة رائجة في العراق منذ الغزو الأميركي للبلاد في العام 2003، كانت المشاهد المروعة من متحف الموصل أول صدمة للعالم، حيث أقدم التنظيم على تدمير بعض مقتنيات متحف الموصل الذي يعد ثاني أهم متحف في العراق بعد المتحف العراقي في بغداد، وتأسس هذا المتحف عام 1952 وكان مقصراً على قاعة صغيرة ومن ثمّة أقيم المتحف الجديد في العام 1972 والذي يضم أربع قاعات إحداها للآثار القديمة وأخرى للآثار الآشورية وثالثة للآثار الحضرية والأخيرة للآثار الإسلامية، وما عرضه داعش في التسجيل لم يكن إلا قاعة واحدة ولذا بات السؤال ملحاً عن مصير باقي المقتنيات في هذا المتحف، الذي تعرض كغيره من متاحف العراق للنهب في أحداث نيسان من عام 2003، ولم تتمكن الحكومات العراقية المتعاقبة من استعادة أي من تلك المقتنيات التي سُرقت.

وفي التسجيل الذي أعلن فيه التنظيم إزالة معالم 'الشرك والكفر'، يظهر عمليات تدمير تمثال نادر لبوذا إضافة إلى بعض القبور والأضرحة، كما دُمروا التمثال الآشوري الكبير الذي يعتبر من أقدم الآثار ويعود

تاريخه إلى القرن 19 ق.م، وقاموا بتحطيم الثور الممنح الخاص في بوابة نركال.

وبالبحث قليلاً عن المواقع الأثرية في العراق يمر عليك رقم 12 ألف موقع أثري لا يحظون بعظيم عناية أو اهتمام أو حتى حماية. قسم منها اليوم بات تحت رحمة داعش ومن بين أبرز هذه المواقع مدينة نمرود التي أعلن التنظيم تدميرها بالجرافات، وهذا ما أكدته وزارة السياحة والآثار العراقية وقالت الوزارة في بيانها إن 'داعش' قام بالاعتداء على مدينة نمرود الأثرية وتجريفها بالآليات الثقيلة، مستتبعاً بذلك المعالم الأثرية التي تعود إلى القرن 13 قبل الميلاد وما بعده، نمرود وهو الاسم العربي للمدينة التي تعرف باسم 'كالح' أو 'كالكخو وكالحو والنمرود'، كانت مدينة آشورية، أسست في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأصبحت في القرن التاسع قبل الميلاد عاصمة الإمبراطورية الآشورية الحديثة زمن الملك آشور ناصربال الثاني، ودمرت في العام 612 ق.م على يد الكلدانيين والميديين.

مدينة 'كالح' أو نمرود 30 كلم جنوب الموصل عند ضفاف دجلة، تنبأ الأثريون عند تجريفها أن تكون مملكة الحضر هي التالية وبالفعل في السابع من شهر آذار قام عناصر التنظيم بتجريف ناحية الحضر الأثرية جنوبي محافظة نينوى، ونقلت مواقع عراقية عن



**ما عرضه داعش في
التسجيل لم يكن إلا
قاعة واحدة ولذا بات
السؤال ملحاً عن مصير
باقي المقتنيات في هذا
المتحف، الذي تعرض
كغيره من متاحف العراق
للنهب**



شهود عيان أن العناصر استخدموا الجرافات والآليات الثقيلة في عملية الهدم والإزالة كما فعلوا في مدينة نمرود من قبلها، والحضر هي أقدم الممالك العربية وحكمها أربعة ملوك لمدة أربعة وثمانين عاماً كان أولهم الملك ولجش (158 - 165 م) ومن ثمّة الملك سنطروق الأول (165 - 190 م) وهو أخو الملك ولجش، وحمل لقب ملك العرب بحسب النقوش القديمة على مباني المدينة، ومن بعده جاء الملك عبد سميا (190 - 200 م) وهو ابن سنطروق الأول، وخلفه الملك سنطروق الثاني (200 - 241 م) وهو ابن عبد سميا، وقاومت تلك المملكة قوات الفرس والروم قبل أن تقع بيد الفرس عام 241 ميلادية وتدمر بشكل رهيب، وبعد الفرس جاء داعش ليكمل المشهد.

الحديث عن السنوات الأخيرة يظلم ما سبقها من تجاوزات إن كان في سوريا أو في العراق، ففي سوريا التي كانت مستباحة من قبل عصابة حاكمة باعت ما تمكنت من بيعه عبر مافيات الآثار العالمية، ودمر قسم منها في العمليات العسكرية في ثمانينات القرن الماضي بنموذج حماة على سبيل المثال لا الحصر، وقبلها طمست المقبرة الصوفية في دمشق التي بني عليها مستشفى التوليد الجامعي، وإهمال المواقع الأثرية ذات الطابع الديني من مقامات وغيرها عدا المقامات الشيعية التي كانت تحظى برعاية إيرانية واضحة المعالم، والحال ذاته كان في العراق وخاصة فترة الغزو الأميركي للبلاد عام 2003 وانتشار حالات السرقة للمتاحف والحفريات العشوائية وتجارة الآثار، ولكن الواقع ينذر اليوم بكارث أعظم وأجل من السابقات فلا أحد يعلم ماذا حدث بباقي القطع الأثرية التي لم تظهر في مشاهد التدمير في متحف نينوى ولم يخبرنا التنظيم بالصورة عن عمليات تدمير مدينة نمرود إذ من الممكن جداً أن تباع كل هذا القطع وحتى المدن برمتها وتنتقل إلى أماكن غير معلنة اليوم، كما حدث مع نهايات الحكم العثماني للمنطقة حيث استباح الغرب التراث الأثري في المنطقة برمتها ونقل ما نقل إلى متاحف بلاده في ألمانيا وفرنسا وإنكلترا لم يعد من تلك القطع أو التحف إلى بلادها شيء، ربما يقول البعض كان خياراً جيداً لذلك الميراث الإنساني من الدمار ولكن السرقة هي السرقة ■

كاتب من سوريا مقيم في باريس

تدمير التراث العراقي السلطة عدوة التاريخ

الوليد خالد يحيى

تذهب داعش في تدميرها الوحشي للتراث العراقي، بكنوزه الأثرية النفيسة والموعلة في القدم، إلى الحدود القصوى في القطع مع التاريخ، وهي ككل منظومة سلطوية منغلقة على نفسها، لا تستطيع أن ترى آخر، خارج حدود قيمها الفكرية والسياسية والاجتماعية، لا في الراهن ولا في المستقبل، وتحاول انتزاعه حتى من الجذور، وتشارك في هذا الأمر مع عموم المنظومات السلطوية، التي حاربت كل منها التاريخ على طريقته، إن كان بالمحو، التدمير أو التوظيف العبثي، بشكل يخرج من دائرته الخلاقة والتي حاول "وعى أثري" حديث تعميق حدودها، معتبرا التراث الإنساني ملكا للبشرية جمعاء، يوثق مراحل التطور المجتمعي والمعرفي لأسلافنا، الذين وثقوا ذلك لنا بالحجر والكلمة.



القبور، التي تؤرق "إيمانه" بوسائل تقنية متاحة، تجنبه الوقوع في محطوري ديني، اقرّ به القرآن في الآية 114 من سورة البقرة، ذات الدلالات والمعاني الواضحة في نصها الصريح: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا".

كما لم تشفع المصاحف والكتب الفقهية، التي عجت بها مكتبة جامع النبي يونس، لها، من أن تتناثر تحت أنقاض المسجد المهدم، فلمشهد انتشار الناس للمصاحف من تحت أنقاض المسجد عقب تفجيره، دلالات كفيلة بأن تدفعنا لأن ننظر، للحدث بشكل أعمق وأشمل، مبتعدين عن تفسير الفعل بالنصوص الدينية. وهو استسهال وارد، يغوي كثيرين الخوض فيه، ويحصرنا ضمن زاوية نظر عمياء، ترتب على الناظرين من خلالها، الانجرار نحو داعشية معكوسة ربما، وبأبعاد هوياتية وطائفية مغايرة.

مشهد تدمير المتحف الآشوري وتماثله النفيسة، كان الأكثر حظوة في إثارة الاهتمام، نظرا لما احتواه من إحالات مقصودة، إلى حدث تاريخي إسلامي يماثله في المظهر، أي إلى ما قام به نبي الإسلام محمد وصحبه، قبل أكثر من 1400 عام، من تدمير لأصنام قريش. هنا ظهرت أقلام تحيل

أكثر من أربعة آلاف كتاب منوع. ليس للأمر دافع ديني عقائدي واضح، يدفعنا للقول بثقة بان الدوافع خلف ذلك دينية، حيث تخلو حتى كتب ابن تيمية، من أي تشريع يبيح تدمير المساجد، وإن كانت حجة التنظيم في ذلك مستمدة من تلك الكتب، والتي تحرم تواجد القبور والأضرحة في "بيوت الله"، فمساجد كثيرة لم تحتوي على أي قبر أو ضريح، ومع ذلك تم تخريبها وتفجيرها، متجاهلا التنظيم إمكانية إزالة



**ممارسات داعش لا تكاد
تخرج عن الدين العام الذي
سارت وتسير وفقه كل
نظم الاستبداد والاستعمار،
بالأخص في مسألة التعامل**

مع التراث



معاناة التراث العراقي في هذا الإطار تعاقب على صنعها كثيرون، ولربما فترتا الاحتلال الأميركي، والسلطان المتحكمان في البلاد حاليا "داعش، والسلطة الطائفية الرسمية" كانتا الأكثر وحشية في العداء للتاريخ الحضاري العراقي، تتشابه دوافع العداء، وهدفهم يبقى واحدا في التحليل الأخير.

دلالات التدمير الداعشي

لم يقتصر تدمير داعش للتراث الأثري العراقي، على "الأصنام" التي تعود للعصر الآشوري رغم أنها أخذت الحيز الأكبر في التغطيات الإعلامية العالمية، بل جال التنظيم حاملا مطارقه ومنتفجراته، في كل أروقة وزوايا الحقب الحضارية المتنوعة، التي احتضنتها الموصل، ولا سيما تلك التي تعود للعصر العربي الإسلامي، مفتتحاً عهد هيمنته على المدينة، بتفجير وتدمير تركته الحضارية، ولم تقف حملته فقط عند تدمير المساجد والتراث العمراني الجميل إنما التهمت نيران التنظيم أيضا مخطوطات علمية وثقافية وفقهية نفيسة، تركها علماء ذلك العصر، واحتضنتها مكتبة الموصل المركزية بعناية على مدى عقود طويلة، مع



والمعنوي، بما فيه اللغة، مما يتيح له إحلال قيمه ولغته في المجتمع المستهدف، إذ أننا بتأييد الهيمنة عليه. فالتراث الذي يحتل موقعا، هاما في متن السياق الوجودي للشعوب، ويؤثر في مسارات مستقبلها، وتكوين هويتها ويحدد تمايزاتها، كان ولا يزال محل استهداف منظم وممنهج، من قبل النظم والمشاريع التسلطية المعادية، وداعش هو إحدى تلك النظم ومن أشدها خطورة. ولا يهم هنا نوع الهوية الفكرية أو الدينية للنظام التسلطي، طالما الممارسة نفسها تشترك فيها كل المنظومات السلطوية المعادية في العالم، لذلك إحالة الأمر إلى دوافع عقائدية دينية مفترضة، يعد تبسيطا ساذجا لدوافع الفعل السلطوي شديدة التعقيد، والواقعة في صلب المشاكل والتعقيدات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي يغرق العالم فيها. وإذ يدمر داعش التراث الأثري العراقي، العائد لعصور تاريخية مختلفة، بما فيها العصر الإسلامي، هو يسحق مقابله الفكري والأيدولوجي. محاولا محو أهم العناصر التكوينية التي بني عليها الخطاب الثقافي لدولة 'الحداثة' العراقية، التي ولدت في النصف الأول من القرن العشرين. حيث

حتى بعض الخطابات السلطوية التبريرية كانت تذهب إلى أبعد من توظيف التراث والتاريخ، إلى حد توظيف الجغرافيا أيضا، هنا نذكر طرافة طرح فرنسي قديم، حاجج بأن الجزائر جزء من الأرض الفرنسية، لكن زحف القارات فصلها عن بلدها الأم. ونعود إلى المسألة الأشد إلحاحا، لماذا يدمر داعش التراث الحضاري بكل تنوعاته؟ ماذا يمثل له التراث الأثري الموهل في القدم من دلالات، توجب عليه خوض هكذا حملة تدميرية ضده؟ يجب أن نقرّ أولا بأن داعش، كمنظومة سلطوية متكاملة، ليس خارج النظم القيمية المنتجة لأدوات السيطرة والإخضاع والضبط الاجتماعي، ولا نتوقع منه نهجا مختلفا، عن زملائه من النظم الأخرى، والتي توسم بالحداثة، فممارسات داعش لا تكاد تخرج عن الدين العام الذي سارت وتسير وفقه كل نظم الاستبداد والاستعمار، بالأخص في مسألة التعامل مع التراث، حيث شهد التاريخ الحديث الكثير من حالات الطمس والمحو لحضارات وهويات ولغات، بلغت أوجها في محاولات الاستعمار الفرنسي، في إنهاء الكيانية الجزائرية على سبيل المثال، عبر محو تراث شعبها المادي

الراهن إلى التاريخ، وتتناول الموضوع وفق الإحالات النظرية التي أوحى بها داعش عن قصد، ضمن خطابه التبريري لفعلة، لكن ذلك لا يُقرأ وفق إحالاته وتبريراته هو، بقدر ما يُعتبر توظيفاً لذلك الحدث التاريخي، من قبل التنظيم في خطاب سلطوي يخدمه في صراعه الراهن. وذلك ما عُرفت به الكثير من الجماعات السلطوية وحتى دول، استخدمت في التسويق لأفعالها ذات النهج، حيث تستدعي من التاريخ والتراث، ما ينفعها في تبرير أفعالها والتسويق لها شعبيا، ونذكر هنا ما كان ينضح به الخطاب السلطوي، لنظام الرئيس العراقي الراحل صدام حسين في حربه على الأكراد، حيث كان حينها امتدادا لسرجون الأكدي في حملاته على الكرد 'الميديين'، والمعروفين 'تاريخيا' بتمردهم على السلطة العراقية منذ عهد سرجون، وبالتالي يجب إخضاعهم بالقوة بحسب ذلك الخطاب، فلم لا يصبح أبو بكر البغدادي هنا امتدادا للنبي محمد في حملته على الأصنام؟ هكذا توظيف لحدث من التاريخ الديني، أو من التراث المحلي الموهل في القدم، لتبرير ممارسة سلطوية ما، طالما كان رائجا، ولإزالة، لدى الكثير من الدول والجماعات،



المواقع الأثرية بأن تكون مساح للصرع المسلح. ولم تجر منظمات الأمم المتحدة أي تحرك في هذا الإطار يلجم الأميركيان وغيرهم من العبث بالتراث الإنساني. دوافع الاحتلال الأميركي لتدمير الآثار كشفت بوضوح، بمشاركة الجيش الأميركي بعمليات النهب والتدمير، وتحت أنظاره وإشرافه، مظهرة غمق القطيعة الأميركية مع الحضارة والتاريخ، أعلنت لحظة البدء طلقة من مدفعية دبابة، أطلقت مباشرة على بوابة المتحف الوطني في منطقة الصالحية وسط بغداد في اليوم الأول لاحتلالها، مفردات المشهد كانت مغايرة، لمشهد التدمير الداعشي الأخير، دبابة في كامل حدثها معدة خصيصا للتدمير والقتل، لدولة ترفع لواء الحداثة والتقدم، مشهد يعمق الحد الفاصل بين معنيي الحضارة والحداثة، حيث عادة ما يتم الخلط بينهما في الوعي الجمعي للناس، إطلاق النار على وثائق أول بدايات الفعل الإنساني، وكأنه إعلان أميركي للقطيعة مع التاريخ الحضاري للإنسان، وتدشيننا لعصر الشرق الأميركي الجديد، وذلك عبر دباباتها ودويج مدافعها، بدا وكأنه تعميم لعولمة 'الليانكي' بأثر رجعي، عولمة لا تعترف بجغرافيا خارج حدود هيمنتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية، كما لا تريد شواهد تاريخية تحكي قصص الإبداع الإنساني الحضاري، خارج ما تعممه من مملعات ثقافة الاستهلاك الأميركية. بعد ولوج أروقة المتحف، اختلطت شهوة التدمير مع شهوة الربح والاتجار. حين بدأت أقدام المارينز تدوس على القطع المحطمة، بينما مئات القطع غيبتها الاختفاء، بدا الأمر مدروسا بعناية، وهو ما أثبتته الكثير من المشتغلين بالآثار، عن احتواء المتحف لبعض القطع المقلدة، تنتشر بينها القطع الأصلية بشكل يستحيل على العامة التمييز بينها، بينما ميزتها السرقات بعناية فائقة.

السلطة الراهنة والتراث

السلطة العراقية 'الرسمية' الراهنة، بتشكيلاتها الطائفية والميليشياوية، تستمر بهذا التدمير للتراث الحضاري العراقي، والمخزون الأثري الهائل الذي تنطوي عليه البلاد، وإن بأشكال وأساليب أقل فجاجة من أساليب داعش، نظرا لحساسية اعتباريتها

في التاريخ والحاضر والمستقبل. الاحتلال الأميركي يعادي التراث العراقي هذا التدمير الذي طال المخزون الأثري لحضارات ما بين النهرين، لم يبدأ مع داعش، بل كان مع بدايات الاعتداءات العسكرية الأميركية على العراق، لا سيما عام 1991 حين استهدفت الصواريخ الأميركية، مدينة 'أور' الأثرية في محافظة الناصرية جنوب بغداد، مدمرة منطقة المعابد الأثرية في المدينة بشكل كامل، لم تكن المنطقة تحتوي على أي موقع عسكري عراقي وقتها، ربما كان ذلك بدايات الإفصاح عن الوعي الأميركي تجاه المخزون الحضاري للعراق. مع دخول قوات الاحتلال الأميركي إلى العراق عام 2003، بدأت عمليات التدمير الممنهج للآثار، فتحول الموقع الذي دمرته صواريخهم عام 1991، إلى موقع عسكري تجول فيه الدبابات بينما ما تبقى من أبنية تعود للمعابد السومرية، تحول إلى أبراج قنص اعتلاها الجنود الأميركيون. وكذلك الأمر في مدينة بابل الأثرية، التي دمرت مجنزرات الدبابات الأميركية الكثير من طرقها وأرصفتها الأثرية، كما تحول موقع كيش السومري إلى مهبط للطائرات المروحية. لا مكان في أدمغة العسكر الأميركي لأي شذرات وعي بأهمية التراث الإنساني التي حاولت تعميمها منظمة اليونسكو وتلك المعنية بحفظ التراث، ولا التزام رسمي أميركي باتفاقيات تجنيب



هذه السلطة، التي تتشابه إلى حد كبير، مع داعش من حيث التكوين الذهني والبنوي، تعمدت إهمال التراث، وتفاضت وسهّلت الكثير من عمليات نهب



وُظفت عناصر الإرث الحضاري لبلاد الرافدين، في متن خطاب أيديولوجي 'وطني وقومي' رأى فيها ضمير الأمة الراسخ وعظمتها، منذ سومر وبابل وآشور والعباسيين وجعل مجمل الممارسات الاقتصادية والسياسية وحروبه الداخلية والخارجية، التي خاضتها الدولة امتدادا للتراث والماضي الحضاري المبدع والمهيب، فالتراث اكتسب في الخطاب 'الوطني' العراقي الحديث سمة المعبر الرمزي عن هوية 'الوطنية' الحديثة والجامعة، هذا التوظيف الوطني للتراث، انعكس اهتماما جليا به، من قبل الدولة ولا سيما في عهد صدام حسين حيث أعيد ترميم المدن الأثرية في الجنوب والشمال، ووضعها على الخارطة الثقافية العالمية عبر المهرجانات الثقافية التي كانت تقام، كما لم يخل هذا الاهتمام والتوظيف من ممارسات عبثت بمضامينه الأصلية المادية والمعنوية، وإعادة صياغتها بما يخدم الخطاب السلطوي الاستبدادي، ونذكر هنا حملة 'من نبوخذ نصر إلى صدام حسين'.. بابل تنهض من جديد' والتي من خلالها ترك الاستبداد ملامح تشويهية عبثت بجدران بابل الأثرية بحفر صور الرئيس عليها، وأخرجتها من لائحة التراث العالمي.

فداعش هنا ينال من المعبرات الرمزية، عن المحتوى السياسي والاقتصادي والثقافي للمنظومة القيمية 'الوطنية' السابقة والتي لا تزال تجد لها حوامل بشرية، لا سيما في مدينة الموصل التي كانت إحدى المنابع الأساسية لخطاب تلك المنظومة، معلنا 'انتصاره' عليها، وقطعه الكامل معها، يكمل في ذلك ما كان قد بدأه من تدمير لمجمل البنى 'الحداثية' والمدنية للمجتمع من مدارس وجامعات وقنوات اتصال مدني، ويسعى لإحلال منظومته البديلة بعد أن خلق عوامل تأبيدها، وأزال من الوجود كل ما يمكن أن يؤرق سلطته مستقبلا. فهو يرى في ذاته حالة تاريخية جديدة، بداية لتاريخ جديد للبلاد التي يطأها، تاريخا بدأ مع إقامة دولته، ويقطع مع المنظومة العالمية جمعاء، وليس امتدادا لأي كيان سياسي تاريخي سابق، هو قطع حتى مع التاريخ الإسلامي ودوله السالفة، بتدميره لتراثها، حيث يعتبر نفسه هو الحامل الوحيد للحقيقة الإسلامية، وهو من لديه الحق بتجسيدها دون سواه

الدولية، كسلطة "شرعية" هذه السلطة، التي تتشابه إلى حد كبير، مع داعش من حيث التكوين الذهني والبنوي، تعمدت إهمال التراث، وتغاضت وسهلت الكثير من عمليات نهبه، ولم تبذل جهوداً كافية لاستعادة ما تمت سرقة في عهد الاحتلال، بل استمرت عمليات تهريب القطع الأثرية النفيسة، التي انفضحت إحداهما عبر الإعلام الإسرائيلي الذي عرض قبل أسابيع، نسخة توراتية نادرة استطاعوا الحصول عليها من العراق عبر المهربين، ولم يحصل أيّ تحرك من قبل الحكومة لاستعادتها أو إثارة الموضوع دولياً على الأقل.

وآثرت السلطة عبر ممارسات كثيرة لإبعاد التراث عن الذاكرة الشعبية وتشويه ملامحه. ولعلّ شارع الرشيد الأثري في بغداد الذي يمثل جزءاً من هوية المدينة، شاهداً على هذا الإهمال المتعمد، حيث أن أبنية الشارع التاريخية معرضة، في أيّ وقت للانهدام بحسب تحذيرات أطلقها عدد من المهتمين بالتراث البغدادي، ولمدينة بابل الأثرية حصتها من هذا الإهمال، الذي يبين مشهد إهمالها، بعضاً من الأبعاد الأخرى في ذهنية القائمين على الدولة، بعد اختراق جدران المدينة الأثرية بأنابيب نقل النفط.

ولا تختلف دوافع هذه السلطة عن الدوافع الداعشية فيما يخص تدمير التراث والتاريخ. فهي أيضاً قطعت مع الرموز التراثية والحضارية، التي كونت خطاب "العهد الوطني" نظراً لطبيعتها الطائفية وخطابها الهوياتي، المناقض للدلالات الوطنية والإنسانية التي مثلها التراث، وكذلك لكونها تحمل مشروعاً تاريخياً مبرراً بخطاب سلطوي مماثل للخطاب الداعشي، فلا تاريخ عندها خارج تصوراتها الأيديولوجية وبنائها الثقافية ورموزها الطائفية.

وإن أبدت السلطة العراقية إدانتها وتفجعها، من مشاهد التدمير الداعشية للمتاحف، فذلك يعد توظيفاً ممجوجاً من قبلها لمأساة لتراث، تستثمره في سياق حربيها مع التنظيم، وتظهر حرصها عليه، عبر وضعه هذه المرة برسم "القيم العالمية" فقط، مستبعده إياه من خطابها "الوطني" الذي تختزله بأدبياتها ورموزها الطائفية دون سواها ■

كاتب من العراق



مقاتل من داعش يقوم بتدمير منحوتة آشورية ضخمة في الموصل.

القديم هو الجديد

رشيدي الخيون

يُعيد التاريخ نفسه خلال أقل من مئة عام، بأكثر قسوة وشراهة في الشرِّ ضد مكونات الحضارة العراقية القديمة؛ فآنذاك وقف نائباً الموصل في البرلمان العراقي: ضياء يونس (ت 1937) والخوري يوسف الخياط (ت 1947)، يطالبان بحماية آثار نينوى من سرقات البعثات الأجنبية، ونهبها إلى الخارج (1926)، وها هي الآثار التي زادا عنها وتأسس متحف الموصل والمتحف العراقي لأجلها تُحطم بفؤوس «داعش» اليوم وأمام أنظار العالم.



حتى هذا اليوم لم يتمكن فن النحت من مجاراتها، فأَيُّ عقل نحت تلك اللُقا وأيِّ شرِّ يحطمها، والرَّمَن بين التعمير والتَّخريب يرقى إلى خمسة آلاف عام.

لم تخيل السَّنوذ أن تهوى الفؤوس، على أنها فؤوس التَّبوة داخل الكعبة، بدافع ديني، على رأس تمثال، آية بالفن والجمال، صرف الفنان القديم جل حياته لينحته في صخر، نحوت لم يُشاهد مَن يعيدها كي تعامل معاملة أصنام الكعبة، إنما يقف أمامها أبرع الفنانين العالميين مهوورين باليد التي نحتتها ونقشت عليها من جمال الطَّبِيعَة، أغصان وثمار أشجار، وأرخت للتقدم الذي لو استمر بلا انقطاع لصعد أهل الأرض إلى المريخ قبل ألف عام، لكن انقطاع تاريخي مفعج، مثلما هو الحال مع ثقافة داعش، جعلنا نتأخر بإزالة التراب من على تلك الذخائر، وندهش بها ونحن أبناء الألفية الثالثة بعد الميلاد؛

إن للآثار العراقية قصة طويلة مع الأذى الذي أصابها عبر القرون، فلو قرأنا تاريخ عمران أيِّ مدينة أو حضرة نجد عمارها قد تم بهدم سابقتها، فالحجاج بن يوسف الثَّقَفي (ت 95 هـ) بنى واسط بأحجار طاق المدائن، المعروف بطاق كسرى، وبأحجار خرائب بابل، ولأن الأثر لا قيمة له مع الجهل

الأعلى، وطلب من رئيس جامعة بغداد عبد العزيز الدُّوري (ت 2010) كي يمنح المشروع أرضاً من أراضي الجامعة لينقذ به الآثار، وكان بوقوف وزير الثقافة والإرشاد محمد النَّاصر متحمساً لحماية الآثار.

فأتفق على كتابة تقرير إلى وزير المالية، فهو القادر على إلغاء المشروع أو تعطيله مالياً، وقد تم ذلك في بداية العام 1966. أشار التقرير إلى ما حصل العام 1935 يوم منحت الدَّولة المنتفعين من الأرض الأثرية بحق التَّصرف، والعام 1936 قُطع منها لإقامة وحدة سكنية (مكية، خواطر السنين). كلُّ ما حصل سببه الجهل بقيمة الأثر، أو التُّزوع الشديد نحو الحداثة، من دون معرفة: تقول أما عندك من جديد/فقلت لها القديم هو الجديد» (الجواهري من قصيدة أفتيان الخليج 1979).

على أيِّ حال، كان المدافعون عن الآثار ينتصرون لها، والجهات الرِّسمية تتراجع بعد تبيان الأمر، لكن مَن لداعش؟ فقد كان يوم الخميس (26 فبراير 2015) فصلاً من فصول تنفيذ إعدام التَّاريخ العراقي الحضاري، وهو شواهد الحضارة الإنسانية جمعاء، في الفن والحياة. لقد هوت فؤوس أتباع الدولة الإسلامية (داعش) على خزائن مكتبة آشور بانيبال، وعلى تركة بقية ملوك آشور، التي

ليس هذا فقط، بل صارت موصل ضياء يونس والخوري يوسف، بتاريخها ودجلتها، مُلكاً لـ«داعش»! وحينذاك أنشد ضياء يونس لأحمد شوقي (ت 1932) مخاطباً رئيس الوزراء توفيق السويدي (ت 1968)، يحثه على حماية الآثار العراقية من البعثات الأجنبية:

أمن سرق الخليفة وهو حيُّ
يعفُّ عن الملوك مكفنيناً؟

قالها شوقي بما يخص الآثار المصرية التي تعرضت لموقف مشابه (1924). أقول: ماذا لو عاش نائباً الموصل، الخوري ويونس، إلى عهد نهب المتحف العراقي وعبث «داعش»؟ ماذا سيقلون؟ أظن أنهما سيشتجعان البعثات الأجنبية كي تكون الآثار بحماية المتاحف العالمية، وتُدَّهش بها نحن قبل غيرنا.

بعد ذلك بحين، أي العام 1965، تقرر إقامة مشروع سكني (دور المعلمين) على المنطقة الأثرية بنينوى، حيث العاصمة الآشورية، يقول المعمار محمد مكية في مذكراته (خواطر السنين): إن البلدوزرات كانت جاهزة لقلع الآثار، ويومها كان في زيارة إلى الموصل مع طارق مظلوم ممثل مديرية الآثار العامة، وفؤاد سفر الخبير الآثاري المعروف، وبعد العودة كتب تقريراً إلى مجلس السياحة



الموصل قبل أسابيع على يد عصاة داعش، لم يكن إلا مستنسخات جيسية عن الأصول، التي قيل إنها ما زالت محفوظة تحت الأرض.

يغلب على الظن أن سحر بابل لم يرتبط بماروت وهاروت فقط، حسب ما ورد في الآيات: «وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ» (البقرة: 102)، إنما ببداية الآثار أيضاً، ولأبي الطيب المتنبّي في نفائس بابل وسحرها، وهو يفخر بنفسه:

ما زال أهل الجاهلية كلهم

شعري ولا سمعت بسحري بابل

تأسس المتحف المنهوب في بداية العشرينات على يد المس بل البريطانية (ت 1926)، في غرفة من غرف دار الحكومة، المعروفة منذ زمن مدحت باشا (أعدم 1883) بمحلة الشراي وتوسع مع توسع عمليات اكتشاف الآثار، فنقل إلى بناية خاصة في شارع المأمون بالرصافة، ثم استقر، في عهد عبدالكريم قاسم (قتل 1963) في مكانه الحالي بالصالحية غرب بغداد، بعد أن رفع من أمامه تمثال مؤسسته المس بل، ليحجب عن المشاهدين، مع أنها صاحبة الحق بتذكّر

الممارسة غير إعدام التاريخ وسدل الستار على بقية حضارة وعمران طلاشاهدين على تخلف وهمجية الحاضر، فمدينة أور توصلت، قبل ستة آلاف عام، إلى اختراع العجلة والشرع، والبصرة التي توصل مفكرها المعتزلي إلى مقدمات لقانون الجاذبية مستخدماً تفاحة نيوتن ذاتها، نجدها خالية اليوم من المراصد وأهلها حفاة يسعون وراء الماء، ويتراكمون خلف أكياس خبز المعونات.

أسئلة كثيرة تطرح نفسها لحظة ضياع ودائع حفظها تراب العراق ثم متاحفه عمرها آلاف السنين، وهي الشاهد الوحيد على رقي عمرانها. ولعل نهب المتحف العراقي وخزائن المخطوطات ومسحهما من الوجود، ثم تدمير داعش لآثار نينوى، بطريقة تزاجت فيها الحضارة والبداهة، يدفعنا إلى التنازل عن محمية آثار سومر وبابل في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر بباريس ومتحف بيركامون ببرلين، ما دما غير متحضرين إلى مستوى حماية تاريخنا من طائرات الثورات والحروب. وهنا أعلل النفس أن تتأكد إشاعة أن ما نهب من المتحف العراقي، قبل إحدى عشرة سنة، على يد الغوغاء بتخريص خفي من تجار هذه النفائس، وما دُمر من متحف

الحكومي والشعبي لم يمنع الأهلون من نقل بقايا بابل لبناء أحياء جديدة، ولا نثلب العهد العثماني الذي جعل المدرسة المستنصرية، التي تأسست (631 هـ) وسط بغداد، كدار علم ودرس وفي واجهتها نُصبت الساعة المائية، دائرة للكمارك تسرح قوافل الحمير فيها.

عموماً تخريب الآثار لم يبدأ بداعش، فهذا عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) يقول في ضياع آثار كثيرة ذات عمران راقٍ لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميّتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الحصون التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد (ابن أبيه) كل قصر لابن عامر (والي البصرة لعثمان بن عفان)، كما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان (كتاب الحيوان).

لقد نهب المتحف العراقي بالكامل، صبيحة التاسع من نيسان (أبريل 2003)، وكان عصرا جديدا لا يبدأ إلا بمحو آثار الأقدمين، على أن المظلومية تمتد إلى آلاف السنين وتلك شواهد العصور! إنه من أغنى متاحف العالم بالأثر الرافديني والعباسي، لا تعني تلك



لها أمام واجهته.

وذلك بعد تأسيس الدائرة الأركيولوجية (1920)، ملحقة بوزارة المعارف، أشرفت عليها (مس بل)، التي سعت إلى إلحاق الآثار بوزارة المواصلات والأشغال بدلاً عن المعارف، ولها الفضل بتأسيس أول متحف عراقي، وبعد وفاتها تولى الإدارة المستر كوك، لكنه سرق الآثار وطرده من العراق، فتولى الأمر (سدني سمث)، وكان يشغل وظيفة معاون مدير المتحف البريطاني، ثم استلمها الدكتور (يوردان)، وهكذا ظلت إدارة الآثار تحت المسؤولية البريطانية حتى تعيين ساطع الحصري مديراً (1934)، شريطة أن يبقى (يوردان)، مستشاراً.

كانت لساطع لحصري (ت 1968) جهود طيبة في حماية آثار العراق، ويذكر أن السفير البريطاني وجه رسالة إلى وزارة الخارجية العراقية محتجاً على تعيينه مديراً للآثار، بذريعة أن الحصري ليس مختصاً في الآثار، مما يؤدي إلى صعوبات عند التعامل مع بعثات التنقيب. فاضطرت الحكومة العراقية، ممثلة بوزير خارجيتها نوري السعيد، طمأنة السفير، مما أزعج الحصري أنها ألزمته مشاوراً (يوردان)، والأخذ بمشورته، فوجه رسالة إلى الحكومة يؤكد فيها أن الاستشارة متعددة، وهي ليست حكراً ليوردان.

تقسم الآثار المستكشفة، حسب قانون (1924)، مناصفة بين البعثة المنقبة ودائرة الآثار، هذا بالنسبة إلى الآثار المكررة، أما في الآثار الفريدة فيجري تقسيمها بالقرعة، وحسب الحصري هناك ما تأخذه بعثات التنقيب من حصة العراق بحجة صيانتها، ومعالجتها معالجة خاصة، وبالتالي تذهب إلى المتاحف الغربية دون عودة. أما قوانين الآثار اللاحقة فأخذت تضمن حق العراق في آثاره. وأهم ما تحقق وفقاً لتلك القوانين حرية دائرة الآثار في تعيين المراقبين، وفرض شروط إضافية على بعثات التنقيب، حتى أن عددها تنازل من إحدى عشرة بعثة إلى سبع بعثات.

لم تقتصر جهود الحصري على حماية الآثار المنقولة، وإنما بذل ما في وسعه لصد موجة إزالة المعالم الأثرية أو تحديث أبنيتها، بنظرة متعالية على الإرث الحضاري، جاء في مذكراته «عندما فكر أرشد العمري في إنشاء بهو الأمانة (أمانة العاصمة) خارج سور القلعة أخذ يهدم البرج القائم في نهاية السور

من جهة الشط، فتدخلت المديرية (الآثار) في الأمر وأوقفت أعمال الهدم».

لكن العمري استغل انقلاب (1936)، فأقنع قائد الانقلاب بكر صدقي لاستصدار قرار تتخلى بموجبه مديرية الآثار عن الموقع التاريخي المذكور لأمانة العاصمة، وبذلك تم هدم البرج الأثري. وإن فشلت إدارة الآثار في حماية المناطق الأثرية من تصرفات أمين العاصمة نجحت في إنقاذ خان مرجان التاريخي من خطة مدير الأوقاف رؤوف الكبسي لإلغاء ملامحه التاريخية وتحويله إلى عمارة حديثة، فأسرت إلى جعله متحفاً للآثار العربية الإسلامية. وعلى صعيد آخر عرقلت دائرة الأوقاف محاولة ترميم منارة الغزل وجامع الخلفاء، بحجة المصاريف الكبيرة، وعدم أهمية الجامع.

غير أن رئيس الوزراء عبدالكريم قاسم تحمس لعمليات تجديد الجامع المذكور، وتكليف المعماري محمد مكية بالمهمة، وشجع مخطط التجديد والتوسيع، بمد طريق مشجر بالنخيل من بوابة الجامع إلى ساحل دجلة، وفتح ميدان متصل بصفة النهر، يكون مركز بغداد الحضاري، ويليها بها كحاضرة عباسية، لكن العمل في الجامع توقف بعد انقلاب 8 فبراير 1963، وأعلن عن افتتاحه قبل إتمام العمل حسب خرائط التصميم.

في مجال الاهتمام الحكومي لصيانة الآثار



خلال العهد العثماني، كانت

سراقات الآثار تجري على

قدم وساق، ففي أواسط

القرن التاسع عشر حملت

السفن أنفس الآثار العراقية

إلى المتاحف البريطانية

والفرنسية والأميركية



وتطوير العمل فيها بالاعتماد على الكادر الوطني، نفذت الحكومة طلب البرلمان القاضي بإرسال طالبين للدراسة في المعاهد الغربية. وكان أول المبعوثين طه باقر، وفؤاد سفر، درسا في معهد شيكاغو علم الأثنولوجيا (علم الإنسان) ومواد الآثار والتنقيب والتاريخ القديم، واللغات التي كتبت بالخط المسماري، واللغة العبرية (فوزي رشيد، طه باقر حياته وآثاره). وبعد عودتهما من الدراسة احتلا مراكز هامة في مديرية الآثار العامة، وصدرت لهما مؤلفات عديدة في مجال الآثار والتنقيب وتاريخ العراق القديم، وبجهودهما تأسست مجلة 'سومر' ذات البحوث العلمية، وتوسعت رقعة التنقيب، وازدادت متاحف العراقية بآثار جديدة الاكتشاف، ودرب باقر وسفر جيلاً متفوقاً من الأثريين العراقيين. وتوافقاً مع مخزون التراب العراقي من الإرث النفيس، هناك من طالب بتدريس علم الآثار في المدارس الثانوية، انطلاقاً من أن الآثار هي ثروة العراق الكبيرة.

فقبل قيام الدولة العراقية، أي خلال العهد العثماني، كانت سرقات الآثار تجري على قدم وساق، ففي أواسط القرن التاسع عشر حملت السفن أنفس الآثار العراقية إلى متاحف البريطانية والفرنسية والأميركية، والبعثة التي تحصل على فرمان سلطاني بالتنقيب تحمل ما تشاء من الآثار، دون رقيب. قال (سيتون لويد)، المستشار الفني لمديرية الآثار العامة، في مقال نشرته مجلة 'سومر': خلال تلك المدة سار على نهر دجلة الكثير من السفن والإكلال المسروقة بالمنحوتات الآشورية، المرسله إلى متاحف الرئيسية في أوروبا والعالم الجديد، والمستندات التاريخية التي لا تُحصى، تلك التي حلّ رموزها علماء الغرب.

من تلك الآثار طول 'ميلين من الألواح المنحوتة، وسبعة وعشرين مدخلاً مكوناً من ثيران مجنحة ضخمة، وأسود جاثمة'. أما ما حملة الألمان من آثار بابل إلى متحف (بيركامون) ببرلين، بعناية فائقة، كان بوابة عشتار، وضريح (نبوخذ نصر) الحجري، ومئات من القطع الأثرية الأخرى. لازالت بوابة عشتار، بكامل هيئتها تقريباً، تضي على متحف برلين الهيبة والعمق التاريخي، فبين جدرانها يحلم الزائر أنه ببابل وليس

ببرلين، يشم عبق القرون الخوالي، ويفيق من حلمه هذا على أجهزة الحراسة الحذرة جداً، أو صوت المترجم الآلي، أو على رطانة السياح المبهوتين. وقفت أتأمل ألوان أحجار البوابة الزاهية، من أي مادة حضّرها الفنان البابلي، وكيف شكلها هذه التشكيلة العجيبة، فأعطاها قوة البقاء عبر الدهور.

شغل ضريح الملك (نوخذ نصر) غرفة كبيرة تحت الأرض، ويبدو المكان مثل مزار مقدس، هاجس الزائر وهو يطوف حول الضريح الحجري معرفة ما بداخله، فأين جسد الملك ومجوهراته المدفونة معه، كما ورد في الألواح؟ عموماً لم يبق من البشر البابلي، الذي صال وجال وشيد تلك الحضارة العظيمة، غير جثمان متفحم لصبي لازال محتفظاً بهيئته الخارجية، معروضاً داخل صندوق زجاجي. أما عن كنوز بابل الذهبية فيؤكد أهل المدينة، أنهم يعثرون بين فترة وأخرى على ضريح مفتوح، فيه عظام وجماجم، تركها السراق بعد أن نهبوا ما فيها من المعدن النفيس والحجر الكريم.

نقل البريطانيون أنفس الآثار السومرية والأكديّة والعباسية إلى المتحف البريطاني بلندن، منها غنائم حرب، ومنها عن طريق بعثات التنقيب. تحدث ساطع الحصري حول حصة بعثات التنقيب من الآثار عندما احتل البريطانيون العراق كانت الآثار التي اكتشفتها بعثة (هرسفلت) في حفريات دور سامراء باقية هناك نحو (150) صندوقاً، (9) عندما استولى الجيش البريطاني على سامراء نقلت الصناديق المذكورة، واعتبرها من غنائم الحرب، وأهداها للمتحف البريطاني في لندن* (مذكراتي في العراق).

أما السرقة المفصوحة تلك التي قام بها مدير الآثار العراقية البريطاني (مستر كوك)، أوان الانتداب على العراق، التي أثارت النائب جعفر أبو النمن (ت 1945)، وغيره من النواب وهم يدافعون عن مقترح تعيين مراقبين عراقيين في مواقع التنقيب، بينما رفض ذلك رئيس الوزراء توفيق السويدي. قال أبو النمن ذكر فخامة رئيس الوزراء مسألة المراقبين ومصائبهم، التي صرح القانون بلزوم تأديتها من قبل البعثات، غير أنه يشك في أن تعيين المراقبين ينتج منه فائدة... ولكن أشك بناء على التجارب التي مضت بأن هذه الدائرة أخذها على عهدته

من كذا نظن أنه يحميها من كل تلاعب، ولكن سمعنا أنه تاجر بكثير من الأحجار والأدوات والآثار* (المصدر نفسه، نص مداخلة أبي النمن في البرلمان).

قبل نهب المتحف العراقي بالكامل واجهت ثروة العراق الكبيرة استنزافاً، ليس من السطو على أماكن التنقيب فحسب بل سرقات مفصوحة من المتاحف، وآخرها كان الكنز الآشوري الذهبي، وقصة هذا الكنز كما قرأنا عنها، أنه حديث الاكتشاف، وطلب نقله لمعاينته من قبل جهات عليا، لكنه لم يعد إلى مكانه في المتحف العراقي. ورغم ما بذله الأثريون العراقيون لحماية الأثر العراقي عموماً إلا أن الغرور السلطوي السابق قاد إلى العبث في آثار بابل وسومر، فشوه القصر الرئاسي المنطقة الأثرية، ومنها شارع الموكب الشهير، بإعادة تعبيده، وإضافة البناءات على جانبيه، وإعادة بناء المعابد بأسلوب معماري معاصر، لا علاقة له بنمط العمارة البابلية، ودهن الأبنية بالصغ الأبيض، وبناء المسرح البابلي حتى يتسع للاحتفالات بميلاد الحاكم السابق.

من الآثار النفيسة التي ظلت بعيدة عن متناول البعثات الأجنبية وتجار السوق السوداء، وعمليات الفرهود المنظمة والعفوية التي اجتاحت المناطق الأثرية والمتحف العراقي وخزائن المخطوطات عشية سقوط النظام، هي آثار العتبات



**بل نهب المتحف العراقي
بالكامل واجهت ثروة العراق
الكبيرة استنزافاً، ليس من
السطو على أماكن التنقيب
فحسب بل سرقات مفصوحة
من المتاحف، وآخرها كان
الكنز الآشوري الذهبي**



المقدسة، من هدايا وتحف بالنجف وكربلاء وبغداد وسامراء، فقد ظلت محفوظة بغرف حصينة داخل المراقد، كانت تحت رعاية الكليدارية (سدنة العتبات). يذكر ساطع الحصري أن دائرة الآثار قامت بتسجيل وتصوير تلك الهدايا والتحف، بعد أخذ الرخصة من الوجهاء والقائمين على خدمة المراقد، وبصفته مديراً للآثار حاول عرض تحف مرقد الإمام علي بن أبي طالب، التي يعود أقدمها إلى العهد البويهبي، في متحف مرتبط بصحن المرقد، لكن المعارضة كانت شديدة، وقتذاك، ولعلّ من دوافعها عدم استيعاب فكرة التشبه بالمتاحف الأوروبية، وأن قدسية متعلقات الأضرحة تبقى في سرّيّتها.

جمع خزائن المتحف العراقي، حتى نهاية السبعينات، من (6555) موقفاً أثرياً ثبتتها مديرية الآثار العامة على 136 خارطة، تظهر تسمية الموقع بال (إيشان)، كلما انحدر المسّاحون صوب الأهوار، فقد عينوا بمرکز الجبايش فقط ستة وعشرين موقفاً أثرياً، تسعة عشر منها تسمى بال (إيشان)، وهي كلمة سومرية لا زالت متداولة تعني التل المحاط بالمياه لخلوها وأثر الأقدمين فيها، ونسجت حولها حكايات مثيرة أخذت بلب الرحالة.

بعد إفراغ المتحف العراقي من متعلقات تاريخ الرافدين يبقى الأمل في ما سيستخرج من تلك المواقع، ومما اكتشف من مواقع جديدة بعدها، لكن العبرة في حمايتها من فرهود قادم، إن كُتب للعراق أن يمتلك متحفاً آخر يتناسب مع ثروته الأثرية الهائلة.

أختم بالقول: يبقى الأثر دليلاً لا يضاھيه دليل آخر على حوادث التاريخ، والشّاهد من معروف عبدالغني الرّصافي (ت 1945) في قصيدة «ظلال التاريخ» (الدّيوان، طبعة 1959):

فدع عنك لغو النّاطقين وحُدّ بما

رواه من الآثار ما ليس ينطقُ

فإن ذكروا النّعمان يوماً فلا تتق

بأكثر مما قال عنه الخورنق ■

باحث عراقي في الثّراث والفلسفة الإسلاميّين

مجزرة الحجارة

ختام غبش

شهد موقع تل حلف الأثري الواقع في مدينة رأس العين عند منابع نهر الخابور على الحدود السورية-التركية، على بعد (60) كم إلى الجنوب من سلسلة جبال طوروس، والتابع إدارياً لمحافظة الحسكة أول مجزرة تاريخية. راح ضحيتها العديد من اللقى الأثرية الهامة التي احتضنتها سوياته الأثرية يوماً ما من العصر الحجري النحاسي مروراً بالفترة الآشورية، الآرامية، الهلنستية والرومانية انتهاء بالعصر الإسلامي.



مثّلت هذه المشاهد الوجه الثابت، القاتم والمرافق لكافة مراحل الانحطاط والركود التي تعصف بتاريخ كل منطقة. إلا أن التراث الثقافي السوري كان الأحلك واقعاً والأسوأ حظاً من بين جميع النكبات التي طالت البقايا الأثرية على اختلاف جغرافيتها. فلقد تناسبت سوية الانتهاكات بحق هذا الإرث الحضاري طرداً ووتيرة المواقف السياسية المتصاعدة التي تبناها أبناء كل محافظة. فإذا ما عدنا بالتاريخ إلى الجذور الأولى من أرشيف النكبة الأثرية فستظهر محافظة درعا على أنها الفاتحة الأولى في قاموس التخريب والتدمير. فالبداية هنا تنطلق من الاعتداء الذي تعرض له الجامع العمري في تاريخ (2013/4/13) من قبل القوات النظامية. يعود الجامع إلى الفترة الإسلامية الأولى، ارتبط اسمه بالخليفة عمر بن الخطاب، تعرض للتخريب وهُدمت مئذنته. ويعتبر هذا التخريب هو البداية المنهجية للتوغل بسياسة طمس الهوية وتدمير الرموز المقدسة كسياسة عقاب جماعية تم انتهاجها تبعاً وباتت هي السائدة لاحقاً. وضمن إحصائية المواقع الأثرية المسجلة

موطنها، والثانية تكمن في جريمة تدميرها. خضعت بعدها هذه اللقى لأعمال الترميم وهي الآن تسكن متحف ألبير غامون في برلين. يعد موقع حلف واحداً من مجموعة كبيرة من المواقع التي جردت من محتوياتها وهُجرت هي الأخيرة نحو متاحف أوروبا وخزائنها. انتهى القرن العشرون ليفتح القرن الحادي والعشرون 2001 بعملية تدمير ممنهج لآلاف من التماثيل البوذية القديمة من قبل حركة طالبان في أفغانستان. تحت بند 'يمكن لهذه التماثيل أن تكون آلهة بالنسبة إلى الكفار، التي لازال حتى يومنا هذا هناك من يعبدها ويقدها، لذلك لا بد من هدمها كي لا تعاود دورها كآلهة من جديد بالنسبة إلى هؤلاء' هذا التبرير الذي صرح به أحد قادة حركة طالبان 'مولى محمد عمر'. في الوقت الذي نهبت فيه آثار العراق إبان الاعتداء الأمريكي في العام 2003 حيث استبيحت حينها المواقع والمتاحف وباتت عرضة للنهب والسرقة. ولازالت العديد من هذه القطع قيد المجهول بالرغم من استرجاع بعضها الآخر نتيجة المطالبة والملاحقة الحثيثة لها.

بدايات أعمال التنقيب في تل حلف الأثري منذ الأعوام (1913-1911) من قبل البارون الألماني (ماكس فون أوبنهايم) الذي تمكن من إدراك أهمية موقعه من خلال زيارة قام بها في حوض الخابور في العام 1899 عندما كان يشغل منصب دبلوماسي، وبعد اثني عشر عاماً عاد إليه وحاملاً وثيقة رسمية تسمح له بإجراء أعمال التنقيب الأثري في الموقع حيث استطاعت أوثق الصلات التي كانت تربطه بابن ابراهيم باشا أن تؤدي دورها في إتاحة المجال أمامه. يعود الفضل إليه في الكشف عن حضارة امتدت على الألف السادس والخامس قبل الميلاد، أعطت اسمها لثقافة انتشرت وتأثر تطورها على مساحة شاسعة من سوريا، بلاد الرافدين والأناضول إلى جانب أماكن أخرى عثر بها على خصائص هذه الثقافة. أجريت في الأعوام (1927-1929) سلسلة جديدة من هذه التنقيبات التي أعطت العديد من المكتشفات الهامة والتي استطاع البارون أوبنهايم نقلها إلى برلين محتفظاً بها في مخزن تعرّض للقصف خلال الحرب العالمية الثانية لتكون الضحية الأولى الموثقة على مرحلتين: الأولى كانت بنهبها وانتشالها من



الكشف عن زنار السيدة العذراء في العام 1951 تعرضت هي الأخرى لأضرار جسيمة نتيجة القصف. في حين تعرض ريف حمص: حوضه الكوم، تدمر (معبد بل) الذي تعرض لأضرار في الجدار الداخلي للواجهة الغربية والجدار الجنوبي وإصابة عدد من الأعمدة وانهار عمودين، والواحة التي تعرضت للحرق وهي تعود لعصور البرونز، المدافن الأثرية البيزنطية، بلغ عدد المواقع والمباني المتضررة في حمص 115 موقعاً.

بينما بلغ عدد المواقع والمباني المتضررة في حماة حوالي 20 موقعاً. وكانت بالتالي حماة المحافظة الأوفر حظاً من حيث نسبة التدمير والخراب. وأهم ما تضرر من مواقعها بشكل متفاوت بين الموقع والآخر (خربة الأندرين، قلعة شيزر، متحف طبية الإمام، متحف آفاميا للفسيفساء حيث تم سرقة قطعة رخامية من حديقة المتحف الذي بني في عهد السلطان سليمان القانوني، ناعورة

سوق النوري، البازرباشي، الصاغة، الحرير، الفرو، العبي، الخياطين، جامع النوري (يشبه المساجد الأموية كان في الأصل معبد تحول لكنيسة وبعدها إلى جامع) إلى عمليات للقصف المتواصل أدت بموجبها إلى ضياع هويتها التي ميزتها على مدى عقود عمارة البيوت بحجارتها السوداء والمميزة لهيكليتها العمرانية وجمالية الزخارف المطرزة لسواكف النوافذ والأبواب. هذا إلى جانب هدم البنية الديمغرافية للسكان وأسس المعتقد الخاص بهم من حيث إثارة النعرات الطائفية التي سرّعت من عملية تفتيت اللبنة الأساسية في تبلور الهوية الحقيقية لحمص. في الوقت الذي تعرض فيه جامع خالد بن الوليد والذي يحمل رمزية خاصة بالنسبة إلى أهالي حمص للقصف بالأسلحة الثقيلة فتعرض لأضرار جسيمة في البناء والكسوة الداخلية إلى جانب أضرار إنشائية. أما كنيسة أم الزنار التي تأتي رمزيته من

في درعا تم توثيق 74 موقعاً أثرياً تعرض للتخريب وأهم هذه المواقع (نوي- تل أم حوران- تل الحارة- قلعة مزيريب- المدينة الأثرية القديمة- تل عشترة- تل شهاب- تل الأشعري- أجزاء من القلعة والمسرح في بصرى.. الخ) وغيرها من المواقع الأثرية الهامة التابعة لهذه المحافظة حيث تراوحت جلّ أعمال التخريب الأخيرة بين أعمال تنقيب سرّية غير مشروعة بغية الاستيلاء على الكنوز حسب الاعتقادات السائدة، سرقة للقطع الهامة، تدمير للسويات الأثرية الموثقة لتاريخ الموقع..

أما محافظة حمص التي عدّت من أكثر المحافظات السورية النائرة وأكثرها عرضة لسياسة التدمير والتخريب الذي طال تراثها الثقافي، تعرضت أحيائها القديمة (القرايبص، جورة الشباح، الحميدية، جامع الدالاتي، باب السباع وأسواقها القديمة التي تعرضت بمجملها للتدمير الكامل



والتخريب من كل الأطراف المتنازعة فكانت محافظة حلب فلقد سجلت المرتبة الأولى من حيث العدد الذي بلغ 267 موقعا ومبنى. فهنا تمت عملية مسح لغالبية البنى والمواقع الأثرية، فالفاجعة الأولى في حلب بدأت بحرق الأسواق الأثرية سوق الصرمايتية- الصابون- الطرايشية- الزرب- العطارين... التي تعد جزءاً هاماً من جغرافية حلب القديمة والتي أيضاً طالها القصف الشديد وغابت ملامحها المميزة كمدينة قديمة. فهنا تقوم العديد من المدارس والجموع إلى جانب وجود بعض الجموع التي تضم داخلها مدارس حيث شاع هذا النوع من العمارة في الفترة الأيوبية والمملوكية، أهمها كان جامع ومدرسة الفردوس الذي أنشأته جامعاً ومدرسة ورباطاً ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر (533-1235م)، جامع ومدرسة العثمانية، جامع المهمندار، جامع السروي، جامع العادلية، السلطانية، جامع الحدادين، المدرسة الخسرفية، مدرسة الحلوية، متحف التراث التربوي، البيمارستان الأرغوني بناه أراغون الكامل (755-1345م) ولم تنج الحمات والكنائس من أعمال القصف والتدمير فلقد نال حمام يلبغا الناصري (1491م) ما نال غيره من التخريب والتدمير، وتعرضت كنيسة الأرمن الأرثوذكس التي كانت في العام 1831 أبرشية للأرمن الكاثوليك للقصف أيضاً. وبالانتقال إلى ريف حلب كانت نسبة الدمار والتخريب لا تقل عن مدينتها إلا أن مناطق الريف ذات سويات أثرية أقدم بالمقارنة مع المدينة فهناك مواقع موثقة على العصور الحجرية، عصور برونزية، مروراً بالحديدي، الهلنستي، الروماني والبيزنطي أهمها (تل حالولة، تل أحمر، تل القرامل، تل العبر، شيوخ تحتاني، شيوخ فوقاني، تل رفعت، سيروس، قلعة نجم في منبج حيث تقوم مجموعة متخصصة بالآثار بالحفر بالتركيبات الثقيلة، المدن المنسية - قلعة سمعان، كالوتة، رفادة، براد، جبل خالد... الخ) وهنا انتشرت سياسة حفر المقالع في الجبال والواجهات الحجرية واستخدم الديناميت في بعضها.

وبالانتقال نحو المناطق الشرقية والشمالية الشرقية وفيها تتمركز أهم المواقع الأثرية فإذا ما بدأنا بدير الزور التي كانت أيضاً من أكثر المحافظات التي لحقها الدمار والتخريب. تعرضت للقصف الشديد بكافة

أجزائه. وتأتي أهميته من الأسس الأولى حيث كانت تحمل بقايا معبد روماني جرى تحويله إلى كنيسة، وعند دخول أبو عبيدة الجراح أحد عمارته النهائية التي هي عليه الآن. وهنا أيضاً تقوم قلعة أثرية مؤرخة على (1235 ميلادي/631 هجري) تعرضت هي الأخرى للقصف بالأسلحة الثقيلة. وفي إدلب تعرضت العديد من المواقع الهامة أيضاً مثل (قلعة حارم- تل مردوخ (إبلا)- تل الكرخ- تل آفس- تل طوقان... الخ) لأضرار متنوعة من حيث السرقات والحفريات غير المشروعة، تخريب هائل طال السويات الأثرية، سرقات وتهريب للقطع إلى جانب أعمال التفسير للمناشير الكبيرة. وفي هذه المواقع انتشرت ظاهرة تكسير الحجارة الأثرية بهدف بيعها لإعادة استخدامها في البناء المخالف الذي انتشر ضمن الموقع الأثري ويستخدم في هذا العمل الآليات الثقيلة (بارة). إضافة إلى انتشار الحفريات غير الشرعية باستخدام أجهزة حديثة لكشف المعادن والفراغات تحت الأرض وقد انتشرت العملات والقطع النقدية بين السكان. لقد سجل تجمع المدن المنسية في جبل الزاوية على لائحة التراث العالمي في ملف القرى الأثرية شمال سوريا العام 2011 ووضع على لائحة الخطر في العام 2013.

أما المحافظة التي نالت النصيب الأكبر من حيث تعرضها لكافة أنواع التدمير



الفاجعة الأولى في حلب بدأت بحرق الأسواق الأثرية "سوق الصرمايتية- الصابون- الطرايشية- الزرب- العطارين.. " التي تعد جزءاً هاماً من جغرافية حلب القديمة



الجعبرية التي تعرضت لحريق في أحشائها، قلعة المضيق التي تعرضت لتجريف حول القلعة وتضرر كبير للبنى بداخلها، إلى جانب تعرض العديد من المدافن البيزنطية في الناصرية لأعمال التنقيب والحفر غير الشرعي.

في محافظة إدلب تعد المدن المنسية من أهم المواقع التي قدمت نتاجاً حضارياً لا يزال قائماً حتى يومنا هذا. استوطنت هذه المدن خلال العصر الروماني والبيزنطي، وتتميز هذه المدن بوجود تنظيم معماري لها من خلال شبكة من الشوارع المتعامدة مع بعضها، والتقسيمات المساحية التي تؤلف الجزر فيها، بالإضافة إلى تواجد المباني العامة كالمسارح، الحمامات، الكنائس، الآغورا... الخ. أهم ما يميزها هو نوعية الزخارف التي تنوعت وكشفت اللثام عن العديد من الرموز التي كانت مهمة في تلك الحقبة إلى جانب التعرف على مخططات للكنائس ونوعيات السواكف التي زينت النوافذ والأبواب من خلال الدراسات التي أجريت من قبل العديد من الباحثين في تلك المنطقة حيث زينت هذه المباني باللوحات الفسيفسائية وأعطت معلومات هامة عن طبيعة تصنيع هذه اللوحات والتأثيرات الفنية الموجودة في المنطقة خلال العصر البيزنطي. وتعرضت هذه المدن للقصف بكافة أنواع الأسلحة من قبل القوات النظامية. إلا إن المأساة لم تنته هنا عند هذا الحد من الضرر فلقد تعرضت هذه المدن للعديد من الأضرار الكارثية لاحقاً بعد سيطرة الجماعات الإسلامية المتطرفة عليها.

وفي إدلب أيضاً تعرض متحف معرة النعمان، الذي كان سابقاً بناء (خان مراد باشا) جرى تحويله إلى متحف عُد من أهم المتاحف من حيث اللوحات الفسيفسائية الموجودة به والتي تعود في أغلبها إلى الفترة الرومانية، إلى القصف الذي طال البنية الخارجية للبناء وتأثر البعض من هذه اللوحات، إلى جانب سرقة 30 قطعة من تماثيل وغيرها، وتكسير بعض التماثيل المعروضة في باحة المتحف والتقطت صور تصور عناصر من الجيش النظامي وهم يلعبون ببعض رؤوس التماثيل، أما في الوقت الحالي فهو مكان تمركز للمعارضة المسلحة.

وفي المعرة أيضاً تعرض الجامع الكبير الأثري إلى قصف طال سوره وتخريب في بعض

السوري هو سياسة عدم الوعي وغياب ثقافة المجتمع المحلي الذي لم ينظر إلى هذه البنى أو المواقع إلا على أنها مصدر للكنوز وتحوي في طياتها العديد من الحلى الذهبية والعاجية وغيرها من أحجار كريمة ذات قيمة مادية كبيرة، لم توجد يوماً مؤسسة تعنى بتروسيخ هذه الثقافة والتعريف بأهمية هذه التلال التي كرس لحمايتها حراساً عملوا بها طيلة أوقات السنة خوفاً من تعرضها للاختراق والتخريب، وبعضهم الآن بات شهيداً كونه اختار البقاء هنا لحمايتها بعد الاطلاع على مخزونها الهام باختلاف أدواته. هذه الثقافة الغائبة كزست سياسة عدم الاكتراث بأهميتها ونتيجة لعدم الإدراك هذا فلقد جرى تحويلها لتكون ساحات للمعارك وتأتي الأسباب بالمرتبة الأولى كأهمية مواقعها الاستراتيجية حيث تشكل نقاط ارتكاز عالية تشرف على المناطق المجاورة وتكشف حدودها. وخير مثال على ذلك قلعة حلب التي تتموضع على تل مرتفع اتخذتها القوات المعارضة مركزاً لها. لم تتوان القوات النظامية عن قصفها فتعرضت الأجزاء الخارجية منها للتخريب ولا بد من الإشارة إلى أن قلعة حلب تضم في سويات مؤرخة على عصور مختلفة. وتعرضت أيضاً للقصف من قبل قوات المعارضة بعد إجلائهم عنها لتتمركز القوات النظامية بها. فقصفت قلعة حلب من كل الأطراف كأغلبية المناطق المنكوبة في الوقت الحالي.

نموذج آخر يمثل هذا المشهد أيضاً تركب بقلعة الحصن الواقعة في محافظة حمص والتي تعد من أكبر القلاع السورية والمسجلة على لائحة التراث العالمي. خضعت القلعة لتمرکز مسلح من قبل قوات المعارضة وهنا أيضاً أعيد المشهد ذاته فتعرضت للقصف الذي محا العديد من زخارفها النادرة وخاصة تلك التي كانت تزركناتر -قاعة الفرسان-.

ركزت في بداية هذا البحث على التحدث عن المواقع التي تعرضت للقصف بكافة أنواعه الممثلة بالطائرات والدبابات لترتسم النهاية قاتمة غير متصلة من بنية المشهد بل وتحمل العديد من خبايا سيناريو موغل في الجريمة. فكان لكل فعل إجرامي طبق بحق هذه الأوابد مذبحه مدروسة تم وضع أسسها من قبل مفتعلي الجريمة الأولى، شارك في صنعها العديد ممن دخلوا البداية



الهامة جداً والتي تعود إلى نهايات الألف الرابع قبل الميلاد تعرض لتجريف بواسطة التريكاتس وإزالة لسور المدينة الأثري إلى جانب أعمال التنقيب السري. أما قلعة الرحبة التي تقع على الضفة اليمنى من الفرات تعرضت أجزاء منها للتدمير بفعل المعارك الدائرة بين القوات النظامية وقوات المعارضة. وفي موقع تل الشيخ حمد 'دوركاتليمو' ويعد من أهم مواقع العصر الآشوري الوسيط تم استعادة تمثال نصفي ذو أهمية كبيرة عن طريق مؤسسة سعادة حيث تم استخراجها بطريقة الحفر الجائر وتهريبه خارجاً. في حين تعرض المتحف لأضرار مادية وتم إفراغ المتحف من محتوياته وهي الآن محمية في مستودعات..

محافظة الحسكة تم تخريب 89 موقعا سجلت فيها. تضم هذه المحافظة مواقع غنية بالوثائق المهمة وأغلبها يقع على منابع نهر الخابور وفروعه وأهمها 'تل حلف، تل الفخيرية، تل ليلان، تل بيدر، تل خزنة كبير، تل أبو حجيبة، وجسر عين ديوار.. وهي مواقع في معظمها تعود إلى بواكير الحضارة بدءاً من العصر الحجري النحاسي وحضارة أوروك حتى العصور الإسلامية.

من أخطر المشاهد التي شهدتها التراث

أنواع الأسلحة. بلغ عدد المواقع المتضررة فيها حوالي 83 موقعا، وكان الجسر المعلق الذي يقع في مركز المدينة أولى الخرائب التي نجمت عن القصف الشديد الذي طاله ويعود الجسر للعشرينات من القرن العشرين تم بناؤه في فترة الانتداب الفرنسي وهو الآن في حالة الانهيار الكامل، وتعرض أيضاً السوق المقيبى 'سوق الحدادين- التجار..' الذي بني في العهد العثماني (1864) والذي يحتوي بداخله على باب أثري يعود للعصر نفسه إلى القصف الشديد وهو الآن على شكل بقايا من الركام. أهم المواقع الأثرية هنا كان موقع ماري الذي يؤرخ فترة ازدهاره على الألف الثالث والثاني قبل الميلاد والتي عثر في سوياتها على أرشيف مسماري ضم حوالي 25000 رقيا قدمت العديد من الوثائق المهمة عن العلاقات السياسية القائمة في تلك الفترة بين الممالك القديمة. جرى سرقة محتويات بيت البعثة، حفريات سرية في عدة أماكن من القصر الملكي، معبد عشتار وربة الينبوع. في حين تعرض أيضاً موقع دورا أوروبوس للعديد من الأضرار التي تراوحت بين أعمال سرقة وحفر وتخريب للمباني القابعة فيه إلى جانب تعرض مسرحه إلى أضرار جسيمة.

موقع العشارة 'ترقا قديماً' وهو من المواقع



المكان مكباً للقمامة وهي تمتد على مساحة لا بأس بها. إلى جانب قلعة المضيق الواقعة على تل مرتفع في الجهة الشرقية من سهل الغاب الذي يمر منه نهر العاصي بالقرب من مدينة آفاميا الأثرية، تعود القلعة إلى ما قبل العهد السلوقي وهي حتى الآن مأهولة بالسكان الذين يقدر عددهم بحوالي 18000 نسمة. ولم تتخذ الإجراءات اللازمة بهذا الخصوص حيث لازالت القلعة تخضع للعديد من الأعمال التي تهدد تاريخها.

في هذا الوقت تجري به عملية محو ممنهجة لهوية دمشق التاريخية منذ وقت ليس بالقيل، ففي هذه المدينة نفسها العديد من البنى الأثرية الآتلة للسقوط والتي يعود أغلب عقود ملكيتها للدولة وهي من أهم الرموز التي لازالت تحافظ على هوية دمشق وهويتها كأقدم عاصمة في التاريخ، هي الآن مهملات ولم يبقَ منها سوى بعض البقايا التي توحى بمدى أهمية زخارف أسقفها وقناطرها التي صمدت على مدى التاريخ ونكباته. فألية محو وتدمير الدلالات والرموز التي تميز هوية مدينة عن مدينة أو شعب عن شعب يهدم لمسح كامل لهذه الهوية.

فبناء الفصول الأربعة الذي نُصّب في مركز مدينة دمشق حيث أبنيتها التاريخية الممثلة بـبناء تكية سليمان القانوني، وبناء المتحف الذي يعود للعام 1919 م، بناء الجامعة وغيره من الأبنية التاريخية، يظهر بشكل مخل ومشوه لروح المكان. جرى جرف العديد من مباني هذه البقعة التي كانت متخمة بأبنية تحمل روح دمشق، إلى جانب تجفيف وريدها الممثل بنهر بردى الذي لم يبقَ منه سوى بضع بلاطات ترصف أعمدة الباطون والإسمنت.

نهاية لا بد من التذكير بأن الحكومة السورية لم تصادق على اتفاقية لاهاي للعام 1954 المختصة بحماية التراث الثقافي في حال النزاعات المسلحة، ولم توقع أيضاً على التعديل الذي حصل عام 1999 ولم تصادق على اتفاقية باريس للعام 1970 ومضمونها حماية الممتلكات الأثرية وحظر منع استيرادها ونقل ملكيتها ■

خبيرة الآثار من سوريا



هذه الفراغات. وهنا تمكن المتطرفون من الاستيلاء على كافة المواقع الأثرية التي عدت بالنسبة إليهم إلى جانب حقول النفط وريداً يمول أعمالهم. ففي أغلب مواقع الرقة تم القيام بأعمال حفر جائر وسرقة للقطع الأثرية وتخريب التسلسل التاريخي للسويات إلى جانب استخدام المعدات الثقيلة في الحصول على هذه القطع. من أهم هذه المواقع (الرصافة) هدمت أجزاء من السور الأثري في الجهة الغربية لإحداث فتحة لمرور الآليات. تل الشيخ حسن- تل الصبي أبيض- أهم المواقع المؤرخة على الألف السادس قبل الميلاد، في الوقت الذي تعرض فيه متحف الرقة للقصف من قبل الطيران النظامي وتعرض للتخريب في بعض أجزائه.

في نهاية المطاف والجدير بالذكر أن سياسة الإهمال والآلية الكارثية في التعامل مع الكنوز الأثرية لم يكن وليد المرحلة الراهنة التي ألفت بظلالها في السنوات الأخيرة، فالقلاع التي لم تطلها الفدائف ولم تكن على احتكاك مع مناطق الصراع المسلح كانت قيد الإهمال وطوي النسيان. فقلعة القدموس التي تقع في مدينة القدموس (تبعد عن مدينة بانياس 30 كيلو مترا شرقا و70 كيلو مترا عن مدينة طرطوس)، والتي يجب إدراجها ضمن قائمة المواقع المنكوبة تعرضت للتخريب. فلقد جرى إعادة الاستفادة من حجارة القلعة في بناء مبان للسكان المحليين، إلى جانب استيطان بعض الأقسام وتحويلها إلى مطابخ، فن دجاج ومناطق لشي اللحوم. والمنظر الأكثر تشوهاً هو ترهل حجارة أقسام أخرى وتراكمها فوق بعضها البعض حيث تمت الاستفادة من المشهد في جعل

راغبين في إنهاء كل مدلول يمت لهوية بصلة، والتي تبلور خطها لاحقاً بقوى ظلامية أخذت على عاتقها متابعة خطوط النسف والتدمير وكل ما يمت لها بصلة. فكان التراث الحضاري في كل من سوريا والعراق بشكل خاص موطئاً لها والتي ساهمت الفوضى الحالكة بإنتاج ممرراً لها، تم تجسيدها لاحقاً بشبح استطاع أن يفرض وجوده ويصبح فزاعة المرحلة إنه 'الشبح العقائدي'. لعبت فيه التيارات الإسلامية المتشددة الدور الأساسي في منظومة هذه المرحلة والتي يأتي في مقدمتها 'تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام' الذي تابع الخطوات الأولى التي تم العمل عليها، من محو للهوية الأساسية للحضارة والمجتمع السوري مستعينا بشعائر الإسلام وقوانينه في تطبيقها للأحكام الجائرة بحق الإنسان والتاريخ وشكلت إحدائيات المكان تربة خصبة لتفانق هذا الوباء. فبدأت انطلاقته كباقي الحركات المشوهة للتراث من مبدأ تحريم الأوثان والأصنام ليجد في هذا البند مبرراً لسياسة الهدم والتكسير بحق العديد من هذه الرموز التاريخية، وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حينما قرر إحياء شعائر الإسلام المموهة ونبد الأديان الأخرى فبدأ بتجريف مقدساتهم وسلب معتقداتهم. وامتد جزره نحو هدم المقامات والمزارات المقدسة في العديد من المناطق بتهمة تحريم تقديس الأشخاص. ففي درعا وبالذقة في مدينة 'نوى' وبتاريخ (2015/1/7) تم تدمير مقام الإمام النووي من قبل جبهة النصرة. لم يكن المقام مزاراً ولا مكاناً للتعبد ولا التبرك بل كان موقفاً أثرياً أكثر منه دينياً.

وفي حلب أيضاً تم تدمير ضريح أحد الأولياء الصوفيين 'قبر الشيخ محمد النهان وعائلته' في جامع الكتاوية من قبل جبهة أنصار الدين. يوجد داخل المدرسة مسجد النهانية الذي يحوي الضريح. إلى جانب القيام بعمليات تفجيرية في محيط المواقع الأثرية راح ضحيتها العديد من المباني الأثرية الهامة. وفي السويداء أيضاً تم هدم مقام ديني في قرية الحقف بريف السويداء الشرقي من قبل تنظيم الدولة الإسلامية.

في الوقت الذي كانت فيه محافظة الرقة الضحية الأكبر في تاريخ هذا التنظيم فلقد كانت عاصمة لهم أجري إخلاء القوات النظامية من معظم أجزائها لتتملاً عناصره



الجغرافيا المستباحة

الحكاية التي لم تكتمل بعد

عبدالله مكسور

للقصّة بدايتان أو أكثر، إحداهما تنطلق من الأراضي التركية الحدودية مع سوريا حين يأتي الأمر من خبير بالآثار يتبع عصابة تشتغل باقتناص الفرص المواتية للبدء بحفر الأرض من أماكن مناسبة يعتقدون جازمين أنها تحوي في باطنها كنوز الأقدمين، أما البداية الثانية فهي تأتي مُصادفةً حين يقوم عنصرٌ مُسلّح بالحفر اعتباطاً قرب الأماكن الأثرية ليجد كنزاً دفيناً لم يره أحدٌ منذ مئاتٍ وربما آلاف السنين .



الكتائب العسكرية و القناصين في قلعة حمص وقلعة حماة والمئذنة السلجوقية للجامع الأموي في حلب وكذلك القلعة الكبيرة في حلب شمال سوريا، أمام كل هذا الاستهتار بالمكوّنات الأثرية للتاريخ السوري برزت عصابات الاتجار بالآثار والكنوز القديمة لتجد من الساحة السورية والعراقية مكاناً ملائماً لنشاطها العابر للحدود .

المواجهة الصادمة

إنّ مواجهة الحقيقة الصادمة تُحتم علينا أن نقول إنّ كل هذه الخسارات التي نراها أو نسمع عنها في رحلة النزيف المستمر للإرث الحضاري التاريخي في البحث عن قطع معدنيّة وأوان برونزية أو ذهبية ما لبثت أن اتّخذت شكلاً احترافياً بعد أن تمّ بناء شبكة علاقاتٍ عنكبوتية بدأت من الأرض التي يتم العثور فيها على كنزٍ حقيقي وانتهاءً بالعلبة الزجاجية التي يتم عرض التحفة فيها خلف إضاءةٍ وفيرة على منصّة في إحدى مدن العالم البعيدة عن الحرب، مستخرجو هذه الكنوز من الأرض هم سكان القرى التي تحيط بالموقع الأثري الذين يحصلون على موافقة مقاتلين من ضفّتي الحرب فقدوا الأمل بمستقبلهم فباعوا ماضيهم بالسعر الذي تمّ طرحه وسط صمتٍ مُذهلٍ

أما على الجانب السوري فإن الإحصاءات عن عمليات تهريب الآثار مُعجّبة أو غير موجودة لأنّ هذه الصفقات كانت تتم كما تقول الكثير من المصادر تحت إشراف النظام السوري أو عناصر لها نفوذ كبير في بنية الدولة الحاكمة. ولكن بعد مرور أشهر على وقوع الانتفاضة السورية بدأت الآثار السورية بالظهور بشكل كبير جداً في الخارج، ونشطت عمليات التهريب والنهب التي باتت تسير بشكل ممنهج وبعمليات منظمة عبر شبكات عالمية لها جذورها في الأرض السورية وامتدادها في العمق التركي أو دول الجوار السوري. وفي هذا الاتجاه تعرّض أكثر من أربعة عشر متحفاً سورياً للنهب أو القصف أو التدمير بين عامي 2011 م و2012 م في خطوة كانت الأولى علنيّة لاستباحة الكنوز التاريخية التي تحتويها هذه الأماكن التي لم تكن تحظى بالحماية اللازمة، نحن إذن أمام تواطؤ حكومي سوري رسمي أدى إلى انهيار الكتلة التاريخية الموجودة في المتاحف مع انطلاق الانتفاضة السورية وبعد ذلك مع تعقّد الملف السوري وظهور الحركات الراديكالية الإسلامية التي رسمت حدودها خارج التاريخ والجغرافيا معاً بدأت القوات السورية النظامية باللجوء إلى الأماكن التاريخية لتكون مقرّاً لها فلو حظ انتشار

نزيف الآثار السورية والعراقية بلغ أقصاه في الأشهر الأخيرة ولكنّه بدأ منذ انطلاق عمليّات التنقيب الأثرية في المنطقة عام 1923 عندما كانت البعثات الأجنبية تُشرف على استخراج اللقى التاريخية القديمة بعد الاتفاق مع السلطة القائمة حينئذٍ على نسبة يتم تحديدها من مُجمل اللقى ليكون نصيب الأسد للثمين راحلاً إلى المتاحف الأجنبية، تلك الآثار التي تحوّل في طيّاتها التكوين الحضاري للإنسان الحالي المعاصر، ومن هنا يُمكن القول إن آثار سوريا والعراق تعرّضت لعمليات سرقة مُنظمة بشكل مُستمر منذ ما يُقارب ثمانية عقود مُتواصلة ولكنها أخذت تحديداً في العراق شكلاً جديداً واضحاً بعد نيسان أبريل من عام 2003 م أي منذ الاحتلال الأميركي لبلاد الرافدين حيث وقف جند المارينز وقوات التحالف مُتفرّجين على أكبر عملية نهبٍ تمّت في وضح النهار، فالعراق وحده بحسب الإحصاءات العلمية تعرّض في الفترة بين عامي 1991 م و2003 م إلى سرقة أكثر من أربعة آلاف قطعة أثرية بينما فقد أكثر من خمسة عشر ألف قطعة أثرية تتنوّع بين التماثيل والألواح التي تحمل نقوشاً كتابية بعد الحرب الأميركية التي وقعت عام 2003 .



المتاحف أو في الأرض فإن كان الجانب العراقي منذ عشرينات القرن الماضي يخضع لاتفاقيات مُلزمة مع بعثات التنقيب أو سلطات الانتداب فإن الجانب السوري أيضاً لم يستطع النفاذ من هذه الشبكة والذي عزّزها فيما بعد فساد المنظومة السياسية الحاكمة التي أدت إلى انهيار أخلاقي في العقد الاجتماعي ساهم بشكل كبير في التفريط بالكنوز التاريخية التي كانت تتم صفقاتها فيما مضى في الظلام أما اليوم فهي تتم في النور المُطلق وأمام الجميع بعد انتشار الحركات التي اتخذت من هذه التجارة باباً كبيراً لتمويل عملياتها العسكرية .

في فيديو نشره عناصر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام الشهير الذي هاجموا فيه متحف الموصل ومدينة نينوى الأهم في العالم بين أقرانه تمّ خلال خمس دقائق تدمير ما بقي من حضارة الدولة الآشورية والذي احتفظ بها المتحف لعقود طويلة وهذا الفعل يصفه الدكتور شيخموس علي رئيس الجمعية السورية للآثار بالكارثة الإنسانية والذي يُضاف إلى الجرائم بحق الإنسان السوري والعراقي على حدّ سواء حيث تمّ في تلك الواقعة تم تدمير تماثيل قديمة ونسخ حديثة لتماثيل قديمة نُقلت

الإنسان. بدأ ناقوس الخطر العالمي بشكل حقيقي بالنتجته إلى هذه المجازر التي تصيب الكون الأثرية والتي لا تقلُّ بشاعةً عن تلك التي تصيب الإنسان بفعل الطائرات والصواريخ والرصاص العسكري بعد أن احتدّت الاشتباكات العسكرية في حلب شمالي سوريا وتحديداً في المدينة القديمة وحين اشتعل الجامع الأموي وما حوله ناراً .

الفضى القاتلة

أمام كل هذه الفوضى وانتشار سمسارة التهريب بين مختلف المدن السورية والعراقية والتواصل مع المدن المحاذية للحدود في دول الجوار السوري والعراقي لا توجد إحصائيات حقيقية دامغة واضحة المعالم لما تمّ الإجهاز عليه أو استخراجه من لقي وكنوز أثرية، وذلك يعود للصعوبات الجمة في الوصول إلى الأماكن التي يتم التنقيب فيها لوقوعها على خط اشتعال الجبهات فضلاً عن تسرّب من يقع على الكنوز دون اطلاع أحد عليها وبمراجعة بسيطة للتاريخ القديم والحديث للمنطقة نجد أنّ الحروب التدميرية منها والاستعمارية أطاحت بالتاريخ أيضاً من خلال استباحة الموروث الآثري الموجود سواء في

من الجميع ، قريبين وبعيدين، ممن وقفوا مُراقبين ما آلت إليه هذه الرحى التي دارت على الإنسان بماضيه وحاضره على حدّ سواء .

بحسب الإحصاءات العالمية فإنّ ما تمّ إخراجها من سوريا يتعدّى بكثير ألوأحاً تعود للعصر البرونزي منقوش عليها بالكتابة المسمارية فضلاً عن الفسيفساء التي تمّ إخراجها من كنيسة القديس سمعان وأفاميا والتي يؤرّخ عمرها في عمق التاريخ لأكثر من ألفي عام وتلك التي وُجدت في ريف حماة وريف إدلب أيضاً، ولم يقف النزيف ها هنا بل تعدّاه إلى دقّة عالية بدأت بمعرفة بسيطة ثم غدت علماً قائماً يعرف ممارسوه أين يحفرون مثل عمليات الحفر غير الشرعية التي تمّت في موقع دورا أوروبوس على الفرات حيث قام سكان القرى المجاورة للموقع والذين كانوا يعملون مع البعثة الأثرية السورية - الفرنسية بفتح مربعات تنقيب نظامية ضمن قطاعات معيّنة بشكل يُشبه إلى حدّ كبير عمل الآثريين المحترفين دون أيّ توثيق لأنّ غايتهم تنحصر في إيجاد اللقى الأثرية لبيعها أو تهريبها، نحن هنا أمام حالة من اللاداعي الذي يسيطر عليه الجشع المادي بكليته ليكون التاريخ سلعةً بعد أن سقط قدسيته مع ما سقط من قدسية حياة



منحوتة ذهبية تعود إلى مملكة "قطنا" السورية القديمة



المقتنيات فإن الخسارة الاقتصادية التي تُحقِّقها تسرُّب 6 أو 7 مليارات دولار من السوق العالمية سنوياً ستؤدي حتماً إلى نوع من الدخول في عجلة الركود الاقتصادي، فنحن أمام حالة من اللامبالاة تبدأ من لحظة عرض القطعة الأثرية في الريف السوري أو العراقي وصولاً إلى المسارح في المزايدات العالمية وبمراجعة سريعة للقوانين الدولية في هذا الشأن فإننا نجد استحالة دخول أيٍّ من المقتنيات التاريخية أو الأثرية دون تسجيلها رسمياً وبالتالي فإنَّ عملية التسجيل التي تتم عبر العديد من الدول خارج الإطار السوري أو العراقي ما هي إلا منظومة فساد جديدة تُضاف إلى الشبكة العنكبوتية التي رُسمت بعنايةٍ ومهنيَّةٍ عالية لإكمال دورة نزيه الآثار في سوريا وبلاد الرافدين، خاصةً إذا وُضع في الاعتبار أنَّ هذه الأموال التي يتم جنبتها من عمليات التهريب تذهب لتمويل عمليات عسكرية تؤدي إلى قتل الإنسان أو تشريده ونزوحه ولجونه فالفعل التخريبي أو التدميري أو التهريبي للمكوّن التاريخي المتمثّل بالآثار لا يقل عن فعل القتل الذي تُمارسه الآلة العسكرية ومن يديرها. التدمير يأخذ أشكالاً متعدّدة على يد عناصر تنظيم الدولة الإسلامية فبدءاً من استخدام

يُمكن أن يستمرّ بالإحساس بقرب الفناء الذي يُسيطرُ عليهم يجعلهم يحثّون الخُطى سريعاً لإزالة أو إخفاء أو تهريب الآثار عبر شبكاتٍ تمّت هندستها بعنايةٍ مُطلقة، لحظة إنجاز هذا التحقيق من المؤكّد أنّه في ظلّ الفوضى التي تعصفُ في سوريا والعراق هناك عنصرٌ مُسلّحٌ يعرضُ تماثيل أو مقتنيات ذهبية تعود إلى عصورٍ مُختلفة، سيطلُّ أرقاماً ماليَّةً تتناسبُ مع طموحاته الحالية بينما سيجني المهزَّب المال الكثير جرّاء شراء ما هو معروض، هناك عشرات الحالات التي تمّت متابعتها وفشلت عمليات البيع والشراء وظلّت اللقى بحوزة العنصر المسلّح الذي فرض نفسه أمراً واقعاً في تلك البلاد بينما هناك آلاف الحالات التي نجح القائمون عليها في نقل الثُحف الأثرية إلى المسارح العالمية وهذا ما يجعلنا أمام الحقيقة الثابتة اليوم بحسب الإحصاءات العالمية حيثُ تُدرّ تجارة التحف والآثار على مستوى العالم ما يتراوح بين 6 و7 مليارات دولار جُلّها يأتي في السنوات الأخيرة من الجانب السوري والعراقي، وهذا يضعنا أمام واقعٍ يكشفُ عشرات الآلاف من الصفقات التي تمّت بنجاح بعد استباحة البلاد سواء في سوريا أو العراق . بعيداً عن الحالة التاريخية التي تُمثّلها هذه

إلى المتحف العراقي في العاصمة بغداد عام 2003 م، فضلاً عن مُقتنيات هامةٍ اكتشفت في مملكة الحضر مثل تمثال هرقل و الملك سنطروق والمملكة آثال بالإضافة إلى تمثالي الثور المجنّح أو لاماسو التي كانت تُزيّن مدخل بوابة نركال في نينوى التاريخية وطال التخريب والتدمير أيضاً بحسب شيخموس المنحوتات التي كانت تُزيّن قصر الملك سنحاريب في تل قوينجق بنينوى وبهذا الفعل التدميري تكون الدولة الإسلامية في العراق والشام وعناصرها قد نسفوا جزءاً كبيراً من المُقتنيات التي تعود للعصر الآشوري الحديث .

هذا السقوط الأخلاقي ليس وليد اليوم فالمتطوّرون الذين يسعون إلى نشر الخراب في العالم كان لهم مقابل ومرادف في العصر القديم. وهنا يعود رئيس الجمعية السورية للآثار إلى ذكر مسلّة حمورابي الشهيرة التي تعود للعصر البابلي القديم حيثُ تمّ نهبها من قبيل ملوك عيلام الذين اقتحموا بابل عام 1155 قبل الميلاد ونقلوا المسلّة برفقةٍ كثيرٍ من إرث بابل إلى سوزا في إيران ولا ينسى الدكتور شيخموس ما قام به هولوكو خان الذي دمّر بغداد بعد دخولها عام 1258 م . ثقافة التدمير نابعة من رغبةٍ في إنهاء كل شيء لفرض أمرٍ واقعٍ يُدرِكُ مُفتعلوه أنّه لا

الجرافات لتدمير تمثال الأسد في حديقة الرشيد بالقزة والذي اكتشف في أرسلان طاش وكسر التماثيل الآشورية التي عثر عليها لصوص الآثار في تل عجاجة جنوب الحسكة السورية وكلنا تابعا ما حدث في متحف نينوى الشهير في الموصل وصولاً إلى استخدام الجرافات مع تمثال الموسيقار عثمان الموصلي كما كانت الجرافات آله لتدمير مدينة نمرود التاريخية ومدينة الحضر وفي تحدٍ صارخ قامت كتائب الدولة الإسلامية في ديسمبر الماضي بتفخيخ وتفجير قلعة تل عفر لتتسبب مساحة كبيرة منها وتدمر أبراجها الجانبية كاملة، هذه الطرق التي اتخذتها داعش للتخريب كان لها على الطرف المقابل منها طرفاً أخرى للتهريب الذي اعتمد على أساليب تنوعت في الحفر الذي اعتمد على أعماق صغيرة وأعماق بسيطة في الأرض بداية ليصل إلى حفر ذات أعماق واسعة وأعماق كبيرة تخترق مختلف السوريات الأثرية وهذا واضح في العديد من المواقع التي يتم فيها الحفر الآن في مختلف المناطق السورية أو العراقية كموقع مملكة ماري على نهر الفرات، وفي مقطع عرضي آخر للمشهد نجد أن هناك عمليات حفر تتم ضمن نطاق محدّد باستعمال الأجهزة الالكترونية وأخطر أنواع الحفر هو ذلك الذي يتم اعتماداً على عمليات منهجية ضمن مربعات تُشبه إلى حد بعيد ما يقوم به المتخصصون في التنقيب، وإذا كانت عمليات التدمير المباشرة تؤدي إلى زوال المقتنيات التاريخية فإن الحفر غير الشرعي الذي يتم بأشكال مختلفة يقوم على فكرة النهب والسرقة التي تستهدف القطع الأثرية الأعلى ثمناً بغض النظر عن قيمتها التاريخية أو ما قد يطلو من خراب للسوريات الأثرية التي تساعد في فهم طبيعة القطعة التاريخية وتقدم الكثير من المعلومات التي تساعد على فهم الموقع الأثري وتاريخه بشكل أفضل وأكمل، وهذا يضعنا أيضاً أمام مواجهة ضياع السوريات التاريخية المكوّنة من البقايا العضوية والفخاريات الأخرى وكل ما يحتويه التراب المحيط باللقى التي يتم سرقتها وبالتالي حدوث فجوة في التاريخ لا يمكن إصلاح عظيمها أبداً.

هل هذه الحفريات تنم بمعزل عن الشلطة القائمة في سوريا أو العراق؟ للإجابة عن

هذا السؤال سأستعرض قصة مدينة أفاميا السورية التي تقع في محافظة حماة وسط البلاد والتي بُنيت عام 301 قبل الميلاد في عهد سلوقس الأول نيكاتور الذي تولى السلطة في الشرق بعد وفاة الإسكندر المقدوني وباتت في وقت لاحق عاصمةً عسكرية للدولة السلجوقية وقد اتخذت منذ بنائها شكلاً يشبه رقعة الشطرنج حيث تم تقسيمها إلى أحياء سكنية مستطيلة الشكل مع شوارع مستقيمة بالإضافة إلى إحاطتها بسور دفاعي كبير يزيد طوله عن 7 كيلومترات، ومع انطلاق الاحتجاجات في الانتفاضة الشعبية بسوريا قام رئيس مفرزة الأمن العسكري في المنطقة بحسب الناشطين بحث المتظاهرين على إخلاء الشوارع مقابل فتح الأماكن التاريخية لهم لتكون غرضاً للنهب، وأمام الثقافة الاجتماعية القائمة التي استغلها تجار الآثار الذين استخدموا أهل المنطقة ليكونوا أدوات للحفر والنشر عنلقى التاريخية على مرأى من قوات النظام السوري التي أقامت حاجزاً هناك أسمته حاجز الآثار، نحن إذن أمام حالة من التزاوج بين السلطة وتجار الآثار بعلاقة يحكمها الفساد وبناء على هذه الحالة يمكن

القياس على أغلب إن لم نقل كل الأماكن التاريخية التي تعرّضت للتدمير أو النهب و تأكيداً لما حدث في أفاميا فقد أظهرت لصور الجوية للمدينة أماكن حفر عشوائية رهيبه فاقت مساحتها أضعاف المساحة التي نقبتها البعثة البلجيكية على مدار خمسين عاماً.

فعل التدمير أو النهب الذي يمارسه من يدّمّر الآثار التاريخية يعتمد في فعله على نصّ ديني يقوم على حديث منقول عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في وصيته لعلي بن أبي طالب بالألا يدع صورة إلا ويطمسها ولا قبراً مُشرفاً إلا ويُسوّيه وهنا يؤكّد الباحث الإسلامي رياض درار أنه لا يوجد ما يحرم الفنون من رسم ونحت وتصوير، وما نهى عنه في المسألة هو الرجس (فأجتنبوا الرّجس من الأوثان، والرجس هو الاختلاط، ورجس الأوثان هو عبادتها ولبس هي بحد ذاتها، إذ لا يمكن اجتنابها، ولكن يمكن اجتناب الاختلاط فيها، فالتماثيل والنصب لا غبار عليها طالما لا يختلط الأمر علينا بأنها لا تنفع ولا تضر، وحطمت الأصنام التي كانت تُستخدّم للعبادة أمّا ما كان موجوداً ولم يعبد تركه المسلمون من أهرامات وتمثال أبي الهول وكثير من آثار الشعوب الماثلة حتّى اليوم فيما لو حرم الرسول الكريم وجود التماثيل والصور لما تركت الفتوحات الإسلامية الأهرامات وأبو الهول ولوحات الفسيفساء في المعابد الرومانية ، ويجزم درار أن ما ورد من أحاديث هي موضوعة في ذلك ويُفندّها التاريخ على عهد الأمويين حيث أنهم لم يعملوا بها لأنهم لم يسمعوها بها حيث كانت لديهم تصاوير ورسوم، أمّا مشكلتنا اليوم بحسب الباحث الإسلامي فهي مع من لا يتدبّر الأمور ويطبق أقوال السلف التي أطلقوها وفق أرضية معرفية تجاوزها الزمان.

الكاتب والباحث السوري تيسير خلف يرى أنه حين بدأ هوس جمع آثار الشرق في أوروبا وتحديداً مع نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، لم تكن السلطنة العثمانية تمتلك رؤية عن هذا التراث، وكانت الأفكار حول القطع والأبنية الأثرية يشوبها الكثير من الأساطير، ويردنا أنّ الدكتور أوليريك سيتزن في العام 1804 زار منطقة المشرق العربي وبدأ بجمع القطع الأثرية وإرسالها إلى برلين تحت سمع وبصر رجال



فنحن أمام حالة من اللامبالاة تبدأ من لحظة عرض القطعة الأثرية في الريف السوري أو العراقي وصولاً إلى المسارح في المزادات العالمية





المُتَبَقِّيَّة عنها، ففقدانها سيُشكِّل فجوةً حقيقية في فهم الثقافة التي اعتمدت في حدودها وإطارها على ما كان قائماً، أو استمدت وجودها ممّا كان بشكل أو بآخر، لقد كانت تلك الآثار مدخلاً حقيقياً لفهم الواقع الحالي والمستقبل القادم ونحن اليوم أمام ضياع حلقة من سلسلة الوجود البشري التاريخي بعد انهيار المنظومة التاريخية وتتابع الأماكن التي انتهت بفعل الصراع العسكري بين مختلف الكتل في سوريا والعراق وتداخل المصالح الأممية التي ترغب بعضها بتزوير التاريخ بإزالته كلياً عن الوجود ووضع بديل له يتماشى مع الطروحات التي يتم ترويجها، ومن البديهي القول إنّ الصراعات الطائفية التي استشرت في البلاد السورية والعراقية قد لعبت دوراً أساسياً في انفلات الأوضاع لتصل إلى هنا، والسؤال الذي يجب مناقشته بحزم بعد أن انهار ما انهار من تراث وتاريخ بلادنا، ماذا يجب فعله للحفاظ ما تبقى وهنا تبرز العديد من الطروحات أحدها يدعو الغرب لوضع يده على كل الأماكن التاريخية بهدف حفظها بعد أن فشلت الشرق في حمايتها والآخر يدعو لتشكيل كتائب عسكرية أممية تكون مهمتها في إبعاد الصراع العسكري عن الأماكن التاريخية وتبّاراً ثالث يدعو القوى المُتَحارِبة إلى تحييد هذه الأماكن عن جبهات المعارك التي امتدت على كل التراب هناك بينما يسعى آخرون لمتابعة المقتنيات التي يتم تهريبها وبيعها لإعادتها وهذه بطبيعة الحال تأخذ وقتاً طويلاً وتحتاج جهداً وصبراً مديداً، وفئة تسعى لإيقاف الفساد الموجود في صفوف الأنظمة الحاكمة أو المعارضة التي تسهل بدورها عمليات التهريب، وبين كل هذه الاتجاهات المطروحة يبقى أماننا حقيقة واحدة هي ضياع تراث تاريخي وحضاري فريد تكمن فرادته في أهميته التاريخية لنا وللأجيال القادمة وإن استمر الحال على ما هو عليه لن تبقى في سوريا والعراق قطعة واحدة تدلّ على حضارة الأمم التي نمت وازدهرت وأقامت مجدها في هذه المنطقة ■

كاتب من سوريا مقيم في بروكسل

أبرزها حسب أخصائية التحليل النفسي الأفكار الأيديولوجية في فقدان الرمزية للمكان مثل المُعْتَقَدَات الدينية التي تُحَرِّم التشخيص والتصوير والتجسيد للكائنات الحيّة لذلك لا مانع لديهم من التخلص منها و تحقيق الربح المادي فالمعتقدات الدينية في هذه الحالة غالباً ما تتحكّم بشكل لا شعوري بالمشاعر والانفعالات التي تحكّم سلوكه هؤلاء وتمنحهم مبرراً أخلاقياً لأفعالهم فضلاً عن عامل الجهل وعدم المعرفة بقيمة هذه الآثار التي يتم تهريبها يجعل من قيمتها المادية مطمئناً ومكسباً كبيراً في ذات الوقت تجزم الحديد بأنه عبر التاريخ القريب والبعيد فإنّ الهجمة البدائية كانت أهم منجزاتها تدمير الحضارات القائمة والحرق والنهب والقتل وهذه الصفات المجتمعة لا تصنع دولاً ولا تبني مجتمعات حرة مهما كان اللبوس الذي تلبسه والرايات التي تحملها أو تُعلِنها .

الانعكاس الثقافي القادم في المستقبل هو الباقي بعد أن ضاعت كل تلك الأماكن التي لن نعود لرؤيتها حقيقةً إلا عبر الصور



الانعكاس الثقافي القادم

في المستقبل هو الباقي

بعد أن ضاعت كل تلك

الأماكن التي لن نعود

لرؤيتها حقيقةً إلا عبر الصور

المُتَبَقِّيَّة عنها، ففقدانها

سيُشكِّل فجوةً حقيقية في

فهم الثقافة



الدولة العثمانية، وكثيراً ما أهدى سلاطين بني عثمان للأوروبيين القطع الأثرية ومنها التعريف الجمركية التدمرية والجسر الأبيض في منطقة الصالحية، وخلال فترة الانتدابين الفرنسي والبريطاني للمنطقة نقلت أهم القطع والمعابد الأثرية إلى متاحف الغرب، وربما هذا ما حماها من خطر العبث والتدمير الذي كان قدر المنطقة منذ ما بعد الحرب العالمية الأولى، يؤكّد خلف أن الأنظمة الاستبدادية لم تُعامل تراث وآثار المنطقة بقدر بسيط من المسؤولية فالحروب التي خاضتها هذه الأنظمة ضد شعوبها كلّفت تراث المنطقة الكثير ولعلّ مثال حماة 1982 م حاضر في الأذهان قبل انطلاق الثورة السورية، النظام بحسب خلف لم يراع حرمة أيّ موقع أثري أو تراثي فكان القصف العشوائي يطال كل شيء ليصير إلى تدمير مواقع كانت من ضمن التراث العالمي وبالتالي ظلّ نهب المواقع الأثرية مستمراً على الدوام ولم ينقطع ، والآن كما يرى الكاتب والباحث السوري أنّ الحرب الدائرة في أرجاء المدن السورية تشكّل فرصة لجميع أنواع المافيات لتهريب وبيع هذا التراث الذي يعد ملكاً للبشرية جمعاء .

أمام كلّ هذا يُمكن القول إنّ فعل التدمير يأتي من الإحساس بالعدم حين يتحوّل المحاضر إلى المُحاضر بالعبث بكل شيء ناشراً ثقافة الدمار متذرّعاً بنصوص لا وجود لها و لبقية بأنه لا مكان له في الحاضر أو المستقبل يسعى لتحطيم التاريخ كي يعمّ الخراب، فهو شبح يعيش بدولةٍ خارجة عن التاريخ والجغرافية فكيف يسيل منه الدم إن دمّر تاريخاً ليس له، هو الدخيل على كلّ شيء قاتلاً شرساً بدبابةٍ أو بنصّ ديني، هذه القراءة النفسية تجعلنا نتجّه نحو التحليل النفسي للعاملين والسماسة في شبكات تهريب الآثار حيث تحكّمهم ثقافة الجشع والطمع والرغبة في الكسب غير المشروع والثراء السريع كما تقول الدكتورة خولة الحديد كما تؤكّد أنّ المهزّب أو السمسار يفقدون الإحساس بالانتماء للمكان وفقدان الصلة بالجزور الأممية التي تُمثّلها هذه الآثار التي يتم تهريبها وهي في قيمتها العالية لا تعني شيئاً لمن فقد صلته وانتماءه لحضارته وبينته وهنا تبرز حالة من التغريب عن روح المكان التي تحكّمها الكثير من العوامل ربّما



شهادات إعدام التاريخ

هذه شهادات بأقلام نخبة من الكتاب والباحثين والفنانين تتحدث عن فاجعة تدمير التراثين الحضاريين لشعبي العراق وسوريا. ثمة لوعة كبرى، وأنات لم تعد خافة ولا مكتومة، تصدر عن هؤلاء العارفين الملتاعين بما فقدوا بفعل الطغيان الذي مارسه القوى الطائفية والعسكرية المتحكمة بالمدن والبلدات التي تنتشر فيها آثار الشعبين. لم نكن يوماً لنتخيل أن تدمير التراثين القديم والوسيط لشعبي سوريا والعراق كان يمكن أن يجري على أيدي عراقية وسورية. فالتاريخ أنبأنا بأن الوحشية ضد حضارة شعب طالما كان مصدرها غزو أجنبي يريد أن يمحق الآخر. ما حدث في سوريا والعراق كان سابقة تقول شيئاً آخر: الغزاة الذين حطموا تراثنا كانوا يسكنون بيوتاً تجاور بيوتنا، أطفالهم درسوا على المقاعد نفسها التي درس عليها أطفالنا، واليوم نحن في خيام اللجوء وهم ينامون في وحشة أسرنا ■
قلم التحرير



معاول الظلام والتخلف

مصطفى محمد غريب

على المئات من الآثار والرسوم والمنحوتات والقصور العائدة للملك سنحاريب (حوالي 700 قبل الميلاد، وعلى موقع قصر آشور ناصر بال إضافة إلى آثار برونزية تعود إلى حوالي 2334 - 2279 قبل الميلاد، أما في العصر الحديث وبخاصة الحكم الملكي فقد اعتبرت نينوى المحافظة الثانية بموقعها السكاني في العراق واعتبرت الموصل عبارة عن نقطة وصل وكما جاء في المثل "هذا غيض من فيض" بخصوص تاريخ نينوى وموقعها ومدينة الموصل التي اشتهرت مثلما أشرنا بآثارها ومتحفها الغني بالمنحوتات والكتابات والتماثيل، هذه الآثار والمنحوتات وغيرها هما الكنز الثري التاريخي الذي يمتلكه العراق وهو جزء من تواجده المعرفي والثقافي والتراثي، ومن خلال الاكتشافات الأثرية التي هي الأسس المادية المعرفية التي أثبتت أن حضارة وادي الرافدين هي مهد الحضارة في التاريخ البشري كما اكتشفت شريعة حمورابي التي تتكون من العديد من القوانين التي تعود إلى (1790 قبل الميلاد) باعتبارها الأولى في التاريخ من حيث شمولها وتكاملها التي خطت على الألواح التي يعود تاريخها إلى (300 قبل الميلاد) حيث استعملها السومريون، كما جرى اكتشاف أنظمة الري والسقي التي استعملت في جنوب العراق وشماله وأكدت التنقيبات الأثرية على أن أول المجتمعات الزراعية وُجدت في وادي ما بين النهرين تحديداً إضافة إلى قلعة "جرمو شرق كركوك" التي تعود إلى عام (7050 قبل الميلاد) كما دلّت الاكتشافات على اكتشاف أقدم عجلة في العراق تعود لعام (350 قبل الميلاد) وغيرها من الآثار والألواح المسماوية.

هذا التاريخ أصبح منذ الاحتلال الأميركي 2003 في مهب الريح، ويحضرنا حينها كيف جرى نهب المتحف العراقي أمام سمع وبصر الجيش الأميركي الذي لم يحرك ساكناً حتى أمام السرقات المتكررة للآثار من كل المواقع الأثرية ونقلها وبيعها خارج البلاد من قبل مختصين "حرامية عراقيون مسنودة ظهورهم كما هو معروف.. واليوم تتكامل المسرحية الدرامية الدموية لتدمير هذا التاريخ والتراث الأثري الممتد لآلاف السنين على يد الإرهاب الداعشي الذي حمل معاول الظلام والرجعية المتخلفة وانهاled بها على هذه الآثار وكأنه ينتقم من كل ما هو حضاري وتنويري تقدمي في التاريخ. كأنه ينتقم من الثقافة والفنون والمعرفة البشرية، فداعش لم يكتف بسلب المواطنين حياتهم لأتفه الأسباب وقتلهم بوحشية تفوق وحشية العصور البربرية فظاعة فحسب، بل يهدف إلى إعاقة عملية التطور ومحاولة فاشلة لجعل الزمن يتوقف، لا بل يتراجع إلى الخلف مئات السنين الظلامية التي كانت فيها الإنسانية تعيش الحرمان المعرفي والثقافي والحضاري، وقد ظهر للعيان أن داعش بكل معنى الكلمة هو الجهل المطلق والظلام الأبدي وبحجة الدين الإسلامي كي يتمكن من تحقيق التخلف المطلق وإنهاء القيم الإنسانية التي أصبحت منهجاً أساسياً لحقوق الإنسان وحرية في الاختيار والانتماء.

إن معاول الظلام التي كانت عبر التاريخ تختار المكان المعين وتحاول تطبيق التخلف باستعمال العنف والقتل لإلغاء الآخر قد أثبتت أنها ستبقى على النهج التدميري لقيم الإنسانية والتراث البشري، ولهذا فإن ما جرى في الموصل الآن وتحطيم ماهية تاريخها الأثري يذگرنا ذلك بما فعلته حركة طالبان ومن خلفها القاعدة في أفغانستان عندما قامت بتفجير تمثال بوذا الأثري التاريخي للبودية، ولكن هل انتهت أفكار وتعليمات بوذا كمصلح اجتماعي؟ أو انتهت

الفكر الرجعي الظلامي الذي يجاهد في زيادة العنف والإرهاب والتطاحن الطائفي، القتل والتفجير والاعتقال يعود ليطرق باباً آخر من التراث المعرفي والثقافي التاريخي في البلاد لتدميره وتدمير القيم الأخلاقية والثقافية والعلمية لاستكمال مشروعه المتخلف الذي يهدف إلى الجهالة المطبقة التي تجعل الإنسان عبارة عن آلة تحركها الانفعالات الروحية والعنيفة، وبهذا دشّن في بداية مشروعه الغيبي تفجيرات المراقد والآثار الدينية لكل المكونات كبروفة لحرب مدمرة وجهت لتدمير تراث نينوى وآثارها التي عرفها العالم وعرف معالمها التاريخية ودورها الكبير في الحضارة البشرية منذ نشوئها في العراق الذي سُمّي بلاد ما بين النهرين "دجلة والفرات" الذي يسعى البعض من دول الجوار إلى تحفيهما من خلال قطع الجداول والروافد أو بناء السدود الضخمة وحجب حصة العراق المائية المنصوص عليها في المعاهدات الدولية والإنسانية وهو تدمير لا يقل فظاعة إذا لم نقل أكثر فظاعة عن تدمير الآثار التاريخية لهذه البلاد المبتلية بالإرهاب والعنف واللامعالية لأنه موجّه لحياة الشعب المعيشية والاقتصادية والاجتماعية، وبهذا يواجه العراق مشروعين تدميريين يستهدفان وحدته الوطنية ووحدته الجغرافية.

لا غلّ أو تزييف للحقيقة والتاريخ عندما أُشير سابقاً ولاحقاً بأن العراق مهد الحضارة هذه الإشارة الصحيحة لا يختلف عليها اثنان وهذا ما أكدته علم الآثار والاكتشافات الأثرية المتوزعة على عدة مناطق مختلفة، ومن بين هذه المناطق أو المحافظات محافظة نينوى المعروفة بمعالمها الأثرية والحضارية التي تقدر عمرها بآلاف السنين، وقد اتخذها الآشوريون عاصمة لهم (عام 1080 قبل الميلاد) ومن خلال الآثار المكتشفة الموجودة في الجانب الأيسر من مدينة الموصل وأشهرها الآثار والأسوار والقلاع الموجودة في باب شمس وحصن الآشوريين وتل قوينجق وبوابة المسقى وتل التوبة (الني يونس) وهناك العديد من القلاع الدفاعية التي بناها الآشوريون كما هناك العديد من الآثار والتماثيل والمعالم التي تؤكد عراقية نينوى وتاريخها وتواجدها الحضاري في التاريخ الذي دمر العديد من معالمها الأثرية عندما استولى الميديون والكلدانيون عليها بعد قتال طاحن ثم دمروها بما فيها الحصن العبوري، ولهذا تمتلك نينوى موقعاً متميزاً كونها تشغل المرتبة الثالثة بين المواقع الأثرية العراقية لأنها على الصعيد التاريخي كانت تعتبر عاصمة الإمبراطورية الآشورية التي حكمت العراق فضلاً عن أنها تتميز بمواقع أثرية "ساسانية وكلدانية" إضافة إلى آثار حول الفتح العربي الإسلامي، وأدّت التنقيبات منذ أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين إلى العثور

البوذية كمنهج يعتنقه مئات الملايين من البشر؟ وهل معاول الظلام تطمس معرفة البشرية بمهد الحضارة وتاريخ الشعوب التي قطنت المعمورة في حقب تاريخية قديمة؟

فهذا هو المستحيل بعينه لأنه سيبقى ولن يسقط ما دامت البشرية باقية على الأرض! والذي سقط وسوف يسقط هو الفكر الظلامي المتخلف الذي يقف بالصد من التنوير وحقوق البشرية في المساواة والعدل والحرية. إن العالم المتحضر مدعو أكثر من السابق عندما وقف بالصد من العبودية والعنصرية والفاشية والنازية، وبالصد من التمييز العرقي والقومي والديني مدعو لكي يقف مع الشعب العراقي الذي يعاني من الجرائم البشعة التي يقوم بها داعش والمليشيات الطائفية المسلحة، يقف بكل حزم بالصد من الأعمال الإجرامية لطمس ليس هوية نينوى فحسب بل لطمس معالم الهوية التاريخية للعراق. لقد تنوعت الإدانات التي أصدرتها المنظمات والقوى الاجتماعية والسياسية ومنظمات المجتمع المدني وهذا دليل على عافية التوجه العالمي بالوقوف ضد قوى الإرهاب والتخلف ■

كاتب وشاعر من العراق

الصور فيشاهدها العالم كما حدث في أبريل 2013 حين تناقلت وكالات الأخبار صور انهيار مئذنة جامع حلب الكبير (الجامع الأموي في حلب)، ضحية لاعتداء الأسلحة الثقيلة على وقفاتها الشامخة. تشابهت معها في المصير قلعة الحصن في حمص التي عاد إليها المقاتل السوري يحتمي كالمحاربين القدامى فتعرض لقصف لا يراعي لا تصنيفها ولا تاريخها الذي يمكنه أن يثقل الصفحات.

عَدَل الظلم فتساوت المصائر الأليمة بين الفيسيفاء البيزنطية والنقش الإسلامي والعمود الروماني وتباينت بين نهب وتدمير وإتلاف جزئي.

المنظمات العالمية المهتمة والمختصون يبذلون جهودهم وهم غير ساكنين أو لا مبالين كما قد يتهمهم البعض، فهناك ندوات ومدونات تقام منذ تدهور الوضع الأمني في سوريا وتبين الخطر المحدق بإرثها الحضاري وقد رأت مبادرات وتوصيات مهمة النور من بينها: إصدار القائمة الحمراء للآثار السورية المعرضة للخطر (2013)، ومشروع «الصون العاجل للتراث السوري» (2014) لكن درء الخطر حتى عن مستقبل الميراث الحضاري السوري يبدو سائراً إلى تعقيدات تكبر مع تقدم عمر الحرب.

من يغادرون سوريا اليوم ليسوا فقط اللاجئون المثيرون للتعاطف من أمهات وآباء يحاولون تنظيم حياتهم في مخيمات اللجوء لكنهم أيضاً كوادر سوريا وعقولها ومنهم في مجال الآثار علماء ومختصون وباحثون تتوقف رحلة بحثهم وتضيع في ظل الفوضى القائمة وتهدد المستقبل لأن رحلة العودة تتأثر بطول مدة الغياب.

هناك من يضع إنقاذ الأرواح البشرية كأولوية الأولويات ويرى الأخطار المحدقة بالتراث السوري أقل أهمية، فما قيمة الحجر وما الذي يعنيه تصنيف ضمن قائمة التراث العالمي؟

الحقيقة أن سوريا قدمت للتاريخ منذ بدايات الحفريات والتنقيب عن الآثار فيها منذ نهايات القرن التاسع عشر (حلول إرنست رينان بسوريا باحثاً كان عام 1860)، كنوزاً معرفية ساعدت على فهم تاريخ العصور القديمة وصولاً إلى القرون الوسطى وما بعدها وأن ضم مدنها ومعالمها الأثرية إلى التصنيف العالمي يتجاوز العرفان بالدور الحضاري السوري في التقدم الإنساني إلى الإشارة لقيمة البلد واستراتيجية موقعه على امتداد العصور مما جعل القوَى الساعية لتوسيع نفوذها على العالم الشاسع تضع لها ثوابت فيه وتحاول استدامة وجودها فيه.

رؤية الصنم أو مجرد الجماد أو الحجر في الآثار دليل على ضيق تفكير وضلال كبير فقراءة الماضي تبدأ بما تركه السابقون وهو بغناه لا يُحتزل في معتقد وممارسة عقيدة بل في أنماط حياة ونظام اجتماعي وعلاقات بأهم أخرى وتداخل تواريخ.

الذين يرون في التحفة الأثرية مجرد بناء أو تمثال أو بدائية عليهم أن يراجعوا التاريخ بمفهومه الواسع: تاريخ العمران أو الرياضيات أو الطب... ليستوعبوا كيف حفظت الأحجار حكايات الإنسان ليقرأها إنسان غيره بعد آلاف السنين. إذا أخذنا مثلاً بسيطاً بعيداً حتى عن أسرار تطور العلوم والزراعة والعلاج متصفحين كتاب «تاريخ الفن» للبروفيسور السير إرنست غومبريش سنجد متحدثاً عن لوحة أثرية آشورية يقول «اللوحة تُظهرُ هجوماً على حصن حيث الآلات تقوم بدورها والمدافعون يسقطون من أعلى البرج و امرأة تبكي يائسة...عندما ننظر إليها وكأننا نشاهد نشرة أخبار تعود لألفي عام،

هدم الهوية وقطع الجذور

نصيرة تختوخ

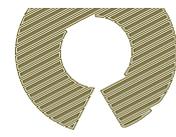
تقول

المادة السابعة من قانون الآثار السوري الصادر عام 1963 يحظر إتلاف الآثار المنقولة أو الثابتة أو تحويلها أو إلحاق الضرر بها أو تشويهها بالكتابة أو الحفر عليها أو تغيير ملامحها أو فصل جزء منها، كما يحظر إلصاق الإعلانات أو وضع اللافتات في المناطق الأثرية و على الأبنية التاريخية المسجلة.

لكن الصور والتقارير القادمة من سوريا تقول إن كل محظور في المادة قد اُرتكب وأن حال الآثار السورية يعادل في سوءه حال إنسانها المقدوف في جحيم الحرب أو يتجاوزها سوءاً.

مدن أثرية لها قيمتها التاريخية الإنسانية المعترف بها لدرجة تصنيف بعضها ضمن لائحة التراث العالمي من طرف اليونسكو تظهر في صور الأقمار الصناعية وقد غزتها الثقوب فاضحة عمليات التنقيب غير الممنهج الذي تتعرض له لنهب كنوزها، نذكر منها أفاميا ودورا أوربوس وماري مشيرين لموقع الثلاثة في الزمن:

1. مدينة أفاميا: تعود للعصر الحجري القديم وقد تعاقبت عليها ممالك وإمبراطوريات كثيرة نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر: الفارسية، المقدونية، السلوقية، البيزنطية، الرومانية...
 2. مدينة ماري: تعود لنحو 2900 قبل الميلاد.
 3. مدينة دورا أوربوس (صالحية الفرات): يعود تجديد بنائها لنحو 300 عام قبل الميلاد في العهد السلوقي مع إشارة لوجودها في العهد البابلي.
- الجوامع العتيقة تهوي في سوريا الدامية جدراننا ومآذن تحملها



إلى ذلك الحد يبدو كل شيء مقنعا وحقيقيا. لكننا لو انتبهنا نلاحظ تفصيلا مشيرا للفضول: هناك عدد من القتل والجرحى في تلك المعارك الضارية، لكن لا واحد منهم آشوري. كانوا يعرفون التباهي والبروباغندا في تلك الفترة أو ربما علينا أن لا نسيء الظن بهم.. ربما كانت لديهم قناعة غامضة تجعلهم يتهيّبون تمثيل الآشوري جريحا. إنّه إنسان المنطقة من يُرى، من عرف حروب وديانات من احتمى ومن أقام الصداقات وقاوم العداوات ومن له صلته بإنسان المنطقة اليوم. تقدم الإنسان لم يكن يوما قطيعة مع ماضيه بل تقدّما منه نحو المستقبل بما في ذلك من اتصال وعدم انفصال كامل. تحطيم الآثار وإتلاف صورها أو ضياعها والوثائق المتعلقة بالحفريات والموجودات المحفوظة منذ عقود قطع جذور تصل الشعب العريق بماضيه ومن الغريب أن تكون هناك علاقة نقمة وكراهية تفصل الإنسان المتصل جينيا بأجداده عن تاريخ بلده. تجريد الأرض السورية من شواهد قدرة مواطنيها عبر الزمن على التعايش وإيجاد سبل للانتصار وحماية الاستمرار ليس أمرا يستهان بتأثيره إنّه مظهر من مظاهر هدم الهوية التي تسهم في المزيد من الارتداء في الضياع الكبير. ومنه فإنّ حفظ التراث السوري اليوم ضرورة ملحة ينضاف إليها عدم تعقيب التفكير في المستقبل عن البال، ذاك المستقبل الذي تلعب فيه المتاحف دورا تعليميا وبيداغوجيا ويعود فيه المواطن السوري إلى تطوير مهاراته وحرفه المميزة لانتماؤه والتي تعتبر أيضا تراثا إنسانا قيّمًا يؤكد علاقته بوطنه تاريخا وممارسة ■

خبير قانوني من العراق

ماذا بعد خراب الموصل

علي حداد

لواجهة ما انهال على حاضرنا المنتهك من أسى وخراب وأطراف قوى شر متدافعة أن نطيل الوقوف عنده، وألا نكتفي بانشغالنا منه بالمقدار الذي يسدّ حاجة انفعالنا، وبشيء حداثاً نُقنع أنفسنا به من الغضب المكبوت والتفجّع الآني، لنذهب بأفق ترقبنا إلى ما سيحصل بعد ذلك الذي حصل، لا بجهد يستقرئ الأسباب والمسببات والنتائج، ولا بتحليل يراكم خبرته عبر استنطاق متعقل لما نواجهه من الهموم والانكسارات، بل بتوسل شعوري فيه كثير من الظن المتراخي بأنّ ما فعله الأشرار وأعدائهم، ومن يمهّد لهم السبيل لقتلنا وتدمير كل مقومات وجودنا الإنساني هو أقصى ما يمكن لهم فعله، مع أن منطق الأشياء والوقائع يقول إن عدوك لن يكتفي منك بما تهياً له أن يفعله ما دمت قد تركت له زمام المبادرة في تحيّر نوع الأذى وزمانه ومكانه.

لقد تكأ كثير منا على جمر حرقته مما يفعلونه بنا ولوعته على فقدان المتلاحق الذي يصيبنا في البشر والقيم والثروات والطبيعة، مترقبين ما يجترحون ساديتته ضمن مسلسل من الأفعال الشريرة التي يصاعدون بها جراح مكابداتنا نحن الذين وضعنا أنفسنا في أفق الانتظار لأيديهم الكالحة تطول الذي يريدون، من دون أن نتفكر بابتكار أساليب غير تقليدية نواجه بها هذا المد الشيطاني الذي يتفتن ويلتذ بما يبتكره من ممارسات القتل والتدمير والتخريب الممنهج لكل ما تطاله يده من مقومات وجودنا وهويتنا الإنسانية الدالة علينا. لقد كان أول ما يفترض بنا أن نتجاوزه هو هذا الظن المخطئ من أن قوى الظلام التي تمثلها داعش هي وحدها من فعل بأهلنا ومدننا وحضارتنا ما فعل.

نحن لا نواجه أفراداً خرجت ظلمات دواخلهم فصارت سلوكاً عدوانياً النزعة، ولا جماعات أخرجه من حدّها الإنساني فكر متخلف الوجهة والمبادئ حسب، إن جهات عدة كارهة لنا ويقلقها ما نتوافر عليه من خصائص الثراء القيمي والمادي، تتراصف إلى جانبها دول لا تريد

إلى ذلك الحد يبدو كل شيء مقنعا وحقيقيا. لكننا لو انتبهنا نلاحظ تفصيلا مشيرا للفضول: هناك عدد من القتل والجرحى في تلك المعارك الضارية، لكن لا واحد منهم آشوري. كانوا يعرفون التباهي والبروباغندا في تلك الفترة أو ربما علينا أن لا نسيء الظن بهم.. ربما كانت لديهم قناعة غامضة تجعلهم يتهيّبون تمثيل الآشوري جريحا. إنّه إنسان المنطقة من يُرى، من عرف حروب وديانات من احتمى ومن أقام الصداقات وقاوم العداوات ومن له صلته بإنسان المنطقة اليوم. تقدم الإنسان لم يكن يوما قطيعة مع ماضيه بل تقدّما منه نحو المستقبل بما في ذلك من اتصال وعدم انفصال كامل. تحطيم الآثار وإتلاف صورها أو ضياعها والوثائق المتعلقة بالحفريات والموجودات المحفوظة منذ عقود قطع جذور تصل الشعب العريق بماضيه ومن الغريب أن تكون هناك علاقة نقمة وكراهية تفصل الإنسان المتصل جينيا بأجداده عن تاريخ بلده. تجريد الأرض السورية من شواهد قدرة مواطنيها عبر الزمن على التعايش وإيجاد سبل للانتصار وحماية الاستمرار ليس أمرا يستهان بتأثيره إنّه مظهر من مظاهر هدم الهوية التي تسهم في المزيد من الارتداء في الضياع الكبير. ومنه فإنّ حفظ التراث السوري اليوم ضرورة ملحة ينضاف إليها عدم تعقيب التفكير في المستقبل عن البال، ذاك المستقبل الذي تلعب فيه المتاحف دورا تعليميا وبيداغوجيا ويعود فيه المواطن السوري إلى تطوير مهاراته وحرفه المميزة لانتماؤه والتي تعتبر أيضا تراثا إنسانا قيّمًا يؤكد علاقته بوطنه تاريخا وممارسة ■

كاتبة من المغرب مقيمة في أمستردام

جريمة تصل عقوبتها

إلى الإعدام

طارق حرب

إن قيام عصابات داعش الإرهابية بتدمير آثار الحضارات العراقية في الموصل جريمة دولية على وفق الفقرة 9 من المادة 8 من اتفاقية روما لسنة 1998 التي وضعت النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية في مدينة لاهاي، فهذه المادة اعتبرت توجيه هجمات ضد المباني المخصصة للأغراض الدينية أو التعليمية أو الفنية أو العلمية أو ضد الآثار من جرائم القانون الدولي، وهي جرائم حرب مخالفة لأحكام اتفاقية جنيف لسنة 1949، والتي حرمت ومنعت إتلاف أو تدمير الآثار في النزاعات المسلحة. كما يعتبر ما قام به داعش من إتلاف للآثار جريمة على وفق المادة 40 من قانون الآثار والتراث العراقي رقم 55 لسنة 2000 باعتبار أن استيلاء داعش على هذه الآثار سرقة لها، ومن ثمة قيامه بإتلاف الآثار يعتبر جريمة يعاقب عليها هذا القانون العراقي بالإعدام.

إن المادة الرابعة من القانون المشار إليه أعلاه عرّفت الآثار بأنها الأموال التي بناها أو صنعها أو نحتها أو كتبها أو رسمها أو صورها

لنا أن نلتقط أنفاسنا من هذا الذي وضعنا فيه منذ نصف قرن من الزمان، تنقذ (أجنداتنا) هيئات ومنظمات، وأشخاص فيهم ممن هم محسوبون على جلدتنا الوطنية. كل تلك الجهات هي من حشدت علينا شرها، وجعلت من داعش المخالب المسعورة للنيل من وجودنا. لنقف عند هذا الذي يحصل في الموصل من قتل لخيرة كفاءاتها العلمية وثقفيها، ومن حرق لمكتباتها وتدمير لكل معالمها الحضارية، ولنتأمل ذلك السيناريو المتتابع في وقائعه بجدولة شيطانية هي أكبر من قدرات داعش وعقول المنتهين إلى ظلمات دعاواها، حيث يجري تخيير وقت الحدث التدميري وشكله، وتقنيات تصويره (ومننتجته) بحرفية عالية وتوقيت بثه والمسافات الزمنية بين واقعة وأخرى.

لقد أثار تدمير محتويات المتحف الوطني في الموصل، كما هي الأفعال وحشية السلوك والنهج قبله، صرخاتنا المهضومة، وترك في القلوب جرحاً غائراً، ولكن ذلك الفعل ليس بجديد ولا مستغرب من تلك القوى همجية اليد إذا ما وضعناه في سياق ما حصل قبله، ومنذ قدوم الجيوش المحتلة لبلادنا، حيث طالت يد الخراب آثارنا ومكتباتنا، بل مؤسسات الدولة العراقية كلها. ولعله سيند حياً وفاجعاً ما حصل للمتحف الوطني ببغداد، يوم دخلت القوات الأميركية المحتلة، من نهب وتخريب مماثل، وبما يخبرنا أنها الغايات ذاتها، واليد الشريرة نفسها، تلك التي نثرت محتويات المتحفين ونهبت ما خفّ حمله من الثمين فيهما وهشمت ما لا تقدر على سرقة من تحفهما الكبيرة.

والتساؤل الذي لا يهدأ تلجلجه: من هؤلاء الذين تتساقق لديهم الرغبة المسعورة بقتل الإنسان العراقي مع مسعى تدمير كل ما يدل عليه من مقومات حضارته ووجوده الثقافي ومعالم تمثله الروحي المختلفة؟ ولماذا يدمرون، من بين ما يقع تحت براثن ظلمهم وظلامهم، كل ماله سمة (العراقية) والحضور الإنساني الخالد؟ من هؤلاء؟ ومن أين جاؤوا بكل هذه القسوة والكرهية؟

لا شك أنهم لا يأتون من حاضنة الماضي الإسلامي الذي يدعون تعلقهم بنهج سلفه أولئك الذين ساروا على قيم أوصاهم بها نبينهم الكريم (صلى الله عليه وسلم)، وهم يسعون في نشر مبادئ دينهم بأن لا يقتلوا أسيراً، ولا يهدموا معبداً أو ديراً ولا يقطعوا شجرةً في أرض من يحاربونهم.

إن هؤلاء يأتون من خارج (الزمنية) ومساحة التمثل البشري لها، حيث لا صلة قيمة لهم بالماضي، وقد تكارهت دواخلهم مع حاضر الإنسانية فتباعدت الشقة بينهم مع محددات سلوكها الذي شرعنته ديانا سماوية وقوانين وضعية لا يابهن لها. ومن المؤكد أن ليس لهم من مستقبل يسعون إليه، فمن أين يأتي المستقبل لمن جافى وجوده ماضي الإنسانية وحاضرها؟

إن هؤلاء الذين لبسوا مسوخ وجودهم القيمي المتسخ والكاره للحياة، ومعهم من يمددهم بأسباب مواصلة ما أعددهم له ودربهم عليه. لا يكرهون الإنسان العراقي بسبب مذاهبه وطوائفه وقومياته فحسب بل يكرهونه قبل ذلك وبعده لتاريخه وحضارته، ولأنه يتمسك بهما هوية وجود وحصة يريدون إسقاطها منه، بعد أن وجدوها أفقا ثقافياً يتناسل الخصب العراقي منه.

لشدّ ما أقلقهم، أكثر من أي شيء آخر، المقدّرات الحيوية العالية في شخصية المثقف العراقي التي ما انطفأت خضرتها يوماً. هل لنا أن نستذكر هنا ذلك الذي أعلنته رئيسة وزراء بريطانيا (تاتشر) مرّة عن

غيضها من أن في العراق من الكفاءات ما هو أكثر من حاجته؟! إنهم يسعون إلى النيل من الهوية العراقية عبر تدمير قيم ثقافتها ومراكز حضارتها لأنها وحدها من بقيت عصية على ما تجاوز القرن من المؤامرات والحروب والحصار والتجويع والاحتلال. وكانت في كل تلك الشدائد تبتكر لوجودها ما يمدّها بمقومات التواصل وتنفس الحضور الخلاق وتواتر الإنجاز المضاف.

وإذ أدرك كثير من المثقفين العراقيين ذلك كله، فإن جملة من التساؤلات يلقونها على مسامع المثقفين العرب وفي العالم من حولهم، ولا سيما في الدول التي يوفر ساستها لظلامي داعش الغطاء كي ينفذوا مآرب شرهم، من مثل: ماذا لو أن الأمر لم ينته عند العراق وأهله، وأن أولئك الظالميين قد وطئت ريجهم تلك البلدان التي تدعمهم، أو تنفرج على أفعالهم، أو تلوذ بالصمت والمبالاة إزاء هذا الذي يقومون به، ماذا لو أتيح لشرهم وشراحتهم للخراب موطن قدم في (تركيا) مثلاً، فهل سيقفون لها متاحف وقصوراً تاريخية، وهل سيغصّون أبصارهم عن منتجعاتها وجزرها الحافلة بالإثارة والجذب السياحي كما هي عليه الآن؟ هل سيبجلون قبركمال أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة، ومعها قبور كثير من الأولياء والحكام الصالحين والطلّحين المدفونين هناك؟ ماذا لو أتيح للدواعش أن يتمددوا، لا سمح الله، في أرض مصر الكنانة؟ هل سيقف أبو الهول رابضاً في مكانه، وأهرامات الجيزة متعالية تحق بالشمس؟ ألا تتحسب تلك الدول التي تدعمهم أن يصلها أذاهم، أم أن ذلك لا يشغلها، لأن معظمها لا تملك من التراث والحضارة ومعالم الماضي ما تخاف عليه؟ ■

كاتب وأكاديمي من العراق

لا يمكن حماية التراث العراقي دون القضاء على داعش

مارغريتا فان إس

يتعرض التراث الإنساني في العراق للنهب والتدمير بشكل بلغ أشده بتخطيط تنظيم داعش آثار متحف نينوى في الموصل.

يضم المتحف آثاراً تعود إلى الحضارتين الآشورية والأكدية، والتماثيل المدمرة يعود بعضها لمملكة "الحضر" الموضوع على قائمة اليونسكو للتراث الإنساني (مملكة الحضر مملكة عربية ازدهرت في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد). وكما ظهر بالفيديو، تم تخريب وتخطيط ثورين مجنحين آشوريين من مدينة نينوى. دُمّر أحدهما في داخل المتحف والآخر على أسوار مدينة نينوى، وهذان الثوران هما قطع أصلية، أما تماثيل مدينة الحضر فيبدو بعضها قطعاً أصلية والأخرى ليست كذلك.

لا يظهر الفيديو الذي بثه تنظيم داعش عمليات تدمير لقطع أثرية أخرى من نينوى غير الثورين المجنحين. ويُخشى أن يكون هناك



تدمير العراق، تدمير الذاكرة

فلاح المنتعل

ارتكاب جريمة تدمير الآثار في مدينة الموصل، والسعي لمحو ذاكرة الحضارة الآشورية، حلقة مكتملة لطاقة

الإبادة الموجهة التي يتبناها سلوك 'داعش' إزاء دولتين (العراق، سوريا)، عرفتاً بمخزونهما من إرث حضاري يرمم مفاهيم التاريخ القديم بمعرفة دورة الحضارة والحياة، إنهما القاعدة الأوسع لذاكرة الحضارة القديمة.

المهمة هنا ليست إسلامية كما يعتقد البعض، أو يردد الداعشون ذلك زوراً، وإن كانت مسعى موجهاً نحو تجهيل الفكر الإسلامي، وتحميله مسؤولية منهج 'داعش' في تكريس مفهوم ظلامية هذا الدين وفاشيته الفكرية والوجودية.

بخلاف كذب ادعاء 'داعش' الإسلامي وخطابه الإعلامي الزائف، فقد جاء ذكر التماثيل أو النصب في القرآن الكريم سورة المائدة، الآية 90: 'يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ'. الأنصاب هنا كل ما عبد من دون الله تعالى، أي بمعنى الأوثان أو الأصنام التي كانت تأخذ دور الآلهة في زمن الجاهلية.

لكن الآثار تعود إلى أزمنة أخرى سبقت نزول الرسالة الإسلامية، وهي تدون تراث الأجيال والأمم السابقة التي يدعو القرآن المجيد الناس للتعلم والانتفاع من تجاربها، كما أنها لا تعبد، بل تقف أشبه بتحف تعطي قراءات ثقافية وعلمية لتلك الأزمنة البعيدة التي تشكل طفولة المعرفة وعنفوانها في البناء وقوانين الوجود الاجتماعي والفكري.

أما تداولهم حديث الإمام علي (ع) 'اطمسوا التماثيل' إنما هو في ذات السياق الذي يدعو لإخفاء التماثيل التي كان يعكف الناس على عبادتها في الكعبة، وليس هذه الواجهات الفنية والسياحية العظيمة، هوية كل أمة أو مجتمع تفخر أن لها ماضياً مجيداً.

زرنا واشنطن عاصمة أميركا، وضعوا زيارة المتاحف في أول يوم للبرنامج، شارع عريض أنيق مبهج تشمخ على جانبه أبنية تشكل سلسلة المتاحف الطبيعية والتاريخية والحضارية والعلمية والفنية وصولاً إلى حضارة وتاريخ الهنود الحمر سكان أميركا الأصليين، متاحف معتنى بها وفق آخر شروط وتقنيات حفظ الآثار، وتهيئة طرق مشاهدتها من قبل الزائرين ما يجعلها ترسخ في الذاكرة... هذا ونحن نتحدث عن دولة حديثة (لملوم) لا يتجاوز تاريخها 200 سنة! بروح ناقعة بالأسى، أتفق مع دعوة الزميل (إياد الزامل) بضرورة نقل الآثار العراقية إلى دول قادرة على حمايتها.. كما بلغ الحزن والاستهجان بالصديق الكاتب (حمزة الحسن) أن طالب بنقل ما تبقى من بشر عراقيين وتسجيلهم على ذمة اليونسكو، للحفاظ عليهم من

المزيد من التدمير لآثار نينوى لم تظهر في الفيديو. وهذا التدمير يعتبر كارثة لأن بعض القطع لم تجر لها عملية أرشفة علمية بشكل كامل.

القطع الأثرية الأصلية العائدة لمملكة الحضر تشكل أهمية بالغة، بعض هذه القطع تماثيل لملوك، وأخرى لشخصيات مؤثرة، وبعضها يشير إلى القوافل التجارية، وهي بمجموعها تؤكد على اهتمام الملوك البارثيين بمدينة الحضر، التي لم تكن تبعد كثيراً عن الحدود البارثية الرومانية.

للقي الأثرية من مملكة الحضر طابع أثري خاص جداً، وهذا الطابع لم يكن معروفاً لا على المستوى العلمي ولا حتى التاريخي. وتدميرها فقدنا القدرة على متابعة دراستها علمياً، الأمر الذي يجعل الخسارة فادحة، بغض النظر عن قيمتها المادية.

كثير من الآثار الآشورية مازالت موجودة، فلا توجد كل آثار نينوى في الموصل، لكن في أماكن أخرى. ومن جهة أخرى لم يتضح بعد ماذا حصل للقطع الأخرى في الموصل. من المبكر الفصل بذلك الآن، ربما يستطيع الزملاء في المتحف العراقي إعطاء مزيد من التفاصيل. أخشى ألا تمكن حماية التراث العراقي إلا بالقضاء على داعش. لا يمكن القيام بعملية لإنقاذ التراث والآثار لوحدها. أقصى ما يمكن فعله هنا هو أرشفة ومعرفة ما تم بيعه وتدميره للقيام بإعادة بنائه وترميمه لاحقاً. لكن هذا لا ينقذ القطع الأصلية.

إنها مسؤولية المجتمع الدولي للتدخل ضد هذا التنظيم المصاب بمرض التدمير: تدمير الفن والإنسان والمجتمع. لكنها أيضاً مسؤولية الدول والمجتمعات الواقعة تحت تهديد داعش أن تتحرك ضده.

يزودنا زملاؤنا وأصدقاؤنا في العراق وسوريا بمعلومات مفادها أن داعش تمول نفسها بفرض الضرائب على كل أنواع التجارة ومنها تجارة الآثار. لكننا لم نسمع حتى الآن أن داعش نفسه يقوم بالتنقيب عن الآثار لبيعها. يترك داعش عملية البحث عن الآثار ونهبها لتجار الآثار غير الشرعيين، الذين ينشطون بشكل كبير في المنطقة الآن. الأكيد أن كل الآثار التي تأتي من سوريا والعراق وحتى بلدان أخرى في المنطقة هي قطع يتاجر بها بشكل غير شرعي. ويجب علينا إثارة هذا الموضوع من جديد في الرأي العام، فلو لم يوجد مشتري لما كان هناك بائع. إنها آلية العرض والطلب. يجب توضيح الأمر التالي لمحبي اقتناء القطع الأثرية: أغلب القطع المعروضة هي مهزبة بطريقة غير مشروعة، وبشرائهم لها يسهمون في تمويل ليس المافيا فقط، بل الإرهاب أيضاً.

كذلك لا بد من تعديل القانون لجبر البائع على الكشف عن المنشأ الأصلي للقطع. وهذا لا يحصل حتى الآن، مع الأسف. صحيح أن هناك حظراً على الاتجار بالآثار السورية والعراقية، ولكن نتيجة لوجود ثغرة عدم التصريح عن المنشأ، يصعب سحب هذه القطع من السوق. كنت قد عملت بالبحث العلمي في العراق وقدمت التنقيب في مدينة أوروك التاريخية، وشخصياً أعتبر ما حدث مصيبة. لقد دمرت شواهد عظيمة على بشر عظماء بنوا حضارات عظيمة على الصعيدين المادي والفني، هذه الحضارات السابقة وفرت لنا تراكماً حضارياً هاماً للمعرفة ■

خبيرة آثار ومديرة قسم المشرق في المعهد الألماني للآثار ببرلين

الفناء والانقراض...؟

يشند الغضب والاستنكار لجريمة تدمير ماضي العراق الحضاري، بعد أن تم تدمير حاضره من قبل أميركا ودول الجوار، لكن الذاكرة بتحديثاتها الدموية تثبت أن القتل المجرمين اللصوص الذين حكموا العراق في حكومته المركزية الفاسدة، أو المسخرة المسماة حكومته المحلية في الموصل إبان سقوطها المفجع..! هؤلاء شركاء 'داعش' بهذه الجريمة الصاخبة، إنهم يحرقون الإنسان وذاكرته أيضاً.

كاتب من العراق

هدم التاريخ والحضارات

رياض عبد الكريم

هذا العمل الإجرامي لا يقل شأنًا عن الفتك بحياة الناس أو تدمير المدن والأحياء، لأنه يمسننا جميعاً كشعب أراد شياطين الحياة أن يمزقوا هويتنا ويلغوا انتماءنا، وهو فعل مقصود تقوده جماعات وسياسات صهيونية وماسونية وبعض الأطراف المعادية للعروبة والإسلام، في محاولة بائسة وذليلة لتغيير مجرى التاريخ الذي كاد يستعيد بريقه بعد التغييرات التي تحققت بفعل الربيع العربي، وهي أيضاً ردة فعل لتقويض النهضة العربية التي بدأ يتفاعل معها الجيل الجديد بعد أن هُمّش طيلة العقود الماضية بفعل التقنيات والإلكترونيات الحديثة التي استحوذت على كل وقته واهتمامه.

تأسفت لأنني لم أتلمس موقفاً رسمياً وشعبياً يعبر عن الأسي والحزن، ويتوعد بالانتقام والثأر، كان ينبغي أن يصدر موقف من رئاسة الجمهورية والحكومة، وتوجه رسائل رسمية للمنظمة الأممية والجامعة العربية وكل الهيئات الدولية، كنت أتوقع أن تشهد بغداد وبقية المحافظات تظاهرات استنكار وشجب تقودها منظمات المجتمع المدني، وكان يفترض أن نتلمس موقفاً واضحاً من وزارات الخارجية، والثقافة، وحقوق الإنسان، واتحاد الأدباء، وجمعيات حقوق الإنسان والمؤرخين... ولكن للأسف لم يحصل ذلك.

كاتب من العراق

إنهم ينحرون التاريخ

عامر راتب

إنطاب 'الدواعش' وجهالتهم الظلامية تشويه للإسلام والقيم البشرية في العصر الحديث، وتغلغلهم في

المجتمعات العربية يهدد هويتها ومستقبلها. أقل من عام واحد كان كافياً لتنظيم 'داعش' كي يسجل في كتب التاريخ آلاف الصفحات من الدموية والهمجية، التي تشوّه صورة معتقدات المسلمين وتسخنهم بالجراح، وتعتدي على قيم الإنسانية وتراثها، بجهالة ووحشية قلّ نظيرها، تحت قناع تزييف الدين الإسلامي.

جريمة جديدة، ولن تكون الأخيرة، أقدم عليها 'الدواعش' بتدمير مقتنيات متحف مدينة الموصل العراقية، التي تضم تحفاً من الحضارة الآشورية والأكادية وباقي حضارات بلاد الرافدين، وقبلها قاموا بتفجير مكتبة المدينة المنكوبة، وإحراق عشرات آلاف الكتب والوثائق التاريخية النادرة.

شريط فيديو مدته 5 دقائق، نشره تنظيم 'داعش'، يظهر رجالاً ملتحين وهم يحملون مطارق وأدوات حفر كهربائية ويحطمون الثور الآشوري المجنح، رمز الحضارة الآشورية الذي يعود تاريخه إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وعدداً من التماثيل.

بكيث ونزفت دمعاً وألماً، وأنا أشاهد جرم وبشاعة من لا أجد لهم وصفاً وهم يرتكبون إبادة ثقافية وجريمة بحق تاريخ الحضارات، أناس انبتقوا من تحت الأرض، لم يألفوا الحياة ولم يعرفوا قيمة الإنسان، وقيمة التاريخ، دمّروا الإنسان، والآن يدمرون إرث وتاريخ الإنسان، متحف الموصل وآثار العراق دمرت.. نهبت.. وسحقت، الهدف من كل ذلك أن نصبح من دون جذر.. إرث.. حضارة.. بمعنى شعب هجين لا تأريخ له، وهذه هي نظرية المؤامرة التي تشارك بها أطراف عديدة البعض منها وللأسف من الداخل.. ولا أقول عراقية.

أقول: بكيث، لأنني أحسست بأن تاريخي وإرثي كعراقي بدأ يسحق، ولأن من يزعمون أنفسهم قادة البلد لم يكتروا وكان التاريخ عندهم بلا معنى..! وأسفاه على عراق كان كل العالم ينظر إليه لا بشخصه الرسمية وإنما من خلال حضارته الكبيرة والعظيمة، كنا نفتخر ونشعر بالزهو والكبر عندما يشار إلينا على أننا امتداد للتاريخ ومن سبقونا كانوا صنّاع الحضارات. لقد عشنا أزمناً برغم استبداد وبطش أنظمتها، إلا أننا كنا نتحسس قيمتنا من عمق الإرث والتاريخ، وكان شواهد الحضارات كانت تصرخ على أن مجد وكبرياء العراق والعراقيين لم ولن تمثله أو تصنعه أنظمة المصادفة، أو رجال الاستحواذ.

لقد فتكوا بالتاريخ، ودمروا الحضارات والشواهد في أشنع جريمة عرفها التاريخ، المجرمون شياطين الحياة وأبالسة الكون يخترقون كل قوانين السماء والأرض، فإذا كان قتل الإنسان، وتفجير الأحياء، وانتهاك العرض، وسبي النساء هي وسائل التعريف بأهدافهم كما يريدون هم أن يوصلوا رسائلهم فإن كل ذلك قد انعكس عليهم بالكره والحقد والازدراء، وزاد من إصرار كل شعوب العالم على مقاتلتهم والقضاء على إجرامهم الذي بدأ يهدد الإنسانية أينما تكون، ولأن الجهالة لا تعي القيم والأصول، ولا تؤمن بالمنابع والجذور الحضارية، فقد طال إجرام داعش كل شواهد الحضارات وهم يحطمونها بكل وحشية فاقت حتى وحشية الحيوانات.



أبجديتها الأولى. وإذا لم تتوحد جهود الجميع في مواجهة 'الدواعش'، وأمثالهم من المتطرفين الجهلة، سنصحو ونمسي كل يوم على جريمة جديدة ومرّوعة من جرائمهم، وتغلغلهم في المجتمعات العربية والإسلامية يهدد هويتها وتاريخها وحاضرها ومستقبلها ■
كاتب من فلسطين

انتور يتحدى داعش محمد فليحي

تدمير الآثار الأكادية والآشورية، وسط زهول العالم، يمثل حلقة جديدة ضمن مسلسل الجرائم الداعشية، التي بدأت باستهداف مرآد الأنبياء والأولياء، في مدينة الموصل، ثم مشاهد عمليات الذبح والحرق، التي استفزت مشاعر الرأي العام، وكشفت عن وحشية هذه العصابات التي اختطفت بعض المدن العراقية، وجعلت سكانها رهائن وسبايا، تحت راية الدين الوهابي الداعشي الصهيوني التكفيري المنحرف!
إن منظر ذلك الكائن القذر الذي يهاجم بالفأس تمثالاً ضخماً يقدر عمره بنحو ثلاثة آلاف عام، أدى إلى صدمة عنيفة هزت الأوساط العالمية، بعد أن انتشرت صور الجريمة عبر مواقع التواصل الاجتماعي والفضائيات، حيث عبّر الإرهابيون عن إفلاسهم الفكري وسقوطهم الأخلاقي، ولا يوجد غطاء سياسي أو دعائي لتسويق منهجهم الوحشي، بعد أن ظل بعض المارقين يدافعون عنهم بتسميات زائفة!

آشور بانبيال كما تصفه موسوعة ويكيبيديا وكتب التاريخ القديم هو الملك الآشوري الذي لقب بملك العالم (توفي في 627 ق. م) وكان آخر ملك للإمبراطورية الآشورية، اشتهر، بصورة خاصة، باهتمامه بالإنجازات العلمية وتشجيعها وأنشأ مكتبة ضخمة، وجمع الكثير من ألواح الطين التي دوّنت فيها القوانين والشرائع، وكل أنواع المواد العلمية والثقافية المكتوبة، وأسس المدارس، وشقّ الطرق وعبّدها، وشيد المباني العامة. لم يكن آشور بانبيال شيعياً أو مسيحياً أو يزيدياً أو عربياً أو كردياً أو تركمانياً، بل كان رمزاً عراقياً شامخاً، يجسد وحدة الأرض وألق الحضارة العراقية، وكان هؤلاء الحاقدون لا يطبقون علم العراق الموحد، ويسعون لتمزيقه، عبر وسائل الكراهية والعنف والدمار، ولكن هيهات فشعب العراق رفع راية التحدي، وقد تنادى المجاهدون الحقيقيون واحتشدوا في ساحات المواجهة لصد العاصفة السوداء ورد الكائدين على أعقابهم خائبين! كان الدواعش يعبثون بأرواح الناس وممتلكاتهم ومقدساتهم، في مدينة الموصل، طوال الشهور الماضية، ويقدمون بين مدة وأخرى فلماً من أفلام الترهيب المصنوعة بتقنيات عالية،

ويعلق أحد 'الدواعش' الذين ظهروا في شريط الفيديو على الجريمة بالقول: 'أيها المسلمون إن هذه الآثار التي ورثنا إنما هي أصنام وأوثان لأقوام في القرون السابقة، فإنّ ما يسمّى الآشوريين والأكاديين كانوا يتخذون آلهة المطر وآلهة الزرع وأخرى للحرب يشركون بالله ويتقربون إليها بشتى أنواع القربان.. أمرنا رسول الله بإزالة التماثيل وطمسها، وفعل ذلك الصحابة من بعده، لما فتحوا البلدان، وإن هذه التماثيل والأصنام وهذه الآثار عندما أمر الله بطمسها وإزالتها هانت علينا، ولا نبالي وإن كانت بمليارات الدولارات..'

جهل ما بعده جهل، يعمي أبصارهم وبصائرهم عن إدراك القيمة الإنسانية لثراث الآشوريين والأكاديين، ومنطق لصوص يتاجرون بشعارات دينية وهم يحطمون الأوابد والآثار، التي لا يستطيعون السطو عليها وبيعها لتمويل عمليات القتل والذبح والترويع.

وافترء على التاريخ الإسلامي، فمن الثابت أن المسلمين لم يتعرضوا للآثار في البلدان التي دخلوها، بل حافظوا عليها، وإلا لما بقيت قائمة وموجودة إلى يومنا كما هي، واحترموا أماكن العبادة لأصحاب الديانات الأخرى ومقدساتهم. إلا أن المنطق التحريفي والمتطرف لـ'الدواعش' لا ينفع معه الجدل، فهو ثمرة سامة من ثمار تراكم تاريخي طويل، أنتج ظواهر متطرفة في التاريخ الإسلامي قديمه وحديثه، ويمثل الجهل بالدين أبرز سماتها، وهي مشكلة مزمنة، تكفّر المجتمعات وتحض على القتل، مردها مفاهيم وتصورات خاطئة ومشوهة، تتمسك بمقولات متوارثة منذ قرون، مصحوبة بتطرف عملي، دون أن تخضع لنقد أو تحليل منطقي.

وتؤكد الدراسات أن الدوافع والأبعاد التي تكمن وراء العنف والتطرف الفكري، بنسخه الحديثة في المجتمعات العربية والإسلامية، تتمثل في الاضطرابات المجتمعية، جراء تسييس الدين والتحيز للهوية الطائفية، وفوضى الثقافة الدينية، بسبب الاجتهادات الخاطئة لبعض رجال الدين وإخراج النص الديني عن إطاره الأصلي، والأوضاع الاقتصادية والمعيشية الصعبة، وتدني مستوى التعليم، وضعف البنية المؤسسية للدولة والانفلات الأمني، وكلها أسباب تستغلها الجماعات الإرهابية المتطرفة، مثل تنظيمي 'داعش' و'القاعدة' لإغراء الشباب بحلول وهمية ترسخ لفكر الغلو لديهم، ورفض الآخر، الذي قد يختلف معه في الرأي أو العقيدة، وممارسة عنف دموي ضده.

ويستنتج من دوافع التطرف وأبعاده أن محاربتة غير ممكنة بوسائل عسكرية وأمنية فقط، لأن استئصاله يتطلب تنقية المجتمعات من شوائب الغلو الديني والطائفي، بتعديل المناهج الدينية كي تعكس المفاهيم الصحيحة للعقيدة، ووقف فوضى الفتاوى الدينية التحريفية، والتشجيع على التقارب بين الأديان والطوائف والمذاهب، والحث على الانفتاح على الآخر من خلال الاطلاع على ثقافته وفكره ومعتقداته وقيمه المجتمعية.

وهي معركة طويلة، يقع العبء الأكبر منها على كاهل العرب والمسلمين، فالتنظيمات الإرهابية المتطرفة، وإن كان يصح وصفها بـ'نبت شيطاني'، تتغذى على موروث من المفاهيم المغلوطة، تدفع أصحاب النفوس المريضة إلى ارتكاب مذابح شنيعة بحق البشر والحجر والتراث الإنساني، فتتنظيم 'داعش' الذي مارس عمليات ذبح بشعة راح ضحيتها المئات من الأبرياء، في العراق وسوريا وليبيا، ينحدر اليوم حضارة الآشوريين والأكاديين والسومريين والفينيقيين والآراميين، في بلاد ما بين النهرين والشام، التي أهدت للبشرية

في حرب نفسية تستهدف زعزعة المعنويات وبث مشاعر القلق والخوف، بيد أن هذه الأفلام فضحت جرائم الإرهاب وأصبحت وثائق إدانة دامغة، سوف تساعد العدالة في معاقبة المجرمين ■
كاتب وأكاديمي من العراق

مرتزقتهم اللبنايين مشغلي وأعمال 40 سنة في بيروت، وعلى الرغم من قسوة ذلك كتبت 'فقدني' 40 سنة من جهدي النحني لا يماثل خسراً
كسر حجر آشوري واحد- ■

نحات من سوريا مقيم في غرناطة

خراب الدورة الدموية

عاصم الباشا

اكتمال البتاعة

د. علي تميمي

ما كان جديداً علي ما تناقله العالم عبر الأثير من جرائم حثالة البشر بحق تراث الإنسانية في متحف نينوى أو غيره، فتهب تراثنا وتدميره ما فتى يقوم به النظام السوري بصورة ممنهجة منذ عقود عديدة، وربما أبرز من مارسه منذ بداية الثمانينات، وربما قبل، المجرم رفعت الأسد، سليل عائلة الإجرام الجائمة التي ما زالت على مهد الحضارة التي تمثّلها منطقتنا.

في فيديو التحطيم ذكرني بعنوان ديوان صديقي رياض الصالح الحسين 'خراب الدورة الدموية'، لأنه سبب لي خراباً مماثلاً. وحدث أن كنت قبل أيام من الحدث أستمتع بصحبة نوري الجراح بأوبد بلاد الرافدين المحفوظة في المتحف البريطاني وخطرتي، كما لغيري 'ليتهم نهبوا منها أكثر، فهم يقدرون قيمتها'.

الحضيض الذي وصلت إليه العقول المتأسلمة المجرمة، إن جاز لنا نعتها بالعقول، ما كان ممكناً لولا انحطاط القائمين على العقيدة والذين يستمتعون بدور وكلاء الله على الأرض. أثبتوا جميعاً مدى جهلهم بالدين وعمق إساءتهم له. كثيرة هي الشواهد في تاريخ الدولة الإسلامية، بدءاً من بني أمية وقصورهم في البادية المزدانة بالمنحوتات النافرة وصولاً إلى رسم العاريات في قصر عمرة بالأردن الحالي، وهي أعمال أنجزت وما برح قليل من الصحابة وكثير من التابعين أحياء، ولم يعبر أحد حسب علمي عن إدانة ما. تحريم التمثيل بدعة مضافة تقلد عصر المسيحيين الأوائل المقلدين بدورهم لتعاليم يهوذا.

وبعد ذلك بقرون نصادف وجود التماثيل في الأندلس وفيما صادف ابن جبير في رحلته المدونة.

سجلت على صفحتي الفيسبوكية ما يلي في هذا الشأن:
'هل من عاقل يعبد حجراً؟ من اعتقد أو يعتقد ذلك جاهل أحق لا يعقل، ولا أستثني أحداً. بمقدورك أن تسعد بحجر وأن يدعوك إلى متعة أبعد من وجوده، كما النبيك (الحجر الأسود) في الكعبة. من حماقة التفكير أو الظن بأن المسلم يعبد ذلك الحجر، فلماذا يسيء المسلم الظن بمن لا يدين بدينه؟

الصورة أو الهيئة قد تكون وسيطاً أو حافزاً لعبادة ما هو خلفه وأكبر. أنا أعبد الطبيعة من خلال شجرة أو زهرة أو حصة، لكنها ليست عبادة خضوع وخوف بل متعة الشعور بأنني جزء مما أعبد.

في السنة المنصرمة نهب جحافل العصابة المحتلة في سوريا بمساعدة

بتدعيمها لمقتنيات متحف الموصل الحضاري وتدميرها القطع الأثرية، التي تعود لحقب تاريخية متعددة في شمالي العراق، يكون تنظيم داعش قد استكمل صور ممارساته اللاإنسانية وعبر بنحو بشع عن هويته الحقيقية، وبات على من يراوده الأمل بوجود نافذة شرعية لهذا التنظيم أن يدرك أن بشاعة أفعال هذا التنظيم قد فاقت الأعمال التي تحدثت كتب التاريخ عنها لشئى المجموعات والعنابين الإرهابية.. فما قام به هؤلاء يفوق ما قامت به النازية والفاشية.. وإن كانت داعش مجموعة صغيرة لا تضاهي كيانات دول أو قوام جيش إلا أن أفعال هذه المجموعة تفردت بأساليبها الإجرامية وابتعادها عن كل ما هو إنساني.. ولربما سيفرد التاريخ المساحة الأكبر لأفعال هذا التنظيم في القرن الحادي والعشرين بعد أن شاهد العالم أجمع صور الذبح والحرق والسبي والاضطهاد للأبرياء في العراق وسوريا ومصر وليبيا، وما جرى للأسرى والرهائن الذين وقعوا بين يدي أفراد من دول العالم الأخرى.

اليوم يكون من المناسب دعوة أبناء المناطق التي يحتلها داعش والعشائر التي وقفت صامته أمام دخول هذا التنظيم إلى مدنها للانتفاض على هذا التنظيم ومساندة القوات الأمنية والعسكرية التي تواصل حربها ضد الإرهاب.. ويجب أن تكون هذه الانتفاضة شعبية بكل تفاصيلها من أجل أن يدرك الداعمون للإرهاب في العراق بأن أحلامهم وآمالهم بوجود من يحتضن ويؤوي ويساند مجاميع الإرهاب قد ذهبت أدرج الرياح، وفي الوقت نفسه فإن الفرصة باتت مواتية لأبناء المناطق الغربية وأبناء صلاح الدين والموصل كي يثبتوا للعراقيين والعالم أجمع بأنهم قد قالوا كلمتهم بقوة أمام أعتى هجمة إرهابية عاثت في أرض العراق فساداً، وقتلت الآلاف من أبنائه بدم بارد.. ولطالما حذر الخيرون والوطنيون في داخل العراق وخارجه أولئك الذين كانوا يعتقدون بأن أهداف هذا التنظيم لن تنال من مكونات الشعب العراقي الأخرى، وأنها ستستهدف مكوناً واحداً أو فئة واحدة.. من دون أن يدركوا أن بشاعة الإرهاب لم تستثن ديناً أو قومية أو مذهباً، وتلك أفعالهم تتحدث عن أهدافهم ونهجهم، وما عاد أحد يصدق بياناتهم وادّعاءاتهم، والحليم تكفيه مشاهد التدمير والذبح والحرق ■

باحث وكاتب من العراق



داعش وحضارة العراق

تتامل عبد القادر

ما قام به داعش من هدم وتدمير للآثار العراقية في الموصل آثار سخط العالم المتمدّن والمتحضّر على المتشددّين الإسلاميين، وعدّ تصرفهم انسجاماً مع موقف الإسلام الحقيقي من التماثيل! حقيقة موقف الإسلام من التماثيل والآثار الحضارية ليس هذا الذي قام به داعش في متحف الموصل ونمرود من تخريب وتدمير بالمعاول والفؤوس.. وليس هذا الموقف هو حقيقة موقف الإسلام مما جرى وحصل وإلا فإننا نتساءل: هل أبو بكر البغدادي أكثر فقها وعلماً وتفحصاً بتفاصيل دينه من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه؟! قد يسأل أحدنا وما علاقة فقه عمر بأبي بكر البغدادي؟

أقول - وهذا اكتشاف يسجل لي شخصياً - إن عمر بن الخطاب هو الذي أرسل عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها ونشر الإسلام فيها وعندما أصبح عمرو بن العاص وجيوش المسلمين في مدخل مصر واجههم تمثال عظيم بل وصنم كبير هو: أبو الهول الذي شيده الفرعنة قبل سبعة آلاف سنة قبل الميلاد وواجهتهم الأهرامات وهي المدافن الكبرى للفرعنة على يسار نهر النيل لكنهم لم يتوقفوا طويلاً أمام هذه الأوثان والأصنام! الفرعونية بل مضوا إلى مصر داخلين فاتحين ولم يأمر عمرو بن العاص ولا خليفته عمر بن الخطاب في المدينة المنورة بهدم أبو الهول ولا أهرامات مصر بل بقيت هذه الآثار الفرعونية سليمة وخالدة طوال حكم المسلمين الذي امتد 1400 سنة في مصر!! والسؤال: لو كانت تماثيل أبي الهول والأهرامات في نظر الخليفة عمر بن الخطاب وهو المعروف بتطرفه والتمسك الشديد بسنة نبيه، بل وفي مرات كثيرة خالف ومنع ما أباحته السنة، لأن عمر وجدها تتناقض مع مضمون القرآن الكريم وعدّها من البدع وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.. لو كان عمر بن الخطاب الذي منع زواج المتعة وحرق الشجرة التي وقف عندها النبي صلى الله عليه وسلم خشية على المسلمين من الشركيات والبدع، لو كان يعرف أن أبا الهول والأهرامات أوثان وأصنام لأمر عمرو بن العاص بهدمها من دون تردد لكن الرجل لم يتحرج أو يصطدم بآثار المصريين وحضارتهم الفرعونية، فأين أبو بكر البغدادي من فقه عمر بن الخطاب وموقفه الإسلامي النبيل من الآثار والشواهد الحضارية في مصر أو في العراق أو في بلاد فارس التي فتحت في عهده!!

إن عناصر داعش يكذبون ويزورون التاريخ ويسينون إساءات بالغة للإسلام من موقفه من حضارات العالم، فقد فتح المسلمون بلاد الهند والسند وفيها تماثيل جبارة ضخمة لآلهة أهل الهند فلم يأمر أي قائد مسلم أصحابه بتدميرها وبقيت التماثيل على حالها! هل أسست الدولة الإسلامية بصورتها النهائية وحقت أهدافها الاجتماعية وأتقتد المسلمين من الفقر والعوز وشيدت لهم البيوت

والدور وناطحات السحاب والأسواق وجلبت لهم الرفاهية لكي تنشغل داعش بهدم التماثيل وتحطيم المنجزات الحضارية لأهل العراق؟! تصرف داعش مقصود وهو تقديم إساءات مجانية للإسلام نفسه، وتتلقفها بعض المنظمات اليهودية والنصرانية المسييسة للترويج عبر وسائلها الإعلامية المختلفة لتبشيع صورة الإسلام!

إن حرب داعش تمثل ذروة الحرب الإسلامية- الإسلامية التي أرادت أوروبا لإبعاد شرور الإسلام المتطرف عن شواطئها ومدنها وحواضرها وأبقت الحرب ونيرائها وشواطئها في دار الإسلام! ■

كاتب من العراق

تحطيم الآثار مجرد علاقات عامة عبدالله المزهر

صحيح أن منظر الدواعش وهم يحطمون الآثار في متاحف العراق منظر مستفز، لكن الصحيح أيضاً أنه تصرف نجد حولنا كثيراً ممن يؤيده ويتفق معه، ولا يجد في ذلك التصرف أي مشكلة تستحق التأمل من الأساس، والصحيح أنه ليس تصرفاً ينم عن جهل الدواعش، فقد مر على العراق قبل داعش حوارج ومنتصعون وملل ونحل من كل شكل ولون، ولم يفكروا في تحطيم التماثيل التي كانت موجودة، الدواعش يفعلون ذلك من أجل الاستفزاز والتحفيز، والاستفزاز أحد الوسائل التي تمارسها داعش ليعلم العالم صوتها القبيح، أي أنه تصرف يمكن تسميته «علاقات عامة» على الطريقة الداعشية، فهو يجذب لها الكثير من الأتباع الذين تغريهم مثل هذه التصرفات، التي يرون فيها شيئاً يشبع نهمهم وشغفهم أكثر ممّا يفعل طمس الصور في اللوحات الإعلانية، والذي لم يعد يكفيهم للانتشاء. هذا فيما يخص بني داعش، أما الجانب الآخر ففي الحقيقة أنه لم تبق في العراق آثار من الأساس لتدمر، فقد سرقها المحتلون، بكافة أشكالهم وألوانهم، قبل أن تأتي داعش، وما لم تنله يد أولئك اللصوص المحررون نالته يد لصوص الآثار المنتكرين على هيئة سياسيين ووطنيين عراقيين، والذين وجدوا في العراق كنزاً سهلاً المنال.

الأمر الأكثر سوءاً والأكثر استفزازاً هو أن منظر الدواعش وهم يحطمون الآثار بفؤوسهم سيلفت انتباه العالم المتحضر ويثير غضبه واستيائه أكثر مما لفت انتباهه وأثار استيائه منظر الدواعش وهم يقتلون البشر، وأكثر مما أغضبته براميل بشار التي تسقط على رؤوس أناس حقيقيين، سيفغضب هذا العالم المتحضر لتحطيم تلك الآثار، وهو غضب لم يكن له مبرر تجاه العدد الذي لا يحصى من الميليشيات الطائفية التي تثقب رؤوس الناس بالدريل أو تدفهم أحياء ■

كاتب من السعودية



سور





■ حفر وتنظيف في مواقع أثرية





■ عناصر من داعش تحطم تماثيل في متحف الموصل





■ مواقع أثرية بيزنطية وإسلامية دمرتها طائرات وصواريخ النظام السوري في حلب وحمص وإدلب ما بين 2011-2015 خلال حملاته لإخماد الثورة الشعبية على حكم آل الأسد







إيرينا بوكوفا

لا يمكننا البقاء صامتين إنها جريمة حرب

من بين أولئك الذين يؤمنون بأن التراث الثقافي هو هوية الشعوب وذاكرة الأمم وأن هذا الامتداد يستمد من خلال الشعور بالانتماء للماضي في هذا الحاضر وأن التراث والحداثة أو المعاصرة هي بنية واحدة يسودها فهم واحد وممارسات لا تختلف في جوهرها عن القيم التراثية والحداثية في آن واحد، المدير العام لمنظمة اليونسكو إيرينا بوكوفا التي خصت "الجديد" بهذا الحوار عن التراث الثقافي والحضاري للعراق وسوريا والذي يتعرض اليوم إلى تطهير ثقافي ممنهج، كما قالت السيدة بوكوفا.

حديث شيق مع مدافعة شرسة عن الثقافة والتراث. وحديث بلسان ينطق لغات عدة ويتحدث العربية ولكنة بلغارية تجعل من حرف الضاد "نوتة" ينحني لها العقل تقديراً. هو حديث عن حضارة شرقية على لسان امرأة غربية، تعرف تفاصيل الشرق، وتحكي عن روائع الأعمال بلغة الإعجاب والانبهار وتتغير نبرة صوتها ووجهها حين تعلن تدميرها من سلوك مستهجن لجماعات تدمر هوية الإنسان بحجج أيديولوجية لا علاقة لها بالدين أو المعتقد. هو إذن، حديث عن عراق عشتار وعن آشورية سوريا وما لحقهما من طمس للهوية التاريخية.

بوكوفا تتحدث بنبرة الحزن والغضب والأسف عن هذا الخراب الذي يطال بلاد الرافدين، في كلماتها نشتم رائحة دخان النيران التي تآكل صفحات التاريخ من وراء الحدود. تحدثت بوكوفا عن حضارة ما بين النهرين بإعجاب العاشقة المتميمة بحضارة البابليين والسومريين، وتأسفت على ضياع وتشتت ألمًا بعقول لم تعرف قيمة تلك الممتلكات التراثية التي نفضت عنها غبار الزمن وظلت راسخة صامدة لعقود خلت.

الحيثية مع كافة شركائها، كالمنظمة العالمية للجمارك، والإنتربول، والمجلس الدولي للمتاحف، والمجلس الدولي للآثار والمواقع، ستفضي بالتأكيد إلى تنسيق مهم من أجل حماية الممتلكات التراثية والمواقع، مثمناً الارتباط الوثيق بين جميع البلدان المجاورة ودور البيع بالمزاد للكشف عن أي تحف أو قطع تم تهريبها أو تدميرها.

آثار ذات قيمة كبيرة وكنوز هي من أروع التحف لحضارات تعاقبت على بلاد الرافدين وتمتد لآلاف السنين، تتعرض اليوم للتدمير والتخريب بعد أن طالها في ما سبق النهب والسرقه خلال احتلال بغداد. ما قيمة هذا الأعمال والكنوز التي أصبحت عرضة للتطهير والمسح؟

الدولية، بمثابة جريمة حرب. ولذلك، أنشأت اليونسكو هذا النظام، وأخطرت المحكمة الجنائية الدولية بالأحداث، مطالبةً بفتح تحقيق في ما ارتكب من جرائم ضد التراث الثقافي في العراق وسوريا.

وأكدت بوكوفا في حوارها لمجلة "الجديد" عن عزمها على إقامة تحالف واسع النطاق من الشركاء لوضع آلية عمل على نطاق المنظومة من أجل تنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم 2199 تنفيذاً فعالاً، والمتعلق بإدانة تدمير التراث الثقافي والذي يعتمد تدابير ملزمة قانونياً لمكافحة الاتجار غير المشروع بالآثار والممتلكات الثقافية في كل من العراق وسوريا. هذا القرار، الذي أعتد في 12 فبراير 2015 من قبل مجلس الأمن الدولي، وأشارت مديرة اليونسكو إلى أن الاتصالات

مديرة اليونسكو رأت في الهجوم على المواقع الأثرية وتدمير المعالم والتحف جريمة حرب يعاقب عنها القانون الدولي والاتفاقات المعتمدة، إذ قالت "لا يمكننا البقاء صامتين. أمام التدمير المتعمد للتراث الثقافي، إنها جريمة حرب، يجب تفعيل كل القوانين الدولية للتصدي لها ومعاقبة مرتكبيها، مذكرة أنه لا يوجد ما يبرر تدمير التراث الثقافي للإنسانية سواء من الناحية السياسية أو الدينية". مطالبة مجلس الأمن والمحكمة الجنائية بتفعيل كل الآليات للرد القوي على كل من تسول له نفسه المساس بالتراث الحضاري والثقافي الذي هو حق عام يخص الجميع. التدمير المتعمد للتراث الثقافي الذي اعتبر بموجب نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية



نبذة عن إيرينا بوكوفا

الدبلوماسية والسياسية البلغارية إيرينا بوكوفا، المديرية العامة لليونسكو منذ 15 نوفمبر 2009، أول امرأة تُنتخب لتولي رئاسة هذه المنظمة الثقافية الدولية. شغلت منصب وزيرة للشؤون الخارجية ببلادها ثم سفيرة لبلغاريا. تخرجت بوكوفا من معهد العلاقات الدولية في موسكو ومن جامعة ميريلاند بواشنطن، كما تخرجت أيضا من كلية جون ف. كندي للدراسات الحكومية بجامعة هارفرد، والتحقّت منذ عام 1977 بوزارة الشؤون الخارجية حيث كُلفت بقضايا حقوق الإنسان. إيرينا بوكوفا من الشخصيات السياسية المحبذة في الأوساط الدولية، لدبلوماسيتها في التعامل مع القضايا الحساسة. عُيّنَت مسؤولة عن الشؤون السياسية والقانونية في البعثة الدائمة لبلغاريا لدى الأمم المتحدة بنيويورك، وكانت من بين أعضاء الوفد البلغاري الذي شارك في مؤتمرات الأمم المتحدة المعنية بالمرأة وتحقيق المساواة المنعقدة في كوبنهاغن (1980) ونيروبي (1985). ساهمت في صياغة الدستور البلغاري الجديد الذي ساهم إلى حد كبير في انضمام بلغاريا إلى الاتحاد الأوروبي، عندما كانت نائبة عن الحزب الاشتراكي في البرلمان البلغاري (1990-1991 و2001-2005). وأنشأت أول حلقة تدارس للجمعية البرلمانية التابعة لمجلس أوروبا بشأن الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان. إيرينا بوكوفا تتقن عدة لغات (البلغارية والروسية والإنكليزية والفرنسية والأسبانية والعربية)، وقد شغلت مناصب وزيرة الشؤون الخارجية ومنسقة رئيسية للعلاقات بين بلغاريا والاتحاد الأوروبي (1995-1997)، ثم سفيرة لبلغاريا (2005-2009) في فرنسا وموناكو واليونسكو وهي حاليا المديرية العامة لمنظمة اليونسكو.

من 3300 سنة والذي أصبح اليوم معرّضا للزوال؟

بوكوفا: اليونسكو مجتدة بالكامل. كانت الخطوة الأولى هي أن نوضح ونشرح بأن تدمير التراث هو ليس فقط مسألة ثقافية، بل كان يجب علينا أن نوضح أنه قضية أمنية أيضا. نعم كان يجب توضيح ذلك. والآن، فإن هذا الرابط قد تم تأسيسه، ونحن نسق جهودنا مع مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة لتنفيذ القرار رقم 2199 الذي اعتمد في 12 فبراير 2015 والذي يحدد العلاقة بين التهريب وتمويل الإرهاب، كما يحظر، القرار نفسه، التجارة بالممتلكات الثقافية القادمة من سوريا والعراق. وهو الأمر الذي سيُتيح إعادة تلك الممتلكات إلى الشعب العراقي والسوري. كما تتعاون اليونسكو أيضا مع الاتحاد الأوروبي في إطار تنفيذ خطة طموحة للحفاظ والتدريب والتوعية والاتصال لإعادة بناء التراث السوري، ومع اليابان والنرويج والدول الأخرى المانحة التي تساهم، من خلال اليونسكو، لإنقاذ التراث العراقي. العراق ذلك البلد الذي حشّدت فيه اليونسكو كل طاقتها منذ عام 2003 للحفاظ على تراثه.

وبالإضافة إلى ذلك، تعمل اليونسكو على تدريب الخبراء، والفنيين وضباط الشرطة وموظفي الجمارك، والمحامين، ومديري

أمثلة على مواقع مثل: تدمر، أفاميا، الدورة، الصالحية بسوريا. أيضا مواقع في العراق: الحضر، نمرود، الموصل، وهي مواقع أثرية رائدة تضررت من جراء التخريب الإرهابي.

الوضع مقلق للغاية لدرجة أنه دفع اليونسكو لإطلاق خطة طوارئ جديدة. هل تمكنت اليونسكو من تسخير كل الوسائل المتاحة لحماية هذا التراث الذي يمتد لأكثر



حركة التهريب للممتلكات الثقافية في الشرق الأوسط تمر بالإضافة إلى تركيا، عبر الحدود اللبنانية والإيرانية وكذلك عبر دول الخليج



بوكوفا: هذه التحف التي خزّبت ودمّرت هي تحف نادرة ومن أروع الأعمال التي عرفتها البشرية وهي جزء من تاريخ الإنسانية جمعاء: بلاد ما بين النهرين، جلبت لنا الكتابة، وقدمت لنا أولى النصوص القانونية، وعزّفتنا بالعجلة، ومنحتنا الرياضيات. تدمير هذا التراث هو بمثابة فقدان القسري للذاكرة الذي نخضع له كأنه عقاب لنا جميعاً.

هكذا، يتم التعامل مع ذاكرة الشعوب وهويتها كنوع من السلع التي يمكن بيعها أو هدرها في الأسواق. وهو إنكار لكرامة هذا الشعب، ومساهمته في الثقافة العالمية، التي انعكست إيجابا على البشرية جمعاء. من الضروري أن نستوعب أن إلحاق الأضرار، أيّا كان نوعها، بالممتلكات الثقافية لبعض الشعوب التي تنتمي إليها، يشكل، بآتم المعنى، إلحاق الأضرار بالتراث الثقافي للإنسانية جمعاء. ولذلك، فإن الحفاظ على هذا التراث ونقله إلى الأجيال القادمة أمر ضروري لجميع شعوب العالم.

هل وتفتنم المواقع الأثرية في مناطق النزاع، والتي أصبحت في قبضة المنظمات الإرهابية أو غيرها؟

بوكوفا: نعم، اليونسكو لديها بعض المعلومات في هذا الصدد. وأعطيك

لكن من يقنتي هذه القطع الأثرية، ومن يمول سوق الفنون الموازية؟

بوكوفا: الذين يقنتون القطع أو المشترون طبعاً هم تجار، تجار الآثار، دور المزادات، وهواة جمع القطع النادرة وعديمو الحس المعرفي الثقافي والتراثي وغير المكتثرين وبعض المجاملين. وأيضا هناك شبكات للتهريب قريبة من المنظمات الإجرامية، وأسواق الفنون في أوروبا وأميركا الشمالية وآسيا ودول الخليج.

طال الزمان أم قصر

ما يهزّب من ممتلكات ثقافية من العراق أو سوريا عبر حدود البلدان المجاورة إلى الأسواق الغربية، غالبا ما يظهر في الأسواق الغربية بعد مرور أعوام وربما سنوات. هل رصدتم وسيلة الترميم هذه التي يستعملها المهربون حتى لا تكتشف القطع في حينها؟

بوكوفا: التعاون والتنسيق مع سلطات الجمارك والشرطة هو مفتاح الحل في هذه الحالات، ومع جميع البلدان الحدودية التي غالبا ما تكون معبرا لتهريب الممتلكات الثقافية. حركة التهريب للممتلكات الثقافية في الشرق الأوسط تمر بالإضافة إلى تركيا، عبر الحدود اللبنانية والإيرانية وكذلك عبر دول الخليج. يجب على المجرمين والمهزّبين أن يفهموا أن سوق الفنون ودوائر علم الآثار هي عالم صغير جدا. ومن السهل جدا التعرف على القطع المهربة على الفور من قبل الخبراء والمؤسسات الكبرى المختصة مثل المتاحف، التي تعرف في كثير من الأحيان أثناء معاينة القطعة أو التحفة الأثرية من أيّ موقع أثري جلبت. ولا ينبغي على المجرمين أن يتوهموا، فسوف نجد في نهاية المطاف هذه القطع أو التحف، حتى ولو استغرق ذلك وقتا طويلا.

إذن معنى ذلك أن هناك تنسيقا دوليا فعلا بين اليونسكو والهيئات الرسمية الدولية حسب النصوص والقوانين المعتمدة؟

بوكوفا: كما أشرت آفنا، اليونسكو تعمل بشكل وثيق مع مكتب الأمم المعني



كان عليه الحال في مالي، حيث قمنا بتوثيق تخريب التراث وتدميره بهذا البلد، وهو مثال لتوثيق الأضرار التي يتعرض لها التراث في مناطق النزاع. فمن الضروري التوثيق لذلك من خلال جمع الصور والوثائق وجردها لمعرفة ما تم تدميره وكيف تم ذلك. الحلقة الإجرامية

حظر مجلس الأمن كل أشكال التجارة بالممتلكات الثقافية القادمة من سوريا والعراق والتي تموّل الإرهاب. هل الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية يرتبط فقط بالإرهاب أم هناك شبكات أخرى تنشط في هذا المجال؟

بوكوفا: يرتبط الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية ارتباطا وثيقا بالشبكات الإجرامية المنظمة بما في ذلك شبكات المتاجرة بالأسلحة وشبكات تهريب المخدرات. ويستخدم الاتجار بالفن أحيانا لغسل الأموال القذرة، باستغلال تبادل العملات. وهذه هي النقطة الرئيسية التي من الصعب أحيانا أن نوضحها، لأن التحف الفنية لا ينظر إليها على أنها بضائع خطيرة، مثل الأسلحة أو المخدرات، ولكن يتم استخدامها من قبل المجرمين للأهداف نفسها التي يرمي إليها غيرهم.

التراث والجهات الفاعلة في سوق الفنون، وفي قلب شبكة فريدة للتنسيق والتعاون الدولي الأنتربول، منظمة الجمارك العالمية، مكتب الأمم المعني بالمخدرات والجريمة، والمعهد الدولي لتوحيد القانون الخاص، الخ. وسنطلق في الأسابيع المقبلة، اثتلافا واسعا يضم جميع هذه الجهات الفاعلة، كل في مجاله، من أجل حماية التراث الثقافي في البلدان التي تعرف الحروب والنزاعات.

جريمة حرب

الحلول العسكرية غير واردة في الجرائم المرتكبة ضد الثقافة، كهجومات داعش على المتاحف وعلى المواقع الأثرية بسوريا. كيف يمكن للهيئات المعنية الحفاظ على الثقافة كمنظمة اليونسكو وتقديم استجابة مناسبة لهذا النوع من الجريمة؟

بوكوفا: التدمير المتعمد للتراث هو في الواقع جريمة حرب، ولذلك على المحكمة الجنائية الدولية أن تنظر إلى ذلك بعين التمحيص وتتخذ الخطوات والقرارات اللازمة في هذا الشأن. وفي هذا الإطار، فإن اليونسكو تعمل مع المحكمة الجنائية الدولية لتشكيل ملفات من هذا النوع، وفقا لاتفاقية لاهاي لعام 1954 والمتعلقة بتوثيق تدمير التراث في حالة النزاع المسلح، مثلما



إبرينا بوكوفا خلال زيارتها المتحف العراقي ببغداد 2014



الشعوب والأمم. أقول إن أفضل حماية لقطعة أثرية، هو التعريف بها، وهنا تصبح القطع الأثرية معروفة ومحترمة، وينظر لها على أنها حق عام، أي تصبح من الممتلكات الواجب حمايتها من قبل الجميع. يمكن للمتاحف أيضا أن تساعد في حفظ التراث الثقافي المنقول، عن طريق استقبال التراث الذي كان في مؤسسات متحفية أخرى، ولكن الوضع الآن أصبح غير آمن على ذلك التراث، وهو ما يحتم نقله إلى مؤسسة متحفية أخرى، وهنا يتحول المتحف إلى مخزن مؤقت لاستقبال التراث المهدهد.

المكتبة المهدهدة

هل تعتقدون أننا أمام تطهير ثقافي وحضاري للذاكرة الإنسانية وطمس لهوية شعوب امتلكت حضارات راقية تعاقبت عبر عقود من الزمن لتصل إلينا، فهناك كما يبدو جليا صلة بين الاضطهاد الدامي للأقليات والأقليات معا، وبين تدمير التراث، وتجيش المدارس، والمعلمين، واغتيال الصحفيين؟

بوكوفا: وهذا هو نفس منطق استبعاد

العصور القديمة حضارة السومريين الذين جاؤوا بالكتابة المسمارية في 3100 قبل الميلاد هي اليوم معرضة للطمس لسبب أو بآخر. كيف يمكن للمؤسسات الثقافية الكبرى مثل المتاحف أن تجعل من هذا التراث ملكية عامة يشترك الجميع في صيانتها والحفاظ عليها؟

بوكوفا: المتاحف تساهم في صون التراث الثقافي المنقول وحفظه، وهذه المتاحف أيضا ترفض أن تحتوي رفوها تحفا ومقتنيات مهربة أو مسروقة أو غير واضحة المصدر. وعندما أقول، إن المتاحف ترفض اقتناء ممتلكات ثقافية مشبوهة أي مهربة أو مسروقة، فإن هذا معناه أن المتاحف تساهم بهذه الطريقة في تجفيف منابع التمويل وهي السوق الموازية التي تباع فيها هذه التحف أو القطع الأثرية. ولا يقتصر دورها فقط على هذا بل تشارك المتاحف أيضا في الحفاظ على التراث من خلال تقديم شروحات عن هذا التراث والتعريف بمنبعه ومصدره والحضارة التي جاء منها، من خلال تنظيم المعارض وعرض الممتلكات الأثرية وإبراز قيمتها التاريخية وأهميتها الإنسانية بوصفها جزءا من هوية

بالمخدرات والجريمة، والمعهد الدولي لتوحيد القانون الخاص، ومنظمة الجمارك العالمية والانتربول.

عمل اليونسكو يتمحور حول عنصرين هامين هما القانوني والعملي.

ويتضمن العمل القانوني دعم التصديق على النصوص، وتنفيذ اتفاقية عام 1970 المتعلقة بمكافحة الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية؛ اتفاقية 1954 لحماية الممتلكات الثقافية في حال نزاع مسلح وبروتوكولها (1954 و 1999)، واتفاقية توحيد القانون الخاص عام 1995، والصكوك القانونية الدولية الأخرى.

أما في ما يتعلق بالجانب العملي، تنظم اليونسكو، بالتعاون مع الشركاء من المؤسسات، مؤتمرات للتكوين والتدريب والتوعية، تهدف من خلال ذلك، إلى مكافحة الاتجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية.

المكانيزات متوفرة واليوم نريد تعزيز هذه الآليات المختلفة، ليكون لدينا ميكانزمات أكثر فعالية، والتي تسمح بالاستجابة لمثل هذه الأزمات التي تتزايد يوما بعد يوم.

العديد من الحضارات القديمة التي ساهمت في تنوير الإنسان البدائي في

الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند وإيرينا بوكوفا يقفان في متحف اللوفر أمام منحوتة تمثال الحاكم إيبه إيل من مملكة ماري (2400 قبل الميلاد)



الثقافية (OCBC) اعترض على موقع للمزاد العلني على الإنترنت، ثلاث عشرة قطعة أثرية مهربة من العراق كانت عبارة عن ألواح طينية تحمل شخصيات مسمارية، بالإضافة إلى قطع أخرى نادرة. هل لليونسكو الحق في استرداد مثل هذه الأعمال ونقلها للبلد الأصلي؟

بوكوفا: لا، اليونسكو ليس لديها الحق في استرداد هذه الأعمال. لكن الدول هي الوحيدة التي لديها القدرة على المطالبة بالمتعلقات الثقافية التي مصدرها غير قانوني، كما لديها الحق في منع البيع والمطالبة بعودة الملكية إلى موطنها الأصلي. مهمتنا تكمن في مساعدتهم ومرافقتهم، وتعزيز القدرات الفردية لكل جهة وتقديم الدعم لها لحماية الثقافة. التراث هو ملكيتنا العامة، بل هو المحرك والقوة للحوار والتعاون. ونحن لن نقبل ولن نرضى أبداً أن يتحول هذا الرصيد إلى صيد ثمين للمجرمين والإرهابيين أيًا كانوا ■

أجرت الحوار في باريس: أسما كوار

في الحرب، ولزرع الرعب وزعزعة معنويات السكان وإضعافهم. لذلك يجب علينا أن نرد على هذا النوع الجديد من التهديد والعنف بمزيد من القوة ذاتها، بل أكثر منها. ولهذا السبب تعمل اليونسكو حالياً مع الشركاء على وضع آليات جديدة للتدخل في هذه الحالات.

الجديد: هل تعتقدون أن الاتجار بالآثار غير قابل للقياس، إذ حسب تقديرات الخبراء فإن تجارة الآثار تصل إلى مبالغ تقدر ما بين 6 إلى 15 مليار يورو سنوياً؟

إيرينا بوكوفا: فعلاً لدينا أرقام ولكنها تقريبية، فهي ليست دقيقة، باعتبار أن مصدرها تجارة غير مشروعة. ومن حيث المبدأ، لا يمكننا الكشف عن الأرقام والمعلومات حتى لا نرفع من مزادات تلك الأسواق. نعم، أستطيع أن أؤكد لكم أن تهريب القطع الأثرية هو تجارة مربحة جداً وتقف على رأس قائمة حركة التهريب العالمية.

لن نقبل أبداً

في 2 أكتوبر 2012، المكتب المركزي لمكافحة الاتجار غير المشروع بالمتعلقات

العقل ومحو أي تنوع ثقافي. التطهير الثقافي يمارس على الكل وعلى جميع المستويات: التدمير المتعمد للتراث لأسباب أيديولوجية. اضطهاد الأقليات العرقية والدينية، مثل الإيزيديين والشبك والتركمان، الخ. تدمير مواقع العلم والمعرفة حيث تتوفر الكتب، وهنا أشير إلى أن بعض المراجع تخشى حرق وتدمير مكتبة جامعة الموصل.

لا بد من القوة

الأجل هذا طلبت عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن بشأن حماية التراث الثقافي في العراق كعنصر مكون لأمن البلد. كيف تتصورين تعبئة دولية أمنية ضد هذا التطهير الثقافي؟

بوكوفا: في الواقع هناك وعي متنام لدى الجميع بأن تدمير الثقافة هو تدمير ما تملكه المجتمعات في عمقها؛ هويتها، ذاكرتها، وتاريخها. كل هذه العوامل أصبحت مستهدفة، لأنها جزء لا يتجزأ من تماسك المجتمعات. ولنا أن نرى كيف أن الإرهاب بكل أشكاله، يستخدم تدمير التراث كسلاح

بياتريس أندريه سالفيني

الأميركيون يعرفون لكنهم لا يتحركون

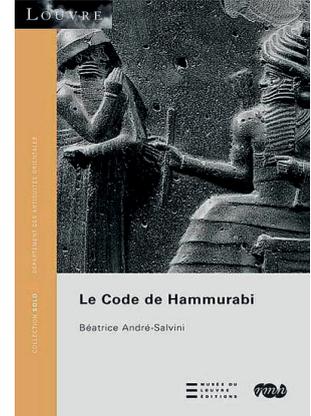
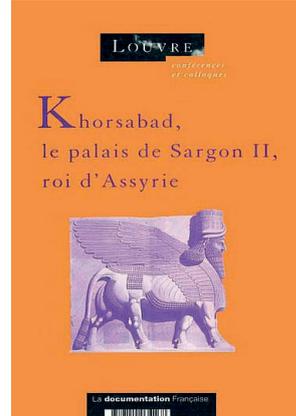
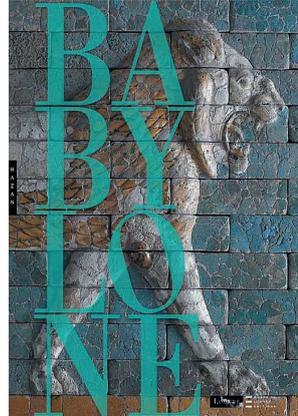
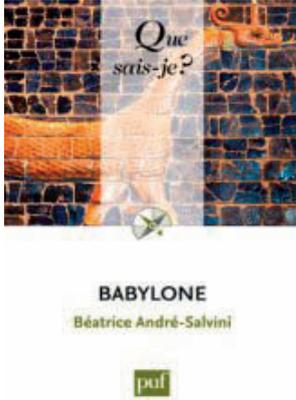
ليس بديهياً القول إن التراث الثقافي مفتاح البشرية وكتابها التنويري، والهوية الثقافية التي تحمل سمات التفرد الحضاري لشعب وأمة وعصر؟ وهي، بالتالي، كائن جماعي حي يتحول ويتغير من الداخل على ضوء تغير المصادر القيمية والسلوكيات، ومن الخارج بفعل أشكال التأثير الخارجي الناتج عن علاقة الفرد بالمحيط والجماعة بالعصر. الهوية الثقافية تشتغل جدلية الذات والآخر وتعيد كل جماعة بشرية تأويل ثقافتها من خلال اتصالاتها الثقافية، أو قد تنزع نحو المثاقفة وما يشبهها. وعلى حد تعبير الدكتور عابد الجابري، فإن التراث الثقافي لأي شعب كان هو كيان يحدث ويتطور ويعرف وينتشر ويحفظ، يعنني بتجارب الشعوب ومخزونها الفكري والقيمي والحضاري، فيصنع هويتها وذاكرتها ومعاناتها وانتصاراتها وتطلعاتها.

المدارس لاكتشاف حضارات شرقية عرفتها الإنسانية، فكانت بحق مركز إشعاع للعالم. عندما زارت بياتريس متحف الموصل في عام 2001، كان هذا الأخير يضم ممتلكات ثقافية نادرة لحضارات الآشوريين والسومريين والبابليين... تماثيل أصلية وأخرى مماثلة نصفية كانت عملاقة في صمودها لعقود من الزمن، دُمّرت بالمطرقة. معالم أثرية في الحضرة شاهقة العلو حفرت بآلات ثقب الصخور ومباني لمدينة حضارية صمدت أمام إمبراطورات تلك العصور جرفت بجرافات التدمير والخراب. في هذا الحوار الذي خصت به المجلة، تتحدث بياتريس عن المعالم الأثرية والتحف الفنية التي دمرت من قبل الازدهار والتي تعتبر خسارة فكرية وحضارية وثقافية لن تعوّض على مدى العصور، والتي تمتد إلى الحقبين الآشورية والبارثية، وتعود بنحو 3 آلاف سنة أي ما بين 2700 و3000 قبل الميلاد في عصر الإمبراطورية الآشورية، كما

بياتريس أندريه سالفيني، المختصة في علم الآثار وأمينة عامة للتراث، المديرية السابقة لدائرة الآثار الشرقية في متحف اللوفر والتراث المحافظ عموماً، زارت متحف الموصل في عام 2001 ووضعت عدة مؤلفات عن حضارة الشرق منها 'هيبية بابل'، حيث تعتبره القلب الروحي والفكري لجميع بلاد ما بين النهرين، أين تختمر الإنسانية وتتجسد معانيها في تلك الحضارات التي تعاقبت على بلاد ما بين النهرين، وقد أضاءت بنورها على العالم بأسره... كانت مركز الكون، مثلما تقول سالفيني ورمزا لانسجام العالم، وهي التي ولدت من قوة الإله الأعلى، مردوخ، منظم الكون، كما تقول. هذه الازدواجية الحقيقية والباطنية لحضارة بابل، تبرز قوة وجودها. بياتريس صاغت وصفها لحضارات الشرق بدقة وعلم الباحثة في علم الآثار، محاولة أن تنقل المعلومات والصور عن تلك الروائع لقراءها ولزوار المتاحف ومحبي الآثار وللأجيال في

إنها الحد المكتسب من المعارف والتصورات والممارسات الفكرية لدى الإنسان في محيطه الاجتماعي، والتي تلقاها لمصلحته ومصلحة هذا المحيط. والهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعاً تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى. هذا التراث الثقافي في الشرق، في سوريا والعراق، اليوم خصوصاً، معرض أكثر من أي وقت مضى للطمس والتطهير، حيث تمتد يد الإثم لمحو التاريخ والحضارة عبر تحطيم المعالم والمواقع الأثرية باسم الأيديولوجيات الدينية والإثنية والعرقية. وفي هذا المقام يتحدث أهل الاختصاص عن حضارة ما بين النهرين بإعجاب واندهاش بتلك الحضارة وبامتعاض وأسى لما يطالها من تشويه ودمار.





بعض مؤلفات سالفيني حول التراث الآثري العراقي والسوري والشرقي عموما

جذورها إلى القرن الثالث قبل الميلاد، تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات وتحمل من الكنوز الأثرية لحضارات تعاقبت على بلاد الرافدين كالإغريق والرومان والفرس وفيها كنوز مازالت لم تكتشف بعد ككنائس قديمة تحتوي على العديد من التحف والقطع الأثرية تعود للقرن 235 للميلاد. هذا الموقع الأثري هو أكثر المواقع بسوريا تعرضا للنهب والتخريب.

نعلم أن الحروب كانت دائما دمارا وخرابا للحضارات ولتراث الشعوب والأمم. ومثلما شهدنا في حروب سابقة من طمس وتدمير لتراث شعوب، نشهد اليوم كارثة إنسانية وتاريخية وحضارية. تنظيم داعش دمّر كنوزا تاريخية وحضارية في العراق وسوريا، ونهب وسرق قطعاً أثرية يعود تاريخها لأكثر من 3000 سنة، وأصبح يسيطر على أكثر من 3500 موقع أثري في هذين البلدين. أضف إلى ذلك التخريب الذي طال المساجد والكنائس والأضرحة والمقامات الدينية مثلما حدث أيضا في مالي عندما هاجمت الجماعات التابعة لبوكو حرام المقامات الدينية والكنائس. وحيثما كانت الجماعات الإرهابية تنشط باسم الدين، سواء في سوريا أو في العراق أو في مالي أو في ليبيا، فإنها دائما تستهدف الأضرحة والمساجد والكنائس.

إدماء التاريخ

هل تعرفت على القطع والمعالم التي استهدفت من قبل تنظيم الدولة في العراق وهل كلها من نفس الموقع الأثري؟

سالفيني: القطع والمعالم التي تم

سالفيني: اشتغلت على التراث الأثري الشرقي لسنوات عديدة، وزرت دولا كثيرة منها العراق وسوريا واليمن ووقفت عن قرب على تراث يمتد لآلاف السنين واطلعت على كنوز لحضارات تعاقبت على المنطقة. زرت العراق قبل الغزو الأميركي بشهرين في يناير 2003 وعدت في 2011 وفي 2012. كما زرت المواقع الأثرية العراقية كمواقع نمروذ والموصل ونيوى ولكن أصبح بالنسبة إلينا نحن الأوروبيون من الصعب الدخول إلى الموصل منذ سنوات. العراق وما يحمله من ثقافة وحضارة وسوريا وما تنام عليه من إرث ثقافي حضاري هما أصلا ثقافة العالم. فدورا أوروبوس بسوريا، المدينة التي تمتد



لا يجب الخلط بين من يبيع قطعة أثرية، لأنه مضطر إلى ذلك وواقع تحت طائلة الجوع، وبين ذاك الذي يستغل الوضع الأمني ليتاجر في التحف والآثار بقصد الربح السريع



شرحت سالفيني التي تعرفت عن التماثيل التي دمرها الإرهاب، في متحف الموصل وهو من أروع المتاحف في العراق، مشيرة إلى تمثال الثور الآشوري الضخم المجنح والشهير بجسم ثور ورأس إنسان. والذي كان في الحضارة الآشورية حارسا لقصور ومعابد ممالك الإمبراطورية الآشورية وقطع أخرى استقدمت إلى المتحف من الموقع الأثري 'النمرود' الواقع في محيط الموصل والذي هو من بقايا العاصمة الآشورية القديمة، حيث تمتد معالم وأطلال المدينة الضخمة شاهقة في السماء في تحد للطبيعة والإنسان.

المديرة السابقة لدائرة الآثار الشرقية في متحف اللوفر والتراث المحافظ عموما، اعتبرت أن تحطيم هذه المعالم الحضارية هو كارثة بحجم ما يحمله المعنى. مطالبة المجتمع الدولي بالتحرك من أجل حماية التراث وتفعيل كل الاتفاقيات التي اعتمدت في هذا الإطار، مشيرة إلى أنه لا يجب الخلط بين من يبيع قطعة أثرية، لأنه مضطر إلى ذلك وواقع تحت طائلة الجوع، وبين ذلك الذي يستغل الوضع الأمني ليتاجر في التحف والآثار بقصد الربح السريع.

وفي هذا الحوار تكشف سالفيني أنها استطاعت أن تتعرف على قطع مهزبة من العراق وسوريا وقد أعيدت إلى موطنها الأم.

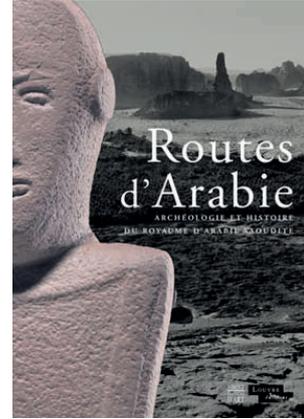
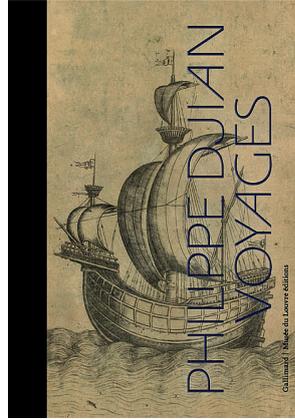
تدمير المتاحف ومواقع الحفر ونهب الآثار ذات القيمة الكبيرة تتواصل في سوريا كما في العراق، كنوز أثرية مرت طي الكتمان من قبل الشبكات الإجرامية والإرهابية. ماذا تمثل هذه الأعمال التي تتعرض للنهب والاتجار غير المشروع؟

الحضر هي مدينة عربية، استطاعت أن تحافظ على ثقافتها المميزة وبقيت تقريبا مستقلة رغم أنها ضُمَّت إلى الإمبراطورية البارثية بعد حصار طويل. وكانت محل صراع بين الإمبراطوريتين الرومانية والبارثية، كما حاول الإمبراطور الروماني تراجان في 116 للميلاد السيطرة على مدينة الحضر، لكنه فشل في ذلك، وبقيت الحضر صامدة في شموخ وكبرياء أمام الرومان.

نسخ أصلية

لكن هناك العديد من المختصين والهيئات المعنية أشارت إلى أن المعالم والقطع والتحف الأثرية التي تعرضت للنهب والتخريب من قبل التنظيم الإرهابي سواء في العراق أو سوريا هي مجسمات وليست أصولاً. هل هذا يقلل من حجم الخسارة، وهل معنى ذلك أن القطع الأثرية الأصلية وذات القيمة الكبيرة هي في مأمن من التخريب أو النهب؟

سالفيني: لا، هذا ليس صحيحاً. الكثير من القطع التي خربت أو نُهبت هي قطع أصلية، وليس كما أشيع أنها مجسمات، وأخرى أعيد بناؤها من قطع مبعثرة، ولكن هناك من بين القطع التي خربت نسخ لقطع أصلية موجودة في متاحف أخرى لكن حتى هذه النسخ لها أهمية كبيرة. حتى المجسمات مثل مجسمات الأقواس الآشورية تحمل من القيمة الأثرية الشيء الكثير. فحتى تخريب المجسمات هو عمل غير لائق وليس فعلاً إنسانياً أو حضارياً، لأن بعض المجسمات لها نفس القيمة مع التحف والقطع الأصلية.. رأيت في كردستان مثلاً مجسماً لمنحوتة موضوعة على جدار صخري، وهذا الجدار الصخري معرض للعوامل الطبيعية والعوامل الإنسانية، ولكن لم يطرأ عليه أي تغيير لمئات السنين. المجسمات القديمة هي غالباً ما تحفظ بشكل أحسن، وتحفظ المنحوتات الملحقة أفضل من الأصلية. هذا يعني أن المجسمات يمكن أن تكون لها أهمية كبرى. ولكن الشيء المؤكد أن القطع التي نُهبت وخربت في متحف الموصل والنمرود كانت قطعاً أصلية. وليس صحيحاً أن القطع التي خربت بمتحف الموصل كانت 90 بالمائة غير أصلية، للأسف هي أصلية.



ذات الأصول الإيرانية والتي هيمنت على بلاد الرافدين منذ 129 قبل الميلاد إلى غاية منتصف القرن الثالث للميلاد. بنيت المدينة على موقع من الحجر المصقول على ارتفاعات كبيرة، وبقيت تلك المعالم صامدة وفريدة من نوعها في كل المنطقة. وظلت بعض المعابد راسخة في علو شامخ حيث كان الإله الرئيسي للإمبراطورية المهيمنة هو إله الشمس. وهناك معابد أخرى كبيرة تحمل أقواساً مميزة مزينة بتماثيل نصفية. التماثيل وضع بعضها في المتحف واستقدمت من موقع الحضر وهي التي حطمت مثلما يظهر في الفيديو. الشيء المهم بالنسبة إلى العراقيين أن مدينة

تخريبها من قبل داعش هي نوعان من عصرين مختلفين، يعودان إلى الحقيقتين الآشورية والبارثية، أي قبل الميلاد. تقريبا بنحو 3000 سنة أي بين 2700 و3000 وهو عصر الإمبراطورية الآشورية. الكنوز التي دمرتها أيدي الإرهاب، تتمثل في تماثيل ضخمة كتماثيل الثور الآشوري الضخم المجنح والشهير وهو تماثيل بجسم ثور ورأس إنسان. والذي كان في الحضارة الآشورية حارساً لقصور ومعابد ملوك الإمبراطورية الآشورية. وهو الذي رأينا إرهابيين يحطمونه. وهناك قطع صغيرة استقدمت للمتحف من الموقع الأثري النمرود. هذا الموقع الذي هو بقايا العاصمة الآشورية القديمة، يضم معالم وأطلالاً ضخمة، حيث كانت هناك العديد من المدن الآشورية، المهمة التي توجد في محيط الموصل. وكانت نمرود على بعد عشرات الكيلومترات من الموصل.

تحطيم هذه المعالم الحضارية هو كارثة، بكل ما تحمله من معنى. القطع أو التماثيل الأخرى التي خربت أيضاً هي قطع أثرية، استقدمت إلى متحف الموصل من موقع الحضر الواقع 110 كلم جنوب غرب الموصل على أبواب الصحراء. تلك المدينة التي هي فخر العراقيين، حيث كانت الحضر التي تترجع على أطراف الصحراء، وتعتبر مفترق طرق للقوافل التجارية، وهي مكان للتسوق بين الشرق والغرب. ويحظى الموقع بأهمية قصوى لما يحتويه من كنوز أثرية وتحف ومعالم ظلت تقاوم قسوة الطبيعة والإنسان صامدة لآلاف السنين. وعرفت هذه المدينة الأثرية بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، أي حوالي 2000 سنة، كانت مطمعا للرومان، والإمبراطورية البارثية



الشيء المؤكد أن القطع التي نُهبت وخربت في متحف الموصل والنمرود كانت قطعاً أصلية. وليس صحيحاً أن القطع التي خربت بمتحف الموصل كانت 90 بالمائة غير أصلية، للأسف هي أصلية





عراقيون وسوريون

أصبح الوضع مقلقاً للغاية، مما دفع بعض الهيئات المختصة في حماية التراث لتبني خطط عاجلة. هل تعتقدون أن هذه الخطط كفيلة ومجدية لحماية هذا التراث الذي يمتد لأكثر من 3300 سنة، وكيف؟

سالفيني: في مثل هذا الوضع لا يمكن التحرك على المستوى الأمني، ولكن يمكن التحرك وحماية التراث على مستوى المتاحف والمختصين في مجال الآثار من خلال جمع الوثائق الأساسية، ورقمنة كل الأبحاث والاكتشافات، وجرد كل القطع الموجودة في المتحف، بالإضافة إلى المعالم التاريخية والأثرية التي تقدر بأكثر من 2000 موقع. أعلم أن متحف دمشق خضع لجرد مهم، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى متحف بغداد، رغم أن علماء الآثار والمختصين يعملون على جرد ضخم لم ينته بعد، لأن العراق، كما نعلم، ينام على كنوز من الحضارات، وهو مهد كل الحضارات الإنسانية المتعددة. أضف إلى ذلك القطع الأثرية والمعالم التي يتم اكتشافها، باستمرار، ولا يمكن جردها في ظرف قياسي. إذن ما يمكن عمله هو جمع الوثائق ورقمنة ما يمكن رقمته، وإذا توفرت السبل لا بد من محاولة إعادة القطع التي سرقت بالتعاون مع الهيئات الدولية. وقد نجح المختصون في إعادة الكثير من القطع المهزبة من العراق وسوريا في السنوات 2011 و2014. ما يمكن فعله أيضاً وقد نجح فيه العراقيون، ويجب أن يحذو حذوهم السوريون، هو الاستمرار في الأبحاث من قبل المختصين في المواقع الأثرية وعدم هجرها. لأننا نعلم أن المواقع الأثرية تتعرض للنهب والسرقة عندما يهجرها أهل الاختصاص. وأقصد هنا علماء الآثار والباحثين. ولذلك هناك شبكة من العلماء والباحثين في الآثار تضم عراقيين وسوريين تحاول بوسائل محدودة، وفي ظل غياب الأمن، أن تقوم بحماية التراث الأثري العراقي والسوري.

تطهير ثقافي

ما يحدث اليوم في بلاد الرافدين ليس وليد اللحظة ولم يكن وليد الأمس. هل هو في رأيك نوع من 'التطهير' الثقافي

والحضاري الذي يطال أعتى الحضارات وأقدمها؟

سالفيني: هناك العديد من المستويات، والأمر معقد نوعاً ما، إذ على مر الزمان، كان نهب وتخريب المواقع والمعالم الأثرية أمراً واقعاً. أولاً هناك ما يحدث خلال الحروب العالمية منذ القدم، وخلال كل النزاعات، هناك نهب ولا يمكننا حظره، وهناك أيضاً نهب للتحف في المواقع الأثرية، وأيضاً لا يمكننا منعه. واليوم يضاف إلى كل هذا النهب الإرهابي والتخريب من قبل داعش، أكبر عمليات نهب وسرقة للتحف والقطع الأثرية في الشرق الأوسط بدأت في السبعينات واشتدت وتيرتها في الحرب العراقية الإيرانية 1979، حيث ظهرت شبكات تهرب التحف والقطع الأثرية. مثلما نتحدث كثيراً عن نهب بغداد في 2003، ولكن قبل هذا التاريخ كان هناك نهب لقطع أثرية وتحف نادرة وأيضاً ضياع لوثائق، وهما شيطان مختلفان. مدير سابق للتحف القديمة قال لي إنه خلال الحرب العراقية الإيرانية تم وضع جزء كبير من محتويات المتحف في صناديق حديدية وتم لف القطع بالقطن.



هناك أيضاً فيديوهات حيث نرى المواقع وهي تتعرض للتخريب والنهب سواء في العراق كما في سوريا. فالأميركان يعرفون من يخرب المواقع. لكن لماذا لا تستعمل هذه الوسائل لحماية المواقع



وهو ما لا ينصح به في بلد مناخه حار ورطب، خاصة في بغداد. العملية كانت للحفاظ على القطع والتحف بالوسائل المتوفرة. وتم توزيع الصناديق على أماكن شتى في كل البلد. ولكن الحرب استمرت وجاءت بعدها حرب الخليج ثم الحصار. جزء من هذه القطع ضاع، وبعضها أتلّف في الصناديق الحديدية، رغم أن جزءاً منها تمت استعادته وترميمه وبعضها حُزب. إذن، أريد أن أقول إن هناك عدة طرق ووسائل لتدمير التراث الأثري. أما النهب خارج الحروب والنزاعات، فهو أيضاً موجود منذ السبعينات، هناك الشبكات الكبرى الخاصة، والمختصة في نهب الآثار خارج الحروب، لكنها تستفيد أكثر وترتفع أسهمها في الحروب. هذه الشبكات تنشط على مستوى التحف النادرة، والقطع الأثرية ذات الأهمية الكبيرة. ويمكن أن يحتفظ بقطعة أثرية لأعوام في قبو منزل دون أن تظهر أو تخرج للعلن.

يعرفون ولا يتصرفون

لا يوجد حل عسكري بحث للهجمات ضد الثقافة والحضارات، ولكن هذه الهجمات هي جرائم حرب ويجب أن يعاقب عليها على هذا النحو. كيف يمكن توفير مثل هذه الحلول لهذا النوع من الجريمة ومكافحتها؟

سالفيني: يجب أن نعترف أولاً أنه تم إعادة فتح متحف بغداد بإرادة عراقية فقط، وليس لأي أحد الفضل في فتح متحف بغداد. ووحدهم العراقيون رفعوا التحدي وأعادوا فتح المتحف في ظروف القاهرة. طبعاً الوضع يحتم أحياناً أن تتوقف الأبحاث في بعض المواقع التي تشكل خطراً على الباحثين والعلماء، فحتى أصدقاؤنا السوريون والعراقيون لا يعرفون ما يحدث فعلاً على هذه المواقع. وهنا يجب استغلال الوسائل المتطورة والعسكرية ويجب أن تلعب هذه الوسائل دورها كالأقمار الصناعية والطائرات المتطورة كالتائرات دون طيار. وهو أمر متاح ويمكن الاستعانة بهذه الوسائل لمعرفة ما يحدث في المواقع الأثرية من تخريب ونهب.

أنا لا أفهم كيف لا يمكن معرفة ما يحدث في موقع ما في العراق أو في سوريا، في حين أنه يمكن إخضاع العالم للتصنّت والطائرات

يقاوم من أجل العيش، فيلجأ لبيع التحف الأثرية لمواصلة العيش والحياة. وهنا يتحوّل الاتّجار بالقطع الأثرية إلى تجارة مشروعة، لأنه إذا رجعنا إلى ما يحدث في سوريا، نجد أن الشعب يتاجر بهذه القطع لأنه جائع، وبالتالي هو مضطر لمثل هذا، ولا يدرك القيمة التاريخية أو الحضارية للقطع التي يبيعها أمام جوعه. لقد شاهدنا في سوريا كيف أن المواطنين يقفون في طوابير طويلة من أجل قطعة خبز، وفي نهاية المطاف يقصفون بالطائرات أو يرمون بالرصاص. فكيف لا يتاجر المواطن البسيط بقطعة أثرية مقابل أن يحصل على مال يعيل به أطفاله؟ إذن لا يمكننا مقارنة شخص يبيع قطعاً أثرية، لا يعرف قيمتها الحضارية والتاريخية، مقابل أن يقتات أو من أجل أن يسدّ رمق أطفاله، وذاك الشخص الذي ينظّم ويدفع من أجل سرقة ونهب الآثار من أجل جني أموال أو التباهي بامتلاك كنز يمتد لآلاف السنين.

ولا بد من القول إن التحف والقطع القيمة والثمينة المسروقة والتي تهزّب عن طريق الحدود، مثل القطع الأثرية العراقية أو السورية تتسرّب عن طريق الحدود التركية لتصل للأسواق الغربية، ليست في معظمها أصلية. وهناك من التحف المسروقة من المتاحف العراقية أو من متحف دورا السوري استغرق بها الأمر سنوات لتصل إلى الأسواق الغربية.

نعم استعدنا الكثير من التحف العراقية من الأسواق الغربية، وكان آخرها قطع أستيديت في الجمارك الفرنسية وقدمت من السوق اللندنية ومزّت على الجمارك الفرنسية، واستطعنا تحديدها واستعادتها ومن ثمّة تسليمها إلى السفير العراقي لإرجاعها إلى متحف بغداد.

كثا ننسّق في متحف اللوفر مع الجمارك، وكثا نعاين كل ما يدخل أو يخرج من التراب الفرنسي أو إليه. أما القطع التي تهزّب أو تدخل إلى التراب الفرنسي ولا تمر على الجمارك، فمن الصعب مراقبتها ■

أجرت الحوار في باريس: أسما كوار



سالفيني: استعدنا الكثير من القطع العراقية والسورية المهربة

بالتحف والقطع الأثرية النادرة، فبالأكيد يؤول بنا الحديث إلى عمليات النهب التي تمسّ المواقع في حالات الحرب كما في حالات السلم. هناك شبكات قوية على أعلى مستويات، وعندما تحدث عمليات نهب على مستوى عال، تتسرب القطع والتحف بشكل سلس ويصبح اقتناء هذه القطع في متناول المهتمين بشراء القطع الأثرية. وهو ما خلق هوة يحاولون اقتناء القطع النادرة لإعادة بيعها للخوارج بأسعار خيالية. هذا ما حدث في أوقات السلم.

لكن ما يحدث الآن، للأسف، هو أن الإرهاب بشتّى أنواعه أصبح يستترزق من هذا المجال، وتحوّلت المواقع الأثرية إلى مناجم تدر الأرباح وتموّل العمليات القتالية وشراء الأسلحة. وهذا ما يحدث الآن في سوريا والعراق، لكن هذه التجارة أيضاً أصبحت على مستويين، بين مستوى يسعى للحصول على الكنوز الأثرية ومن ثمّة بيعها واقتناء الأسلحة المدمرة، وبين ذلك الإنسان الذي

الاستكشافية. الأميركيان يحضّرون لشيء ما والأقمار الصناعية تراقب المواقع الأثرية ذات الأهمية وأعرف أن هناك في واشنطن قائمة دورية للمواقع التي تتعرض للتخريب والدمار، وهناك أيضاً فيديوهات حيث نرى المواقع وهي تتعرض للتخريب والنهب سواء في العراق كما في سوريا. فالأميركان يعرفون من يخرب المواقع. لكن لماذا لا تستعمل هذه الوسائل لحماية المواقع. هذه هو السؤال الذي يطرح نفسه إلحاح.

قصة التهريب

يقول الخبراء إن الاتجار بالتحف والآثار لا يمكن تقدير حجمه. رغم أن بعض التحف المعروضة في الأسواق الغربية غير أصلية. كيف استطاعت هذه التجارة أن تخلق سوقاً موازية لها؟

سالفيني: عندما نتحدث عن الاتجار

على امتداد الحنين الساحلي تونس قبل الثورة بقليل

نائل بلعوي

والرغبات الدفينة، فأدرك بيروتية المشهد، حضوره الطاعي ومعانيه العميقة، فأمكث أكثر، فرحا وحزينا، فهنا بيروت: دمة المتوسط الحارقة، واللهات الأبدية خلف الألق. بيروت في قرطاج. كيف تفسر الجغرافيا تجلياتها الغامضة هذه؟ كيف تتيح لهذا اللقاء، حسي الأثر، بين الأماكن أن يتم؟ وكيف لي أن لا أطيل المكوث وأتابع البحث: في قمرة رواد عن اللاذقية والإسكندرية، لأرى الأولى دامعة وحزينة، شهية وأنيقة، على امتداد الشاطئ الدامع والحزين في رواد، في الأناقة اللافتة لقمرة، في حين ترتفع الثانية، بهيبة أنثوية عالية، على الجهة الأخرى من الساحل، في حمام الأنف، المعد بدوره لغواية ثانية تعيد له الفرحة. مدن الروح جميعها في قطعة منتقاة من الجغرافيا هي تونس. جلال المتوسط وتنوع حواضره في لحظة توحد استثنائية على شاطئ واحد.

رجع الأمكنة واكتمال التماثل

أترك البحر وأبتعد... قليلا أبتعد لأعود ثانية إليه، وما بين ابتعادي المؤقت والرجوع الحتمي، في الفاصل الزمني القصير الطويل ذاك، أفتش تونس القديمة عنها.. وعني، وعن ذلك التناغم المهيّب بين ما تراه وتحسه وتشمه، وبين ما يقترحه عليك المكان ويشعله فيك، فهناك، عند نقطة اللقاء المعمارية الجميلة لشارع الحبيب بورقيبة مع القوس الحجري لباب بحر، تأخذ المدينة بالكشف عن صورة أخرى لوجهها، عديد الصور. ويأخذ التاريخ بالنزول من بين دقات المعاجم والكتب إلى الفضاء المرئي والمحسوس، في رحلة انسجام مذهلة مع الحاضر وطقوس الحياة.

تونس الأخرى إذًا، وهي تونس ذاتها وإن تنوعت المشاهد والصور، أو تناقضت أحيانا. فهنا المدينة بكامل زينتها ولا حدود تجلياتها، بفوضاها الصاعدة إلى تخوم النهاية، وبإحزانها المعلنة، بخجل مرة، وبغضب طبيعي مرات أخرى، على وجوه المارة، في صرخات الباعة. في فنون المساومة بين البائع والمشتري، وفي البحث اليومي لربات البيوت عن أسعار مناسبة للخضار والفواكه المحمولة، من مطلع الفجر إلى الليل، فوق عرباتها المتجولة في باب جديد وباب سويقة، وفي النزوح الجماعي اليومي للرجال إلى المقاهي الشعبية حيث القهوة والشيشة وألعاب قتل الملل واصطياد الوهم.

هنا تونس وهناك في قرطاج تونس: حبل الولادة السريّ يجمع بين

كلما اشتد بي الحنين إلى الأماكن الأولى، تلك الغارقة في القرار الأخير للروح والذاكرة: اخترت تونس، حملت متاع الوقت وأحماله وقصدتها، لا لأن اقتراحات مثيرة للأقدار والصدف، ربطتني بها، فحسب، بل لأشياء أخرى تخصها هي وتدعوني أنا. فأستجيب، طائعا مستسلما أستجيب، وأعود، مرة تلو الأخرى، لأكتشف من جديد؛ شيئا من أناي أنا فيها، وأشياء، لا تُحصى أو تعدّ، منها لديّ، من حضورها، عالي الهيبة والسطوة في النفس، في المحفوظ من صور عتيقة للذاكرة، وفي: ما يبشر به الأفق ويشير إليه.

في تونس، تونس الشخصية، يصعد الإيحاء إلى حدوده المؤثرة القصوى، يصير المكان انعكاساً، تلقائي الوقع لأمكنة أخرى، ممتدة بهاء وحبور على أطراف الشريط المتوسطي الطويل من عكا وحيفا إلى بيروت واللاذقية

والإسكندرية وطرابلس، وصولاً إلى قرطاج والمرسى وحلق الوادي، حيث تدعو الجغرافيا زوارها من هناك إلى الصعود الشعوري والحسي، في آن، نحو اللقاء العبقري بين فتنة المتوسط وبهاء الجبل الذي يتشكل منه سيدي بوسعيد. فهناك، في نقطة التقاء البحر باليابسة تحديداً، تبدو الطبيعة وقد أخرجت دفقة مميزة من مخزونها الجمالي البديع وحولته إلى ذلك الألق: سيدي بوسعيد. وكأن تونس، عبر ذلك الإيحاء المثير، وبطاقته على استعداد ما هو كامن في الروح والجغرافيا من فرح ومواجه. وكأنها تختصر تلك المدن الجميلة كلها في شخصها هي، بإرادة فائنة تختصر وبمثلها توحى، وتشير إليّ، أنا الابن الخارج من أرحام المدن المتوسطية الأخرى؛ أن امكث أكثر، وأطيل التأمل أكثر، لأعرف أكثر فأكثر بأنّ دوافع الاستحضار، تلك الساحرة، ماثلة أمام العين وقريبة مثل الحاجب منها، وما عليّ الآن سوى إطالة المكوث والتأمل، فالمكان نداء المكان، يتكفل بالباقي، فاتحا على الفور باب الدخول إلى ما فيه من مكونات رفيعة البعد، وما فيك أنت من حنين وهوى.

هنا عكا. تقول تونس. هنا على هادي الطريق القصيرة بين المرسى وحلق الوادي، تجيء عكا، تُودّع المكان شيئا من فتنتها وجمالها الأخاذ وتعود إلى وقته، إلى حلمها البحري المكبل بالجنون وهلوسات الآلهة.

هنا عكا، وهناك يافا، وتلك الحزينة الشبقة، في الركن الضيق من قرطاج، بين البحر وشارعه المقابل، هي بيروت. أشمّ رائحة الموج



إحالة تقصيك وأخرى ترجعك، وأنت الرهينة في الحالتين، لهذا الانسجام الروحي: كلي المعنى وحسي الوقع، بين المكان وأمسه. بين ما يقوله ويقدمه، وذلك الذي يرفع لحظة بلحظة من طاقة استحضاره. وما عليك سوى التواصل والتلقي، سوى انتظار الدفقة الجمالية التالية وتلك التي تتبعها، فبعد قليل، ستأخذك الأزقة دفعة واحدة إلى الشاهد الباقي على حقة عقلانية فريدة في التراث العربي: إلى الزيتونة، سيد المكان بلا منازع، وحامل أسرارهِ ونجواه.. للاماكن أسرارها تلك الساكنة أبداً في الأحجار والساحات وجذور الأشجار. تلك التي تُحس ولا تُرى، وتُفعل فعلها الآسر فيك، تدعوك وتدعوك، تشدك مثل الفراشة إلى مدار الضوء، مدارها الحتمي، نار غوايتها الموقدة، فادخل إليها الآن واحترق. احترق لتعيد اكتشاف الوصل. واحترق لتصير امتداداً للمكان وسره. لتصير جديراً به، فهناك، فقط، ستدرك المعنى.

أمراً على الزيتونة، أدخله مثل الفراشة وبغموض دوافعها. وبمثل استسلامها الطوعي أسلم نفسي، أتركها تدور كما تشاء في بيت الصلاة، بين أعمدة الرخام الجميل، الكثير، الذي يرفع السقف ويرتفع، واصلاً أرض المواجه هذه بالسماء الوديعة، بفكرة النجاة الأثيرة والرجوع الأخير.

أدور بين الأعمدة. أمراً على الحلقات الصغيرة التي انعقدت تحتها، حيث يدرب بعض الشيوخ تلاميذهم على النطق الصحيح للكلمات في الآيات، وأصغي قليلاً لمخارج الحروف، لوقع الضاد في الضحى، وارتفاع الجرس في سين السلام، فألقي السلام على الشيوخ بهزة

المشهدين.

لحظة خلابة من التاريخ هناك، وأخرى هنا، في هذا التشكل الأخطبوطي لأزقة السوق العربي الضيقة، المتلاصقة، المكتظة بالناس وبكل أنواع الحرف الشعبية التي ورثتها تونس عن نفسها، ولا تزال تحترف إلى اليوم فنون صناعتها وتقديمها: أواني الفضة والنحاس. قلائد من أحجار صغيرة ملونة. مسابح إسلامية. وما لا حصر له من أدوات الزينة الشخصية والمنزلية. إلى جانب صناعة السجاد وإصلاحه وخياطة الجيب المحلية ولوازم الأعراس والإنجاب والظهور إلى آخر القائمة المتنوعة والفريدة، فالتنوع هو الرافعة المركزية لهذي السوق، والفرادة هي قلبها وما تود أن تقول.

أمشي، بين الحلم ويقظة الحالم أمشي، وأترك للمكان قراره الشخصي، قدرته العظيمة المكتسبة على البوح والاقتراح، دون تدخل مني، دون أن أخلع عليه أنا أناي وما تخزنه من رغبات. وهو يقترح، يبوح، يستدعي ويستحضر ويقول لك: هذا اكتمال المشهد الشامي في. هذا اختصار الإرث الروماني والبربري والعربي والتركي ثم الفرنسي في لقطة مثيرة واحدة تحيك من جديد على دمشق، لتسير في أزقة أسواقها العتيقة وتشم رائحة القهوة وأنواع التوابل. كما تحيك على بيروت ودكاكين الساحات. وترجعك إلى عقان العالية، الغارقة في فوضاها الجينية وامتداد جبالها السبع، لتصعد من هناك، من هنا، عبر هذا الزقاق المؤدي إلى جامع الزيتونة العريق، إلى بهاء القدس، فتنة القدس، واكتمال معانيها.

إحالة تلو الأخرى يقدمها المكان المعمد بانصهار الأمس باليوم.

رفيق الكامل



بين يدي الله، أكرر من خلفها وأضيف: كل الدروب تقفود إلى الله، ولكن الزيتونىة مختلف. نمشي، نتابع المشي البطيء، صعوداً، إلى - عزيزة عثمانة - ذلك المشفى القديم القديم، لن دور، دقائق معدودة، في رحاب مبناه التاريخي المعد، إلى الآن، لتقديم المعونة للمرضى. ثم نواصل من أمامه، نزولاً هذه المرة، إلى القصبية، لنرجع من هناك مرة أخرى وأخرى، إلى أبواب تونس.

هنا الفوضى

فوضى في كل ما تحده العين وتشتتته: على الرصيف. في قلب الشارع. أمام أبواب الحوانيت التي تبيع كل شيء. فوق البسطات الخشبية المتناثرة بحذر وترقب، فقد يأتي العسس ويصادرون ما وصلت له الأيدي من بضائع رخيصة وأفكار رزقٍ سريع. فوضى من حول العربات الخشبية العامرة بالغلة والخضار وأنواع الحلوى. كم مرة مررت بهذه العربات. كم مرة توقفت لتناول الهندي/الصبار الشوكي/المُقشر من بين أصابع باعته الشبان، كل باعة البسطات والعربات من الشبان. كم مرة مررت من أمامها وتوقفت ولم أنتبه. لم

خفيفة للرأس، وأستعيد معهم، عبر طقسهم الرفيع هذا، ما كانه الزيتونىة ذات يوم بعيد، وما مثله في الوجدان والعقل العربيين من سعي حثيث لإعلاء مرتبة العلم والرغبة فيه، بثوب التسامح وحده، برفع الفارق العصبي بين العقيدة والعقيدة الأخرى. بين الفكرة والفكرة الأخرى، وبين واقعية الأرض وحاجات السماء. أدور في الزيتونىة البسيط، الأنيق، المتواضع مثل الفكرة، والرفيع مثلها، وأفتش عن أسرارها. أحاول ما استطعت قراءة المشهد، تفسيره، لأعرف ما أريد، وعن أي شيء سأبحث.

لا شيء لي في المكان سوى أنا. كل شيء في المكان هو أنا، وما بين الأنا وبهاء المكان، تستعيد الروح شيئاً من ألفتها وبحثها الفطري عن نفسها، وعن ذلك الذي لا يُفسر.

ألقي على الزيتونىة السلام، على ابن خلدون الكثير من السلام، وأمضي عائداً للأزقة، إلى النهار التونسي المشمس، لأقول لشريكتي في التسكع والسفر، تلك التي انتظرت بصبر أنثوي هناك، أعتذر، المكان هو السبب، أو ربما أنا! فتجيب: لا بأس، فقد كنت بين يدي الله.

أحدس. لم أفكر لحظة أو أنتظر. كيف لي أن أنتظر. ما ستحدثه هذه العربات وأصحابها من ألق خرافي التصور، تُحيل به الجسد العليل إلى التوهج. ما تنتطق باسمه وتُعلي من مداه. هي الفوضى، وهي اختصار الحلم والرغبات في العيش المخاتل والعبور المشتته لأبواب الحياة، هي الحياة. وما أنذا أفتشها من زقاق إلى آخر، من شارع مزدحم إلى شارع ضيق ومزدحم، وأدخل ما استطعت طقوسها، طقوسي الأخرى الدفينة المحببة، لأحتفي بها، بالخروج المؤقت من رتابة الوقت. من فداحة اللافوضى هناك، حيث أتيت، وحيث علي أن أعود.

مرت الساعات مثل فكرة عابرة، مثل الفتاة الشهية قرب الرصيف المقابل. فلم تترك لي الأبواب فرصة أن أودعها وأرجع من جديد إلى البحر: عليك أن تبقى تقول الأمكنة... لساعة أخرى، لساعات تمر كأنها الفكرة، فعندي ما أدل به عليك، ما أدل به عليّ أنا وأنت، وهذا التوحد السحري في فتن المكان.

فأبقى، أوصل التجوال من باب لباب، من ساحة لباعة الخضار والضجيج هنا، إلى زاوية لببيع عصائر الليمون والبرتقال هناك، من باب جديد إلى باب بنات وأسأل، بين هذا الباب وذاك: - ألم نقرّ من هنا قبل قليل. ألم نساهم بائع الصور القديمة، ها هنا، وقتنا ونمضي؟ لا، تجيب شريكتي: - هي المرة الأولى. ولكن الشوارع تشبه بعضها بعضا، وكذا الأزقة والوجوه. تعال لناخذ قهوة بالحليب في المقهى، هناك. فربما تعبت من المشي الطويل وسطوة ما يدور فيك، تعال.

وندخل قهوة بالحليب وبعض السجائر. قهوة ثانية والمزيد من السجائر: - أعرف هذا المكان، كنت هنا ذات يوم بعيد.

: لا فرق بين هذا المقهى وذاك، تردّ هي، مقاهي المدينة العتيقة تتشابه هي الأخرى، روائح القهوة والشاي الأخضر وأنواع الشبشة والتبغ المحلي. التلفاز الكبير على الجدار، أم كلثوم والهادي الجويني، وعبدالباسط أحيانا. حتى الأصوات العالية لها الإيقاع عينه.. وكذلك الهمسات.

: ربما، لعله التشابه، أو الرغبة في الخضوع اللانهائي لشروط المكان. حديثني عن تونس أقول لها. : هي بين يديك الآن. : تونس الأخرى، تلك التي لا يقدر الغرباء على سبر أغوارها، ولا يعرف تلك الأغوار غير أهلها.

خصلة شعرٍ قمحي تهطل فجأة وتلامس سطح الطاولة. رشفة سريعة ومرتبكة من القهوة شبه الباردة ترافق المشهد. في عيون ريفيقتي التونسية بعض الوجع، أو التحضير الفطري لدمعة قادمة. : أنا تونس، وما أنذا أشاركك القهوة والتسكع اليومي في قلبي، وأبحث عني معك.

أنا الجميلة والحزينة الخائفة أنا القلقة. تعبت من دوامة السعي الحثيث إلى الحياة، وكثرة الخيبات. تعبت من هذا الجدار الغريب الفاصل بيني وبينني، ولكنني، كما ترى، أشرب قهوتي. في كل يوم أشرب قهوتي، وأستعد لقهوة أخرى غدا. أنا تونس، لا شيء أكثر أو أقل.

هي تونس.

خصلة الشعر التي سقطت ثم عادت للوراء
عيون النسوة لحظة البوح، وانتظار الموج.

هي تونس، نطف من بين أصابعها الياسمين نشرب عسل الأمس

واليوم عن كتفها، ونركض خلفها.
سنرجع مرة أخرى، لقهوة أخرى بالحليب هناك. سندور من جديد في أزقة الأبواب

ونبحث، مرات، عن كتب، لن نجدها، في سوق الوراقين العريقة. ثم نترك العاصمة، ندخل متعة الترحال في شبق الجنوب، متاهة الجنوب وروحه المختلفة.

لأسبوع واحد شديد الكثافة، جنوبي المعنى، سنبقى هناك، لنعود بعد مروره الضوئي إلى المرسى، ونستعد لرجفة الوداع، لطعم القبلة الأخيرة، المريرة، المثيرة، فغدا، حين تحط الطائرة في البعيد: بعيدا عن البحر، عن سؤال الوصل، عن بيروت، عن عكا وحيفا، بعيدا عن مدن الروح المتوسطة كلها، وعن تونس؛ سأعرف حينها، أن المسافة بين ما تحب، من الأمكنة، وما عليك أن تحب، هي المسافة عينها بين الهوى الفعلي، هواك المُشتهى، وهذا البحث، بحثك الأبدي عن جدواه. هي المسافة، وحدها، تدميك، ترسم ما تسعى إلى تفسيره، منذ البداية، ولا تستطيع. هي المسافة وحدها، تلك الشيففة الغريبة الصادمة البديعة، تفعل فعلها السحري فيك وترجعك: حيث عليك أن تكون غدا: بين الحقيقة والوهم، بين الرغبات وأضدادها، لترتدي، مرات أخرى؛ ثوب البعيد البعيد.

غدا، حين تحط الطائرة وتعود إلى حيث عليك أن تحب وترضى، إلى هوس الحراسة القديم للذكرى، ستعرف أن هذا الآن، هو الغد. وأن التفاصيل العادية التي أدمنت، هي استحضارك المحموم، ليس أكثر، للامس واحتمال الغد. وعليك أن ترضى وأن تنتظر، فقد تعود الأمكنة، كل الأمكنة التي أحبت، إليك، وقد تعود أنت، لتشرب قهوتك الدافئة بالحليب هناك، تغازل كل ما تصبو إليه، وتمشي، ببطء الغريب الأليف، بين الأزقة والنساء، وتساءل مرة أخرى، عن بائع الصبار الشوكي في الباب العتيق، لتعرف حينها، للمرة الأولى ستعرف، أن أكوام الصبار المتراسة بأناقة فوق أسطح العربات هي الطرف الجلي، فحسب، من حكاية البيع والشراء الجميلة هذه، وأن هناك، ما لم تعنى جيدا بحضوره من قبل، ويكمل الحكاية. هناك العربات الخشبية القديمة المهملة، تلك التي تحمل الصبار والخضار وغلال الموسم على ظهورها وتجرها إليك، كي تتذوق المعنى الكلي وتكتشف أن الحياة أسيرة برمتها لذلك الخفي في بساطة الأشياء بساطة الصبار وحببات التين، بساطة الوجوه على الأرصعة، بساطة العربة الفقيرة في الجنوب التونسي ونداء صاحبها، ذاك الذي شغلته أسئلة العيش المرير وخفة ما تجره من أجوبة، فأشعل لأجلها الجسد الفقير وأشعل الرغبات فيك، في الحنين التونسي إلى الحياة، في ذاك التلاقي العبقري بين حال المكان اليوم وحاله بعد حين، حالك أنت أنت الذي تنتظر، ها هنا في البعيد، لحظة الوصل العظيمة بالشريط الساحلي، من بيروت إلى قرطاج، فقد تجيء في هذا الهزيع الأخير من الليل، في الملذات العجيبة للسهر، وقد تجيء غدا، أو بعد غد، لترجع أنت، مرة أخرى، إلى تونس، كي تسير، كما فعلت، فوق رمال شريطها الساحلي.

شريط الحنين. وتحتفي بالبهاء ■

تونس - فيينا 2011

كاتب من فلسطين مقيم في فينا



فن الخلود الهش الساخر من كل خلود

ميموزا العراوي

يقول الفيلسوف الفرنسي هنري مالديناي "إن ما يجعل أي عمل، عملاً فنياً قيماً ليس ارتباطه بسياق تاريخي أو اجتماعي محدد. قد يؤمن ذلك له نوعاً من الحجّة المتينة والثبات ولكن الثبات ليس مرادفاً للوجود الفعلي. المرادف الفعلي للوجود هو الهشاشة التي تسلبه من ارتباطاته تلك. الهش هو كل حاد الأطراف وهو الرقيق القابل للكسر".

قد ينطبق هذا القول على العديد من الأعمال الفنية العربية والمعاصرة فهي ترتبط من ناحية ارتباطاً وثيقاً بحاضر الساحة العربية المأزومة ولكنها من ناحية أخرى تولّد شعريّة هشة تعبر عن الزمن المُدمى الذي تنبثق منه كل يوم في هيئة جديدة.

الساحة الفنية العربية. والمقصود بهذا الفن، ذلك المنبثق من الحروب والثورات العربية في لبنان والعراق ومصر وتونس وسوريا. أما إذا كان الفن الزائل الذي يتبناه العديد من الفنانين العرب وخاصة الشباب منهم، يعتمد اعتماداً شبه كلي على التمويل المالي المُسبق الذي غالباً ما تؤمنه مؤسسات أوروبية وأميركية تريد أن تتبنى الخطاب المطروح في الأعمال، فإن الفن العابر من جهة أخرى هو وليد 'قفزة في الخواء' يقوم بها الفنان ليشيد من خلالها جسراً يعبر من فوقه إلى مشروع توطيد الذاكرة المتشظية والسلوبة الشرعية.

العابر والخالد

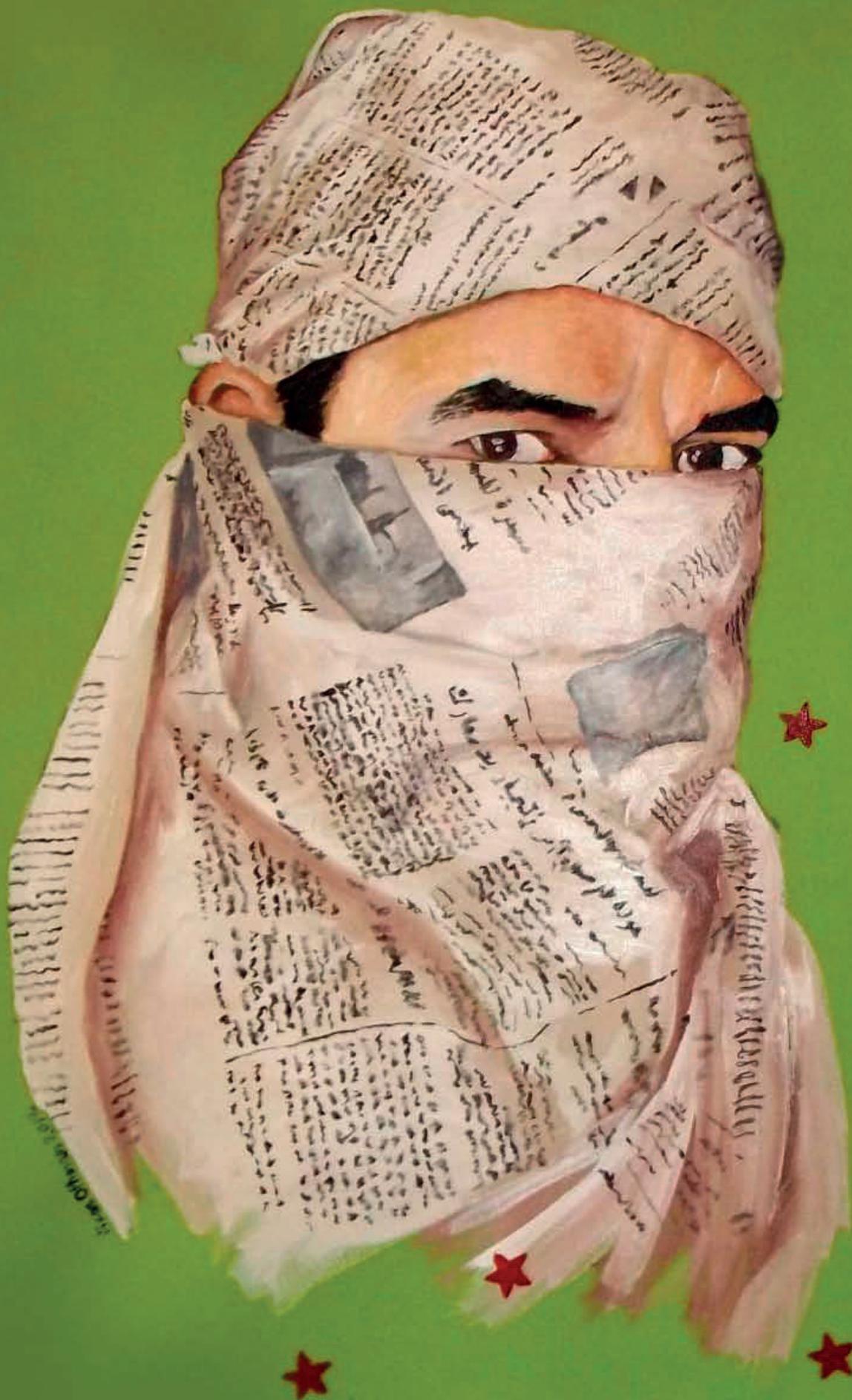
عانى هذا الفن العابر بسبب هشاشته وقصر زمن تكوّنه (نسبياً) في رحم الأزمات الكثير من الانتقاد السلبي، عبر وصفه بالفن الدخيل الذي لن يبقى طويلاً مثل كل الظواهر الرثة التي ليس لها أي أساس. تعرّض هذا الفن منذ بداية بروزه إلى محاولة ضرب

يعتبر الفن الزائل تاريخياً من الاتجاهات الفنية التي ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة، وقد حمل اسماً آخر أكثر دلالة على ماهيته وهو 'فن التجهيز في الفراغ'. يعتمد فنانون التجهيز على مفاهيم فلسفية ونصوص أدبية أو شعرية وحتى علمية، لإرساء عملهم الذي يعتمد على إدخال مواد وأشياء مختلفة في حيز محدد، يُصار إلى إزالته بعد انتهاء مدة المعرض. من هنا جاءت تسمية 'الفن الزائل'. ويهتم هذا الفن بمشاركة الجمهور والتطرق إلى الشؤون السياسية والاجتماعية الملحة عبر الاستعانة بالتقنيات التكنولوجية الحديثة.

إذا كان هذا هو التعريف الموجز لأهم سمات الفن الزائل الذي يتأخى مع فن آخر يجاوره زمنياً ويختلف عنه، يُطلق عليه النقاد المعاصرون اسم 'الفن العابر' أو 'الهش' وهي تسميات يُراد بها الذم.

هذا الفن هو في الحقيقة أكثر شعرية وتأثيراً لفراغ كان متفشيّاً، منذ زمن غير بعيد في





ذلك حقيقة ما، والأُنكى هو أننا في مأزق الحلقة الوسطى. تاريخ فني مغيّب وحاضر فني معلوم-عابر للقارات، وعابر سبيل هَش، لا مستقبل له في نظر الكثيرين من النقاد الفنيين العرب. فنّ يتكاثر كالفطر في الرطوبة الغربية الحاضنة له. من المؤكد أن إعادة كتابة التاريخ الفني العربي هو من أهم الضرورات، ولكن أليس الكثير من هذا الفن العربي المعاصر، العابر-القادم من الحروب والثورات (والمهاجر إلى العواصم الغربية)، له دور كبير في رآب الصدع ورتق الفتق المتأثري من التهميش والتعظيم الذي تكلم عنه الناقد الفني أسعد عرابي، هو فن يقول للناظر إليه -كنت نائماً أتغذى بالتقنيات الفنية الغربية لكنني لم أكن ميتاً.

الأمير النائم

يقول الفن العربي المعاصر -هات الموروث الفني العربي الذي تمّ طمسه وخذ ما يدهش العالم-. ولبغية تعميق التجربة الفنية المعاصرة يحتاج الفن العربي اليافع في فترة ما بعد الثورات إلى جانب هذا الموروث المسلوب، إلى ثقة بمصداقيته وقدرته التعبيرية التي لا يمكن تجاهلها.

لقد نهل معظم الفنانين العرب المنتمين إلى هذا العصر من المعارف التي وجدوها في الكتب والمعارض والتجارب الفنية الغربية واستطاعوا، بالرغم من شبه تفرد الغرب بتقديم هذه المعارف، صياغة نصّ فني يرتبط ارتباطاً مباشراً-وفق تعبير الفيلسوف الفرنسي هنري مارتيني- بالواقع التاريخي الاجتماعي. نصّ تمتع في الوقت ذاته بجمالية الهاشنة الرقيقة القابلة للكسر.

إذا كانت الفُبلّة التي أيقظت الفن العربي من سباته مغطسة بدماء الثورات والحروب المتتالية، فهي أيضاً قُبلة متعطشة لمنايع التاريخ الفني العربي العريق. وهي رهن هذه الدماء المغيبة ورواد إخراجها من عتمة المغاور.

لا يمكن الاكتفاء بإلقاء صفة التقليد، والارتهان للغرب، أو بالسوق المالي على الأعمال الفنية الكثيرة، التي تصعد من وتيرة الحضور العربي على الساحة الفنية العالمية، لمجرد أنها تلاقي استحسان أطراف غربية أو احتضانها لها.

الموروث اللوني للمنطقة العربية عمداً من سومر وآكاد وتدمر إلى اليوم.

يشير أسعد عرابي أيضاً إلى أن -الجدل الشرعي حول تحريم الصورة في الإسلام، يمثل جزءاً من الحركة المناهضة للتجسيد التصويري التي تلتقي مع الاستعمار الثقافي الذي أفرغ متاحفنا من هذه الذاكرة، وصولاً إلى الزمن الحالي حيث يتمّ الترويج لمجموعة من الفنانين المعولمين الذين هاجرت محترفاتهم إلى قلب عواصم الدول الغربية بحثاً عن شهرة -عابرة أو تكريساً لها، وهي من صلب مشاريع التغريب غير البريئة.

نذكر في هذا الصدد ما قالته الناقدة الفنية اللبنانية مهى سلطان حول فصامية الفن العربي المابعد حدثي. الفنان العربي -وضع مكان صورة مارلين مونرو المتكررة (طبقاً لفلسفة التسويق ومبدأ ديمقراطية الفن) في لوحة آندي وار هول، صورة أم كلثوم- ليقدم ذلك على أنه فن معاصر راق. هذا كل ما في الأمر: تعلق بالقشور وتقليد للغرب.

ثمة فصام وتقليد للغرب لا شك أن في



لا يمكن الاكتفاء بإلقاء صفة

التقليد، والارتهان للغرب، أو

بالسوق المالي على الأعمال

الفنية الكثيرة، التي تصعد

من وتيرة الحضور العربي

على الساحة الفنية العالمية،

لمجرد أنها تلاقي استحسان

أطراف غربية أو احتضانها لها



أهميته الفنية لارتباطه اللصيق بتجربة الثورات الآنية واتهامه بالخروج عن التفرد الفني واللاحق بالسائد الراجح والرضوخ إلى ما يطلبه الجمهور، خاصة الغربي منه.

إذا كان ثمة حلقة زمنية وفنية مفقودة في تاريخ الفن التشكيلي العربي ما قبل حقبات الاستقلال، وذلك عن سابق أصرار أو عن طريق الصدفة، فإن هذا المرحلة الفنية الجديدة المتمثلة بهذا الفن العابر هي التي تتولى من حيث لا تدري ردم الهوة، وإغلاق -الفتق- الصارخ ما بين السابق واللاحق في تاريخ التشكيل العربي.

نذكر أن العديد من الفنانين السوريين اعتبروا أن التشكيل قبل الثورة هو غير الذي جاء بعدها. النتاج التشكيلي السابق كان أكثره يتناول مواضيع تزيينية بحتة، أو كليشيهات حزبية ووطنية تراوحت مواضيعها ما بين تصويرها للطبيعة الغناء أو الصامتة وتصويرها للقرى والنساء الجميلات والقبائح وكذلك تصويرها انهماكات فلاح أو أي فرد فاعل من المجتمع معتمدة في ذلك على أساليب فنية معروفة عالمياً كالانطباعية والواقعية والتكعيبية والرمزية وغيرها. أما الفن التشكيلي ما بعد الثورة فقد ارتدى خارج سجنه عبر وثبة ثقة، خلعت عن جسده الرداء الرث، لتظهر ما كان يعتمل تحت جلده من أفكار ومشاعر. وها هو العابر يشيد الجسر إلى الخلود.

صدمة الحداثة

العنوان مأخوذ من كتاب شيق للفنان التشكيلي والناقد أسعد عرابي. ويعتبر أسعد عرابي أن الفن المعاصر (العربي) هو -تاريخ لم يكتب بعد، وذلك قول صادم يضع الفن العربي وليس فقط المعاصر، لا بل المابعد حدثي تحت مجهر النقد. يذكر في كتابه أن -مسح- تاريخ الفن التصويري العربي جاء عبر إدخاله في غربال التحليل والتحرير، وليس عن طريق الصدفة بل بضغط من الاستعمار الثقافي الذي اجتهد في إظهار الفن العربي وكأن ذاكرته الفنية بدأت فقط مع حقبات الاستقلال.

يسوق أسعد عرابي أسباب ذلك إلى -التعسف الاستشراقي وثقافة الاستعمار في اختزال المحترف العربي والإسلامي عموماً إلى مرجعيات إغريقية ورومانية، وتجاهل كل



المباشرة. السؤال يجب أن يتمحور حول إن كان العمل الفني فناً حقيقياً أم عملاً ركيكاً بغض النظر عن كونه مباشراً أم غير مباشر!.. هناك كثير من الأعمال الباهرة التي أنجزت بزمن قياسي، وهناك الكثير من الأعمال الركيكة التي أنجزت بعد سنوات طويلة! دائماً السؤال يتعلق بموهبة الفنان ومدى عمق تعبيره. وعلى أي حال فأنا أظن أن كل الأعمال التي صنعت حتى الآن هي أقل من ضخامة الحدث الاستثنائي السوري، وأقل من الآلام التي ترتبت عليه، والآمال التي تشكل أشواق السوريين وأحلامهم التي تريد أن تشق السماء..

نذكر في هذا السياق أسماء العديد من الفنانين التشكيليين العرب والمعاصرين ممن ساهموا بمباشرة في تمظهر شفافية الجسر الذي يربط ما بين الذاكرة المأزومة وحاضر الساحة الفنية: السوري حسام بلان، السوري تمام عزام، السوري همام السيد، الفلسطيني أسامة دياب، اللبنانية فاديا حداد، اللبناني جيلبير الحاج، السوري عبدالله العمري، السوري ياسر الصافي، العراقية عايدة الربيعي، اللبناني أسامة بعلبكي، اللبناني أيمن بعلبكي، العراقي محمد مهرادين، اللبناني جان مارك نحاس، التونسيون آمال صالح زعيم، وحسين مصدق، وسندس بلح، وغيرهم كثير..

نسيج الحدث

إذا كانت الهشاشة هي من صفات العالم الحديث حسب العديد من المفكرين المعاصرين والمابعد حداثيين، فلماذا لا تكون هشاشة الفن العربي المعاصر محققة في قطيعتها العاطفية مع الماضي السحيق، قبل أن تعيد الاتصال به في لحظة من لحظات السكون والتمعن التأملية التي لا يمكن تخيلها الآن؟

القطيعات المتتالية هي جزء من هشاشة تكوين هذا العصر، لذلك تتمتع هذه الهشاشة بجمالية الزوال وشعريته الوجودية التي تكلم عنها هنري مالديني، لتصبح صفة جديدة يتصف بها الخلود.

ليس الزمن في عرف الفن العربي المعاصر عبارة عن تلاق أو تضارب ما بين الماضي والحاضر إنما هو لحظة ارتطام ما بين الموجود والغائب، وهو لحظة انبثاق لم يتسن الوقت بعد لفهمها كاملة بمعزل عمّا

للإجهاز على الفن العربي المعاصر من قبل حاضنته الطبيعية (نقّاده العرب) تأتي تهمة «المباشرة» في الطروحات الفنية التي يقدمها معظم الفنانين العرب المعاصرين للحروب والأزمات. غير أن أبلغ ردّ لهذه التهمة عن كاهل هؤلاء الفنانين يجيء على لسان أحد أهم الفنانين العرب وهو الفنان السوري يوسف عبدلكي.

الشاهد الخالد

أنشأ الفنان السوري يوسف عبدلكي على موقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك، غاليري افتراضيا يضم أعمالاً لفنانين تشكيليين (سوريين وغير سوريين)، وقد تخطى عددهم المئة حتى الآن. تتميز هذه الأعمال بالتضامن مع ثورة بلادهم وأوجاع ناسها، كما تقدم طروحات فنية على مستوى عال من المفهومية والتقنية. الموقع يحمل اسم «الفن والحرية». يقول الفنان في إحدى المقابلات الصحفية حول عنصر «المباشرة» في الأعمال الفنية المعروضة في هذا الغاليري، التي تعتبر تهمة تقلل من جدية العمل الفني، «مسألة المباشرة كانت دائماً مثار لغط في الأوساط النقدية والإعلامية، وكان تضخيمها على علاقة بالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي في القرن الفائت!

أعتقد أن أغلب الأعمال الفنية التي رسمت منذ عشرين ألف سنة حتى الآن هي أعمال مباشرة، بدءاً من تلك التي رسمت على جدران الكهوف، لمقاصد السيطرة السحرية على الطرائد، إلى اللوحات الجدارية الفرعونية التي كانت تمجّد الملوك وانتصاراتهم، إلى الأيقونات البيزنطية التي تقدس رموز الدعوة المسيحية، إلى لوحات البورتريه في القرون السابقة التي ترصد شخصيات من الطبقة الحاكمة والثرية، وصولاً إلى القرن العشرين حيث أن الكثير من الأعمال التي تعتبر آيات إبداعية مثل «الجرنيكا» واللوحات الجدارية المكسيكية وأعمال التعبيريين الألمان ونصب الحرية لجواد سليم... إلخ. كلها أعمال مباشرة، وهي أيضاً من أرفع الأعمال الفنية سويةً في تاريخ الفن.

عندما يرسم دافنشي صورة وجهه للمدام مونا ليزا، أليس هذا عملاً مباشراً بهذا المعنى لا يصبح السؤال عن المباشرة أو عن غير

قيس سلمان



التي يقيمها الفنان العربي المعاصر مع الجدار ومعناه في الذاكرة الجماعية! أبلغ ما يتكلم عن هذا الوصال الجديد يندرج تحت هذا العنوان* تمسحها من ثاني هارسمها من ثاني*. يشير هذا التعبير الموجز على أحد جدران القاهرة أثناء الثورة المصرية إلى إصرار فناننا الجرافيتي الجدد على حماية الأسماء والرسومات التي تصوّر وجوه الشهداء. صور كانت تمحوها وتعيد محوها السلطات في النهار، ويعيد حماة الذاكرة الجدد رسمها من جديد تحت جنح الظلام. فإذا كان هؤلاء الجرافيتيون

رأساً على عقب، وينتج فعلاً صدامياً حاداً أو ولادة جديدة لشكل آخر من الحياة، فجدس البوعزيزي المحترق هو انصهار*حسي مع الثورة* وتجلّ أعنف لها.

حماة العابر

في الشارع العربي أيضاً، هناك ظاهرة متعاظمة يشهدها الفن العربي المعاصر متمثلة في الانتقال من الرسم على اللوحة إلى الرسم على الجدران وفي ذلك تأكيد على الدفاع عن*الخلود* العابر الهش واختيار طوعي له. ولعل ذلك يتمثل بالعلاقة الخالقة

يحيط بها من ملابسات. لعل ما أثبتته التجربة التونسية عبر جماعة من الفنانين الشباب أطلقوا على أنفسهم اسم جماعة أهل الكهف* خير دليل على أهمية*القطيعة المعرفية* وضرورتها ولو لفترة وجيزة.

تعتبر الحركة الفنية الشبابية التونسية جماعة أهل الكهف* التي تشكلت أثناء الثورة التونسية أن* أول فنان تشكيلي في تونس* هو محمد البوعزيزي الذي أضرم النار في جسده احتجاجاً. يؤكد هذا المفهوم على الجمالية التراجيدية، التي تؤسس لفهم ما يسمى* بالفن الحدث* الذي يقبل المعايير

قصائد زرقاء

روز جبران



لا أريدُ لوجعي أن يُصَابَ
أنا أمكُ الحنون، أيها الوجد
لا تخف، لن أتركُ صديقاً مخلصاً
رافقتني ثلاثين عاماً
فأنت الوحيدُ الذي لم يفكرُ يوماً
بخيانتني
ولا بهجري
أحبُّك، كثيراً، يا وجعي الصغير.

ساعة

من منكم رأى ساعةً معلّقةً على جدارٍ،
عقاربها تبكي
من رأى ساعةً تلفظُ أنفاسها الأخيرة؟
هذا ما حصل اليوم
فالعمرُ لي، العمرُ لي،
أنا الميته، الوحيدة،
الحيّة، التي سمّتها الوقت ■

شاعرة من سوريا مقيمة في دمشق

خزانتني

في خزانتني خمسُ سراويل
في جيبِ كلِّ سروالٍ خبأتُ عشرَ
قصائد زرقاء
إذن، في خزانتني ديوانُ شعرٍ أزرق
أنا السّمكة الوحيدة التي تنازَعُ
هذا العبثَ الحاضرَ بكلِّ ما أوتيتُ من
سُكْرٍ

ألا يكفيكُ أيها الموتُ، أنني سمكة،
وأنتي عبّأتُ بحري في خزانة؟
يا موت،
إنني أنتظرُ رحيلك عن بيتي.

يُثم

أمشطُ الشّعَرَ الطويلَ لهذا اليُثم،
أقلّمُ، بدقّة، أظافرَ الوقتِ
أحضنُ وجعي وأدفتُهُ، فالبردُ، أيضاً،
مُوجعٌ

وجدوا في الجدران مكانهم الوحيد للتعبير
ولتخليد الذكرى المؤسسة لحياة جديدة،
وربما لفن جديد، فإن هناك فنانين آخرين
اعتمدوا الجدران كخيار حرّ، نذكر منهم
الفنان السوري بسيم الرئيس فـجدار البيت
القديم، المصنوع من الخشب والطين- الذي
ولد الفنان قربه كان ولا يزال منبعاً لقصص
قصيرة ولوحات فنية ومشاريع فنية تميزت
بشعرية ورهافة لونية لافتة. كما تميزت
عناوين أعماله بحضور هذا الجدار تحت
عناوين مختلفة آخرها اللوحة الجدارية
التي حملت اسم 'الجدارية السورية'، التي
تتكلم عن المأساة السورية والثورات التي
اصطلح على تسميتها 'بالربيع العربي'. نذكر
من عناوين أعماله الفنية والقصصية 'غداً
سأخيظ فمي'، 'ينمو بقربي جدار'، 'على كل
جدار لوحة'، 'لكل شهيد لوحة'.

أما 'الجدارية السورية' التي كان يعمل عليها
الفنان، لتجسد عبر 14 لوحة مدناً سورية
مشاركة في الثورة، فقد أصابها قذيفة
قبل أن ينجزها. وعلّق الفنان على ذلك أنها
كما 'كل الجدران المصابة في سوريا التي
سيصار إلى ترميمها'.

نذكر أيضاً من الفنانين، الذين اشتغلوا
على مفهوم الجدار وذاكرته عبر لوحات
مستوحاة من حميمية ملمس الجدران
العتيقة المشحونة بالنوستالجيا والمعرّضة
لتحولات الزمن والعناصر الطبيعية، الفنان
عبدالكريم مجدل بك. فبعد مرور زمن على
الثورة السورية انتقل هذا الفنان من شعرية
الجدار الزائل إلى ما هو أكثر 'زوالاً' وهو
فن التجهيز في الفراغ عبر معرض فني له
أقامه في بيروت وحمل عنوان 'ديمقراطية
مزيفة'.

أكد الفن العربي الهش والزائل قدرته على
حمل الباقي والمستمر. لم يقدم نفسه
كحامل لخلود زائف ولكن كملاحق حميم
لهوموم الناس واحتجاجاتهم بطريقة بث
مباشر، يحقق في كل مرة يعلن فيها عن
نفسه تماهياً مع خلود لحظوي يفر منه إلى
آخر. فهو فن يقدم خلوداً مرحاً وهشاً يسخر
بالضرورة من كل قائد خالد ■

كاتبة من لبنان



تراجيديا العصر عزمي بشارة وكتابه «سورية درب الألام نحو الحرية» هيثم حسين

يرسم بشارة في كتابه - المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2013 خريطة لتطور الأحداث، والمنعطفات التي مرت بها سوريا في تاريخها وصولاً إلى لحظتها الراهنة بكل ما يعترك فيها من تداخلات دولية، ويتابع التطورات السريعة التي شهدتها الثورة، ويرصد تشظي البلد تبعاً لسياسة التدمير التي انتهجها النظام والتزم بها منذ بداية مواجهته للمطالب الشعبية. يجمع الكاتب في عنوان كتابه بين الجانبين؛ الشعري والتوثيقي، فالشطر الأول من العنوان أدبي، وكأنه عنوان رواية، في حين أن الشطر الثاني يعيد التوازن البحثي للعنوان، ويعرف به ويحدد الوجهة والتوجه، وهو محاولة في التاريخ الراهن، وذلك من دون إغفال أن التاريخ لفظة تدلّ على زمن ماضٍ، وبجمعه بين التاريخ والراهن بصيغته المورودة يرمز إلى تصور مختلف للمسألة، حيث يحضر تاريخ الراهن الذي سيحول بعد كتابته إلى أمس، ويغدو تاريخاً قريباً، يحوي كثيراً من المشاهد المعيشة، والشواهد غير المجفلة أو المرفقة، لأنّ مقارنة اللحظة الراهنة توثيقياً تطلّ محفوفة بجانب من الانتقائية، ذلك أن تشعب خريطة الأحداث والمستجدات يفرض ذلك، ولا سيما مع فرض حصار على بعض الأماكن ومحاولة قطعها عن العالم، وممارسة أشنع صنوف التعذيب بحقها.

يذكر بشارة أن كتابه يأتي كمحاولة في فهم الثورة السورية قبل أن تكتمل، وإنه بحث يقوم على رصد صيرورة الثورة وتحليلها خلال عامين من عمرها، من آذار 2011 حتى آذار 2013. ويذكر أنه، باعتباره يوثق التاريخ الراهن، ويحاول تجاوز عملية التوثيق إلى الفهم، فإن بحثه يأتي عابراً للاختصاصات، وواعياً حدوده البحثية التوثيقية التاريخية لأنه يجري في خضمّ الحوادث، ويعتمد المعلومات الموثوقة، ويصحّح معلومات غير دقيقة راجت كأنها صحيحة.

يحاول بشارة تقديم ملخص مرحلي، تحليلي تركيب، كما يصفه، في مسعى لإعادة تركيب الحدث الكبير، وذلك في محاولة فهم وتفسير ما يصفه بخصوصية الثورة الكبرى التي سيكون لها أعظم الأثر في تاريخ سوريا الحديث، وكذلك في تاريخ المشرق العربي كله. ويصفها بأنها بهذا المعنى نقطة تحوّل تضاهي في أهميتها الثورات الاستقلالية، وتفوقها تعقيداً.

يلفت الكاتب الانتباه إلى التعامل والتوثيق لثورة قائمة في دولة ذات أهمية جيو - إستراتيجية قصوى، إذ يؤثر وزن سوريا الجيوسياسي وموقعها في الصراعات الإقليمية تأثيراً حاسماً في مسار الثورة، ويساهم في تشابك البنية الداخلية بتفاعله مع العوامل الخارجية وتعقيدها. وكيف أن ذلك كله تفاعل وتداخل وأدى إلى تصعيد المواقف وتبديل الأحوال. يشير بشارة إلى أن منهج التحليل الاجتماعي التاريخي الذي يتبعه في كتابه يسمح بالتمييز الأولي بين الديناميات الاجتماعية لتدفق روافد من فئات وأوساط اجتماعية متباينة في نهر الثورة السورية، وتفحص المشتركات التي



يستعين الكاتب الفلسطيني عزمي بشارة في مقدّمة كتابه "سورية درب الألام نحو الحرية - محاولة في التاريخ الراهن" بتفاصيل ووقائع وأحداث من التاريخ الحديث لسوريا، لتدوين التاريخ المعاصر الذي يقتفي أثره، ويلتقط تفاصيله ويحاول تأريخ أحداثه وتدوين وقائعه، من باب الانتصار للثورة السورية.



أهداف الثورة أو بشأن المسؤولية الاجتماعية المترتبة على حمل السلاح.

يشير الكاتب في خاتمة كتابه إلى أن الثورة السورية التي تعتبر حالة فريدة في الإقليم لجهة تشابك العوامل المؤثرة فيها، والتي قد تؤدي إلى سيناريوهات كارثية ما لم يتم التوصل إلى تسوية سياسية تتضمن رحيل النظام وبقاء جهاز الدولة، وتضمن التحول التدريجي نحو الديمقراطية من دون اجتثاث. ولا يغفل عن التذكير بأن الخيار السياسي كان يبدو بعيداً حينذاك، والبديل كما بدا له هو تعمق الصراع وتحوله إلى صراع طائفي وإثني، وربما ينتج صراعات أخرى كامنة في المستقبل.

وثق عزمي بشار في كتابه للسنتين الأوليين من عمر الثورة السورية، وهو يساهم بذلك بقسطه في التأسيس لمكتبة الثورة السورية، التي باتت تضم عدّة أعمال أدبية وتوثيقية، وتفتح على كثير من المشاريع البحثية والتاريخية والمستقبلية، حيث أن الراهن بات يحتاج إلى أكثر من وسيلة وصيغة لتأريخه وتدوين تفاصيله، حيث يظهر فداحة تحوّل البلد من قبضة النظام المستبد إلى احتلال إيراني سافر ومعلن، ما يعني أن درب الآلام نحو الحرية لا ينفك يزداد تكلفة، وحاجة إلى الاستمرار، ووجوباً نحو السير إلى الهدف - الحلم، لأن بقاء سوريا في قبضة المحتل بالطريقة الراهنة، وتسيير شؤونها وإدارة مقدراتها بالوكالة يعني تفتيتاً لخريطة البلد، وتعطيلاً لسيرورتها التاريخية، وتدميراً لمستقبلها.

أخيراً، قسم بشار عمله إلى ثلاثة عشر فصلاً، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة، والفصول على التوالي هي: الحصاد المر عشرة أعوام من حكم بشار الأسد. من الشرارة يندلع اللهب. الساحات الكبرى. المدن المليونية. الثورة المسلحة خيار النظام. عن إستراتيجية النظام. تزييف الحزب وتطبيع الجيش. كشف غطاء الاستبداد. بين العنف الثوري وذيول المراحل السابقة. المعارضة السياسية والثورة. فاعلون جدد. التنسيقيات والإعلام الفضائي. مبادرات الحل السياسي والمواقف الدولية. العقوبات الاقتصادية وأثرها في الاقتصاد السوري الكلي.

كاتب من سوريا مقيم في ليدز - بريطانيا

وتحاليه. يتناول الكاتب التعدّد الإثني والعرفي في البلد، وكيف يمكن أن تشكل الفسيفساء السورية عامل قوّة بدلاً من استغلالها كنقطة ضعف وعامل ابتزاز وضغط، ويبرز أن التنوع سمة من سمات المنطقة، ويمكن أن يكون عامل قوة وصمود وغنى إذا تفاعل في إطار إستراتيجية مدروسة في بناء الدولة على أساس المواطنة المتساوية والمشاركات الثقافية التي تسمح بالتفاعل بين الهويات من دون قمع الخصوصية.

يوثق الكاتب بعض الأرقام المتعلقة بالشهداء والمعتملين والمفقودين والنازحين والمشردين، ويلفت النظر إلى تقديره بأن أرقام القتلى والشهداء تكون أكبر من الموثقة، ولتبيين حجم التضحية والخسارة السورية قياساً على التاريخ السوري يذكر أن السوريين قدموا خلال فترة الاحتلال والانتداب الفرنسي كلها (1920 - 1946)، بما فيها حرب الوحدة والاستقلال والجلاء عشرة آلاف شهيد.

يحتوي الكتاب على كثير من المعلومات والتفاصيل والأرقام التي وثقتها منظمات دولية ومحلية، ناهيك عن المقاربات والمعالجات لأحداث تاريخية، وإعادة قراءتها في ضوء ما كشفته الثورة، ولا يخفى الجانب التقريري الإخباري في بعض الفصول، ولا سيما أن التأريخ يفترض ذلك، ويكون جزءاً من التوثيق الواجب، وبروز ظاهرة أمراء الحرب، والعناصر الجنائية المسلحة التي كانت قائمة في ظل الدولة الأمنية، إضافة إلى العناصر الجهادية التي لا تشارك الثورة أهدافها التي انطلقت من أجلها.

يلفت بشار الانتباه في الخاتمة إلى أن استمرار الثورة لفترة طويلة، حين الانتهاء من الكتاب كانت في بداية عامها الثالث، الآن هي في عامها الخامس، وظهور المذابح وجرائم الكراهية على خلفية طائفية زاد حدة الاستقطاب في المجتمع السوري، وأصبحت الثورة تسير على حافة التحول إلى حرب أهلية، ويذكر أن بوادر اختلاط العنصر الأهلي بالثوري قد ظهرت منذ البداية. ويعتقد أنه بسبب بعثرة القوى الثورية على الأرض وتنوعها، لم يجر في الثورة السورية، على الرغم من طول مدتها، تكوين أو نشأة للمواطن الثوري حامل السلاح في شأن

تجمعها والاختلافات في ما بينها. ويصف كتابه بأنه يؤرّخ لتمدّد الثورة واكتساحها المناطق المختلفة في مرحلتها، المدنية السلمية والمسلّحة. ويتطرق إلى إستراتيجية قمع الثورة وتوليد أنماط مختلفة من العنف. كما يشير إلى إدراكه تعقيد المهمة التي يأخذ على عاتقه القيام بها، ووجوب البحث في مسالك الراهن والوعرة وزواياها غير المكتشفة وطرقاته التي يغطيها أحياناً ضباب الشائعات والأفكار المسبقة، والأكاذيب الإعلامية واختلاط الحقائق بالخيال في بعض الأحيان. يعرض بشار في كتابه ما يصفه بالخلفية الاجتماعية السياسية المباشرة للثورة السورية في عهد بشار الأسد وفعل الثورات العربية بالمجتمع السوري على أساس هذه الخلفية. ويقول إنه سيفصل تاريخها المباشر نفسه، ما يطلق عليه التاريخ الراهن، ويشرح تحوّلها من انتفاضات جهوية إلى ثورة. ويحاول إثبات أن النظام يتحمل مسؤولية تحوّلها إلى ثورة مسلحة، ثم يحاول تحليل بنية الثورة السياسية والاجتماعية والعسكرية، وإستراتيجية النظام في مواجهتها، والقضية الطائفية والعوامل الدولية.

كما يطرح الباحث سبل توريث النظام للطائفة وتوظيفه لها في خدمته، ويعتبر أن محاولته في الكتاب هي محاولة تحليل ظاهرة اجتماعية سياسية نفسية مركبة هي الثورة السورية، وإعادة إنتاجها ذهنياً بشكل يجعل التعرف إليها وفهمها ممكناً. ومن هنا يسعى الكتاب إلى إثبات فرضية عفوية الثورة ومدنيّتها وأصالتها، ويقصد تجذرها في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي السوري، ويبين أنها جاءت في مجتمع مختلف بنيويّاً عن الثورة في تونس أو مصر، وفي مواجهة نظام أمني لا ينفصل فيه الجيش والأمن عن النظام وعن البنية الاجتماعية للدولة.

يلتقط بشار مبادئ الثورة السورية، والتقاطعات بينها وبين الثورات العربية التي سبقتها وتزامنت معها، وتعاطي النظام معها بداية، وتدوّج في الفتك والتنكيل وبلوغه درجات قصوى من الإجرام، ويستذكر الذرائع التي كان يسوّفها النظام بداية زاعماً اختلافه عن الأنظمة العربية الأخرى، رافعاً شعارات الممانعة والمقاومة التي ظلّ يتاجر بها عقوداً، وما يزال، برغم انكشاف عورته وفضح نفاقه



أسوأ انحراف في التاريخ "في الأرض المسرة" لآرام كراييت كمال بستاني

يحرص الروائي السوري الأرميني آرام كراييت في روايته "في الأرض المسرة" القارئ للبحث عن المسرة المفقودة بغية تسيدها وتعميمها في الأرض، والتذكير بحصاد الحروب الكارثي، عسى أن يساهم بذلك في لفت الانتباه إلى البحث عن مخارج ومعايير من مستنقعات الحروب التاريخية إلى واحات أمل.

يصف كراييت على لسان بطله أحوال إسطنبول وكيف كانت غاصة بالحشود الهائلة من المهاجرين القادمين من كل اتجاهات السلطنة، ومن جهات أخرى. تراه يقول لم أتخيل هذا العدد من الناس بأشكال وألوان ولغات متعدد في حيز ضيق من المكان. تكاد الأرض تبتلع الشوارع والبيوت بمن عليها. تحولت البلاد إلى ملعب للإقياء والحزن والقهر. ثم ينتقل إلى القول بأن إسطنبول تغلي تحت وطأة الهزيمة والجوع. وإنها كانت تستقبل مليون مهاجر من بلغاريا يتجهون نحو الباب العالي.

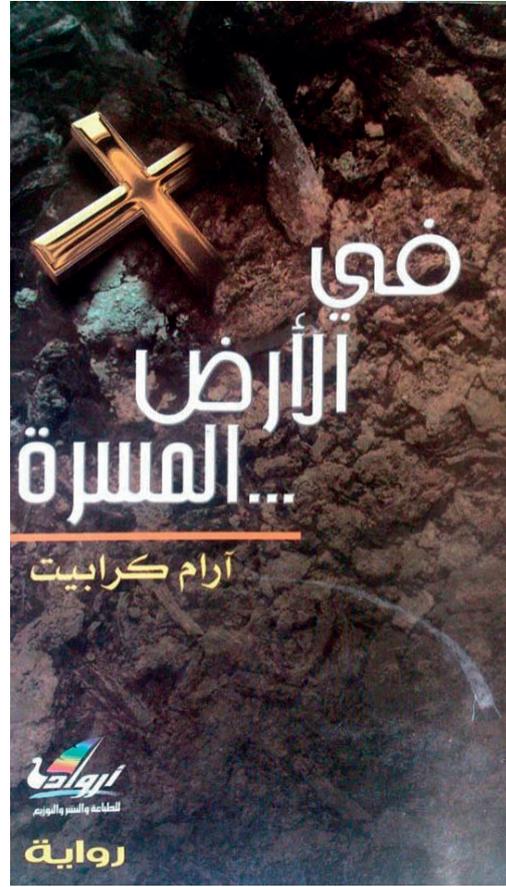
يؤنس كراييت المدينة وتفصيلها، يسترسل في ذلك، يحكي كيف أنه لم يعد للشوارع القدرة على هضم صوت الوجود الخارج من أعماق صدور الناس الموحجة. حالة الغليان، الحسرة والقلق، ينتشران بينهم كسكرة الموت. الصراخ والعيول، الانكسار النفسي والإرهاق العصبي والإحساس بالخواء والخوف من المستقبل يملأ المدينة.

يستذكر كراييت حقبة تاريخية قديمة، يتحدث عن واقع تعاقب الحضارات في المنطقة، من ذلك مثلاً حديثه عن أن هناك مدينة جديدة مختبئة تحت الرماد بالقرب من ديار بكر. وكيف أن بطله يؤكد تخيله وظئه ذلك، وجدتها. إنه تاريخ الإنسان. الحرية تحت الأنقاض ويجب التنقيب بحثاً عن كنوز التاريخ الدفينة، وعن الحرية البعيدة.

حروب ومجازر

يجد بطله عبدالله نفسه جريحاً غريباً في إسطنبول، لا مكاناً يلجأ إليه، ولا قريباً يستعين به. وهو الجندي الجريح القادم من بلغاريا ضمن جيش يجز أذيال الهزيمة. الفوضى تجتاح كل مكان. الجيش ينهار والحكومة تتضعض. السلطنة على شفير الهاوية. يسكنه حلم العودة إلى قريته الوادعة أم مدفع؛ القريبة من نهر الخابور، والمرتمية في أحضان جبل عبدالعزيز.

المرمضة نازلي تداوي جراح جسد عبدالله وروحه، تساعد على التماسك، تقترب منه، تتعلق به، تؤويه، تبوح له بأسرارها وأسرار أسرتها. تحدثه عن مخطوط يحوي ثلاثة آلاف أغنية أرمينية، يمثل تاريخاً ثقافياً غنائياً وشعبياً للأناضول بكل مكوناتها من كرد وعرب وترك وأرمن وشركس وغيرهم.. تكون نازلي صورة مركبة من نصفين، من ناحية هي ابنة جلد ومن جهة أخرى ابنة ضحية مغتصبة، تحذر نفسها وحبيبها بقولها: سنتحول إلى لاجئين ومشردين وضحايا. مثلنا مثل الموجودين في الطرق والمعابر. أنا عشت حياة التنشرد وكسبت مناعة من ذلك. ولن أخاف من المستقبل.





به الأمراض بعد؟ أما زال على قيد الحياة؟ ما الذي جاء به إلى هنا؟ ولأي غاية؟ ما هذا الكم الهائل من الجيش والشرطة برفقته يحمونه؟ من هو هذا الرجل بالضبط وماذا يحدث في هذه البلاد؟ ما هو دوره فيما يحدث؟ إلى أين تتجه السلطنة؟ شرقاً أكثر أم غرباً؟ ما هو مصير العرب والأتراك والأرمن واليونانيين والأكراد وبقايا الناس من مخلفات السلطنة؟ هل هناك حرب جديدة؟ مذبحة جديدة؟ هزيمة جديدة؟

يعترف بطل الرواية الذي يتبدى باحثاً بهواجس الروائي وتصوراتهِ بأنَّ الإنسان ينتمي إلى الحطام. إنَّه صنم. يبدو أن الوحش الكامن فيه لا يمكن أن تقلِّمه حضارة أو عقل مدني أو تطور. من السهل تحريضه ودفعه إلى البغي. ثمَّ يسأل نفسه بحزن: أيُّ روح تسكنني؟ كيف سأصالح مع نفسي وزمني القادم؟ ماذا يحدث؟ ولماذا يجمع الزمن القاتل والقتيل في الحين ذاته والمكان ذاته؟ هل ذلك الاستمرار المأساة وتكرارها؟ هل الزمن بريء؟ هل المكان بريء؟ أم أن كليهما تواطأ لاستمرار ما لا يستمر..؟

يصور كرايبت مجازر وفظائع ارتكبت في مستهل القرن العشرين، حيث جثت مقطوعة الرؤوس تبوح بمأساتها، تدين قتلها، تكشف عري العالم الذي تركها فريسة للقتل والتمثيل. يستنطق أرواحاً تعود إلى ضحايا المجزرة التي تمَّ ارتكابها بحق الأرمن في البادية السورية في بداية القرن العشرين. وبالتحديد في منطقة مركدة في محافظة الحسكة. يتساءل: أيُّ دين يقبل هذا؟ كيف يستطيع الإنسان أن يفعل هذا؟ لماذا يقتل؟ وهل هناك شيء يستحق أن يفعلوا هذا من أجله؟ أي جنون يركب عقل البشر عندما يهْمون في غرز السيف في جسد طفل أو امرأة حامل؟

يلفت كرايبت الانتباه إلى دور الموسيقى في حماية البشر من شرور أنفسهم، وترويض وحوشهم المستنفرة على الدوام. ثمَّ يحكي عن خيبة أمل بطله، انكساره وصدمته لرؤية الفظائع حين عودته، وإقراره أن من السهل تحويل الإنسان إلى مجرم أو أداة طيِّعة بيد موجهين يدركون ماذا يفعلون. يتمنَّى لو لم يعد إلى أم مدفع. ويسأل: مَنْ نُحاكم؟ هل نحاكم الماضي أم المستقبل؟ ومن يضمن ألا تتكرر هذه المأساة في مكان ما من العالم..؟ كاتب من لبنان مقيم في ليدز-بريطانيا

المحرمة. من خلاله تكتشف قاع الإنسان، دونيته، جشعه، لذة النصر في الربح، في الصفقة الرابحة. تشعر بالقوة عندما تكسر إرادة خصمك، عندما تهزمه والمال السائل بين يدي المنتصر مثل المرأة في لحظة موافقتها وفحيجها.

يرى التاجر أن المهم أن تستمر الحروب ويتقاتل الناس، ليشتروا الثياب والمعدات والأسلحة والطعام والحطب والفحم. الحرب هي روح الحياة، المدينة والمدنية. إنها تحرك السوق تشعله، ترمي في أتونه الوقود اللازم لبيد الناس من ثقافتهم وأمزجتهم ونظرتهم إلى أنفسهم وغيرهم، وتغير الكيانات وتفكك العلاقات وتستبدلها بغيرها، وتخلق رغبات وتفني أخرى، ينتعش السوق والمال.

إضاءات تاريخية

يصور كرايبت الذاكرة بأنها جبال عالية، وديان سحيقة، انحدارات قاسية. قوة وضعف. إنها بيت المرء، شقوق متجدرة في أعماقه تشده نحو الأسفل أو ترفعه نحو الأعلى. هي موج، رياح وبرد نحتت في جوف جمجمته لتكون مرجعاً للشيطان أو السعدان.

يلقي كرايبت إضاءات روائية على مجازر تاريخية وقعت على هامش الحرب العالمية الأولى، سواء تلك التي راح ضحيتها أبرياء من البلغار والأرمن والمسلمين وغيرهم. وواقع فتنك الضحايا تالياً ببعضهم بعضاً، وكأنه لا يكفيهم خروجهم من حرب طاحنة ضارية حتى يكملوا تدمير بعضهم بعضاً.

يبرز كرايبت نزوع بعض القادة العثمانيين المدمر نحو الشرِّ، وكيف أنَّ شهوة القتل كانت تستبدُّ بهم، وتدفعهم إلى الفتك بجميع من يصادفونهم في طريقهم، وكأنهم يحملونهم أوزار هزائمهم ويتلذذون بمعايبتهم والتنكيل بهم. ويعرف القاتل بأنه كائن قلق. في داخله عبوة ناسفة. عقله مملوء بالتوتر والاضطراب والسوداوية. يساوره هوس غريب يوقظه من غفوته. يصرخ، يجر، ويريد أن يخرج من أعماقه، يحدِّثه، يحثُّه، يدفعه للذهاب إلى رقبة ضحيته ليجزها. شيء ما في داخله يهدر ويصرخ ويجعله مزعزع الانتماء للكون والحياة.

ينقل الكاتب تساؤل أبطال الرواية والخشية من المستقبل، عبر التساؤل عن أحوال السلطان والسلطنة. ألم يمت بعد؟ ألن تفكك

سنتحول من رعايا السلطنة إلى رعايا القيصر. لن يتغير شيء. فترة الانتقال من تاج إلى تاج، هذه المرحلة القلقة هي المخيفة والمرعبة. يحاول أبطال الرواية تناسي أجواء الحرب الجاثمة على الصدور والمالئة للمكان. الدعوة للعيش بعيداً عن تلك الضغوط ولو لساعات محدودة، والتكلم عن السلام، والحض على مقاومة الحرب بالسلام، وعدم السماح للمتحررين أن يأخذوا الأبرياء إلى مواقعهم وساحاتهم. يقول بطله: الزمن يمضي بنا، سواء بكينا أو ضحكنا. علينا أن نوفر الحزن والألم والخوف ونبعده عن أنفسنا. نُؤجلهم نهرب من التفكير بهم.

يشير كرايبت السجال بين شخصيات روايته؛ نازلي، سيلفا، مراد، عبدالله، سالم..، تجدها منسجمة في موقف، ثمَّ مشحونة بالأسى والفهر في مواقف أخرى، ويظلُّ بطله مستعرضاً حالات الوجد المتناثرة جراء الحرب. يقول إنَّه لا يمكن استيعاب المأساة. إنها الحرب، ما إن تخمد في مكان أو تموت حتى تخرج. إنها كالعنقاء المتجددة، أو الحرباء الملونة، أو قل إنها لعبة الحياة والموت. خروجها من تحت الرماد يزيد شراسة. تقتل جميع الذين يولدون تحت عينها. لهذا ليس غريباً أن أغلب شعوب العالم صنعت صنماً لها أسمته إله الحرب.

كما تراه يدين الحرب ويلعنها أيما لعنة، واصفاً إياها بأنها من صنع أولئك المجرمين الذين يعيشون في القصور، والأماكن الفارهة، تحت ظلِّ التدفئة وكؤوس الراح، وفناجين القهوة والمرح، يرسمون خطط الموت للناس، ويحفظون بالمال والمكانة لأبنائهم وأسرهم. يصف الحرب بأنها وكر دعارة. لفة دوار. إنها أسوأ انحراف في التاريخ، وأقسى ما فيها أن جميع المقاتلين يموتون بضمير مرتاح. إنها ممثل الفحول والفجار والزنادقة. ويصفها بأنها تعني شد العصب والفضى والأخبار الرهيبة. الحرب تحيل الحياة إلى رماد. والهزيمة هي زيادة على ذلك، توتر وتعذيب للذات وجلد للذاكرة.

ثمَّ يتحدث عن الحرب من منظور التاجر متعدد الوجوه يصف الحياة بالتجارة. في الحياة لا حلول وسط. والتجارة لعبة الحياة الحقيقية، تستطيع أن تكتشف المخيا، أسرار المال، آلية حركته، العلاقات الخفية. إنه الماخور أو البناء الخلفي للعالم. اعتبره اللذة



الوسيلة والجنون إسرائيل تصطلي بنيران نورمان فنكلشتاين رياض رمزي

لو قَبِضَ لأحد ما سماع دعاء أحد أو مجموعة من مسؤولي دولة إسرائيل كل صباح لسمعهم ولرأى أبصارهم متجهة نحو أميركا، وهم يدعون بالموت على نورمان فنكلشتاين وبأي طريقة سواء بالموت بحادث سيارة أو بسقوط حجات من حائط من الطوب عليه، لأن دولتهم تحت مرمى هجومه المتواصل عليهم. فأقل خدمة تقدمها لهم السماء أن تسرع من نهايته. لأنه، وذلك منطق قوته، يجابه خطابهم ويفككه بمنطق بسيط ومتناسك مثل مدفع يحدث ثغرات في جدار الأعداء. فهو على سبيل المثال يرد على المنطق الإسرائيلي الذي يقول إن الإرهاب عطل حلول السلام التي طرحتها إسرائيل بالقول لكن الإرهاب لم يكن ظاهرة خلقت منذ الأبد كي تعطل مخططاتكم. ماذا فعلتم قبل أن يكون هناك إرهاب لمنظمات فلسطينية راديكالية، وعندما وافق الفلسطينيون على عقد صلح معكم؟. وعندما يقول له المؤيد لإسرائيل أن حماس في وثائقها تطالب بتدمير إسرائيل يرد عليهم بأن العلاقات بين أميركا والاتحاد السوفيتي لم تتأثر بالبيان الشيوعي الذي كان يدعو إلى إزالة الرأسمالية. ليس ذلك فحسب بل هو يحوز على معرفة كاملة بتاريخ فلسطين وجغرافيتها يعز على اختصاصيين متمرسين في هذا المجال الإلمام بهما. إنه البروفيسور نورمان فنكلشتاين اليهودي الذي مات جزء كبير من عائلته في محارق النازيين. بما أنه معصوم من تهمة معاداة السامية فقد قامت ماكينة الدعاية الإسرائيلية باختراع مصطلح اليهودي الكاره لذاته لمجاوبته.

قام هذا المدافع الشجاع عن القضية الفلسطينية بإصدار عدة كتب أحدها بعنوان إسرائيل، فلسطين، لبنان: رحلة أميركي يهودي بحثاً عن الحقيقة والعدالة، الصادر عن دار الآداب ترجمة سماح إدريس. ثم كتاب التماهي في المعرفة. لماذا تشارف العلاقة الحميمة بين اليهود الأميركيين وإسرائيل على نهايتها؟ (شركة المطبوعات للنشر والتوزيع). شق على اللوبي اليهودي وجود منشق بينهم، وخاصة وسط الجامعات الأميركية العريقة في الديمقراطية (كذا)، ينغص عليهم صفوهم فقرروا شن حرب عليه. حيث تم منعه من الحصول على وظيفة دائمة في الجامعات الأميركية عقاباً على مواقفه السياسية.

قام فنكلشتاين أواخر عام 2014 بإصدار كتاب جديد عنوانه الوسيلة والجنون: السبب الخفي وراء الهجوم الإسرائيلي على غزة. دار نشر (O R).

يدرس فنكلشتاين في هذا الكتاب الأسباب التي تقف وراء قيام إسرائيل بشن ثلاث حروب مدمرة على غزة خلال ستة سنوات، تم خلالها تحويل القطاع إلى خرائب ومقبرة كبيرة راح ضحيتها النساء والأطفال، جاعلين من غزة الاقتصاد الوحيد في العالم (كما





نورمان فنكلشتاين



الضفة الغربية، المعتمد كلياً على الخارج، محولين سكانها ومعظمهم من اللاجئين أصلاً إلى لاجئين مرة أخرى في أماكنهم. هذا هو جنون تدمير المدثر حيث يقول: 'إن الجنون يتلخص في جعل سكنة المخيمات دون خيم'. يؤرخ الكاتب هذا الجنون الفعلي على الأرض معتمداً في ذلك على وثائق وبيانات منظمات دولية رسمية وموثوقة تقرير غولدستاين على سبيل المثال). يخلص فنكلشتاين في تحليله إلى تحديد أسلوب ثابت تعتمد إسرائيل في حروبها: استفزاز الفلسطينيين، وإجبارهم على الرد، ثم الرد على الرد بطريقة تصفية الحساب، وبعنف لا تتواءم مع رد الضحية. ما يميز هذه الحروب أنها ردود مباشرة على مبادرات السلام الفلسطينية. لكن ما يميز الحرب الأخيرة (الجرف الصامد) أنها رد مباشر على اتفاق تشكيل حكومة وحدة وطنية بين فتح وحماس، الذي أسقط حجة أساسية في تهزّب إسرائيل من استحقاقات السلام، حينما تدعي غياب طرف يفاوضها على قضايا الحل النهائي وذلك عن طريق اللجوء إلى أسلوب قديم جوهره المصادرة على مطلوب: تحويل الاهتمام عن سياسة قضم الأراضي بتوجيهه نحو منظمة حماس الإرهابية. عندما يحاججه مؤيدو إسرائيل

لكنها قررت تحويلها إلى عبرة، لأن السكوت مرة واحدة سيسمح لذلك الطفل المعاقب الذي أدار وجهه للحائط منذ بداية درس الصراع أن يظهر لامبالاة ستفضي به حتماً إلى تمرد. من الأفضل لمن عاقبه إذن أن يُريه أن للتلمل نتائج وعواقب خيمة ولها تأثير على زيادة عقابه. هكذا فسياسة الردع بحاجة إلى عملية تشحيم متواصلة. حدث ذلك عندما كان الفلسطينيون يواصلون ذلك إسرائيل بمقترحات سلام لم تعد إسرائيل قادرة على تحفل عواقبها. فابتدأت باغتيال أحمد الجعبري ثم أتبعها بحرب عمود السحاب عام 2012. اتبعت إسرائيل هذه الطريقة بقسوة متصاعدة ومطرودة وبطريقة مفادها أن ما سيحدث في المرة المقبلة لم يحدث ما يماثله أبداً وويل لمن يخطر على باله أن يجرب نوايا حامل الخنجر، الذي لم يضعه صاحبه ليكون عرضاً لتسليّة الجمهور، ثم نحن الإسرائيليون لسنا من النوع الذي يحذر: حذار، اذهب وفكر مرتين ثم عُذْ ثانية. ثم إن إسرائيل كانت في كل مرة تنجح في التخلص من الحساب على ما اقترفته بحق الفلسطينيين. أي أنها طريقة لإفهام من يحاول القول بوجود رأي عام يحاول ثنيها عن إنزال العقاب بهم بأنه ليس سوى واهم. فكل اللجان تساقطت تباعاً، فلا جدوى إذن من التعويل على أي من تلك الأوهام. لكن فنكلشتاين قام بتوظيف تقرير غولدستاين وغيره من منظمات حقوق الإنسان بما فيها الإسرائيلية لصالح براهينه على جوهر الدولة العبرية التي أنتهى بأسانيد متعذر دحضها بأنها دولة تميز عنصرى بامتياز. وذلك بالضبط ما يخشاه الإسرائيليون الذين بنوا دولتهم كواحة للديمقراطية وسط منطقة يسودها العسف والعنف. هكذا فما يورده فنكلشتاين من اتهامات هي أشد همومهم شأنًا. فهو يسقط من أيديهم ذلك الادعاء، عندما يقول لهم براهين موثوقة إن صرخاتكم ليست صرخات مظلومين يطالبون بالحق. ثم من هو هذا الذي يجاهر بذلك؟ يهودي من أهل الدار ومن الصنف الذي لم تسمعه أذن ولا وقعت لهم عليه عين فيما مضى، خلا رفيقه اليهودي الآخر العالم الجليل تشومسكي.

كاتب من العراق مقيم في لندن



المختصر كمال بستاني

بارت ناقدًا مسرحيًا

كتابات عن المسرح هي نصوص جمعها وقدم لها جان لو ريفيير، أعيد نشرها في طبعة جديدة بمناسبة الاحتفال بمئوية ميلاد السيميائي الشهير رولان بارت (1915-1980)، الذي أقام حوارًا متصلًا مع الخطابات النظرية والحركات الثقافية على تنوعها، منددا بكل خطاب مكرّس. والمعروف أن بارت كان شغوفًا بالمسرح، كمتفرج وشاهد وناقد ومنشط لمجلة متخصصة، في فترة عرفت بداية تشكل الخطوط الكبرى للمشهد المسرحي الحالي. في هذه النصوص، وهي في مجملها افتتاحيات ومقالات نقدية، نشرها بارت متفرقة بالصحف والمجلات، وتتناول بالنقد والتحليل المسرح الإغريقي القديم، والمسرح البريختي الذي أحدث ثورة عميقة في المسرح الفرنسي، وخاصة مسرحية الأم شجاعة التي عرضت أول مرة بباريس عام 1954، وتلامس جوهر المسرح كما ينبغي أن يكون في علاقته بالذات والكيثونة الاجتماعية.

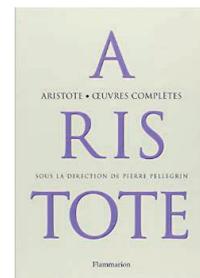
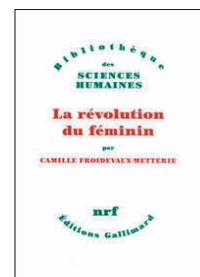
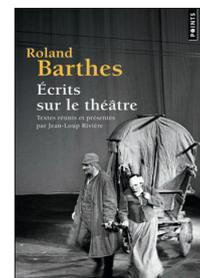
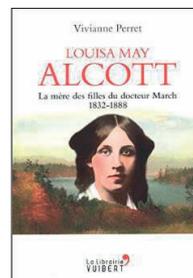
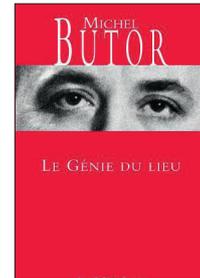
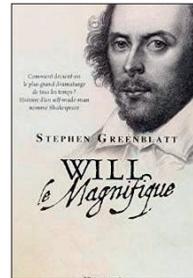
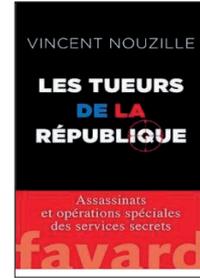
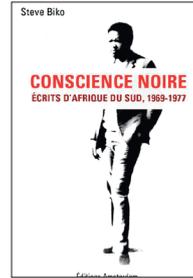
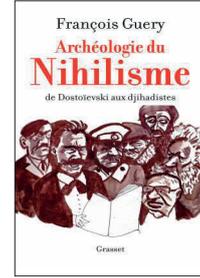
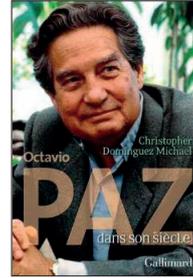
ديانة القرن

في كتابها «عبادة حقوق الإنسان»، تستعرض المؤرخة وعالمة الاجتماع الفرنسية فالنتين زوبر ظروف ظهور إعلان حقوق الإنسان والمواطن في صيف 1789، وتكريسه رمزًا للثوريين في فرنسا وخارجها، قبل أن يصبح أشبه بإنجيل يضم المبادئ المقدسة للجمهورية الفرنسية، وعقيدة لكل تشكيلة سياسية تنشط داخلها.

هذا التقديس في رأيها يطرح مسألة وجود شكل من أشكال الديانة المدنية داخل الجمهورية، رغم علمانيته المعلنة. ذلك أن هذا الإعلان، الذي صيغ في الأشهر الثلاثة الأولى للثورة الفرنسية، تركز على مرّ الأجيال، حتى صار جزءًا لا يتجزأ من التقاليد الجمهورية، منذ 1889 إلى تاريخ الاحتفال بمرور قرنين على اندلاعها عام 1989، كديانة مقدّسة يعيها الجميع، ويعبرون عن انتمائهم إليها، واعتزازهم بها، والإشادة بها في المحافل الدولية، حتى باتت فرنسا تعرف ببلد حقوق الإنسان.

حركات التحرر النسائية

في «ثورة الأنثى» تؤكد كميل فوادفو ميتري أستاذة العلوم السياسية بجامعة رانس، أن الحركة النسائية لم تخلق دينامية المساواة بين الرجل والمرأة فحسب، بل أعادت أيضًا تشكيل عالمنا المشترك، في مسعى لا يزال ساريًا تهجر فيه الأدوار العائلية والوظائف الاجتماعية انتماءها لهذا الجنس أو ذاك. وبصرف النظر عن العراقيل التي تمنع مساواة





التي تحفظ الأسرار. اعتماداً على الوثائق واعترافات شهود، يكشف الكاتب عن الساهرين على عمليات هومو- والمقصود بها قتل البشر، التي تمت تحت سائر رؤساء الجمهورية الخامسة، من ديفول إلى فرانسوا هولاند.

أوكتافيو باث الشاعر الرحالة

بمناسبة إحياء مئوية ميلاد شاعر المكسيك الأول، صدرت الترجمة الفرنسية لكتاب الباحث المكسيكي كريستوفر دومنيث ميخائيل «أكتافيو باث في قرنه» الذي يتوقف فيه مؤلفه عند أهم المراحل التي طبعته صاحب نوبل من موافقه ضد وحشية الجنرال فرانكو وعلاقاته بالارو ونيرودا وأليخو كارينتييه وقصائده مثل «حجر الشمس» التي يحفظها المكسيكيون عن ظهر قلب، و«بين الحجر والزهر» التي تصور بؤس المزارعين المايا، إلى كتابه السجالي «متاهة الوحدة» الذي يجمع بين المقالة الأخلاقية والثقافية، والبحث الأنثروبولوجي والسيرة الذاتية. ليستخلص أن آثار باث أعمال منشطية يفتح بعضها على الآخر، حيث يتقاطع أو يتصادم صوت الصمت وصوت الصخب، الحكمة المجنونة والجنون الحكيم، الهمس الحميم في المخدع وهدير الجماهير في الساحة العامة. «الاستماع لتلك الأصوات إصغاء للزم نفسه». يقول باث، عبر هذه السيرة الذاتية الراقية التي تمكن القارئ من الإنصات لصوت شعري متفرد.

درس في الحياة

لن أمل في الآخرة سيرة ذاتية عميقة للمؤرخ بول فين، المتخصص في العصور القديمة التي أُلّف فيها كتباً قيمة، وصاحب الترجمة الرائعة لإنياذة فرجيليوس عن اللاتينية. هو تأمل في الحياة المعرفية كما عاشها بين عهدين، عهد التعلم وعهد التعليم، قبل أن ينتقل إلى التأليف وترجمة آثار بارزة لعصور ما قبل التاريخ. وفي خلاصة ما جناه من الاطلاع عليها والاستئناس بأعلامها، وحديث عن «مرضه» الذي سبب له شوهة، وانخراطه في الحزب الشيوعي، وعلاقاته ببعض رموز الفكر في فرنسا، ميشيل فوكو مثلاً، ودروسه التي كان يلقيها في الكولاج دو فرانس، وكذلك عن مسرته الوجدانية وهمومه الوجودية. والمعروف أن هذا الكتاب حاز إعجاب القراء لما فيه من علم غزير

المسألة مثل ألبير كامو وأورتيجا إي غاسيه ومقابلهما إرنست يونغر وهرمان راوشينغ، لتسليط الضوء على هذه النظرية الراديكالية، القائمة على الدعوة إلى إبادة الآخر المختلف عرقياً أو إيديولوجياً، كما هو الشأن مع النظم التوتاليتارية كالشيوعية والنازية، والجماعات الإسلامية المتشددة كتنظيم القاعدة وداعش وبوكو حرام، التي لا تملك غير رغبة مجنونة في سفك الدماء وتخريب البيئة وتدمير العمران.

فرنسا وتصفية الخصوم جسدياً

جديد الصحافي فنان نوزيل، كتاب بعنوان «قتلة الجمهورية» يفضح فيه سرا من الأسرار التي تتكتم عليها الدولة الفرنسية، ألا وهو لجوؤها إلى تصفية الخصوم جسدياً، باستعمالها فرق موت خاصة، كما في الأفلام، بدعوى أنهم يشكلون خطراً على مصالحها، أو يهددون أمنها القومي. ولا تقتصر العمليات على التراب الفرنسي وحده، بل تتعداه إلى مناطق نفوذها الواسعة، سواء في الشرق الأوسط، أو في مستعمراتها القديمة بأفريقيا السوداء. وتأتي هذه العمليات في شكل انتقام موجه، أو سلسلة اغتيلات، أو القضاء على زعماء تنظيمات إرهابية، أو إشعال صراعات قبلية وحروب أهلية، أو عمليات يوعز بتنفيذها قصر الإليزي نفسه إلى مجموعة من المرتزقة، أو إلى أعوان من المخابرات الصديقة



“قطرة الذهب.. حيّ باريسى مفاتيحه بيد العرب”، ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى بدأت الهجرة إلى هذا الحيّ، لتزداد بعد الحرب العالمية الثانية من المستعمرات الفرنسية



صارمة بين الجنسين، تسجل الكاتبة ما نشهده من تحول حقيقي على صعيد التاريخ الإنساني، خصوصاً في المجتمعات الغربية، حيث أن التعيينات والوظائف التراتبية ما عادت خاضعة للجنس، بل للكفاءة وحدها. دون أن يعني ذلك تسوية بين مصائر الرجال والنساء، نظراً لإصرار الأفراد على تقديم أنفسهم بوصفهم رجلاً أم نساءً. وخاصة أولئك اللاتي يتزعمن الحركات النسوية المطالبة بحقوق المرأة، بدل حقوق المواطن. وفي رأيها أن المواطنة غير المحددة بجنس، تبدو مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه الوضع البشري.

بوتور والنقد الجغرافي

لميشيل بوتور كتابان في أدب المقالة لا يزالان يحظيان باهتمام النقاد. الأول هو «التعديل» والثاني هو «عقريّة المكان» الذي صدر أول مرة عام 1958 وأعيد طبعه مؤخراً. هذا الكتاب جمع بورتريهات أدبية راقية لسبع مدن متوسطية هي قرطبة وإسطنبول وصالونيك ودلفي ومليّة ومنتوفا وفزارا، إضافة إلى جزء خاص بتأملات وأشعار وطرائف يرويها الكاتب عن مصر، التي أحبها وأقام بها. هي مقالات أدبية بديعة استوحاها الكاتب حول تاريخ المدن التي زارها وآدابها، ويجعل مما سقاه «النقد الجغرافي» عملاً فنياً، مذكراً بأن المدن ليست من معجزات الطبيعة، بل هي تحف بديعة من صنع الإنسان، يشيّدونها بأبوابها ويدمّرها فاتحون، ولكن فيها نحائين أقاموا أصناماً، وكتاباً ألفوا كتباً، وفنانين صاغوا الحانا خالدة. ومن ثمّ لا غرابة أن نلتقي ببورخس في عطفة شارع من شوارع صالونيك، أو ابن رشد في ساحة بقرطبة.

أعداء الإنسانية

يستعرض الفيلسوف الفرنسي فرانسوا غيبي في كتاب «أركيولوجيا العدمية» تاريخ هذا التيار الذي نشأ في روسيا، منذ مقتل الإسكندر الثاني قيصر روسيا عام 1881 إلى ظهور الحركات الجهادية الإسلامية؛ من شياطين دستويفسكي إلى «انقلاب القيم» النيتشوي، ومن «موت الرب» إلى كل المنافحات الإجرامية ذات العنف الذي يمارس كفاءة.

يقدم الكاتب خبايا فكر عدمي ما انفك يضرم النيران في العالم، مستندعياً مفكرين عالجوا



المختصر

منارة اليافعين

المرأة الصغرى: في صيغتها الأصلية أو 'بنات الدكتور مارش الأربع' في ترجمتها الفرنسية هي من أشهر روايات اليافعين، وقد ألفتها في القرن التاسع عشر فتاة أميركية تدعى لويزا مي ألكوت (1832-1888)، وكانت قد أقسمت، حينما كانت صغيرة، أن تصبح مشهورة. فألفت رواية بطلتها فتاة في مثل سنها تدعى جو ولها، مثلها أيضا، ثلاث أخوات هن ميغ وبيث وآمي، صورت فيها حياة أسرة متواضعة خلال شتاء لا ينتهي، زمن الحرب الانفصالية بين الشمال الأميركي وجنوبه، فأعجب بها القراء وتلقفوها وصارت مؤلفتها واسعة الشهرة. في كتاب 'لويزا مي ألكوت' تسرد الفرنسية فيفيان فيري سيرة هذا الكاتبة وتعرفنا على إخوتها وأبيها الذي كان يدعو إلى إلغاء العبودية والمساواة بين الجنسين، مثلما كان ينادي بتطوير التعليم حيث يقول: 'لا نريد مدارس لتعليم المعارف فحسب، وإنما لتنمية النبوغ، المكمل للروح'.

ضمير الشعب الأسود

ست وثلاثون سنة مرت على صدور كتابات ستيف بيكو، المثقف والمناضل الجنوب أفريقي الذي قتله البوليس عام 1977، وهو في سن الحادية والثلاثين، قبل أن يترجم إلى الفرنسية ويصدر عن دار نشر صغرى هي أمستردام. يحوي الكتاب نصوصا تعكس ذكاء سياسيا عجيبا، وصاحبها لا يكتفي بنقد العنف والعنصرية والاستغلال، بل يحلل تلك الظواهر بكثير من الدقة وقدر كبير من التمرس بواقع الحال، وهذا ليس غريبا على من كان منظر حركة الضمير الأسود والناطق باسمها، وهي حركة كان لها تأثير قوي على الطلبة، تحدد نفسها كحالة فكر ونمط عيش. في نصوصه هذه يندد بيكو بمن يتشبهه بالبيض 'في محاولتهم التنصل مما هم عليه وتقليدهم الرجل الأبيض، يكفر السود على حكمة من خلقهم كذلك'. لذلك عاش ينادي بفقهاء أسود يخالف 'قيم البيض الخاطئة'. الكتاب وثيقة هامة لأيقونة نضال السود ضد سياسة الميز العنصري، حيثما كان.

كاتب من لبنان مقيم في ليدز-بريطانيا

وثقافة عميقة وصدق في البوح حتى بالأشياء الحميمية، مصوغة بلغة واضحة وأسلوب سلس، وتوّج بجائزة فيميننا لهذا العام.

عبري اللغة الإنكليزية

'ويل الرائع' هو كتاب للأميركي ستيفن غرينبلات، أستاذ الأدب بجامعة هارفرد، صاحب نظرية التاريخ الجديد، التي ترى أن الأثر ينبغي تحليله على ضوء زمنه والظروف التي هيأت لخلقه. يحاول من خلاله أن يرصد سيرة وليم شكسبير من خلال الوثائق النادرة التي تركها، مثل وثيقة ميلاد، ووصية مسجلة لدى أحد العدول، وقوائم ممثلين، وبورتريهات بعض الشخصيات الحقيقية أو المتخيلة. والكاتب إذ يحمل القارئ إلى لندن في العصر الوسيط وصخب شوارعها وعنف سكانها في شكل مشاهد وفصول طريفة، يتعقب المعنى في أشعار شكسبير، كالسونيئات التي يعتبرها 'صناديق أسرار رائعة'، ولكن ضالته يجدها في مسرحياته، حيث يقبل على الدراما التاريخية، تراجيدية كانت أم كوميدية، يحللها ويبين علاقتها بسيرة شكسبير وأهله وذوي قرابته، ليكتشف الإنسان الذي أُلّف الآثار الأكثر أهمية في القرون العشرة الأخيرة.

المعلم أرسطو

عن دار فلانماريون، صدرت طبعة جديدة من الأعمال الكاملة للمعلم أرسطو، تحت إشراف بيير بيليجران. هذا الفيلسوف الذي لم يوجد كفؤا له - باستثناء سقراط ربما - في تأثيره في تاريخ الفكر الإنساني كافة، وقد اعترف بمكانته فلاسفة من شتى الحضارات ومن مختلف العصور، من الفارابي وابن رشد العربيين إلى ابن ميمون اليهودي. ومن توما الإقوييني الذي يعنقه 'الفيلسوف بامتياز' ودانتي الذي يعدّه 'سيد جميع العارفين' إلى هيغل الذي أخذ عنه الميتافيزيقا وهايدغر الذي اعتبر فيزيقا أرسطو الكتاب الأساس في الفلسفة الغربية. حتى الفلاسفة المحدثون من آنا أرنوت والأسدير ماكنثير إلى ريمي براغ ومارتا نوسوم يقرون بفضلهم عليهم. في تقديمه للأعمال يرى بيليجران أن أرسطو متقدم على الحداثيين، فالمنطق عنده لم يقطع مع الجينولوجي، والعقلانية لا تعرقها الحيوانية، والثقافة لا تتعارض مع الطبيعة.



محمود حامد



أناتيد أميركية سوداء

تحسين الخطيب

حياته وعن فهم سرديات العالم التي تحدث من حوله. ومثلما نظر النقاد إلى فيلم ماركر بوصفه مقالة تجريبية من أفكار ومشاهد، تخلط السرد بالصور، حيث نرى المرأة الساردة تقرأ رسائل مفترضة، أرسلتها إليها امرأة أخرى متخيلة؛ فإن رانكين، وعلى غرار ساردة فيلم ماركر، تقرأ رسائلها على نفسها، ممعنة في المخيلة والذاكرة، خالطة السرد بالصور.

في حوار أجرته معها ألكساندرا شوارتز (مجلة نيويورك، عدد 22 أغسطس 2014)، قالت رانكين إنها بدأت العمل على كتابها هذا كوسيلة للحديث عن العنصرية المحتجة، أو غير المرئية؛ عن تلك اللحظات التي نخبرها، والتي تحدث بسرعة فائقة. تلك اللحظات التي تضي بسرعة البرق، فنبداً بالشك والارتباك إن كانت قد حدثت فعلاً، ولكننا، على الرغم من ذلك، نشعر بالضيق على نحو ما. ثم تقول إن زوجها كان من أشد المعجبين بتايغر وودز، ولاغب الغولف الأميركي الأسود ذائع الصيت، فوجدت نفسها تتابع جميع مبارياته. وبما أنها من أشد المعجبات بالأختين وليامز، لاعتبت التنس السوداوين الشهيرتين، أخذت تشاهد مباريات التنس. ثم بدأت ترى تلك اللحظات الصغيرة الكثيرة، والتي تواصل الحدوث مراراً وتكراراً، سواء في بطولة الولايات المتحدة المفتوحة للتنس، أو في البطولات العالمية الكبرى الأخرى. شعرت في قرارة نفسها برغبة في توثيق تلك اللحظات. وحين بدأت في توثيق تلك اللحظات الصغيرة في حياتي الأختين وليامز، شرعت في توثيق اللحظات الصغيرة التي في حياتها هي. ثم شرعت في إجراء مقابلات مع الناس، سائلة إياهم أن يقصوا عليها قصصاً عن حيواتهم، وكانت تطلب من أصدقائها، ومن الذين تقابلهم، أن يخبروها عن اللحظات التي يشعرون فيها، وعلى نحو مباغت، بأنهم محتجبون أو غير منظورين، أو مشوشون ومضطربون داخلياً، جراء شيء ما حصل لهم في لحظة ما، فجعلهم يفسرون هذا التصرف بوصفه عنصرياً.

ولكنها طلبت منهم الحديث فقط عن تلك التصرفات التي حدثت بينهم وبين أصدقائهم، وليس مع الغرباء. لم تكن رانكين تكثر كثيراً بما يفعله أولئك الناس في حيواتهم العادية اليومية، ضمن ذلك السياق، ثم، وحين بدأ الناس يسردون عليها حكاياتهم، بدأت تشعر بأن تلك الأشياء التي يتحدثون عنها، هي أشياء تحدث لها، في حياتها الخاصة اليومية، وفي كل مكان، فراحت تدون تلك اللحظات، وتلك الأحداث. هكذا ولدت فكرة الكتاب. من أعمال الآخرين في ذاكرتهم. ومن أعمالها هي في ذاكرتها.

كاتب و مترجم من فلسطين مقيم في الأردن

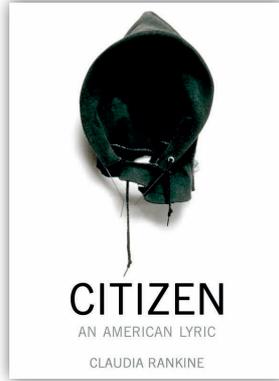
لم تكن مفاجأة، بالنسبة إلى قراء الشعر، أن يفوز كتاب "مواطن: أنشودة أميركية"، للشاعرة الأميركية السوداء كلوديا رانكين، بجائزة حلقة نقاد الكتاب القومي المرموقة، والتي أعلنت في مساء الثاني عشر من آذار، مارس 2015، وعن فئة الشعر والتقد على حد سواء. وهي سابقة، تحدث لأول مرة، في تاريخ الجوائز الأدبية التي تمنح في أميركا. ليست مفاجأة، لأن كتاب رانكين، ومنذ صدوره في شهر أكتوبر من هذا العام، وهو يتصدر العناوين، والمراجعات النقدية، ولا يكف عن تحريك المياه الراكدة في الحياة الثقافية الأميركية. ليس من جهة موضوعته الجريئة فحسب، وإنما من جهة شكله وبنيته المراوغة أيضاً.

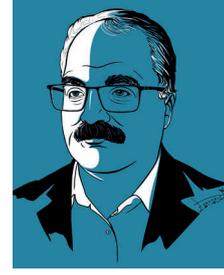
فالكاتب، من جهة موضوعته، استقصاء للطرائق التي سادت فيها العنصرية في الحياة الاجتماعية الأميركية اليومية، وفي حياتها الثقافية والإعلامية أيضاً، في بدايات القرن الحادي والعشرين. إنه أنشودة عن العدالة والحريّة، في زمن تخيم عليه أوهام العدالة والحريّة. كتاب عن المنفى الداخلي للإنسان الأسود، وعن غربته في وطنه. عن كونه يعيش "في الخارج"، وليس "في الداخل". فوجود المرء في مكان ما، لا يعني، بالضرورة، وفقاً لرانكين نفسها، بأنه موجود في ذلك المكان فعلاً. إنه أنشودة عن الإحساس بالانفصال عن المكان، بالرغم من المكوث فيه. عن التشطي، وعن المعنى العميق للهوية؛ للزوجة في تعدد أحوالها ومقاماتها، وعن النزوع إلى الانتماء، حتى ولو كان هذا الانتماء، بحسب رانكين، مرة أخرى، يسحقنا بضربته القاضية.

وأما من جهة شكله وأسلوب بنائه، فهو قصيدة طويلة تزواج بين الشعر والنثر والصور الفوتوغرافية والتركيبيّة في توليفة واحدة جعلت من مسألة تصنيف الكتاب، في شكل أدبي أو كتابي محدّد، مسألة يكتنفها الحذر الشديد. وصفت صحيفة لوس أنجيليس تايمز الكتاب "بالعصي على الوصف"، ثم استطردت قائلة: "ويكفي القول إن هذه القصيدة التي تقرأ كمقالة (أو بالعكس) هي قطعة

كتابية تجترح شكلاً جديداً لنفسها، دامجة الصور والشعارات والتعليق الاجتماعي والبوح والتجليات الثاقبة والشجيرة كي تستحضر نقطة التقاطع بين الحياة الداخلية والحياة الخارجية".

تفتتح رانكين كتابها بالجملة التالية: "إن لم يستطيعوا رؤية السعادة في الصورة، فإنهم سوف يستطيعون، على الأقل، رؤية السود". وهي جملة مقتبسة من فيلم "بدون شمس"، وهو وثائقي فرنسي، أخرجه كريس ماركر في العام 1983. ولا غرابة في ذلك، ففيلم ماركر هو، في حد ذاته، مثلما في جوهر كتاب رانكين، تأمل في طبيعة الذاكرة البشرية، وكيف، عند استحالة استعادة الذاكرة وفروقتها الدقيقة، يعجز الإنسان عن إدراك





هيثم الزبيدي

عقول سطحية لا تستطيع التركيز

الصحف. قبل سنوات كان من النادر أن ترى وجوه المسافرين في عربة قطار. الكل غارق في صفحة جريدة أو صفحات كتاب. الآن تراهم يتبسمون إلى هواتفهم.

في العالم العربي كانت مشكلة الكتاب أخطر. لم يمزّ العرب بمرحلة القراءة الشعبية واسعة الانتشار بالأصل لأسباب مادية في الدرجة الأولى. الخبز أهم من الكتب. الآن عبروا إلى صفحات الهاتف الذكي مباشرة. الكتاب كان حالة وجود عارضة في دول عربية غارقة في همومها السياسية والحياتية أو ألهائها عنه الترف.

الشبكات الاجتماعية لم تساعد كثيرا. صفحات الفيسبوك مليئة بالكثير من الغث والقليل من السمين. حجم القال والقليل والنكات والترهات والأدعية والتحريض هو حجم استثنائي على صفحات الكثيرين. تأتي بعد هذا الأخبار والصور. أما المعارف والكتب والمقالات العميقة فتكاد تكون مختفية.

محدودية التوقف عند الأفكار والمعلومات التي يتم تداولها عبر الوسائط المتعددة هو ما يجعل الانتقائية العشوائية والمتطرفة هي السائدة. مع قلة الفهم، يتمترس الانسان بتريديد المؤلف واتباع السائد. يعيد تريديد الأفاويل الساذجة أو يقوم بـ'ريبتويت' لتغريدة متوترة على تويتر. ينتهي الأمر لديه عند حدود الفهم هذه وهو ما يجعل بيئة التطرف، السياسي والاجتماعي، الديني والعلماني على حد سواء، هي السائدة.

من دون فهم تنكسر معادلة مهمة. إنها معادلة بسيطة لتشكيل الفهم: بيانات ثم معلومات ثم معرفة ثم حكمة.

هناك كم كبير جدا من البيانات. عملية تصنيف هذه البيانات تحولها إلى معلومات. نستنتج من تراكم المعلومات إلى ما يسمى بالمعرفة وهي ما يؤطر حياة البشر ويجعلهم قادرين على العيش واتخاذ القرارات الصحيحة. تجارب المعرفة الطويلة والعميقة تقود إلى الحكمة.

الفوضى الفكرية والنفسية التي تعيشها شعوب الأرض اليوم، وليست شعوبنا فقط، في الأساس هي نتيجة لتكسير هذه المعادلة. القفز بين أطراف المعادلة من دون تريث هو ما يقود إلى هذه الفوضى. اختلاط أطرافها هو ما يعرقل الوصول إلى الاستنتاجات الصحيحة.

كل أجهزة الكمبيوتر والهواتف الذكية والفضائيات في العالم لن تستطيع تغيير قدرة وصول العقل السطحي إلى فهم صحيح طالما بقيت المقاربة قاصرة ■

تحتاج أن تكون مهما أو مثيرا للاهتمام لكي تتمكن من الإبقاء على تركيز من حولك. أي شيء أقل من هذا سيدفعهم إلى أن ينظروا إلى شاشات هواتفهم الذكية. هم معك جسديا ولكنهم بعيدون بعقولهم في العالم الافتراضي الذي صار حقيقة بفضل الإنترنت.

لا عيب في هذا. ليست مشكلتهم أنك أقل أهمية مما تعتقد أو أن شيئا ما يحدث في مكان بعيد يسترعي الانتباه أكثر مما تقوله. لكن ثمة مشكلة من نوع ثان تفرض نفسها علينا.

لا يستطيع الكثير منا التركيز على الأفكار كما كنا نفعل قبل عشرة أعوام أو عشرين عاما. ثمة تشويش كبير يحيط بالمدى الذهني للفرد اليوم يمنعه من التأمل في الأشياء. وفرة المعلومات وسرعة تواترها تمنعان التركيز في معانيها. ثمة تشييع حقيقي يجعل من الطبيعي أن يزيح أحدا ما في ذهنه أو جزءا منه، ربما كل ساعة أو ساعتين، ليفسح مجالا للقدام الوفير والمتجدد.

هذه الغزارة السطحية التي توفرها الوسائط المتعددة من تلفزيون وموبايل وكمبيوتر، مريعة. ما عاد ضروريا الفهم بقدر ما صار مهما القدرة على استرجاع المعلومات وقت الحاجة إليها. بوجود غوغل، من يريد أن يزحم مخه بكل هذه التفاصيل؟

إلى جانب ذلك، هناك سطحية من نوع آخر. تقنية المعلومات لا تجعلنا نعتمد على ما تقدمه إلينا الإنترنت ومكائن البحث، بل نتحشا، من دون وعي، نحو عدم التوقف عندها أو التمعن فيها. ما إن تطلب معلومة حتى تقلبها بسرعة كبيرة وتملّ منها وتذهب إلى غيرها. تقنية حركة الأصابع على شاشات الكمبيوترات اللوحية أو الهواتف الذكية، جعلت الأمر أسهل، بل وأكثر استخفافا. أنت تقلب الصفحات بكل احتقار ولا تتوقف عند الكثير منها. ربما تسترعي انتباهك صورة، ولكن حتى الصور لا تجد من يتأملها كثيرا. هناك الملايين غيرها تنتظر دورها.

انظر ما يحدث كذلك بعلاقتنا بالريموت كونترول والفضائيات الكثيرة. مشهد تقلب القنوات هو مشهد مألوف. نداء أن 'توقف قليلا لنسمع أو نرى ما يحدث' مألوف أيضا ويوجهه كثير منا لبعضهم البعض. ذهب زمن الاستئذان لتبديل المشاهدة بين قناتين أرضيتين وحيدتين على تلفزيون الأمس القريب.

مشهد القارئ الذي يغوص في صفحات الكتاب صار نادرا أيضا. الغرب يعاني من هذه المشكلة، وبدأ الكتاب يختفي من أيدي المسافرين في القطارات والحافلات، بعد أن كان لازمة ضرورية. سبقته إلى الاختفاء